

حرب النهر

تاريخ الثورة المهدية

تأليف: سيرونستون تشرشل

ترجمة: عز الدين محمود



الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة:

د. سمير سرحان

رئيس التحرير:

د. عبد العظيم رمضان

مديرا التحرير:

محمود الجزار

د. أميل فهمي

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



حرب النهر

تاريخ الثورة المهدية

تأليف: سيرونستون تشرشل

ترجمة: عز الدين محمود

مراجعة وتصحيح

الأستاذ/ يوسف حسن



المكتبة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٢

الطبعة الأولى: ١٩٩٩م - ١٤٢٠هـ

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذه الترجمة لكتاب ونستون تشرشل «حرب النهر» الذي يؤرخ للثورة المهدية، ومعركة أم درمان والاحتلال الإنجليزي لمصر، واتفاقية الحكم الثنائي للسودان. وقد قام بترجمته الأستاذ عز الدين محمود، وهو حفيد القائد السوداني الأمير ود أرياب، ترجمة ممتازة تشهد بتفوقه في اللغة العربية.

ويطبعة الحال فإن الكتاب يقدم رؤية السيامي الشهير ونستون تشرشل، تلك الفترة الصاخبة في حياة وادي النيل، وهي رؤية مطلوبة لفهم سياسة بريطانيا. وإن كان يحدد للكاتب موضوعيته في كثير من الأحداث، وعدم إخفائه نوايا بريطانيا الاستعمارية في السيطرة على وادي النيل.

وسوف يدهش القارئ حين يعرف من قراءة هذا الكتاب أن فهم تشرشل للعلاقة بين مصر والسودان أفضل بكثير من فهم أبناء البلدين لها.

فقد شبه ارتباط السودان بمصر بارتباط الغواص بأنبوبة الأكسجين، لا حياة له بدونها! ولكن ها نحن اليوم نرى السودان منفصلا عن مصر! بل نرى العلاقات بينهما تتعرض لأزمات وأزمات! كما شبه العلاقة بين السودان ومصر بعلاقة جذور شجرة النخيل بالساق. كل منهما مكمل للآخر، ولا غنى لأحدهما عن الآخر!

والكتاب يحتوي على ثروة من المعلومات التاريخية المثيرة، فهو يؤرخ للثورة المهدية والتصاراتها وهزائمها. ويتكون من تسعة عشر فصلا، الفصل الأول بعنوان: ثورة المهدي، والثاني بعنوان: «مسير المبعوث»! أما الفصل الثالث فهو بعنوان: امبراطورية الدراويش. والرابع: «سنوات التحضير». والخامس: «بداية الحرب». والسادس: «حركة ٧ يونيو ١٨٩٦». والسابع: «استعادة مديرية دنقلا». والثامن: «سكك حديد الصحراء». والتاسع: «أبو حمد». والعاشر: «بربر». والحادي عشر: «الاستطلاع». والثاني عشر: «معارك نهر عطبرة ٨ أبريل ١٨٩٨». والثالث عشر:

«الزحف الكبير». والرابع عشر: «معارك أول سبتمبر».
والخامس عشر: «معركة أم درمان». والسادس عشر: «سقوط
المدينة». والسابع عشر: «حادثة قاشوة». والثامن عشر:
«على النيل الأزرق». والتاسع عشر: «نهاية الخليفة».

والكتاب على هذا النحو يؤرخ للثورة المهدية بلسان سياسي
استعماري قديم هو ونستون تشرشل، وبالتالي فعلى القارئ
الكريم أن يضع هذا العامل في اعتباره وهو يتابع أحداث الثورة
المهدية، فالكتاب رؤية تاريخية إنجليزية أكثر منه تاريخاً
محايداً، ولكن ما يحويه من ثروة في المعلومات التاريخية يجعله
من أهم الكتب التي صدرت عن الثورة المهدية.

والله الموفق..

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

الإهداء

الى روح جنسى قطاهرة " بنت الأمير " خديجة بنت محمد
لصمد ودارباب، والى روح ولدها الأمير " ودارباب " من عرب
الكنجارية فى غرب السودان أمير المهدية فى القلايت على حدود
السودان الشرقية مع الحبشة ، الذى جاء ذكره فى الكتاب ، والى
أرواح أبطال الثورة المهدية جميعهم ، الذين روت دماؤهم للذكىة
كل شهر من ثراب السودان فى بسالة وشجاعة نادرة ، حصلت
إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء. رحمهم الله وجعل الجنة مثواهم.

عز الدين محمود



الأمام محمد أحمد المهدي

تقديم

نشكر الله العلي العظيم الذي أعانني على إتمام هذا العمل الوطني الهام .
أبدر فالمر أن المنهج الذي تتبعته في الترجمة هو أن تكون أمينا في نقل وجهات النظر
و الأفكار والأحكام كما جاءت على لسان المؤلف ، بنص النظر عن رأيي الشخصي .
بل في كثير من المؤلف أجدني غير متفق معه في بعض الآراء والأحكام و التشدد
لدرجة لاهل ، وطرح قضائيا من وجهة النظر الاستعمارية البحتة . إن دوري هو نقل
وجهات النظر الخاصة بالمؤلف ، وكل ما جاء في الكتاب على مسؤوليته هو وحده .

ثلاثة أسباب دفعتني لترجمة هذا الكتاب : -

الأول : أن كتاب " حرب النهر " هو الكتاب الثاني لمؤلفه ونستون تشرشل ، وقد لقي
قبولا عظيما وأسهم في إرساء قواعد شهرته ، ووضعه في مصاف أعظم كتائب الأدب .
وقد حرصت على ترجمته لمصلحة قراء الحرية في السودان و البلاد العربية وغيرها
لقد اخطى بأن الكثيرون يحدون مشقة في الحصول على الكتاب أو الاطلاع عليه في لغته
الأصلية .

" يحتوي الكتاب على أحداث صريحة ومفردة عن دوليا بريطانيا على لسان تشرشل
الذي أصبح أحد دهان السياسة الاستعمارية البريطانية " كما يتناول الكتاب عدة قضايا
مهمة شملت أذهان المثقفين العرب كثيرا وأهمها : كيف حكم كرومر مصر بعد من جديد
" إعادة احتلال السودان ليكون تلما في إنجلترا أكثر منه في مصر " اتفاقية السودان
التي سلبت كل سلطات مصر في السودان ، الحق الوحيد هو رفع العلم المصري " .
وضعت كل الأمور في يد الحاكم العام البريطاني للسودان " ويعترف الكتاب بأن خطط
السيطرة على منابع المياه القصبية لسلطة التي تترك كل العرب الآن قد وضعتها
بريطانيا منذ أكثر من ثلاثمائة سنة 11 " يجار حملة مارشال الفرنسية على الجلاء من
فاشودة في أعالي النيل أو العرب ضد فرنسا " ثبت القويح تكايف سياسة الهيمنة هذه
" حظر استيراد الصحف والمجلات والكتب المصرية الى السودان " يجار المصريون
على الجلاء عن السودان عام 1924 بعد مقتل مير "ي إيتك" في القاهرة 11 " جعل
الجنوب منطقة مقفونة للشماليين ومفتوحة لتجار الإغريق ، الأرمن والهنود " تشجيع
الإزماليات التبشيرية .

الثاني : لإصباحي بقدرات الكتاب الأجيال وأسلوبه القوي، وحرصه على تمكين القارئ العربي من قراءة كتاب يعبر دوة في جبين الأدب الإنجليزي. و بنفسه أيضا إهداء المكتبة العربية و جلاء فراغ كبير في هذا المجال ، مجال التاريخ و الأدب، خلاصة أن الكتاب يدرج لفترة مهمة من تاريخ وادي النيل. يدرج الثورة المهدية منذ حضور المهدي للخرطوم من دنقلا وهو صبي، وشكله البدني، والتصاريف الثورية المذهبة في الجزيرة آبا ، شيكان ، الأبيض ، الخرطوم والقلبات ، وحتى نهاية حكم المهدي. حركة ثم درمان إلى اتفاقية الحكم الثنائي للسودان، وتحديد حدود و دور كل دولة . نلاحظ دون أن يغفل ثورة عربي، الاحتلال البريطاني لمصر ، نظام النفوذ الفرنسي بمصر، نشاط النوردي كرومر ، الزبير رحمة، مقتل فرنون ، عثمان دنقة ومعارك الشرق إلى آخره .

والفواصل التي أوردتها الكتاب هي بكل المقاييس ثروة من المعلومات القيمة، التي يمكن أن يجدها القارئ بين ضفتي هذا الكتاب، وسيجب أيضا أن نلاحظ أن هذا لا يكتفى من المؤلف ولم يخف إصباحه الشديد بشجاعة المقال السوداني .

الثالث : سبب شخصي لأذكرى حليلة ، حتما أوقفت لبحثي لأول لها: " لثري، إن إشارة إليه ظهرت في الكتاب " بمجرد أن وجدت ذكرى الأمير ود أرباب في هذا الكتاب " حرب السير " قد أضاعه الكتاب وأضاع إسماء " بالتفاد الباسل " . أن بعض المؤرخين تلك الفترة يبدلون " بلبي صفة " و " الزاكي طم " دون الرجوع لفترة السابقة أو السؤال : لماذا ذهب هؤلاء إلى هناك أصلا ؟ من أضافه أيضا أمد الحاج عبد الله ، حفيد (م) صر على مطر والفلسف عبد الكريم الكلي .

ولا أعتقد أن ما ورد في هذا الكتاب مسطمت لا تقبل الجدل أو النقاش سوف يظل الباب مفتوحا لكل ذي رأي مخالف للمؤلف أو مؤرخ يريد أن يجمع بعض المعلومات ووضع الأمور في إطارها الصحيح ، بعيد عن الغرض. حسي أن يسهم هذا العمل المتواضع في إعطاء الفرصة لكل من يهمه الشأن السوداني أن يدلي بطلوه، وأن يكون فاتحة لمشروعات عديدة تسهم في التعرف بتاريخنا المجيد وتساعد في إرساء قواعد المستقبل الواعد ببلان الله .

عز الدين محمود

• بالرغم من احترامي لحق المؤلف الكامل في التعبير عن آرائه بالطريقة التي يراها تحقق ما يرمي اليه أو تحكمه الحكمة أو خدمة النص، إلا أنني قد علمت كثيراً، قد كباني الالتزام الذي أعلنته ، للتفهد بالمنهج، مع عرض آراء المؤلف دون تدخل أو تعارض، حتى لا نخلق كتاباً داخل الكتاب، فهذه مهمة الدارسين والكتاب .

• علمت كثيراً، ولا أعرف كم عدد اللحظات التي كنت فيها أجم على السطور والكلمات بكلتا يدي، خاصة عبارات التشفي والسخرية، فالمؤلف يمر مرور الكرام على التصارات المهدية ، ويصف التصارات الغزاة في إسهاب شديد .

• سوف يندش القارئ لفهم ونسئون نشرشل لخصوصية العلاقة بين السودان ومصر، وقد عبر عنها بأبلغ تعبير، عندما قال "يرتبط السودان بمصر كارتباط الفواص بالبيوية الأكسجين، بدونها لا شيء سوي الاختلاق"، أو عندما قال "إذا نظر القارئ لخارطة النيل سوف يلاحظ على الفور وجه التشبه الكبير بين شكل النيل وشجرة النخيل ، في أعلى الشكل تمثل الأرض الخضراء للخصبه الدلتا ، الفروع والأوراق الخضراء تهفف في كبرياء، الجذع في لحنائه، النيل أيضا ينحلي لعناءة جبارة عبر الصحراء ، جنوب الخرطوم تكتمل أوجه التشبه حيث تمتد جنور النخلة داخل السودان بعمق. إذا كان السودان جزءا مكمل لمصر فإن مصر لا تقل أهمية لتتمة السودان، مساهمي فسلقة الجذور والتربة الغنية إذا ما قطعت الساق فهي ضرورية لانتشار العطر في الأجواء ؟.

♦ إشرافنا تحسب لتشرشل: عدله ، وإيمانه للرجال الصناديد الشجعان ،
الذين قتلوا بشرف، واستشهدوا بشرف ، لقد كانت هذه البطولات هي
مصدر القوة والأجحة التي حملتني لأخلق في القضاء ، بكل العزة
والفخر لأعلن " أن هؤلاء القوم هم أهلي أو " ديل أهلي " كما نقول في
السودان .

♦ شكر وحرمان

لشكر الزعيم السوداني السيد الصادق المهدي على ملاحظاته القيمة
وحمايته وتشجيعه لهذا المجهود. ولشكر مؤصول الكاتب الكبير مولانا
الأستاذ/ يوسف حسن لمجهودته الكبير في مراجعة وتصحيح هذا العمل
فلهما الشكر وعظيم الامتنان والتقدير.

عز الدين محمود



المؤلف " ونستون تشرشل "

ولد المؤلف في عام ١٨٧٤م، تعلم في هارو وكلية ساند هيرست العسكرية ، انضم للفرقة الأتسرز ٢١ (الرماحة) في السودان حسب تربيته مع " المورنج بومست " فتخيب مثلاً لحزب المحافظين من دائرة "لوند هام " ولكنه سرعان ما انضم إلى حزب الأحرار وأصبح رئيساً لإدارة التجارة . كان وزيراً للدخالية ثم النورد الأول لسلح البحرية . استقال بعد أحداث "الدرديل" . استمر في نشاطه البرلماني وأصبح وزيراً لشؤون الهندية ، وأصبح مسكراً للحريية والفسيرين ، ثم مسكراً للمستعمرات . ثم عاد وانضم لحزب المحافظين وأصبح وزيراً للخزانة .

عند قيام الحرب العالمية الثالثة رجع للبحرية كلورد أول . عين رئيساً للوزراء في الحكومة الائتلافية ، وكون مجلس حرب واحتفظ لنفسه بوظيفة وزير الدفاع . قاد الشعب البريطاني في أهم الأوقات حتى هيار ألمانيا . عندما هزم في انتخابات ١٩٤٥ أصبح زعيماً للمعارضة ، ثم أصبح رئيساً للوزراء مرة أخرى في الفترة من عام ١٩٥١ إلى ١٩٥٥ . حصل تشرشل على جائزة نوبل للآداب في عام ١٩٥٣ . توفي في عام ١٩٦٥ .

" حرب النهر " - السودان ١٨٩٨

سير ونستون تشرشل

ترجمة عز الدين محمود

مقدمة بقلم سير جون كولفيل

يعد كتاب " حرب النهر " ثاني كتاب يؤلفه ونستون تشرشل ، كتيبه وعصره خمسة وعشرون عاماً ، استقبل الكتاب استقبالاً رائعاً ، وأسهم في إرساء قواعد شهرته كمؤلف . إذ لم تشأ للقادير أن تقي الفرصة لى ونستون تشرشل ليشترك في المحرم مع غرفة " الثلاثين ٢١ " في معركة أم درمان ، فإن قصة هذه العملية التي دبرت بإتقان وثقان شليدين ، والتي أدت الى هزيمة إمبراطورية الدرويش في السودان ، كان يمكن أن يطويها النسيان ، ولم يكن هناك ممن يهتموا كضباط تحت إمرة " كشنر " من هو أكثر قدرة على تسجيل الأحداث أو يمكنه أن ينافس تشرشل في مقدرته ككاتب ، أو أن يتل ما ناله من شهرة لاحقة .

وقد وصل تشرشل السودان بعد وساطة والدته السيدة " راتولوف تشرشل " التي استعانت أولاً بتوصية من أمير ويلز وريس الوزراء (لورد سالزبوري) وللقائد العام ، كانت هذه التوصيات لازمة حتى يفتح " كشنر " الذي دائماً ما يطرح تكليف الشباب بالمهام الكبيرة - على السماح لتشرشل بمراقبة الحملة .

لعله من الغريب جداً أن يلجأ شخص مثل تلك الوساطة لكي يُسمع له بالاشتراك في معركة معرضاً حياته للخطر ، لأنه مهما بلغت قيمة الكعب الشخصي فإنه لا يبرر مثل هذا التصرف . إلا أن تشرشل كان له طموح آخر بالإضافة للمعلوه العسكري ، إذ أراد أن يسجل الأحداث للصحف ، وعندما كان هذا الأمر محرماً على أي ضابط للتظامي فقد أرسل أخبار المعارك بالجريدة " للونينج بوست " تحت اسم مستعار ، وبطريقة سرية .

كانت هذه للتابعات ، ونشر الكتاب الذي اعتمد فيه على تلك الرسائل الصحفية أثره في زيادة غضب وغيظ كشنر . ولكنها أسهمت في خلق كسر أدبي . وهذا هو المهم .

إن وصف الكاتب لتفاصيل التحضير للمعركة النهائية أمام جدران مدينة الخليفة الحصينة في أم درمان ، ليعرق وصفه للمعركة النهائية ذلها ، بالرغم من أنه اشترك شخصياً فيها

إن وصفه الحقيقي يترك القارئ على يقين بأن تشرشل مدين للكاتبين
"جيبون" و"ماكاولي" ويحصل كيف أنه كان يقضي العمارى وهو في عظمة الفرقة الرابعة
"موسار" في الهند في قراة واستيعاب ما كتبته إن هناك قرات في كتابه، حتى جيبون
وماكاولي كانوا سيكونان فخورين بما.

إن أول انهيار لنا يتنزل في وصفه للمعجزة التي حققها حكم اللورد كرومر الواعى
للمصر. ففي عهده انتهى عصر الفساد وعدم الاهتمام ، وتحول الجندي المصرى الى جندي
مقاتل وقوة ضاربة وفعالة في أقل من عشر سنوات ، وكذلك كان الحال بالنسبة للقوات
السودانية القديمة بين صفوف الجيش المصرى ، فقد كان كرومر شخصاً مصححاً مهتماً
للمعلومات بالنسبة لتشرشل ، وقد مده بمعلومات قيمة في هذا المجال ساعدته كثيراً في
وصف ورصد هذا الإنجاز الكبير .

مطار الدخنة الثانية فكان للفترة والقوة التي بين ما عطا سكة حديد حمر مئات الأميال
من رمال الصحراء ، هذا الخط الحديدي الذي تولاه لما كان بإمكانه كمشتر أن ينجح . ولا
يمكننا إغفال نجاح سلاح البحرية الملكي وإسبر فرغم العنوب على إحضار مراكب حاملة
للمدافع الى النيل، بجميع أجزائها داخل السودان بعد إحضارها قطعة قطعة من
بريطانيا: "ملككة" ثم المرور بما بعد تركيبها حمر موانع النيل الشرسمة كالتشاللات للعروسة
"الكراكت" .

إن تشرشل لم يترك أى فرصة أو مناسبة دون الإطراء للسميح للجيش المصرى
الإنجليزى / السودان ، وهم يقدمون جنوباً في أوحال الرمال يحملين بالون والعتاد الحربي .
كل ذلك في قيظ حار مستوف القوي، مع قلة المياه في أغلب الأحيان ، ومع تعرضهم
للمس في أماكن أخرى .

لعله من المألوف فيه، والسامح به أيضاً أن نعمل مقارنة أو اثنين بمجالات لاحقة،
بالرغم من التطور الذي حدث بعد سنوات قليلة بالنسبة للتقدم في التكنولوجيا وعلم
الطب، مما أحدث ثورة في مجال الحروب .

لقد حارب كشر ضد قوة حقلية . تلك التي كان على رأسها وزعيمها الشجاع
"الخليفة"، رغم قلة حربه استطاع أن يجهز جيشاً يعادل ستة أضعاف جيش كشر من

الجنود على أرض للمركة بالرغم من سوء التنظيم والتخلف في التسليح . كانت هنالك مقولة شائعة في ذلك الوقت:-

" مهما حصل فتح تلك "

" منفع المكسيم وهم لا يملكون "

بالرغم من تفوقه في أسلحة النار والخيوة التكتيكية فإن " كشنر " سيكسب فقط من هدوء تطبيق أساليبه بولملاً مثل الجنرال مونتجمري - خمسة وأربعون عاماً بعده - فإنه لا يتحمل التعرض لأي عفاطر ، ولم يكن على عجلة من أمره . مونتجمري ما بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٥٠ واجه أحسن جنود العالم ، في حين أن كشنر لم يواجه ، ولكن أعداءه شجعان بالعقيدة . يعتقدون بأن أي استشهاد في للمركة يعني دعول الجنة . لذلك كان كل من كشنر و مونتجمري على يقين أن أي ثأرون في الإعداد أو الدعم الحربي اللازمين ستكون نتائجهم كارثة حتمية . لقد شاهد مونتجمري ما حدث في اليونان وكريت و شمال إفريقيا فكان على " كشنر " أن يتحاشى المصير للأسوي للجنرال " هيكس " الذي حطّم الدراويش جيشه بالكامل منذ سنوات قليلة .

مقارنة حروب لعب فيها سلاح الطيور دوراً أساسياً بفهرها مقارنة يجب التأتى فيها ، إلا أن هناك تشابهاً كبيراً في بعض الخصائص بين " حرب النهر " عام ١٨٨٩ وحرب الفوكلاند عام ١٩٨٢ م ، في كلا الحالتين كان العدو على بعد آلاف الأميال وللوصول اليه كان يجب إرسال جيش كامل الإعداد مزود القاعدة آمنة يمكنه الرجوع اليها . وكان لابد من ترتيبات حمة خلق خطوط مواصلات ، تسهيلات كثيرة اعتماد الجنود عليها لم تكن متوفرة وحلقات لتسقي بلا نهاية كانت ضرورية . لقد كانت تخرج حرب الفوكلاند ملحمة . ولكن بمساعدة الأسلحة الحديثة للتطورة ، ولكنها لم تكن أبداً كالظروف للهولاء التي واجهها كشنر عام ١٨٩٦ م . هذه الوثيقة التي كتبت على عجل ، وتم نشرها بعد خمسة عشر شهراً من النصر النهائي قد تم تعديلها لتشمل تفاصيل ما بعد الحرب ، لقد شملت جزءا تعرض لحادثة فشودة التي حوّلت ذكرى مبررة لدى الفرنسيين ، يسترجعونها كلما كانوا في حالة مزاجية ضد الشعب البريطاني . كان هدف كشنر تخليص " السودان " الذي كان سابقاً برح تحت الحكم التركي من قبضة واستيلاء الدراويش الذين قتلوا الجنرال " هردون " .

كانت نتائج مجهوده على كيان جديد إنجليزي بمصرى مركزى ، والذي يجب أن يحترف به أن هذا الكيان الجديد يفترض فيه أن يكون متحزباً كثيراً لبريطانيا أكثر من مصر .

لذا كان من غير المحتمل أن تظهر في هذا التوقيت بعد أن يحقق النصر قوة قليلة من الضباط الفرنسيين في منطقة " عشودة " لظن أن السودان هو غنيمة فرنسية . لقد استطاع كشر أن يعالج الموقف بحكمة ، ونهى الأمر بالجناب الفرنسيين . لكن بعد أن تركت تلك الحادثة جرحاً غائراً في صدور الفرنسيين نحو بريطانيا .

لروح الاستعمارية لدى تشرشل ، والى كانت تشمل مشاهد أبناء ذلك الجيل من بسى وطنه في عهد الإمبراطورية ، تظهر بوضوح في هذا الكتاب ، ولكن يجب علينا أن نحكم بما كان سائداً إبان العهد القوي ، وليس بما هو شائع هذه الأيام .

في عام ١٨٩٨م لا البريطانيون ولا الفرنسيون ولا حتى البلجيكيون ، وكذلك الإيطاليون والبرتغاليون كان يساورهم أدق أسف لو تردد في تقسيم إفريقيا فيما بينهم كقول أوريه ، مع العلم بأن بريطانيا وفرنسا كان لهما قدر واعتبار لصالح رعاياهن إلا أن تشرشل كان مستاء من معاملة كشر غير الإنسانية وغير الرحيمة لضحاياه من البرلوش الذين احترق تشرشل بأنهم في المعارك وشجاعتهم النادرة .

لقد كتب تشرشل هذا الكتاب عام ١٨٩٩م . في الفترة التي عاد خلالها لفرقة بالهند كضابط صديق أريد أن يلقى طموحاته السياسية ، لأنه كان دائم التفكير في بحاثات السورد والدولف تشرشل في النشاط السياسي في الفترة السابقة . وبالرغم من السرعة التي كتب بها هذا الكتاب فإنه لم يفصل التفاصيل ، وقد استغل أقوال جهود الممان أحسن استغلالاً . أما تفصيله وتفاصيله الكثيرة عن معركة أم درمان ، فقد كان هو شخصياً الشاهد الأول لتلك الأحداث .

كان الجزء الخامس بسكة جديد الصمراء أكثر دليل على حرصه على التفاصيل الدقيقة الحقيقية ، وكجندى محترف فإنه يكتب عن التكتيكات والمعارك العسكرية بفهم عميق ، أما حديثه عن الخاريس ومنصات القنقاع والواقع ، وسلاح الترمسان للنجاح بالسلاح فهو يصلح أن يكون وصفاً مثل حرب جوار البلقان بدلاً من وصف أحداث للجزء الأخير من القرن التاسع عشر .

اعتمد المؤلف في البحث الذي قام به على معلومات الآخرين ، وكان تسجيله جيدا إذا علمنا أنه لم ينسحق بكثرت إلا من أسبوع قبل بدء المعركة النهائية الفاصلة . ألف الكتاب في وقت وجيز ، وكان للحقيقة أنه كتبه بخط يده لأنه الواضح في تحقيق تفوقه وأوضح عن بساطة أعماله اللاحقة التي كان عليها على الفور. خاصة تلك التي شارك فيها البعض. إن المتأخرين رومفه لوداي الليل يضاهي في روحه القطعة التي عجل فيها جيش السوم في "لزمات العالم" التي تعتبر جوهرة مضبوطة في معاد الأدب الإنجليزي.

"السور جون كورنيل"

الفصل الأول

قورة المهدى

إن الربع الشمالى الشرقى لقارة إفريقيا يحف ويروى بالنيل ، وبين مصادر منابع هذا النيل العظيم وفروحة تقع للمدريات ذات الأراضى الواسعة الخصبة التى تعرف بالسودان المصرى ، موقعها فى أواسط البلاد تحملاً ، يحدّها من كل جانب حوالى ٥٠٠ ميل من البحر تتوسطها الجبال ، والمستنقعات ، والمصحاء . إن النهر العظيم هو المصدر الوحيد للنمو وقناتهم الوحيدة للتقدم . بالنيل وحده يمكن لتجارهم أن تصل إلى الأسواق الخارجية ، وهو للمر الوحيد للحضارة الأوروبية لا عتراق لتتاطق التجارة الداخلية للظلمة . إن السودان يرتبط بمصر عن طريق النيل كالفواس الذى يرتبط بالمسطح بأبنوبة الأكسجين ، بدونها ليس هنالك سوى الاختناق ، لا حياة بدون النيل " لا نيل . لا حياة " .

مدينة الخرطوم التى تقع عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق هى النقطة التى تنتهى فيها التجارة من جنوب البلاد . وهى ملتقى كل التجارة قبل عبورها إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وهى تمثل أقصى نقطة شمالية مصرية . إذ يجرى النيل ما بين الخرطوم وأسوان بحوالى ألفا ومائتى ميل عبر صحارى قاحلة ، إلى أن تظهر الحياة على شاطئيه مرة أخرى بمصر والدفقا .

تتميز المصفحات التالية بالأحداث التى جرت بين هاتين النقطتين . إن السودان الحقيقى المعروف لدى رجل الدولة أو المستكشف يقع فى أقصى نقطة جنوباً وهو رطب ملى بالأحراش ، لكن هناك سودان آخر وهو الذى يشتهر البعض بالسودان الحقيقى الذى يطل على حنوده نهر النيل من الحدود المصرية شمالاً حتى لم درمان جنوباً ، هذا هو " سودان الجندي " بلا ثروة ، ولكنه غنى بالتاريخ .

إن أسماء قرله المتناثرة على امتداد البلاد معروفة ومعطومة لرجال وأتلى كثيرين مهتمين بأصول الحضارات فى بلاد بعيدة وإن للسجلات الحالية قد تم رسمها بأقلام جهنة وقديرة . لقد ذقت صحاريها الواسعة دماء الرجال الشجعان . أما حجارها الصلبة السوداء الحادة فتقف شاهداً على مآس مشهورة . " مخرج الحرب " .

إن هذا الجزء الذي يمكننا تسميته "السودان الحرقى" يمتد بغير تحيد على وجه القسارة. أراضي مسطحة ذات رمال ناعمة لوفا يميل إلى الأحمر فضي أخف قليلاً من لون السلون لا يمرضها إلا بعض الربوات البحرية البارزة . لوفا يميل إلى السواد ، ودون أشكال مستقيمة. بينما ترفض بدون عطاء العواصف غير الممطرة على قشرة الأرض الخارية ، وتحرك الرمال الناعمة بفعل الريح حيث تستقر على حباتي وحامل الأسطر السوداء على التلال ، تماماً كما تنضج حبات القمح على جبال الألب ، ولكن هذه تماماً كأنها تسقط من الجحيم . تحرق الأرض بطنان المصور الذي لا يرتوى وفي كبد السقاء الزرقاء لا أثر لأي مسجاة عابرة يمكن أن تحجب انقصار الشمس .

يجرى النهر في قلب الصحراء كعصا من الحرير الأزرق يسبح على بحرى بين هائل ، وحين هذا الحيط يهبط لونه إلى بين غامق كل نصف عام . عندما فصل المياه إلى جانبي النهر بعيداً عن الرمال ، تنمو بعض النباتات الخضراء التي تبدو منظرًا رائعاً بظلالها مع الصحراء المعتمة بلا حدود. إن للنبات قيمة كبيرة في كل المسار الذي يتخطاه على مدى ثلاثة آلاف ميل لكل هؤلاء الذين يمشون بجانبه . أما هنا فإن قيمته عالية جداً .

إن للمسافر بجانب النهر كمنافه لصديق قديم في وقت الشدة :-

(كتراب الحقل كطفه ماء * كحلق صديقين هزبان)

إن كل العالم يتهب ، ولكن هنا ظل ، الصحراء حر ، ولكن النيل وطيب إن الأرض جرداء ولكن المياه متوافرة ، الأرض الخروقة بلون السينا يهبط حدة لوفا الخضرة المنتشرة على شاطئيه .

إن الذي لم يشاهد الصحراء أو يشعر بحرارة همها على كتفيه لا يمكنه أن يعجب لمصوبة هذه الشخصيات القليلة .. أو الجريد والأشجار التي تنمو بنظام غير نظام على حافة الماء ، بينما تجف التربة السوداء وتشتق ، وتحويل إلى كرات صفوة بفعل الجفاف الذي يخلف الفيضان السنوي. إن لتكون الخضرة يتكون من رية جو مرجحة أو مضيقه، شخصيات كلها أشواك توز ككثف ، في تحد وانح فتح فارور ، أما التمثيل فهو النبات الوحيد الخنون، وجرى للمسافر إلى أعلى التمثيل حيث ينضج اليلع الرطب الذي يمنحه زادا طيباً، حتى يعرف الإنسان أن الطبيعة ليست هي بالضرورة دافئة شديدة وقاسية.

إن شواطئ النيل لولا المقارنة مع الصحراء ، تملأ إحساساً كبيراً بالقوة والجمود . ولعل سر الإعجاب يكمن في إحساس الحزن . إلا أن هناك ساعة يتغير فيها كل شيء عندما تنحدر الشمس إلى الغيب ، وترسل شعاعها الأحمر الضخيل على تلك اللال الغريبة فنبهت نسمات تطفئ المكان وتمنحه حيوية ، كأن هناك فتلاً جباراً قد رسم الكون بظلال ألوانه تصبى وتعمل كل شيء .

يتحول النهر الذي يملأ كبحيرة من اللون البني إلى لون رمادي أو فضي ، والسماء مس اللون الأزرق للتل إلى لون بنفسجي في الغرب ، وكل شيء يلمسه سحرية يضيئ بالحياسة وتختفي الشمس تدريجياً خلف الصخور . تبدأ الألوان في الخفوت في السماء ، تلال الرمال وأشعتها الذهبية تطفئ ، وضوء يتغير كل شيء إلى اللون الرمادي الأسود كحدود جدي يسرف حتى الموت ، ونشر يملأون والأسى لهذا الظلام حتى تظهر النجوم تسبح في الفضاء ، لنذكرنا بأن هناك دائماً شيئاً ما في اللاهية . في سكون الليل المادي وعندما تكون السماء صلبة ترفع نظرك إلى الأعالي ترى النجوم تتلاشى فتسبها " كأنها التي وابت قد رصتها يد القدرة " .

في أرض يكون الجمال فيها هو جمال اللحظة ، ووجهها نفس شديد للوحدة . . وشخصيتها حرة فإن لغة الحرب بالكاد يمكن أن تكون هي وحدها سبباً للكثرة . كيف يمكن أن تنمو البساطة في مثل هذا الجو الحار في صحارى وحجارة تتضرع للسماء طلباً لنقطة ماء ، وهل هي سبعة تضاع لنداح السراب ؟ .

إن المساحة الواسعة تضاعف الشعور بالوحدة والامتزاج . فإن الحياة توجد فقط حول النيل ، إذا ترك الرجل النيل وفتح غريباً فسوف لا يجد أثراً لأحد منهم إلا إذا وجد منهما لأهراق الكباش أو قافلة لبض التحمل حتى يصل إلى مشارف شواطئ أمريكا أو ينجو شيئا فلا يجد شيئاً غير الرمال والبحر والشمس حتى تظهر يومياً فوق الأفق . إن حيط الماء للمذنب في وحدته يعيش وحيداً في بعض المناطق حيث تفتقد كل الأشياء الحية للصحة .

في سرد قصة حرب النهر فإن النيل له لرد الطويل والقدر للملأ ، بالطبع إنه اللحن الذي يظل يتردد في كل أجزاء الأوبرا ، القند الذي يخطط للحرب ، رجل القولة الذي يهيم بانحدار فرارات خطرة ، والقوى الذي يريد أن يعرف مصير الجميع يجب عليه التفتك في النيل باعتبار أنه حياة البلاد التي يجري خلالها ، سبب الحرب ، ومن خلاله تغرب وهو النهاية التي

نرغبها. إن الخيال يجب أن يرسم النيل على كل صفحة في القصة ، إنه يتردد بسين أشجار النيل. أثناء الحركة ، إنه الجيوب لكل تحرك حرق ، على خفافه يسكن الجند بالنيل ، وعلى جانبيه ، أو على شاطئيه يملكون أو يقبلون الحركة ، بالتهار يقبل الجميع على شاطئيه عند الصباح ، ون للمساء صفوف طويلة من الجمال والأبقار المعلقة للذبح تهرى جميعها في اتجاهه ، لكل يركع لهذا الذي كان الإحصاء القديسة ، لكل يملأ كل يوم ما يحتاجه من ماء في قريته الجبلية لو في الترمويه.

يكون النيل ما كان لشئ أن يبدأ ، يكونه ما كان لأحد أن يستمر ، يكونه ما كان لأحد أن يرجع .

إن كل من يسافر على النيل سواء للحرب أو التجارة سوف يتمتع استراحة وتقلبه للنيل . لأن النهر العظيم كان صديقا للجميع مع كل العصور ، وكان مصدراً للخير لكل الأجيال من طريق للمعزة السنوية " الفيضان " .

عندما تصب الأمطار على جبال وهضبات إفريقيا الوسطى ، وتلويب الثلوج في أقاليم الجبال هناك يهزج رأس النهر بحدس لياه ، ويمتد شمال البحيرات بالياه في كل الدروع التي تصب فيها . تبدأ المستنقعات في تخزين مياه الفيضان كالفا بحيرة من الأسفنج ، تغطي أي تلص في كمية المياه حتى قدوم الفيضان القادم . في مصر الأمر والخلاف ، والفلاح ورجل الذين يتوجهون نحو الجيوب لثوب الزيادة حتى يبدأ الفيضان . تدريجياً يتحول بحر الغزال من قناة مياه راكدة .. إلى بحر يمكن الإبحار فيه ، السوبات وعطوة يتحولان إلى أمار صفوة . ولكن كل هذا بعيدا عن مصر . عندما يفتى بحر عطوة مع النيل من هناك يهرى حوال سبعة ميل خلال الرمال ، أو يهتر عند الشلالات بين الأحجار النوية . بالرغم من خلاف للتلقة الصحراوية وحاررة الجو مجرد أن يصل أسوان تكون هناك كميات كبيرة من المياه تكفي لإمداد تسعة ملايين نسمة بما يحتاجون ، وكل ما تطلبه مشاريعهم من طاقة وخلافه ، ومع ذلك يبقى جزء يصب عند البحر الأبيض المتوسط بما يعادل ٦١,٥٠٠ متر مكعب في الثانية . لئلا ليس هو لية الوحيدة . إذ يحمل النيل الطمي الغني بملوحة الفعالة والصنوبري لإنشاء مزارع تحمل من الصحراء خليقة غناء . عالم الجغرافيا يمكن أن يعطيا وصفا لا يكاد يخلو من عناء الطبيعة : إنه بحر عظيم يجري بعد أن يتفدى من الأمطار

الاستوائية. تتحكم فيه بحركات كبيرة عند متبعه ثم يأتي الفيضان ، تنصرف مياهه من طريق فروعها الكثيرة . إن كل من ذاق طعم مائه للميت ، بحيث لأنه يمكنه أن يعطى الحياة ، كما يمكن أن يكون سبباً للموت ، سوف يقدر دور النيل في حياة المصريين ، وسر مسخره المعجب في النفوس .

جنوب الخرطوم " السودان الجوى " يجد أن الأرض منمرة . الفروع التي تصب في النيل تكون في ازدياد بوقت التي تخرج منه تأتي بكل الخصوبة ، ومع ازدياد كمية الامطار كلما اتهمنا نحو خط الاستواء تكثر النباتات ومظاهر يمكن أن تقي الحياة للإنسان. إن أغلب أجزاء القطر شديدة الحرارة ومليئة بالأمراض التي سوف لا تساعد أي ثوري على للعيش فيها بالرغم من ذلك فليس معنى هذا أن كل أجزاء القطر لا تخلو منها . فإن الشرق مثلاً مديرية سنار ، تنتج الحبوب بكثرة ، ويمكنها أن تنتج القطن بكثرة أيضاً . في غرب البلاد حيث حرب البقارة وللراعى الشاسعة التي ترمى فيه معات الأبقار ، وكذلك مجموعات من الزراف والنعام ، في الجنوب يبحر الغزال مساحات شاسعة من القطر مملوءة بالأحراش والغابات . في أقصى الجنوب عند خط الاستواء نكر الغابات والأحراش والمستنقعات التي تكون مرتعاً للأهال غير المبالية بالصيادين ، ويكون عددها أكثر من أربعمائة . يمثل من نفوس نسوة حقيقية . كانت كميات الحاج كبيرة للدرجة التي جعلت أمين باشا يصرخ بالشكوى . وبالرغم من اعتماد البلاد دوماً والقبائل على صيد الأنزال بالحراش والبنادق الذهبية فإن الكميات التي يتم تصديرها كل عام تفوق المائة وعشرين ألف كيلو . كل أنواع الحيوانات للفرسة الكبيرة تعيش في هذه المناطق . نجد وحيد القرن وصيد فشسطة (فرس النهر) السماسيح والجاموس البري القوي كلها في ازدياد مستمر ، مئات الغزلان والوحول والفيلين خطيرة السمكة ، وملايين من الطيور والفراشات والحنافس كلها تناج الطبيعة مملأ أركان المكان . إن المعاطر الذي يصح في مغامرته بالدهول في هذه الأجواء لقادر على عمل توثيق مافع لمرآة مثل متاحف التاريخ الطبيعي ، ويضع نفسه وشهرته في ذات الوقت .

إن سكان السودان أولاً فضائلهم وسوء طالعهم لا يمكن أن يكونوا أقل عدداً من حولهم من مخلوقات أو أقل سعادة . ولكن الحرب وتجارة الرقيق قد جنت عليهم . حتى أن تعداد سكان البلاد قد لا يزيد على ثلاثة ملايين نسمة على أكثر تقدير .

إن تنوع المناخ قد خلق أنماطاً مختلفة من البشر . السودانيون قبائل كثيرة ، ولكن
العناصر الرئيسية يمكن تحليلها بوضوح . سكان البلاد البدائيين (الأبوريجين) والناحيين
العرب . إن سكان البلاد الأصليين ينتمون للعنصر الزنجي الأسود كسواد الفصح ، لقوباء ،
عقولهم بسيطة ، شرسون ، يعيشون عيشة قسبان ما قبل التاريخ على الصيد والقتال .
يتزوجون ويوتون ، وأنثى طموح لديهم هو إشباع رغبتهم الجنسية . كانوا يعيشون في
أجواء تلوثها الأشباح والإكائن بقوة السحر وحداثة السلف ، وأنماط أخرى مثل تلك التي
نجدتها بدمرة في الأوساط الدنيا . كانوا يحملون فضائل البرية ، شجعان ، وأماء . كان
مهمهم هو مصدر براءتهم ، إن بلاغتهم يجب أن تكون محدودة بحكم الناطق المختلفة التي
يأتون منها إلا أن تاريخهم جميعاً هو خليط من الكفاح والشقاء ، وأسطورة من البؤس ، كان
طبيعي أن تترك كل ذلك بصمته على سكانهم .

بالرغم من أن التزوج هم الأكثر عدداً فإن العرب كانوا هم الأكثر قوة . إن شجاعة
القبائل البدائية لم تكن ترقى لقوة شخصية وذكاء الفزاريق القرن الثاني للمهد الإسلامي
عندما اجتاحت سكان البلاد العربية العالم إلى فريق مفار منهم إلى الجنوب . تبع المهاجرون
الأوائل أحزاب ليسوا من البرية العربية فقط ، ولكن جاء بعضهم من قلب الصحراء من
مصر والمغرب . ابتداء هذا العصر الجديد بفضل كسريان الماء على سطح الأرض .

ولقد انتص الإيماني البدائيون هؤلاء الفزاة الذين لم يستطيعوا طردهم ، وقد سيطر
العنصر القوي على العنصر الضعيف ، وتغلب لغتهم وعاداتهم وفرضت على السكان
الأصليين . وهكذا شربت مملكتهم الحفرة ملامح الشخص السوداني . ظلت الدعوة
الإسلامية لأكثر من ألف عام تنال القبول الكبير لدى تلك القبائل التي قتلت بها ، وتحولت
بعض القبائل إلى المديانة الإسلامية والخلق والشخصية العربية ، بالرغم من صعوبة نجاح
الدعوة في أوساط الجهلاء والمشاكل الطبيعية التي يواجهونها . كما في شمال السودان ، فكلمات
للهمة سهلة حيث استقر الفزاة واكمل الاندماج بين القادمين الجدد وسكان البلاد فأصبح
العربي في السودان هو شخصية تتكون من عنصرين ، الزنجي والعربي رغم اختلاطه مع
العنصرين . ظلت القبائل في جنوب وغرب البلاد بعيدة عن التأثير الكامل بالفرقة العربي ،
وكان الاختلاط واضحاً بين هاتين القوتين في بعض الأجزاء . مع هذا الخليط المعجب نجد

بعض القبائل تحدث العربية وتؤمن بالإسلام حتى قبل ظهور الفهدى ، وفي أخرى فإن العربية احتلقت مع اللغات المحلية ، وتخلت القبائل عن الشجره ، ودخلت في الدين الإسلامى . لكن بالرغم من كل الجهود لتوحيد العنصرين نجد دائما أن الاختلاف بينهما واضحا جدا للعيان .

إن شجعية المولدين (نتاج عنصرين) لا تلحق كلها للإصحاب في كل الأحيان ، ذلك أنه قد جاء عصر أكثر ذكاء من البليكين ، استطاع بحرور الوقت أن يكون هو للسيطر ، إن قبائل العرب كانوا زعماء أبقار وأغنام ، وبعضهم يرى الجمال . استمرت فوئيل العبيد مشات الستين تبيحه إلى سوق العبيد في جدة . لقد سارع اكتشاف البارود في أن يشند العرب قبضتهم على الزنوج البهلاء ، وهكذا فإن الحالة في السودان يمكن تلخيصها في الآتي :

جاء العرب واستغلوا بسكان السودان ، وأعطوهم الدماء واللغات والعادات العربية . يمكننا أن نمثل الحالة التي سار فيها المجتمع مع ظروف مثل تلك . بدأ العرب في النضال للسيطرة ، وحارب بعضهم البعض ، وكان بعض الزنوج يرغبون خوفا من الأسر . بينما حاول البعض الآخر التمرد على أسيادهم . تكونت ممالك صغيرة تحت سيطرة بعض الشيوخ عندما تجمع أكثر من قبيلة تحت إمرته عمدة بالسلاح والرجال . فيها الهاربون والتجار والرقيق . وتتم للملكة الصغيرة بالحياة حتى تغير عليها ملكة أخرى المستوى منها وتحل محلها .

كل هذا الذي كان يجري في السودان لم يهتم به أحد في العالم الخارجي . السودان بلد تفصله الصحارى ، وهذا كان التطورات الطبيعية سوف تمضي بدون مساعدة وبدون أى تدخل لكن أميرا تغير سكان أوروبا ، وحاولت حضارة أخرى على أنقاض الحضارة الرومانية والذهوة الإسلامية ، حضارة أقوى وعظيمة ولكنها ليست متحضرة . فإن للذ الذي أسرع بالفرنسيين والإنجليز إلى كندا وجزر الهند الغربية والمولنديين إلى رأس الرجاء الصالح ، والأسبان ليهرو قد امتد لإفريقيا ، وجاء بالعصرين إلى السودان .

وفي عام ١٨١٩م وجد محمد على عثرا وفرصة في قيام بعض الاضطرابات وأرسل ابنه إسماعيل على رأس جيش كبير إلى أمال النيل . كانت القبائل العربية منهكة وبعدة عن عقيدة الإسلام ، وكذلك حال الرقيق يئس لها فلم يبدوا أى مقاومة للجيش الغازي ، وتم

احتلال مساحات كبيرة بدون قتال ، وبعد أن ترك إسماعيل حريات بالسودان رجع يوشيه
للمتصرف إلى ألمانيا .

أي فائدة يمكن أن نحسب على شعب متحضر عندما يستولى على أراضي شعب
متخلف غير الاستيلاء على أراضي عصابة وسكان كثيرين ، يمكن أن تكون أكثر نبالا من
إحلال السلام بين القبائل المتحاربة ، وفيما العقل بدل العنف السابق ، أو فك أغلال الرقيق ،
وبذر البيرة الأولى للتجارة والمعرفة حتى تخرج طوائف البشر لتتبع الألام ويعم الجحيم
بالحر والتمتع ؟؟ ليس من تلك أجل أو أعلى مصة للعقل والجهود البشرية من هذا التصرف
للألمى بالقبائل ، مسامحة جميلة وتناجيه مريحة . إلا أن الأيام جاءت بعكس كل ذلك تماما
تعملت الطوائف البشرية القوية ، وجاء الاستعمار . وكيف للناس أن تمسأ به وبطونهم
عابرة ؟؟

القبائل البدائية المعاملة التي اعتادت على حريتها وعدم اللبالة لم تحمل ثلوات الجديس
حتى إن حسنت نواياهم فقومته ودر من دحر ، ومات الألاف ، ولم يفلح كساح الناس
البيضاء لنيل حقوقهم المشروعة ، وصاروا لقمة سائغة للتاجر الجشع ، والبشر الاتسهازي
والهندي الطموح . الخمول والاستكانة زادت من تحته للفقيرين ، وفشت شبهة القساكين
للمزيد . عندما يذكر المرء في هذه الظروف الإنسانية يدرك لماذا أن طريق هؤلاء البشر
لا سلاسل منه ولا أمل في أي عدل طالما بقي أسلوب العزة على حاله .

أصبح العنف لا يطلق خاصة إذ كان حنف الحاكم بخلفه القانون وتحميه السلطة .

كانت الأرض فقيرة وغير مطورة ، بالكاد تكفي لإعاشة السكان فعاء الغزو ببسوده
وأحياجهاته وزاد ثلثمائة بوسلوت الخلفة الاقتصادية ، وشعت الأشياء الضرورية ، انتشرت
المعاملات على فترات بينما كان يتم تغيير الحكام والجنرالات المرتشين عن الظروف واحدا
بعد الآخر ، مما أدى لعدم حلول أي سياسة ثابتة للحكم . وكان يفسح الإدارة بالسودان
يقس بكمية النفود التي يتم جمعها من السكان وتصلبها لمصر ، أو عدد المكاتب عديدة
المنع التي يتم إنشاؤها . كان هناك رجال أمانة ومثال للعقل ولكن هذا أدى إلى أن يظهر
الضد بوضوح ، مما زاد من عدم الرضا .

لقد كان الحكم ضعيفا ، ولكنه آمن ، أحد مظاهر سلطة الاستعمار . كان الحاكم يعيش في دار على مقرن التيلين ، بينما تنتشر سكن محلي الدول الأجنبية في المدينة . ظلت التجارة القادمة من جنوب البلاد تعبر عن طريق الخرطوم ، وجاء حكام الاقاليم من محافظاتهم يقدمون تقاريرهم وتسلم لدى أولهم جديدة . بدأت الثروات تتدفق نحو الشمال . من لدى ، من الاستوائية ، ريش النعام من كردفان ، الصمغ العربي من دارفور ، والجنوب من سسند . بالإضافة للتقود التي يتم جمعها كضرائب على اهالي البلاد . وجوانبات غربية يتم صيدها من المستنقعات والظلمات كانت تجد طريقها الى القاهرة وأوروبا . كانت الإيرادات والمصروفات تسجل ، وتقدم في شكل تقارير منتظمة سنويا ، ويتم حفظ مكاتبات بين مصر ومحميتها العظيمة . حتى يصعب المرء من مقدرة مثل هذه الحكومة وهؤلاء الناس الشرقيين ، ومقدريهم غير المحدودة . مما جعل من السهل تصديق ما كان يهمس به نوبار باشا للملحق إسماعيل "نحن لم نعد في إفريقيا ولكننا في أوروبا" .

كانت الضرائب الجزائية تفي من الناس على حد منحة الهندية ، إذا تاجر شيخ في جمع الضرائب سلط عليه جوارته ليهربوا ضلعه ، إذا حصى شيخ قبيلة أرسلت له حملة مسلحة . على كل حال كان العرب أكثر استعدادا للدفع طائلا تجارة الرقيق رائجة والأرباح وفيرة لأن الدولة سوف تستفيد . كانت الحكومة المصرية قد انضمت الى التجمع العالمي ضد تجارة الرقيق .

وفي تلك الظروف الهزينة من ملاحقات الحروب وحملات جمع الضرائب ، كانت مكاسب الحكام أكثر من الإحتلالات والفساد ، من استعمال القوة . وكانوا يجنون سعادة بالغة في أمر مرسومهم بالتشفي في ضحايلهم . كان الأمر - أمر الحكم والسلطة متروكان تماما في أيدي نواب الحكام حسب وظائفهم ورتبهم ، ومواقفهم ، وكانوا يمتدحون أصعب المدنية مما أتاح لهم رخصة كاملة للتصرف ، وكلما قل تعليهم زادت تجاوزاتهم . وكانوا يجلسون فوق بركان صلوات ، اطاعت القبائل العربية وحيث القصائل السوداء .

كانت القوة التي تساعد الحكومة غير العادلة عبارة عن جيش ، حوالى أربعين ألف رجل موزعين على أكثر من ثمان حامية متشرة بالبلاد ، وتفصلها مسلحات شاسعة بسلامة طرق سرية وتتمثلها عقبات طبيعية مهولة ، فهم يحاطون بسكان غرسين ، حفالدين وفري

طوائع قتالية. يزداد سلطانهم كلما زاد بؤسهم . لم يحم الحكام إلا يراعة ضباطهم وتفوقهم
في النظام والسلاح، كانت السمعة الشريرة للسودان تمنع أى ضابط متعلم من الإقدام
للخدمة في تلك المناطق النائية ، وكل من استطاع تجنب ذلك فعل . كان جيش الخديوي في
البلدنا - حسب نظرة الأوربيين له - جيشاً ضعيفاً ، غير مدرب ، قليل الأحمور، وقد كان
أضعف أفراد هذا الجيش هم غيرة البليش الذي أرسل للسودان .

وهكذا فإن النهاية كانتوا قد أرسلوا إلى هناك . إما بفضولاً عليهم ، أو للحاجة تنحية
لفقرهم ، بعضهم أمضى سنوات طويلة في مناطق قاسية قريبة عليه ، وبعضهم قضى عمره
كله، سعي وراء الكفارة والبعض الآخر لم أرب أخرى .

في مثل تلك الظروف حتى الجندي البليد سوف يفقد حماة وتدريبه . كانوا قد تم
دفعهم للجنوب، كانوا ضعفاء التدريب، ولم تكن تلك هي مصيبتهم الوحيدة . طلى حين
كان هذا الجيش النظامي في تدهور وفي حالة متروكة سيئة، كان هناك في الجهة الأخرى
قوات البازنجر غير النظامية حاملو (حاملو البنادق السودانيين) تسليحهم جيد، أكثر عدداً
وأكثر شجاعة. الذين كانوا ينظرون لأعدائهم بخوف ولكن ظل المرفوف يخل مع مرور الأيام
وظل الفكر يزداد تنوعاً ، وحلف كل هذا جيش نظامي وغيره من أهراق الصحراء
وسكان الغابات السود الذين ظلوا يشعرون بأن الأجنبي هو سبب كل الشقاء والعذاب وأن
القدرة فقط هي التي تمنح مسعهم من على وجه الأرض .

كان احتلال مصر للسودان كبيت من ورق ولم تكن القرابة في استمرارية كل تلك
المدف، ولكن كيف بقي كل هذه اللغة دون أن ينهار .

هناك اسمان سوف يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالانقلاب الذي حدث . أحدهما جنرال
إنجليزي والآخر رجل دين عربي . بالرغم من الاختلاف الكبير بين حالتيهما ، فالعسا
متشابهان في كثير من الأمور ، كل من الرطلين ذو مجلس وحية ومشاعر أكيدة وعواطف
جياشة . كل منهما ذو عقيدة دينية قوية ، وذو أثر كبير في كل من حوله . كما أن كليهما
مصلح كبير، كان العربي نسمة من الإنجليزي، وكان الإنجليزي نسمة متعلمة ومتحضرة
من العربي ، وفي النهاية تقائلا حتى الموت ، ولكن سوف يظل نفوذهما على سيرة الحياة في
السودان يتبع نفس الاتجاه. سوف نقابل عماد أحمد " للهدى " في الجزء الخاص به . أما

غردون فقد سبقت شهرته وعمت كل أرجاء أوروبا عندما ذاعت أخبار * الجيش المتصبر
دالما " لأبعد من حدود حائط الصين العظيم .

أن سوء إدارة الحكومات وفسس السوختين قد بلغ مرحلة حاسمة في العقد السابع للقرن
للماضى . الشيء الذى لم يترك بدلاً للحرب ، فالعرب قد بلغ قهيم السبيل السزى ، ولم
يحتاجوا أكثر من بعشرين - الأول أن هناك حياة أفضل يمكن أن تنال ، والثاني إيمان قوى
بقضية التحرر ، فحاء غردون وأعطاهم الأول ، وحاء لاهدى وأعطاهم الثاني .

ومن المستحيل دراسة أي جانب من مسيرة شارل غوردون للمهنة دون التعرض بقيمتها
جسمياً . وعبادة القارئ صبوراً وعطه الجراح والتفوق بقودة من سياستول إلى بكسين من
جراليد إلى جنوب إفريقيا ، من موريشوس للسودان . فكل مشهد عصب ورهيب ومرو .
ومع ذلك ، فمظلم أن للشاهد متمدة ، فإن البطل استثنائي بدرجة أكبر ، هو نوع لا مثيل
له في الأمانة الحديثة وفيللون من مشهورون في التاريخ . أن الإنسان الذي لا يبالى نادر وقهيم
حقاً . وقد تلاقى عوامل بلدان كثيرة للحصول على خدماته - امراطور الصين ، ملك
البلجيكا ، رئيس وزراء مستعمرة الكلب ، عديري مصر . ولم يقل تالين أهمية مناصبه عن
أهمية طبيعتها . فلى يوم كان ملازماً ثول في سلاح الهندسين ونشر الاثغام ، وى يوم أعمر .
قاد الجيش الصيني ، وى يوم نال أحرار ملجأ للأرامل ، أو كان حاكماً عاماً للسودان . بسلطات
سانية على لوت والجلاء والسلام والحرب أو عمل كسكرتير خاص للورد ريبون . في كل
تلك المواقف كان جذيراً بالسمعة التي اكتسبها . وكان غريب الأطوار ، عندما انتقد بشدة
مخطط " جراهام " الاقتصادي للهجوم على " رينان " أو عندما جاء ملوحاً برأس " لاروانسى "
في عنف وغضب أمام أمين ودمثة سر هالدى ماكارتين ، أو ذمهاه مغرودا المعسكر
بخصمه سليمان حتى كسب احترامهم بعد أن كانوا يرمونهم لفظه . أو عندما طالب
الانديز أن يحكم السودان كله ، ثم مطالب بتعطىض راتيه لأمة كبير ، وبحكم بلداً بحجم
أوروبا ، لقد لخص لورد ريبون شخصية في نثره الجيد : إتنا أليم رجل لا يأبه بنصب
الرجال أو ابتسامة النساء ، ولا بالدية للرفقة أو الثروة ، ولا للشهرة .

لعل من المحزن أن شخصية كهذه لم تتأثر بمظاهر الجمع الإنساني العادى لا يحد في
تشكيها الاثران اللازم . فكانت مطلب الزواج خالداً جذا في وجود أعماله ، عادى الصباح يصبح

أحرز الأصدقاء عند النساء ، منافع لأحكام بلا تردد. لا أحد يجرى ما يلزم في عطله ، عصبي في أغلب الأحيان ، وزاد من عصبية إيمانه الشديد للتدخين فنادرا ما يشاهد إلا والسيجارة في يده . كانت فضائله واضحة للجميع ، حماسة وإتقانه يرجح أى كلمة ، إقدامه مثال يحذى ، إنجازاته تملأ المساحات ، ولكن كانت تقصه الخبرة الإدارية والحكمة الدبلوماسية .

ظلّت حكومة الخديوي تظن بعدها عن تجارة الرقيق ، ولكن كتبت ذلك للعالم الخارجى انتقادات غردون كحاكم للمدنية الاستوائية . فقد كان اسمه ضامنا كالأى لكل للتشكيكين . حدثنا زهاء من نقيب الخديوي لمبعوثه الخليل . الأول أن راحة الجرائم القاسية التى يرتكبها بحار الرقيق قد طاشت ، والثانية أن المجموعة بقيادة الزبير رجعت أن تواصل دفع الراتب المقرر للحكومة الخديوي ، فحضرنا بذلك قورهم بأبدهم .

كان " الزبير " يوصف بأنه أسطر وأخبرنا بامر رقيق عرفته إفريقيا ، طبقت شهرته الألفى ، ووصلت تجارته الى بلاد الشمال والغرب الجملة . فلما كما كانت سمعة " وليام هوايتلى " فى تجارة الأسماك والأدوات ، كانت سمعة الزبير فى تجارة الرقيق . ظل يعمل منذ عام ١٨٦٩ كحاكم مستقل للمدينة بحر اللؤلؤ أراد الخديوي أن يحد من نفوذه فأرسل كنيسة برئاسة " بلال بك " ولكن الحملة كثيها وصلت ، ورأت ، ثم ولت هاربة بمرجرجر روايتها عار الخزيعة . وكان التمرد مفتوحا . وعلى كل حال فإن الخديوي هو الذى سعى للصالح وكسب نقيب " الزبير " أقوى عاصمة بعد اعتقاله لما لحق بالحملة التى أرسلها الخديوي .

كان " الزبير " يخطط لغزو مملكة دارفور التى كانت مملكة مستقلة فى ذلك الوقت ورأت حكومة الخديوي أن تشتغل منه فى هذه العملية وقد نجحت الحملة بمملك دارفور ، وتسلم الزبير كل المنطقة وأصبح كل السكان بعد انتهاء الحركة تحت تصرف " الزبير " ها اعترف الخديوي للزبير بمكانته وكرمه بحسنه لقب " الباشا " كانت هذه هى الأحوال فى السودان عند وصول " غردون " .

لم يكن فى وسع " غردون " عندما كان حاكما للاستوائية أن يوقف تجارة الرقيق ومزساتها . بالرغم من الضربات لمرحلة التى وجهها إليهم . ولكن عندما عاد فى عام

١٨٧٧ إلى إنجلترا ، ثم حضر للسودان مرة أخرى ، وكان هذه المرة حاكماً عاماً لعموم السودان ، كانت الظروف مساعدة له إلى حد بعيد . الزعيم الرجل القوي قد تم إحضاره لمصر بمجرد أنه وصل ووضع تحت حراسة مشددة ، ومنع من العودة إلى مربيح الصيد المفضلة لديه .

بالرغم من حساسة مجموعة تجار الرقيق لثقتهم القوي كانوا لا يزالون أقرباء "سليمان" ابن "الزبير" الذي هاج لا حجاز والده بمصر ، بنا التمرد ، إلا أن المقاتلة الخفية قاضياً سليمان في وسط معسكره وبغفروه وسط ذمول أتباعه ، قبل سليمان شروط التسليم واحترمت قوة المؤسسة . بعد قليل تقطع سليمان شروط الاتفاقية ، وحاجت قوة تحت قيادة "جسي" أعدت سليمان وعشرة من أتباعه ، وهكذا تم تدمير تجار الرقيق .

ترك خردون" السودان في نهاية عام ١٨٧٩ م ، كان قد أمضى ٥ سنوات في المديرية مع لحظات غياب قصيرة ، استطاع خلالها اقتلاع جذور تجارة الرقيق ، وحطم البنية الأساسية للتجارة التي كانت من أكثر الأنشطة رواجاً . ساعده في ذلك كرهه الشديد لتلك الممارسات . وفي جو غير رحيم للأوروبيين ، واستطاع أن يستغنى من خمسة ضباط ، حتى أنه أقدم في خطوة محسب ضده على شراء بعض الرقيق وخضعتهم للعبودية بعد تدريبهم على القتال المقاتلة لفرافل الرقيق .

كان لديه قطع من الحبوب المسرع ظل يستعمله في أسفاره الكثيرة قطعاً مسافات شاسعة تفوق ٣٨٤٠ ميلاً متلفداً المحتاجين وناصراً للمظلومين ، حتى نال احترام الجميع . حتى القبائل البدائية كان يزور مناعتها بمفرده بينما لا تجرؤ قورقة كاملة على دعوها ، وقد ساعد بكل ذلك على جعل هؤلاء البسطاء يعرفون أن لهم حقوقاً في الحياة غير حياة البؤس والشقاء ، وكلما تناقصت هذه زلات معرفتهم . كان كل الشعب يعيش حالة الاضطراب ، وبدأت حملة التطور البطيئة تدور ولم تقف حتى شهدت الثورة للعائلة .

وكان الدور الذي لعبته القوة الثابتة أكثر غرابة . إن اللبس لتطور الإنسان ليحد أن في كل الأزمان وبين كل الأجناس من يعتقد أن كل مشايعه هي في واقع الأمر بذائع أن المرفد الرئيسي لها هو للتفكير العلمي وتحقيق العدل ، وترى كل جهة الشموخ والقوة في أي مشروع تقدم عليه حتى إذ تم تجمع كل الآراء على نيل الأهداف ، إنما تحية غير اعتيادية ، تقيه

متواضعة للأشياء غير الكاملة ، تحية للمعاهد الخالدة للحقيقة والجمال . إن معاناة بعض الناس يمكن أن تكون غير محمله ، ولكنها ليست بالقدر الذي يجعل الناس تحمل السلاح عن طاعة بغيها . اللهم إلا إذا كانت هناك أسباب قوية وغير شخصية تفرض عليهم هذا الأمر . وفي المجتمعات المستوية يوجد مثل هذا الحافز في التمسك بالتقاليد الجميلة أو بالمعاطف الخسيسة بشقاء الآخرين ، عند القبائل البدائية ينتفي هذا الحافز ، ويبقى في نفس الوقت هو أي هذا الجهل هو القوة الحقيقية في ميزان الطبيعة للعصيب ، إذ يمنحهم أكثر حرص "للمصعب" ، يمكن للشيوعيين الفرنسيين أن يذكروا أنهم يكافحون من أجل حقوق الإنسان ، أو يمكن للقبائل الصحراء أن تذكر أنها قاتلت من أجل عظمة الرب ، ومهما يكن من تفسير فلسفي فسيان لتأثير قوة المصعب هي واحدة ، إعطاء الناس الإحساس بأنهم يحاربون من أجل غرض مقدس . الشيء الذي يعطي الضوء الأخضر لخوض حروب برغم أن أسبابها قد تكون أبعد ما تكون عن ذلك الهدف .

تكون روح جديدة تجعل الجميع ينسبون كل الخلافات القبلية ، ويعدلون نحو هدف واحد ، وهكذا جاءت العنيدة الإسلامية لأهل السودان ركيزة للهجوم والدفاع معا . كان كل هذا وأكثر ، ولكنه لم يكن السبب الوحيد للثورة . بعض الناس الذين يعتقدون أن أهمهم هي الوحدة المحذورة لكل الفضائل والخطايا عندما يصلون أي حروب لدول بدائية بأن أسبابها كلها دينية ، لم تكن أسباب الثورة في السودان دينية على الإطلاق . إن الأسباب كانت من القوة بمكان ، زائدة في نفس الوقت على شدة ضعف طلاع الغاصبين .

لو نظرنا للأمر نظرة سياسية بحتة لنجد أنه لم يكن هناك سبب أوجه من هذا الذي أسماها لقيام الثمره ، يحكم قلة من الأخراب كل أهل البلاد ، القلة الجبانة تحكم الغلبة الشجاعة ، الضعيف يجر القوى . كانت كل هذه أسباب كافية .

إن أي ثمره ضد الحكومة محكوم عليه فقط عند النجاح ، إن القوة هي أكثر فضيلة ثورية ، فبسهولة سوف يجلبها العرب ، فقد كانوا أقوى مما يصورون ، أو كما يتصور عدوهم أو العالم الخارجي ، الكل سيحطم علم اليقين في الوقت المناسب . تجمعت العاصفة وارتفعت للياه وجاءت موجات ثلاث عاتيات للهيب كذلك على جيل الميت للصنوع من ومال الصحراء . عانى العربي من اليأس والفقر والقمهر ، ينتظر فيرى أن كل أسباب شقائه أصبحت تر كسى

ضعيف وجبان، لقد زاد الغضب العدل الاجتماعي حدة التصيب العنصري، ونجها للرقـف
تماماً، ثم جاءت الموجة الثالثة موجة التصيب، التي انتهت لباقي الورج، وغطت كل مياه
التيضان بزبداء الأيضي، وأعلنت تضرب كالأرعد حواظ للنزل للضعيف حتى الغار، وباله
من الحيار.

قبل عام ١٨٨١ لم تكن هنالك أي حركات تصيب في السودان. بسبب الجلس محمر
الناس عبادتهم ووصلوا حالة من اليأس كانوا مستعدين لأي مفارقة يمكن أن تخلصهم من
عبودية العاصمين، كانوا قبط في انتظار القائد العظيم الذي يستطيع جمع الشعب والكلمة ورفع
الرجح للكسرة. وفي صيف ١٨٨١ ظهر القائد. ولأن سرته ستبقى أمراء على طبائع
العرب في السودان. فأتوا سبحت في طوره منذ البداية.

ولد الرجل الذي كان السبب لظهور الحرب النهر على ضفاف النيل، في مكان لا يبعد
كثراً من دنقلة. كانت أسرته فقيرة وليس لها أهمية في المدينة. ولكن نظام أدهي النبي أنه
من سلالة ملوك، ونظام البعث "القلوة للقدسة" من نسل طوادة فقد أكد محمد أحمد أنه
كان من الأشراف، ووعا قبل هذا التأكيد طلقاً أنه لا يمكن نفيه. كان والده رجل دين
متواضع، ومع ذلك فقد جاهد ليوفر لابنه قسراً من التطويم في المدارس الدينية ومبادئ
القرآن وطقس الكتابة. ثم مات في كروي أثناء رحلة له إلى الخرطوم، وترك مهدي للمستقبل.
وهو طفل، تحت راحة العالم. أن الأشجار الفتوحات، إن تمت أصلاً، تموت غيرة، إن صيماً
حرم من رعاية الأب، يعني لديه عادة، إن أفلت من مهالك الشباب، استغلال وقسوة
التفكير الذي قد يعرض فيما بعد الحياة الحساسة للباطلة في الأيام الأولى. كذلك كان الحاصل
مع محمد أحمد. فقد تطلع حوله باحثاً عن حرفة ووسيلة للرزق. إن نسبة كبيرة من سكان
البلدان للدينية يعيشون حياهم في دعة، يعولهم عمل للرولين وصمم الشباب طس أن يتبع
الحرفة التي شعر أن مواصلة توحله لها، والتي تخرج له اتفاقاً لرحب. وأصبح شيئاً.

في كل المجتمعات الدينية يعيش الناس في دعة وضحة من الوقت، مشغولين بالعالم الآخر
من أطماع الحاضر، تاركين أمور الدنيا وتدير دائماً لربهم للعاصمين، كثر من مصلحي
الدين الكفرة وفي بلاد كثيرة يوجدون حل حاسمهم واعتصمهم للعالم الآخر لأن هذا يعني
لهم حياة أفضل في هذه الدنيا. لحسن الحظ ليس هذا صحيحاً بلارة ليس بالنسبة لمحمد أحمد.

برز محمد أحمد منذ الصغر في علوم الدين وطاعة الله وخدمته، وبلغ من علمه وحسن سيرته ما
يتلمذ على يديه حيث ينذر وجود أشخاص فلكياء وعلووين حماساً في قطر كالسودان
وبمجرد انتهاء فترة دراسته أصبح تلميذاً على يد الشيخ محمد شريف . كان اهتمامه في
التحصيل والعبادة وزعمه الظاهر أكبر الأثر في نفوس المؤمنين من حوله، واكتسب بذلك
بعض الحواريين. أخذ حواريه وذهب بهم إلى الجزيرة أباً، وكان له أئمة من عملان في صناعة
الراكب على النيل الأبيض مما للذين يصرفان على إعاشته عما تتركه عليهما هذه الصناعة. لم
يكن هذا الأمر أمراً مكلفاً على الإطلاق، فقد كان محمد أحمد صائماً جل الوقت، واعتار له
كهفاً على شاطئ النيل الأبيض يذهب ليتعبد فيه بقرية من القرى، يظهر من حين لآخر لزيارة
شبهه لودى فروع الولاء والطاعة. زادت قداسة وزادت الصدقات والبركة من المسافرين
على النهر بالإضافة لما كان يحمل الأعمىين. هذه الخصال التي كانت ظاهرة قد جاءت حادثاً
عسكراً صفوهاً للشيخ المعروف بقداسته قد التزم ولحمة احتفالاً بمناسبة عتق ابنائه وزيادة
الفرحة في هذه المناسبة للبركة وحين يسعد الضيوف بكرم الضيافة أصدر الشيخ منشأً مع
عرف القسائل في ذلك الوقت قوة شرعية بأن كل الذنوب التي ترتكب أثناء الاحتفال
مغفورة. وأعلن باسم الله وقف أي قواته لمنع الغناء والرقص كما تنص القواعد الدينية.
ناسك الجزيرة لها لم يشترك في تلك الأفعال الفاسدة وأن بدأت برجة هي ضد كل الفضائل
وأعلن في تأكيد العقيدة أن الله وحده هو خالق الذنوب. وصلت هذه الأقوال إلى مسامع
الشيخ المشهور وبكل السمع للصاحب لاكتشاف ارتكاب الخطأ أمر محمد أحمد بالمسؤول
أمامه. أطاع الأمير الذي يحرم استغفاره ويعترف له بالفضل. اعطى غبطة بمجرد أن أعلنه
وبكل تواضع طلب للفرقة ولكن دون جدوى . شعر الشيخ يجب أن يسود النظام بين
حواريه وأنه يجب أن لا يشمل في عدم الطاعة للفقهاء القديسين. فمضى الشيخ في غرضه
وطرد تلميذه الذي من مجلسه فاعتاد إياه بكلمات مريرة ومطناً شطبة من سجلات
للتحارين. ذهب محمد إلى بيته وهو عيلاً ولكن محملة لم تهدد بعد قداسة مازالت ذات
قيمة إلا إذا شاء هو عكس ذلك، وهي رعية لا يمكن لتراجعته. كان للشيخ المشهور مناس
لا يقل عنه قداسة وأن قاعة أعماله يمكنه أن يرحب بالشيخ الصغير. لكن محمد أحمد لم

يتحلي عن سيده السابق بعد وضع عمود من الخشب حول رقبته وتلحف بلباس كالمصلح للتهور اعتراض تلك التصرفات التي من

الخيش الخش وعمر نفسه بالرماد، عاد لقائدة الروحي وهو في هذه الحالة لازمة طالبا العفو .. ولكنه رد بشكل مهين - لم يشأ أن يزور شيخه غير القصور ولكن حدث أن جماعت مناسبة بالشيخ للجزيرة أبا فظهر له تحويله السابق متطعنا بالخيش وملطخا بالرماد، بدون مراعاة لحاله البائسة أو بدون أن يحركه ولاؤه للعريد الذي لم يكن ينتظره أحد ولكن الشيخ العبد اغال عليه بالمسباب. كان أكثرها إيلا ما قوله " اقرب عن وجهي أيها البدعيلوي القمص " كانت هذه هي النقطة التي قصصت ظهر العمود، لقد تأسف محمد أحمد لكل ما بدر منه، وكرر اعتذاره للشيخ محمد شريف دون جدوى، عندها قرر محمد أحمد وأعلن لكسل حواريه ومريديه بأن العلاقة بينه وبين الشيخ قد انتهت، وأنه سوف يتجه بولائه الى الشيخ الفرشي. كتب محمد أحمد للشيخ الفرشي بالقرب من قرية السلمية، وجاءه الرد بالترحيب فغزم على الرحيل. هنا شعر الشيخ محمد شريف بأنه من غير اللائق أن ينفذ أحد تلاميذه وليشيخ منافس آخره فكتب ل محمد أحمد يقبل اعتذاره ولكن كان الوقت قد فات. شعر محمد أحمد بأنه لم يرتكب أي جرم يستحق تعنت للشيخ معه، وكان قرار الرحيل نهائيا.

انتشرت هذه الحادثة ووصلت أخبارها الى أقاصي الغرب. في دلفسور ظل الناس يتداولون الحكاية، إذ كان نادرًا أن يلقى من عصا الطاعة على شيخه، فسر الناس هذا الأمر بأن محمد أحمد كان يدافع عن الإيمان والعقيدة وأنه أعبروا وجاء من يظهر الدين ويرفع كلمته ويصلح حال الناس. بدأت مشاعر الناس تتجه نحوه لعله يكون للنقد الذي يلقى أسر رقاب القهائل من استعباد الأتراك. ذاعت شهرة محمد أحمد، وبدأ في كل بقاع البلاد التذكير بأنه في يوم من الأيام سوف يظهر في ثياب عظيم "لهدي للنتظر" الذي سوف يقود الناس الى الإيمان والقرب من الله، وتردد السؤال : هل أنت هو للهدى للنتظر ؟ أم ياترى شخص آخر قادم !! هنا قرر محمد أحمد أن الوقت قد حان، استأذن من شيخه الشيخ الفرشسي في العودة الى جزيرة آباء حيث بلغته ومصدر قوته. عاد محمد أحمد منتصرا الى المكان الذي شاهد تجربته الفاسية، وجاء بعلمه الناس يحضون للجزيرة طالبا للتذكير والتقرب مع إخصائهم هدايا كثيرة. كان محمد أحمد يوزعها على الناس إذ كان زائعا في مناع الدنيا. بدأ في

الدعوة في أنحاء كردفان، وقد بلغه الناس جميعاً على الولاء في الإخلاص لنبي الإسلام
وعلاص البلاد. ثم بدأ رسالته لكل رؤساء القبائل والشيخوخ التي لاقت قبولاً طيباً عند قراعتها
على الناس.

تولى الشيخ "لقريشي" فسار مع محمد أحمد للقهاب لكي يشرف بنفسه على بناء قبعة
للشيخ الجليل. فأنصت هذا الأمر كل اهتمامه، وبما هو منتهك في هذا العمل وحصد
مساعدة كبيرة من شعبه ليس في هيئته، ولكنه مشهور مثله هو "عبد الله" أحمد أربعة
إسوان. كان والده رجل دين، ولكنه لم يرث تدينه أو إيمانه بتعاليم الدين. كان عبد الله
رجلاً حازماً وذو سلطة. كان له طموح في التمتع الأول أن يحرر السودانيين من النفوذ
الأجنبي، والغد الثاني أن يحكمهم. وقد حقق المثلين معاً. سبق بعد أن هزم الزبير بملكية
الغور أن ظن عبد الله أن الزبير هو الذي للتظفر خرض عليه عذماته، ولكن الزبير اعترف
له بأنه ليس قدساً، وعليه فعندما ظهر محمد أحمد ذهب إليه، ووضيع نفسه تحت تصرفه
معلناً ولائه.

من أمتع الحكايات سرداً وترفيهاً للحكاية التي يرويها "سلاطون باشا" عن المشاكل التي
صادفت عبد الله قبل أن يصبح الخليفة ويحكم السودان كله يقول "سلاطون باشا" على لسان
الخليفة:

"لقد كانت رحلة شاقة، ولها لم أكن أملك سوى حملي، وكان يظهره جرح قديم،
ولم أستطع ركوبه، لكن كنت أستصله لحمل قربة للياه وكيس الفرة، وكفريش عليه ثوبين
للمصنوع من النمرود للفرول وأسوقه لأملي. كنت ألبس القميص الذي يمز أفراده قبيحاً،
وما كنت ألتصق بشي حتى يعرف الجميع أنني غريب عن الديار. عندما عرفت النيل كنت
دائماً ما أصعب نفس الشحة "ماذا تفعل هنا عد لي بملك ليس لدينا شيء يسرق!!".

أي حياة تلك من الصمود والميوط، لقد كانت رحلة طويلة من إنسان لا يملك حسيو
حملي يهرج دائم في ظهوره لي حكم مطلق لإمبراطورية. إنها قصة ولا في الأساطير. ومهما
كان الطموح لا يمكن أن يتحمل الإنسان أنه يمكنه أن يمر بكل تلك التجارب، ولا كان في
حساباته وهو يحكي قصة صعوده للسلطة "سلاطون" أنه سوف يجي اليوم الذي يتوقد فيه
أكثر من خمسين ألف مقلد لحظهم وهلاكهم، أو تقى ليلة يجد نفسه وحيداً في بلدته

البعيدة في كردفان وأن الأسير سلاطين الذي كان يركع تحت قدميه بكل ذل وتواضع. هو الذي يوجه القوات للطاردة للحاق به.]].

استقبل محمد أحمد عليه الجليل يدون حلى. ظل عبد الله يتابعه في بناء القبة . ثمة الشيخ "القرشي" يحمل الحجرة . بنا القارب بين الرطين ، صرح عبد الله لسلطين بأسمه قبل أن يعلن له من سره كان قد عرف بأنه للمهدي المنتظر.

إذا كان محمد أحمد هو روح الدعوة وحماستها الذي التقى قان عبد الله كان عقليتها للتفكر ، ورجل السياسة العملي بالقدرة.

بدأت الآن للوزارة الجديدة ضد الحكومة المصرية . كان عركها هو عدم الرضا وببرها بؤس الناس في السودان .

بدأ للمهدي في جلب للوثنين وزاد تقوده الى باقي لشع البلاء ، كرر رحلته لكردفان ووجد لجوارها واستعدادا للبيعة والسفالة بالروح والسلاح ، ولم تعد الدعوة سرا. هنا انقطعت للعنو القديم الشيخ محمد شريف أخبار الدعوة وانظر الحكومة المصرية بالتأمر ضدها ، لكنها فسرها بأنها مكيدة نتيجة للعلاقات القوية بين الشيخ وتلميذه السابق . إلا أن الأخبار عادت وتأكدت من مصادر أخرى .

عندها شعر رؤوف باشا حاكم السودان آنذاك بأنه يجب أن يتحرك فأرسل مندوبا لكي يحضر محمد أحمد للعرطوم للمثول أمامه للمساءلة ولإفصاح عن نواياه .

أعطر المهدي بسرعة بتحركه مندوب الحاكم . تشاور مع نائيه وقرر المخاطرة بكل شيء ويجب عليهم تحدي الحكومة دون إبطاء عندما تذكر كيف يمكن لجيش نظامي رغم سوء حاله أن يخذ أي ثمر وسط الجمالهم وبسرعة فائقة لا يسعنا إلا الإعجاب لشجاعة فرلهم.

جاء الرسول ومثل أمام للمهدي بعد أن قابله عبد الله أولاً بما يلزم. سلم رسالته وتوسل للمهدي لكي يقبل أمر الحاكم العلم، كان للمهدي بنصت في صمت لبعض الوقت ولكن عندما أضاف لكي يخفف ويبرر موقفه، أنه يخاف على حياته ولذلك ينصح به بالذهاب للعرطوم هنا صرخ المهدي وهب وانفقا ضاربا صدره بيده صائحاً "بأمر الله ورسوله أنا سيد هذه البلاد وسوف لن أذهب للعرطوم للمساءلة" .

انسحب الرسول مرعوباً وبدأ تمرد الهندي بدأ كل من الحاكم ورجل ثلثي في التحضير للمواجهة ، أعلن الهندي الحرب للخدمة والجهاد في سبيل الله خلاص البلاد من الأجانب أعداء الله والمؤمنين . بدأ في جمع للقتالين وكتب لكل أنحاء السودان معلناً بدء الجهاد، ومادياً الجميع للارتجاع لتحمل المسؤولية، وإعداد العزة والجد فلولاء للصومانيين، وواعداً المخلود للذي يستشهدون . وانتشر الشعار " يجب خلاص البلاد من الترك " ألف قسم ولا دولار واحد ضرائب ، عشيرة في تربة ولا ريال في طلبه .

لم يضيع رؤوف باشا وقتاً كبيراً . أرسل فرقتين من الماشية على رأسهما ضباط برتبة نقيب لكل فرقة وأعدوا لإيادهم بالفرقة حين يتحركون في إلقاء القبض على محمد أحمد ورجاله ، زاد هذا من حماس الضباط ، ووصلوا بالباخرة إلى الجزيرة آبا ، وفي نفس الليلة قرأوا المرسوم من المهادين متضادين . مع منع الظلام فتح كل فريق النار على الآخر ، وفي قمة الصراع هجم الهندي ورجاله ، على إيلهم ، وأعدوا فيهم السلاح حين لمهاجمهم . تجمع القليل من الجنود في المروب في شاطئ النهر لكن عندما أحس قائد الباغرة بالخطر لم يسمعه لمخاطرة بالانتظار ، وترك أولئك الذين لا يستطيعون الصوم نحو الباغرة إلى مصورهم المختوم . عادت الحملة للمعركة بالتيمة . لقد جرح محمد أحمد أثناء الحركة فصار عبد الله يتضمد جراحه حيث لا يرى أحد أن رسول القهري يمكن أن يصبه سلاح العدوان . كسالت أعصاب الانتصار ملحاً ، وانتشرت الأسفار . كيف قتلة من المغنيين بالمعنى والحرب أن يتصرفوا على جيش الحكومة للسلاح بالبنادق والمخوف ، هذا أكد هو الهندي للنتظر . استفاد الهندي من هذا الانتصار بأن دعم موقفه وقرر مع الخليفة الانسحاب غرباً . إذ منس للوكيد أن الحكومة سوف ترسل حملة أخرى ، خاصة أنهم على مقربة من الخرطوم ، وكان عبد الله وثالثاً بأن الجيش قادم . قبل الفكرة وحسب التخليد عين للهدي أربعة عطاء له . أول خليفة هو عبد الله ومن الآخرين على ود حلو شيخ إحدى القبائل التي صارت بالانضمام للتمرد . بدأ الانسحاب وكان له كل مظاهر الانتصار إذ انتف حوله الناس ، وتبعه الكهنة ومهويين بالمعجزة والانتصار الكبير .

ذهب للهدي إلى جبل في كردفان احتمي به ، وأسماه جبل ماسا . الجبل الذي ذكره القرآن (حسب ظن المؤلف) أن القائد للنتظر سيطر فيه . أصبح الآن بعيداً عن يد الخرطوم

ولكنه أقرب إلى فشوة . كان حاكم فشوة "راشد بك" رجل ذو مبادرة ، ولكنه قليل الخبرة بالنسبة لأمر الحرب قرر أن يأخذ المبادرة للقبض على الثمرد ورجاله . بلون أن يأخذ أى احتياطات، سقط هو وجنحه في كمين في يوم ٩ ديسمبر وقتل هو ومعه ١٤٠٠ مقاتل من جنوده على أيدي العرب . رغم قصر التسليح لديهم إلا أنهم عارون أشداء . اعتزت كل البلاد تلك الأخبار . وضحت خطورة الثمرد على الحكومة وحسرت حملة ضخمة قوامها ٤٠٠٠ مقاتل بقيادة يوسف باشا للعرف بسميته . في هذا الأثناء كان للهندي ومن معه يقاتون الحاجة لا يملكون أى شيء . كل ما تحصلوا عليه ينفق على الناس ، وكان أغلبية المحاميين هم بسطاء الناس الذين لا يملكون شيئا ، إذ تمتنع الأعياء من الاشتراك في هذه المرحلة . كان المحامدون شمة جوعى ولا يملكون غير العصي والحجارة ، يملك محمد أحمد حصانا واحدا بينما يعيش الخليفة على قدميه . كان يستنار الجيش القادم بأعداده ، وكان يتأكد من الاتصار بصورة حطة ينفق حتى من مراقبة العسل ، ويحلب زريبة كبيرة وناف الخمير . قبل شروق الشمس هجم الهندي وطفلاؤه وجنوده العراة وذبحوهم من آخرهم أصبحت كردفان تحت إمرة الهندي ، إذ كان النصر حاسما ، وتجمعت لدى الهندي كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة .

خرج الآلاف للانضمام للحركة من كل طوائف المجتمع ، وتأكد للجميع انه "الهندي المنتظر" الذي جاء لإتقانهم من اللذ والمجون . اتفقت كل القبائل العربية مرة واحدة . بدأ الثمرد تلقاها في كل من سنار ودارفور ، هوجمت كل الحاميات المصرية في المناطق النائية قتل كل حامى الضراب والإدارين ولم تنج إلا الحاميات الكبيرة ، وحتى هذه انقطعت سبل الاتصالات بها . وضرب الحصار عليها ولم يبق أى سلطة إلا سلطة الهندي .

لعله من الضروري أن ننظر الآن إلى مصر ، نفس الإدارة الحكومية التي أخرجت الثمرد في السودان هي نفسها التي قادت إلى ثورة حراي باشا . عندما كان السودانيون ينادون بالخلاص من الأجانب ، القاهرين للعروين "بالإتراك" كان الناس في كل مصر ينادون بخلاصهم من النفوذ الأجنبي والأتراك الحقيقيين .! . مثلما اعتز ظن الذين يعيشون عند منابع النيل أن القبائل لم تخلق لكي يستبدلها لوظفرون ، كذلك اعتقد الذين يعيشون عند مصبه بأن الأمم لم تخلق لكي تكون مستغلة من قبل الأجانب والذلتين . لقد وجد الجهلاء في

الجنوب في رجل الدين قائما لهم ، ووجد الأكثر استشارة في الشمال في الجندي ذلك القائد .
 عند أحمد حليم تسلط الأعداء ، وقصع عربى الباب أمام كراوية المصريين للأكراد ، ولكن
 بينما جمع العرب في تشيت جحافل الأعداء ، لم ينجح المصريون في زحمة قوات أوروبا .
 الصلبة . بعد كثير من التمرد والحلولات لايجاد مخرج للآزمة قرر "فلاستون" رئيس وزراء
 بريطانيا من حزب الأحرار إرسال الأسطول الإسكندرية الذي أسكت حاميتها تماما ،
 وأجبت القوضى في المدينة أخيه احتلال من جيش كبير قوامه ٢٥ ألف جندي بريطاني نزحوا
 في الإسكندرية . ولقد تمت العملية بسلام ونجحت في هزيمة التمرد ، وحكم على زعيمهم
 عربى بالموت وانفى عارج البلاد واستولت بريطانيا العظمى على مقاليد الحكم في البلاد .
 واستطاع البريطانيون بسط الأمن في مصر وطرح التمرد في السودان على مجلس الخديوى .
 وبالرغم من الفقر الذى كانت تعيقه الحكومة فإن رغبتها في التمسك بالأجزاء الجنوبية من
 محافظاتها كانت كبيرة عندما أبدت حكومة بريطانيا موافقة بتخصيص لأمانا كانت تسود أن
 تسلك سياسة الجهاد تجاه ما يجرى في السودان ، وتم الإعداد لحملة كبيرة لقهر (السودان)
 للزعم حسب ما كان يعتقد البريطانيون أو للهدى للتطوّر حسب ما يعتقد أهل السودان .
 ومن ثم تم إرسال ضابط متقاعد من الجيش البريطانى في الهند مع بعض الضباط الأوروبيين
 للتحطيم لتجهيز القوة اللازمة في هذه الأثناء كان للهدى محاصر مدينة الأبيض بعد أن
 فشل في فتحها وهى عاصمة كردفان . في صيف ١٨٨٢م بدأ بتجميع القوات الحكومية في
 الخرطوم حتى تكون جيش كبير . لكنه كان حسب ما جاء في رسائل "جنرال هيكس" أسوأ
 جيش ، ولقد كتب "السرواى وود" في يونيو ١٨٨٢م يقول: حرب ٥١ جندي من سلاح
 للمدفعية في الطريق إلى هنا رغم قبيحهم ، ضباط وجنود هزموا وهم يقتلون ثلث حريتهم في
 الثيل الكبير ، أرسلوا إلى هنا ليهلكوا في قتال وليسلبوا الأسمين حريتهم في السودان !! لم تكن
 عندهم أى روح للقتال لا نظام أو تدريب ، وفي قوة من ٤ آلاف محارب يوجد بالكاد دسته
 ضباط أكفاء . اثنتان من هؤلاء حذيران بالذكرة ، جنرال هيكس قائد المجموعة والكونزل فارفر
 رئيس الأركان .

سقطت الأبيض قبل أن تبدأ الحملة "سيرة لخط رحلتها من الخرطوم وكان لتماثلت
 "سلاطين بك" حاكم دارفور بالذرة أهل ، سلاطين كان ضابطا مسلحوا في خدمة الجيش

للمصري. تحرك جيش هكس في ٩ سبتمبر ، وكان يتكون جيشه من ٧ آلاف جندي مشاة ، ٤٠٠ جندي بالي بوزك محمولة ، ٤٠٠ سلاح فرسان ، ١٠٠ صر كيسيان ، ١٠٠ ملاح محمولة ٤ كروب و٦ رشاش " نورمان فيلد " ترك الجيش أم درمان متحركاً نحو السووم . كانت رئاسة الحملة للمجنرال هيكس ، ولكن كانت هناك تدخلات وآراء للحاكم العام "علاء الدين باشا" الذي شغل محل "رؤوف باشا". كان الخلاف في وجهات النظر كبيراً ، وتوحش الضباط من مصر أسود بظنهم ، اتجهت الحملة جنوباً عن طريق شط الرمد . كانت الأحوال العامة سيئة حتى أن عابداً للثريا اسمه جستاف كولتر قد فر هارباً ، وانضم لمعسكر المهدي حيث ظنه الجميع ضابطاً إنجليزياً ، ثم عرضه في طابور في انتصار والملاجل . عندما وصلت قوات الحكومة لمشارف المدينة عرج للمهدي بجيشه إلى الغراء ، وبدأ في عمل تدريبات عسكرية للقوات في تشكيلات حربية . لقد تجمع أكثر من أربعين ألف مقاتل تحت علم للمهدي ، مسنحين هذه المرة ، بالآلاف البنادق وبعض للدافع مع السيوف والحراب . إلى هذا الحد تطورت الزمرة الصغرى التي حاربت في الجزيرة أباً . وكتب للمهدي "هيكس" عارضا عليه أن يستسلم ، ولكن قوبلت الشروط بالرفض بالرغم من أن الاتفاقية كانت ممكنة . لم تعرض الحملة لأي هجوم حتى وصلت للرمد ماعدا بعض دوريات الفرسان التي جاءت في طلائع تراقب تحرك الجيش البطيء . وفي لولي نوفمبر تحرك المهدي بجيشه من الأبيض للاخفاف العدو . وقع الصدام يوم ٣ نوفمبر ، في ذلك اليوم كان جيش الحكومة يجاهد في سبيل الحصول على الماء مما جعلهم ميّداً سهلاً لسلاح جيش للمهدي فسقطوا تاركين أسلحتهم . في اليوم التالي هجم الجيش كله ، كسر جيش الحكومة وفرقه واستمرت المعارك ليوم آخر حتى تم تدمير الغراء فلم ينج أكثر من ٥٠٠ فرد من جيش الحكومة ، واستشهد مئتين من جيش للمهدي ، وقتل كل الضباط الأوربيين بما فيهم القائد هيكس ، الذي مات وسيله في يده وكان مقللاً اكتسب احترام أعدائه الشرهين . فكرم وتم دفنه بمراسم تليق بالشرف العسكري .

أطلق المهدي مائة طليقة احتفالاً بالانتصار الكبير السودان الذي ملكه الآن بنصر من عند الله ورسوله ، وفهر الآن سيد السودان ، وقد حقق هذا أيضاً بقوة السلاح .

لم ترسل أى حالات أخرى بعد ذلك لتتبر السوادنيون بمزقتهم وشحاتهم ، ونالوا الحرية تحت راية قائلهم للقلم ، ولم يتبق للحكومة غير تجميع شتات الخلفيات الباقية وإصلاحها بأقل الخسائر ، وهذه بذلة حكامة أخرى أكثر دموية ، بدأت بالعار والناساة ، وانتهت بالانتصار ودعوتنا تأمل بالسلام أيضا .

أرد الآن أن ألقى نظرة عامة عن حركة للهدى مما لم يسمح به المجال . إن حركة المهدي كانت اجتماعية وعنصرية . كان الناس يعيشون في بؤس روحيهم للعنصرية منهارة ، وما كان في الإمكان حمل السلاح لمرد الكسب للهدى ، ثم جاء للهدى وأعطى القبائل الخماس الندي كانوا يفتقدونه وبدأت الحرب . ومن السهل أن تضع كل اللوم على محمد أحمد ولحملة كل اللماة التي سألت ، ولكن في رأي أن للسفولية مشتركة ، يحصلها أيضا الحكام الظلمة الذين قهرروا العباد ، والحكام لغير الأكتفاء الذين أضاعوا أرواح رجالهم ، والوزراء الفاسدون الذين غلبوا الخيرات . ومهما قيل عن للهدى يجب ألا تنسى أنه وضع في قلوب قومه الفروح والنهاة وحرر بلاده من الحكم الأجنبي . إن بسطاء الناس الغلابة الذين كانوا يعيشون شبه حرة وقومهم لا يخرج عن كونه بعض للحروب الجلفة ، فجأة وجدوا معنى حليدا للحياة بعد أن استطاع للهدى أن يفرس في صدورهم الحبس الوطني الجارف والوزع الدين للقوى . وهكذا أصبحت الحياة ملائ بالإنارة والأحوال للبهجة ، وهناك حياة ملائ بالأشياء الجميلة في دنيا الخيال ، وإذا ما كتبت لهم النجاة هناك أشياء كثيرة جميلة تتطوهم ، وهناك الكثير الذي يجب عمله ، وإذا ماتوا في قتال الأعداء فإن الجنة متولهم ، إن كثيرا من المسيحيين يجلون الإسلام ولكن بعضهم يعتبرون أن للهدى ما هو إلا مدعى دين ساعده الظروف لبلوغ تلك للكافة للهاة . ربما يكون في بعض هذا التفسير بعض الحقيقة ، لكنني أستطيع أن أحرف كيف أفرق بين التي الحقيقية وبين في مدعى مقبول التبحاح . إن بحاح للهدى لا يقل عن بحاحات الفتوحات الإسلامية . مع الفارق . ذلك أنه واجه آلة الحرب الحديثة تدعمها العلوم والتقدم التقني وإذا أخذنا كل ذلك في الاعتبار ، أجد أنني غير متفق مع أولئك المفسرين . إني أعتقد أنه في المستقبل وعندما يجد الناس السعادة في أعالي السيل ، وعندما يستتب الأمن ، ويأتي في ركابه التطعيم والرخاء يجب على أول مؤرخ عربي يدرس تاريخ المنطقة عليه أن يذكر أن "محمد أحمد" كان من أعظم أبطال عصره .

الفصل الثاني

مصر للبحوث

تواجه كل الحركات العظيمة خيرات ينخفض فيها وحج الثورة ويتاكل الحماس
ويشعر الناس بتبخر كل آمالهم الوطنية .

يتحول النصر العسكري الى قوة جارحة، والحرية الى عريضة ، والتسامح الى الظلم
والاستبداد . يتحول الفخر بالعصر الى غرور أحق، والخوف من الله الى تعصبا
وعنافة ويبدو حالة عامة بلا استثناء أن تنتهي كل أعمال الرجال وبمجهودهم الكبيرة
لهيات مؤسفة، تماما ككثبات الذي يطرح الفروع، ثم القنطرة ثم تظهر الزهور الجميلة ،
ولكن سرعان ما يأتي الشتاء فتهيل وتموت . اللهم إلا إذا احتمونا أن الورق الميت تحت
شجرة البلوط يصيبه الصدا والتاكل ليكون بذلك تربة صالحة للنماء تساعد في إنبات
أشجار أخرى بديلة عن تلك التي تموت وهذا من شأنه يشجع على ظهور أناس جدد
على سطح الأرض يتلقون وإن الحركات للعظيمة ما هي إلا نفس الطير الذي يحدث
في دورة الحياة . الثورة للهدية لم تسلم من المصير المنتظر لأي حركة، ولم يمض وقت
طويل حتى تحولت دعاء الوطنية والتمرد الذي إلى بقعة مسوداء في دم الإمبراطورية
العسكرية . بعد أن تم طرد الأجانب وتحرير البلاد من التتار والجنود أعداء العمال
العسكري في الانحسار بعد أن انحطت أسبابه . مع ذلك الحاله الأمنية، تدهورت الحاله
الاجتماعية، وانحسر ثلر الأحوال الشيوعية هي ضمان الثروة، وثروات السودان قد
بددت تماما . لم يبق إلا الوجه المصري والامان بقدمية للهمة التي جاء من أجلها
للهدى، ولكن بعد ان زالت الحوجة الى زعيم بدأت قلنته تضعف . في هذه الأثناء
بدأت تظهر قري جديدة في شخصية التمرد . الانتصارات التي حققها للهدى نتجة
لتعيط الأعداء قد أتت بروح عسكرية جديدة تختلف عن الانتفاخ العاطفي لرجال
التبائل، وهي روح العسكري المخرف .

جاءت خزة ساد فيها الخوف وقلت فيها قوة الدفع المهدي الى أن ظهرت بوادر الغزو البريطاني لشرق السودان ، هذه الخدعة أعادت الحياة للحركة والحماس الوطني، وشعر الناس بأنهم بأن الاحتلال العسكري لا يمكن أن يعود بعد أن تحرر وأمنه. وبالتالي كانت مقاومتهم عنيفة للغاية للعمليات التي قادها سير جبراهيم والورد ووزلي. كان التأخير في إرسال حملة التحدة للخرطوم هو السبب في أن تقال هذا التصور، وبمجرد أن سقطت الخرطوم بسط رجال المهدي سيطرتهم على البلاد بالقوة العسكرية التي ببيت عليها إمبراطورية الدولوش .

كل معارك المسلمين تمثل في قوة التعصب، ولكن بالرغم من هذا التصميم يمكننا القول إن القوة التي هزمت يوسف، وحررت الأبيض وقطعت أوصال هيكس كانت بقوة الدافع الديني، لكن العرب الذين قاتلو جبراهيم واستولت كان قتالهم دفاعا عن الأرض، والعرب الذين هزمهم "كتشنر" حاربوا للفخر العسكري. كان التعصب في شيكان، وكانت الوطنية في أبو كيلي، وكان المتحذرون في أم درمان. ولكي يمكننا وصف الثورة والتضيق الذي حدث لما يجب أن نرجع لمرحلة ضعف البنيان الاجتماعي والنفوذ القبلي قبل أن تشتد القوة العسكرية وتقوى، إذ كان مقتل يوسف قد جعل كل أهل السودان يحملون السلاح دفاعا عن حريتهم فإن مقتل هيكس قد ألحق البريطانيين بأن السودانيين قد فازوا بحريتهم عن جسارة. ولكن الرضا بالبيعة في الاستمرار في الحكم جعلت مجلس الحديوي يفكر مجددا في الاحتفاظ بممتلكات البلاد إذا كان الأمر متروكا للحكومة وكانت هناك محاولات أخرى بالنسة . هنا ظهر أن حكومة بريطانيا قد انحلت عن سياسة عدم التدخل في شؤون السودان، ونصحت الحديوي بالتخلي عن السودان. عندما احتج شريف باشا اضطر اللورد كرافتل لإيضاح كلمة "تخلي" وعندما أيد الحديوي كرافتل باستقال شريف باشا واحمدت سياسة إخلاء السودان . قال الوزراء: دعونا نجتمع للخاميات ونرحل ، كان القرار سهلا، ولكن تنفيذ كان من الصعبه يمكن . كانت أغلب الخاميات قد سقطت في طرفور والأبيض والأعريات إما محاصرة كسار وطوكر وسنكات، أو قطع عليها الطريق الى الشمال كما حدث

للمديرية الاستوائية من جراء التمرد هناك، كانت الظروف ملائمة لثورة مصر. أول دور للحكومة المصرية كان واضحاً .

كانت حكومة قلايستون بعد أن قضت على ثورة عراقى تحضر الحاكم النعلى لمصر وبمك السلاخ . ومن مظهر الاحتلال، تسلم الضباط البريطانيين تدريب وتنظيم الجيش المصري ، والشئون المالية وضعت تحت يد ضابط بريطاني، وكان هناك رجل أحد رجال الأعمال الخيرية البريطانيين ناصحاً للتعليمي توفيق، بينما يرأس الأسطول البريطاني قبالة أطلال الإسكندرية، وكان واضحاً أن بريطانيا العظمى يمكنها ضم البلد اسمياً وفعلًا. ولكن الاستعمار لم يكن أحد أهداف حكومة الأحرار، هدفهم كان للعمل الخير وبدون منافع ، وكما أصبحوا الآن مقتنعين بأن على مصر الجلاء عن السودان كانوا على يقين بأن بريطانيا يجب أن تترك مصر وترحل .

سوف يتضح من هذا الجزء أن كل الرغبة الآن هي الخروج من السودان، وأن هذا حصر الأسس للسياسة البريطانية، وكل قرار سواء للحرب والإطاحة كان لهاها . كانت كل إشارة أو رسالة تدعو إلى قطع كل العلاقات بين البانين السودان ومصر، جميع الصلات الممزقة ، لكن تنفيذ هذا لم يكن بالأمر المين .

إن من المعتاد في البلاد المتحضرة أن يكون هناك سبب قوي لتدخل الدول لإعادة النظام. ظلت الحكومة البريطانية تقرب بمنح جهودات مصر في الجلاء عن السودان وإحضار المحاكمات إلى مصر سائلة. لم تقدم أي مساعدة عسكرية على الإطلاق. ولكنها قدمت النصائح وكان الرأي السائد أن هذه مهمة تحتاج إلى رجال للمهام الصعبة، فكر الساسة البريطانيون كيف يمكنهم المساعدة بدون عناء تكاليف أو مجازفة، في لحظة لعب فيها الشر نطق أحدهم باسم "فردون" . وعرض فردون على الحكومة المصرية إلا أن الحاكم "أيني لين بارنج" وقف ضلعا في البداية على أساس أن التمرد في السودان ذو صبغة دينية، وليس من النطقي أن يبحث شخص مسيحي على رأس الحملة المنقذة . كان رجال الخديوي يفضلون الاستعداد بالزير رحمة ، هذا الرجل الذي قتلوا أبه، صادرو أملاكه واحتجزوه عنوة، ولكن كانت ثقة الحكومة في إمكانية كبيرة. هذا هو

المدبوب الذي تلقى له الحكومة، وقد أيد الفكرة لكل من كان على علم بالاحوال
 الخفية. بعد مقضى أسبوع من رفض سويلفيلين بارنيج فكرة الاستعانة بخدمات الجسترال
 غردون كتب يقول " مهما كانت أخطاء الزير يعتبر رجلا ذا قوة كبيرة وحزم شديد.
 الحكومة المصرية ترغب في الاستعانة بخدماته ويكره باشا حريص على الاستفادة منه.
 من المعلوم لو كان للحكومة حق الاختيار إذن تم اختيار الزير وارسل للسودان لمواجهة
 المهدي بعد أن يتم تعيينه سلطاناً على السودان ومدة بالرجال والعناد كان الاحتمال
 الكثير أن ينهار المهدي في ذلك الوقت بالذات إذ واجهه الزير الذي لا يقل عنه شهرة
 بل ربما يفوقه في الإمكانيات. أمموا لم يكن للحكومة أي خيار وفرض غردون. لأن
 الحكومة البريطانية ما كانت تستطيع التعامل مع رجل كالزير وتاريخه معروف. إن
 الاختلاف بين الرجلين "غردون" و "الزير" كالاختلاف بين خط الاستواء والقطب
 الشمالي. عندما تشابه المسائل في عقول البشر فإن كل الأفكار أحيانا تصل الى نفس
 الاستنتاجات، لم يكن هناك سجلات للرسائل الكثيرة المتبادلة بين الحكومة ومندوبها.
 لكن كان واضحاً من البداية أن "الفييلين بارنيج" غير راض عن اختيار "غردون" نسبة
 لسمعة السابقة، وقوفه من عودة نفس المشاكل والاضطرابات. كان المد في مصالح
 "غردون" قوياً حتى "الفييلين" لم يستطع وقفه. طلب "اللورد ووزلي" في السابع عشر
 من يناير من "غردون" الحضور الى لندن، اجتمع مع المجلس يوم ١٨ يناير وفي نفس
 تلك الليلة بدأ الرحلة التي لن يعود منها أبداً. تحمل "غردون" في مهمته بروح عالية
 مزهوا بشخصيته ذلك الزهو الذي كنوا ما يضل عظماء الرجال وجهيلات النساء،
 وذاكراً انه أعظم شرف يكلف به. كان الرجل عملاً للجميع. الوزراء ارتساحوا لهذا
 الاختيار، وقد أعطى المبعوث الكبير دلالات الثقة، وكان اجتماعه مع الخديوي جيسا،
 حيث أعطى كل السلطة وكل كل أحياء السودان وأهاليه يتصلون التام معه.
 الخارجية البريطانية مع اعترافها بعدم فهمها للأوضاع في السودان قد أعطته سلطات
 كاملة وحرية تامة للتصرف وضعت مائة ألف جنيه إستراتيجي في الحساب الخاص به مع
 وعد بدفعات جديدة متى احتاج اليها، مع التأكيد الكامل سواء من جانب المصريين أو

الإنجليز على الصعلون الكامل. وأيد سر "أيفي لين بارنج" بأنه لا خلاف بينه وبين نوبار باشا وأفكار فردون . وهكذا تحت تأثير تنبؤات متفائلة بدأت هذه العملية المأسوية المشعومة.

بالرغم من صعوبة المهمة إلا أن الأهداف كانت محددة . كرر له "سر أيفي لين بارنج" الهدف الواضح لمهمته هو الجلاء عن السودان "كما أكد الخديوي أيضا" عليك بجلاء كل رعائنا من عسكريين ومدنيين وكل من يرغب من أهالي البلاد التوجه لمصر، ثم تعمل على تنظيم حكومة في اللدنيات للعطفة". كان فردون يحس ثمنا بتقل المهمة، حتى أنه سطر بعض الآراء في المذكرة التي عطاها وهو لا يزال على المركب "سبانجور" ليس من الظلم أن نظهر هؤلاء القوم بدون أي ضمانات لحكومة عادلة . أبده في هذا استبورات الذي كان يوافقه، كل من عاجل في السودان كان يشعر بكره حجم هذه البلاد وقلة نفعا، وكما ذكرت للمذكرة: يلها من قرعة ثقيلة على مصر . الى هنا والاتفاق كامل بين للبحوث وحكومة الأحرار .

ليس هذا مجال وصف رحلته عبر الصحراء من كورسكو الى أبو حمد ومقابلاته مع أعيان بربر أو تصريحاته بالتخلي عن السودان التي كانت طامة عليه . وصل الخرطوم يوم ٢٢ فبراير واستقبل بالأفراح من كل الطوائف إذ كان حضوره مصدر اطمئنان للناس حتى الذين كانوا على وشك الرحيل شمالا تروا غنا بأن كسل إمكانيات الإمبراطورية تقف عطفه . كانت هذه الأعباء مصدر قلق للمهدي ورغائسه، وظن الجميع أن حضور "فردون" سيهجم الجيش لا محالة . أثر هذا الأمر على نحر كائهم وأزعجهم هذا . ولكن قد مدح الأصفياء والأعلام معا- فردون وصل الخرطوم، ولكنه سوف يقي وحيدا .

الظواهر التي شاعدها في رحلته للخرطوم لم تترك لديه أي مجال للتشكك في حجم الحمة التي يحاربها . وجد نفسه محاطا بحركة وطنية جبلة ومد ثوري ضد كل ما هو أجنبي . حتى حدوده سودانيون وهو الأجنبي بالإضافة الى أن بين كل هؤلاء تجار الرقيق العرب الذين طلبا عادلهم وطارهم أكثر حتى من "سر صمويل بيكر" ثم إن الحركة

يدفعها حاكم ديني قوي ، الإسلام يتحرك ضد الكافر ، وهو مسيحي ، حتى جسوده كانوا يؤمنون بالإسلام الذي سطعوا بخارته . كان جو العداء مائلاً أرجاء المكان ، هـما شعر بقوة المقاومة وبالرغم من أمواج الجماهير وفرحتها بحتمه ، وطلقات المدافع معلنة للفريضة ، وبالرغم من الشعور عند الناس في إنجلترا بأن المهمة قد انجزت ، وبالرغم من ان رجالات الحكومة كانوا قد بدؤوا في تمجيد أنفسهم على حسن الاختيار . بالرغم من كل هذا ، وفي نفس يوم وصوله جلس غردون وأرسل برقية رسمية للقاهرة مطالبا بمحضور "الوزير باشا " .

إن علاقة غردون بالوزير علاقة مميزة . لقد قتل سليمان ابن الوزير ، إن لم يكن بأمر غردون شخصيا فقد تم هذا أثناء فترة حكمه للسودان . وهكذا أو كما قال : هل يترك الله فراخا في مستوى أهله ! لم يكن قد تحرك بعد من لندن ، أرسل برقية تشييدية "لابني ابن بارنج " بأن الوزير شخص خطر جدا ، ويجب إبعاده حالا إلى جزيرة " قبرص " لم يكن هذا في مقدور اللورد البريطاني في مصر . وصل الجنرال كالمافسة وراء برقيته وهاج وخضب عندما علم بأن الوزير ما زال موجودا بمصر .

زار غردون شريف باشا الوزير المستقيل قبل أن يبدأ رحلته ، ووجد عنده الرجل الذي حاول أن يتفاداه "الوزير " بحياه بحرارة ، وتكلموا لفترة طويلة عن السودان بعدها أسرع غردون للسيد "ابني ابن بارنج " طالبا أن يرافقه الوزير إلى السودان . استمع صبر بارنج من تصرف غردون وخبر بأنه وليد وقته ولا يعتمد عليه . إذ ربما غشيو رأيه هذا . ألح على الجنرال ، وصارحه بأنه هو رآه فعامة ، ولكن بذممه شعور قوي بأن مشاركة الوزير فيها نجاح للعملية . سافر غردون والفكرة ما زالت مسيطرة على قناعاته بأهمية الوزير وحليته فأنه عندما كرر طلبه بطريقة رسمية من الخرطوم شعر " بارنج " بأن لذي غردون ضاعفة نامة بأهمية إرسال الوزير ، وأن الأمر لم يكن وليد اللحظة .

باعت بالفشل كل محاولات " بارنج " والحكومة المصرية في إقناع حكومة المملكة بالاستجابة لطلب غردون من منطلق أنها أي حكومة لذلك لا تريد أن تكون لهذا أي صلة بهذا الرجل السيئ . أصر غردون على طلبه وأبده زملاؤه في ذلك وأبصر مرة

أخرى في واحد مارس يقول: من الاستحالة مكان أن يجلي رعايا القلعة بدون تنفيذ الطلب الذي أرسلته. رفض طلب اشتراك الزير وأبرق مرة أخيرة يوم ٢٨ مارس "إن لم ترسلوا الزير لا أمل في إخراج الحمايات من هنا" أيد الجنرال "بارنج" هذه التوقيعات بأن الجنرال غردون حق عندما يقول إن أهمية الزير للرجل القوي لتجتاح أي عملية أمر حيوي ، ساند موبار باشا هذا الرأي، وكذلك الرحالة الدكتور بوهندورف ، أضاف غردون أن للبasha شريك ، لكن لا يمكن الاستغناء عنه .

رفضت حكومة الملكة حق مناقشة الأمر حتى لا تكون لها أي علاقة بالزير ، وسوف يذكر المؤرخون صواب أو حكمة هذا القرار. إذ كانت الحساسية بتلك الدرجة تساوي الثمن الباهظ الذي دفع، وهل كان في الإمكان تفادي إخراج الكرامة بالأهوال التي حدثت أو منع حدوثها أصلا . في رأي غردون لو تم إرسال الزير فإن بربر لم تكن لتسقط. إذ كان في الإمكان خلق حكومة تواجه للمهدي لكنهم رفضوا مشاركته لمخاطبه في تجارة الرقيق كأنهم يقولون لنترك ما هو أسوأ .

إذا جاز لنا أن نتشكك في عدالة القرار فإن تبعات أسبابه واضحة للعيان. إما أن تكون الحكومة البريطانية مهتمة بأمور السودان أولا تكون . إذا كانت غير مهتمة كان لزاما عليها ألا تتدخل في تعيين الزير، وإذا كانت مهتمة فكان واجبا عليها تأمين جلاء الحمايات . لقد آمن غردون بهذا، وقال: "علينا أن نعمل على سلامتهم وإقناهم بأنهم آمن" وقد ساند موقفه هذا بعباته . البعض يقول: ليست هي مسؤولية الحكومة البريطانية، وليس من العقل أو الحكمة أن نترك كل الأمور لمشاعر النبيل والفروسيه لدى بعض مواطنيها تجاه الغرباء. إنفخرا لم تسعى حكوم السودان أو تكون سببا في التمسرد أو زرع الحمايات، وليس على مصر توقع أي شيء سوي العطف . تغير كل هذا بمجرد أن رفض الزير. إذ كان دلالة واضحة بأن ما يجري في السودان يهم الشرف البريطاني تماما كالشرف المصري . عتلمنا رفض الشعب البريطاني وليست الحكومة وحدها به. يجب المبادئ التعامل مع الزير فليقا تكون قد ألزمت نفسها بتحرير الحمايات سلما أو بالقوة إذا دعا الأمر. بعد رفض اشتراك الزير ، ساجت العلاقة بين الحكومة والمبعوث. احتار

في ردود الفعل لطلبه، وتقبل أن هذا سيكون مصير أي طلبات أخرى، ولكنه كان يحسرا على الطاعة، فراح يذكر في عخط أخرى للخروج من المأزق . لقد شعر بأنه مسئول عن جلاء هؤلاء البشر الذين وثقوا فيه، ولا يمكن أن يترك مصيرهم للمهني. وثق في البعض وعزيمتهم في وظائف إدارية وصمم على البقاء في الخرطوم حتى جلاء آخر فرد . كانت لدى الحكومة نفس روح المتناد والإصرار مهما كلفهم ذلك . عسى ألا ترسل جنودا إضافيين، أو تتوغل في مجمل إفريقيا . قد تسقط المدينة وتباد الحاميات والبعوث ، ولكن سوف لا يعلم بنواياهم نحو البعث إلى أن يتسرح هذا الجمل والأحيال القادمة ويطوبها النسيان .

قال البعض: كان على الخارجية البريطانية تقديم بعض المقترحات بالنسبة لمثلا على دفعات، طالما سوف تساندها عبارات الشكر والتحميد والثناء اللاحقة، ولكن بينما كان الكثيرون سوف يرحبون بترك مثل هذه الوظيفة الخطرة، فإن الرجل الذي أرسلوه كان قد خرج عن طوع الخميم وأصبح لا يهمه ما يمنون أو يعطون . سارت الأمور من سيئ لأسوأ. إن كل المقترحات التي تقدم لها فردون أصبحت غير عملية بعد أن تم رفضها الواحدة تلو الأخرى . طلب الزير ورفض، كما رفض طلبه قوات من تركيا، لقوات مسلمة من الهند اعتنرت الحكومة عن إعانة الطلب ، ثم طلب للمستغدة من السلطان رفض، كما اقترح أن يذهب إلى الاستوائية بالياخرة رفض طلبه . اقترح أيضا إرسال ٢٠٠ فرد من الجيش الإنجليزي إلى بورو أو حتى أسوان، لم يرسل أحد . وأخيرا اقترح أن يقابل المهدي ليتفاوض معه باسم الإنسانية بما قد يكون لديه من قلب رحيم وقبول طلبه بالرفض التام . أمورا أصبح الصراخ واضحا ولم ينف استيائه . بعد هذا كتب يقول : أحلكم مسئولية التعتلي عن الحاميات وكل الخزي والعار ، إنها قضية الحياة، ثم أكد بقاءه مع حامية الخرطوم .

سوف لن أترك هؤلاء الناس بعد كل ما عتوه ، ولتني لا أجد عياراً لدي صو أن أطلب من حكومة صاحبة الجلالة قبول استقالتي .

لم يست في طلبه ، عندما أحس بالغضب والارادة . عندما شعر بأنه أصبح وحيدا أرسل مكتوبا عاصبا للسير " إيفلين بلونج " يقول :-

أنا أشعر بالرغم من مشاعرك الفيلوماسية بأنك تريد موقفي . وإن كل رجل يشعر في مجال عمله بأنه إنسان كامل الأوصاف ، وكأخبر أمل أرحم أنه تطلب ممن السيد " صمويل بيكر " أن يتوسط لدي الرأسماليين من مليونيرات بريطانيا وأمريكا أن يسهموا في تدبير مبلغ ٢٠٠ ألف جنيه حتى يتمكن من إتمام عملية الإخلاء ، بدون إذن أو حتى موافقة الحكومتين في لندن والقاهرة . أرسل سير صمويل بيكر خطابا طويلا للتسليم اللندنية مبديا احتجاجا مؤثرا ومطالبا في التماس تقديم الدعم والمساعدة للطلوبة . هكذا كانت مظاهر العملية للباسية حتى السجلات الخرساء كانت تن من مشاعر الإحباط وكان هذا بعض الذي يجري . أما عتاج للفتات والبحر والورق فكانت أحداث كثيرة مشوة بحري .

لقد أثار وصول خردون للخرطوم مشاعر التحفظ والحذر لدي المهدي وعظيافته بالرغم من أن تأكيدات خردون في بربر قد طمأنتهم بعض الشيء وأيضا عدم وصول أي إمدادات لخردون . بكل شجاعة قرر المهدي وعظيافته عاصرة الخرطوم نفسها . شخصهم في ذلك عودة الروح الوطنية ومصادر قوة إضافية للثورة إذ يمكننا النظر الى الشرق حيث بالإضافة لكارثة ميكنس قد حلت كارثة أخرى مثيلة . انضمت قبيلة المندلوه في شرق البلاد للثورة المهدية لما هانت من سوء الأحوال وتمسف حكومي . كانت تحت قيادة القائد الخالد المشهور " عثمان دقة " كانت الحاميات في طوكر وسنكات محاصرة وهانت كثيرا ، غطت حكومة صاحبة الجلالة حسن أي مسئوليته . عندما كانت هذه المناطق على ساحل البحر الأحمر لم يمنع هذا من تحريك الحكومة المصرية لإتقاد حاميتها وإتخاذ الجنود المحصرين ، وعليه أرسلت قوة قوامها ٣٥٠٠ محارب من سنكات لنجدة طوكر في فبراير عام ١٨٨٤ تحت قيادة الجنرال بيكر الذي كان من أشجع فرسان " المسار " . تحت مهاجمتهم عند آبار " تيب " في ٥ فبراير من

حوالى ١٠٠٠ عربي . فقلل جيش الحكومة وهرب معظم جنوده تاركين سلاحهم ورايهم ١٤ ساعد قوات " عثمان دقنة " على قتلهم بدون مقاومة .

فشلت كل محاولات للضباط الأوربيين وقائدهم في جمع غل الجنود وحهم على الثبات والقتال . تراجع بيكر ومعه حوالى ١٥٠٠ مقاتل إلى سواكن تاركين أسلحتهم وعددا من القتلى ، ٩٦ ضابطا وحوالى ٢٥٠٠ جندي على أرض المعركة . غنم العرب كميات هائلة من مبالغ كروب وبنادق رشاشة وجيخات وأصنام جنون الانتصار فجمعوا على حاميات سواكن وطوكر واحتطوا بعد أن أبادوا كل ما فيها من قوات . جاء الشر وانتهت للنبذة ، وأصررت الحكومة البريطانية على أن تزيد عليها ، هذه الحاميات التي رفضت من قبل أن تتفحها وتزيد الآن أن تنضم لها .

بالرغم من نصائح غردون عروفا من أن تقفل عليه خطوط الرحمة المحتملة أرسلت الحكومة قوة كبيرة من المسار العائدين من الهند ، أرسلت القوة إلى سواكن تحت قيادة مراهام . تجمعت القوة بسرعة ، وأعطيت عيل المتقدمة (رجال الشرطة) وأرسلت إلى أرض المعركة . نفس المتعلقة التي شهدت للنبذة السابقة . في ٤ مارس قطعت الحملة أكثر من ٣٠٠٠ هندية ، واجهوا البنية على الرحيل إلى مناطق بعيدة . واشتركت القوة في معركة ثانية في " كاملي " وكان النصر أيضا من نصيب الفرقة الإنجليزية مع حصار كبيرة عند العرب . لم يأت النصر بلا ثمن فقد فقدت القوات الحكومية في " التيب " ٢٤ ضابطا و١٦٨ مقاتلا و١٣ ضابطا و٢٠٨ مقاتلين في تاسي . أسفرت هذه العمليات عن نشيت قوات " عثمان دقنة " ذلك القائد للماكر الذي عرف لأول مرة ولعلها آخر مرة معني التقهقر . لقد كلفت تلك للمارك ١٠ آلاف قتل في أقل من ٣ شهور في شرق السودان ، وانصورت قوات الحكومة لتتصارها في نظامها . دحروا أهالي البحر الأحمر أمامهم ولكن في النهاية كما كانت هذه المعارك بلا سبب كذلك كان انتصارها انتصاراً بلا مقابل .

كان من الواضح فشل للهمة بمحرد أن رفض طلب اشتراك الزير وأرسل الجنرال رسائل عديدة كأخر محاولته ، ولكن تم رفض كل طلباته واقتراحاته ، وأصبح السؤال

الآن كيف يمكن لرجاعه سالما ولو بالرغم منه . استعمال القوة هو الحل الوحيد وقد ساعدت الانتصارات في شرق السودان في فتح الطريق ، بربر لم تسقط بعد، واقترح أن ترسل قوة طائرة على ألف رجل سريع لمحاولة التحدث، لكن العملية لم تجد الحماس اللازم في جهاز الحرية. بقي أن ترسل حملة كبيرة حسب إصرار مندوب الحكومة بمصر إلا أن الحكومة تماطلت وضاع وقت ثمين . في ذلك الوقت كان المهدي لا يزال في طريقه من الأبيض إلى الخرطوم .

لقد ساءت الأحوال في الخرطوم حتى قبل القطيعة بين البعث " غردون " وحكومة الأحرار برئاسة فلانهمتون. وبينما كانت الحكومة البريطانية منهمكة في العمليات الانتقامية بشرق السودان ، تحرك المهدي على مهل إلى الخرطوم بتمه أكثر من ١٥ ألف رجل. في ٧ مارس أرسل الكولونيل استوارت برقية من الخرطوم تقول : "إن المهدي أرسل انتداب لتحرير أهالي عندي للانضمام للتمرد، ونخشى أن يقطعوا الطريق علىنا" .

في ١١ مارس أرسل غردون بنفسه رسالة تقول " إن الثور على بعد ٤ ساعات على النيل الأزرق " لم تأت أي برقيات بعد ذلك، في ١٥ مارس تم قطع خط التلفراف بين بربر وشندي، وهكذا اكتمل الحصار.

سوف بحسب لغردون كيف أنه استطاع السيطرة وإدارة الأمور في المدينة المحاصرة لأكثر من ٣١٧ يوما، وهو المسيحي الأحصي وسط آلاف المسلمين والأفارقة، وأنه استطاع السيطرة على ٧ آلاف مقاتل من أجناس مختلفة، وكيف أنه بث روح الشجاعة في قلوب أكثر من ٣٠ ألفا من الأهالي من سكان المدينة، وكيف قاوم بشجاعة عندوا قويا، علوا رغم قسوته ربما يقبل التسليم .

لقد كانت الحادثة القريفة والوحيدة في التاريخ ولن تتكرر ربما لن تسمح الظروف لشخص أن يسجل عواطره ومذكراته، وفيها ذلك الكم من التفاصيل والتشويق، كما سجله الرجل بنفسه فيما سماه "جورنال الخرطوم". لقد مسّت تلك الحواطر قلوب آلاف القراء في أوروبا وأمريكا. لأن غردون غير مكترث ليل عظم

الرجال، فكان من السهل الحصول عليه ، وقيل أن يكمل الجزء الأول من الستة أجزاء للجورنال، كان قد لصق على أصحاب القارئ الذي أصبح في تلك اللحظة ينظر للعالم بعين " خردون " تعاطف مع القراء في السخط على الدبلوماسيين ، واحتقار الحكومة ، وألهمه إنجاز الصور عندما تحيط محولات ضابط الاستخبارات " كتشتر " في توصيل رسائله ، وعاش القارئ معه وهو يصف عساكر الاحتياطي من الشايكية للتعين، أو استغرابه من تصرف الخدم السود عندما يشاهدون وجوههم لأول مرة على المرايا ، أو هو يراقب الديك الرومي وحركته، بين زوجاته الأربع ويرتجف مثله لمصر المركب الصغير "للسينة" وموعرتها والصاري غارقين في ليلها الضحلة ، مركب صغير تمت وابل من القذائف .

ظل يوما بعد يوم يراقب من السطح منظره للعظم النهر تجاه شلالات السيلوقه ، يتوق لأي أثر للبوهر القادمة بحملة الإنقاذ، وعندما شارفت المذكرات على النهاية فإنه من الصعب على أي رجل بريطاني المولد أن يقرأ السطور الأخيرة : أرجو أن تسجلوا "إذا لم تصل حملة الإنقاذ ، وأنا لم اطلب أكثر من ٢٠٠ رجل ، في ظرف عشرة أيام فإن المدينة سوف تسقط ، فقد عملت كل ما في وسعي لشرف بلادي ، مع السلامة". وينون إثارة، والى اضطرابات جوقاء أو قنارات بلا قيمة انتهت للمذكرات، وساد الصمت وعم الكون السكون .

أرسل الجزء السادس من الجورنال " في ١٤ ديسمبر، وكان هذا آخر جزء ، عندما شعر القراء بحزن وأسف لقد رقى طيب وشعروا أيضا بغضب دبن، فالأشياء التي كان يذليها الخيال أنزاعها جانباً قوة الحقيقة ، من تلك اللحظة لم تسجل الملاحظات المأسوية في نهاية "خردون " .

أريد هنا أن أختار أحد أجزاء " الجورنال " لكي تعطي صورة عن شخصية خردون الغربية البوصة وتصرفه حيال سلاطين . المعروف أن سلاطين كان ضابطاً مساوياً في خدمة الجيش المصري برتبة " به " وكان حاكماً للفرور استطاع أن يدافع عن المدينة، واشترك في معارك كثيرة ضد قوات للهدية ، جرح عدة مرات وبحس

مرات، ولكن في النهاية قل حملي للقاتلين الذين معه وشعر بعضهم بأن عدم نجاحهم النهائي يرجع إلى كون قائلهم شخصي كافر. في الكتاب الذي ألفه بنفسه " السيف والدار " شرح كفاحه أثناء الحين التي مرت به، بأن الكتاب يدل على أن سلاطين شخصية ذات مشاعر وشرف، وقد تعاطف شعور بأنه كافر وسط مقاتله عندما أعلن إسلامه واعتنق الدين الإسلامي فهال وحاله هذه الخطوة التي إن أطلقت مقاومتهم بعض الشيء إلا أنها لم تنجح، واضطر أخيراً للتسليم لقوات المهدي. خاصة بعد هزيمة هيكس. كانت خطواته في الدخول في الإسلام لنيل الانتصار قد حققت له السلامة، إذ استطاع أن ينال إعجاب واحترام العرب، وظهر هذا في معاملتهم الكريمة في بداية اتصاله بهم. لقد وصل سلاطين مع باقي الأوروبيين لمعسكر المهدي خارج الخرطوم، وكان طلباء، لكنه مراقب بلا شك. لقد انتهز أول فرصة وكتب خطابات لفردون طالباً السماح له بالمحروب واللجوء إليه مبهناً حذره في ارتكابه عن الدين المسيحي؛ كل الذي يقرأ تلك الخطابات لابد أن يتعاطف مع هذا الشخص الذي أمضى ١٢ عاماً شاهداً محالاً كل الأهوال، لكنها لم تحرك ساكناً عند فردون. فسوره أنه يضاف إذ يتبع هروب سلاطين انتقام المهدي بقتل كل الأوروبيين في صحبته، وأثبت الأهم عطاء هذا الرأي. لم يقتل أحد عندما هرب سلاطين فيما بعد والأمر المقبول إذا أصبح سلاطين في الحرب فاللوم على صاحبه، وإذا قتل المهدي الأوروبيين فإن الذنب ذنبه. لم يكن فردون مرناً، إذ كانت نظراته لسلاطين نظرة لزمراء حتى قبل أن يتسلم رسائله. كتب فردون معلقاً: بعد المرء تسلياً في تصور هذا للزوج المعيب من البشر الذي يرافقه المهدي. أوروبيون قسوة ورهابية، إغريق وخطاط غسليون! عساكر وكباتن. كان حذراً من الظروف التي أدت إلى تسليمه للمهدي. يقول سلاطين كان عند الإفرقيسي ٤٠٠٠ يردب درة وألف وخمسائة رأس بقر وكحية كبيرة من اللخيرة، وقد أعطي هو ثمانية عيول. أنه سوف لن يأمن مثل هذا الرجل، وكتب يقول كل المعلومات التي أرسلها يجب التعامل معها بحذر. اللحظة الحاسمة جاءت عندما طلب من سلاطين أن يكتب لفردون ليعلم استسلامه، غير سلاطين الطلب ليقود هروبه. في ١٦ أكتوبر

وصلت اللحظة التي لأرجحه فيها، وصلت خطابات سلاطين. فقال غردون إنه لن يعلق عليها ولا يفري لها كتب سلاطين ! إنه لأمر يوسف له ، كأنه أصف رجل علي فأر . وقال إنه لن يكون له أي صلة بسلاطين. يجب أن نذكر أن موقف سلاطين لم يكن موقف ضابط تحت المصطفى ولكن سجين حرب ما زالت مستمرة، وكل الأعراف تعطيه الحق والفكر في الغروب لتحرير نفسه . بالطبع لم تنجح أي فرصة لسلاطين لشرح موقفه. بعد أن اكتشفت خطباته اعتقل وكل بالسلاسل، وكان كل طعامه من الخبث الجافة تماما كالحيوانات. وصلت كل هذه الأخبار لغردون، فكتب: " سلاطين ما زال تحت الأغلال " ولم يترك لحظة في صحة القرار الذي اتخذته حياته. قليلون هم الذين سوف يحكمون بأن وجهات النظر كانت متوازنة ، غردون لم يردد وكان حازما رغم أنه يحتاج لسلاطين . كانت حاجته ماسة لتائب كفه يثق نفسه، رجال مثل "جسي" أو "ميتافليا" يمكن أن ينهبوا عنه في تكليف الجنود وإعطاء الأوامر ، لقد ظل يردد نفس الأمر أكثر من مرة حتى (زهج) من حياته .

هذا الرجل كان يريد خدمات الزير لكنه انحنى للعاصفة، ولو أن الزير لم يرفض نداء سيده . تفاصيل الدفاع عن مدينة الخرطوم لم تكن ضمن مذكرات "الجورنال" وليست لدي رغبة في تصنيفها حسب التسلسل الزمني . بعد ١٠ سبتمبر عندما أرسل غردون كل من "استيوارت" و "بلور" و "هيون" على ظهر الباهرة "جاس" التي لاقت مصيرا مشموما ظل وحده تماما متحملا للمسئولية كاملة بلا وفاق في مكائده، ولا مساعد ثقة يمكنه أن يعتمد عليه وكانت النتيجة الخيبة هي الفوضى الكاملة ، التهاون وللأوامر بين الضباط والجنود . تراخي نقاط الحراسة، سرقة للون، الجواسيس يملأون المدينة، انتشرت السرقات وانتشرت البروح للفتنة للأهالي، لم تعد المدينة في موقف يمكنها من الدفاع عن نفسها. ظل هو وحيدا يراقب معارك البواخر الصغيرة وهي تتناوش قوات الدرونيشي واضطر أن يترك أمر القتال إلى ضباط مستهترين غير أكفاء .
ويأتي الظلام في حرمه من مشاعلة أو مراقبة ما يجري، وبالطبع لا أحد يشرح له ما يجري من أحداث - كان "الجورنال" هو مخزن أسرار ومصدر ثقته الوحيد،

وكان يظهر عمق ومرارة معاناته بنفس القدر الذي يظهر عظمة شخصيته . كتب يقول " ليس هناك عدوي تعادل عدوي الخوف " أصبحت قلقت وفقدت شهيتي للطعام بسبب القلق والانهيار ، وكان من يشاركونني المائدة يجلسون بنفس الشعور والإحساس وأصبحت المعاناة العسكرية ، كل أنواع المصوم التي تؤثر على روح أي إنسان . كان النساء يتصارعن على قنينة العيش ، كالمساكين كل اليوم عليه . علاقه مع الحكومة البريطانية أثر على نفسه وزرع إيمانه بقدراته هل ياترى أعطاه التصرف ؟ هل كان عادلا ؟ ظلت هذه الأفكار تنخر في شعوره وروحه. اليوم الذي أصاب الأهالي كان يؤثر على قلبه الطيب ، الوحدة الثالثة سببت له الإحباط الكثير ، وظلال الشك وعدم اليقين بدأ أركان المكان . كان لأمر لحظة علاوة الأمل المتفادع بأن كل شيء سيكون على ما يرام وأن الصباح سيأتي بالقوات الإنجليزية وملابسها المميزة تحملها البواخر ، لقد حرم الرجل حتى من الحذر اللازم للناس .

أمران مكثا جردون من الصمود ، شرفه كرجل ، وإيمانه كعسكري ، الأول جعله إنسانا واضحا ينفذ ما يؤمن به بدون تردد وبلا أي أسف أما الأمر الثاني فإنه كان مسروره قوته الحقيقية . لقد كان مؤمنا بأنه رغم كل الصعاب التي يواجهها في هذا العالم ، فإن هنالك عالما أفضل في انتظاره .

قال مرة مازحا لأحد أصدقائه " انظر الى ، ممي حفنة جنود لأقودهم وليس لذي مدن أحكمها ، يوما ما سيطلق قنوت سراح حريتي ، وأذهب حيث هنالك جنود حاشنة ومدن كبيرة ، كلها تحت إمرتي " وهكذا كان أمل الناصر في عطاؤه ، وفي وسط حدة المعارك يشتد التحلي بالنظام والروح القتالية والقدرة في فنون القتال ، ويزيد تفتيح القتال الانصباح للأوامر وتحمل للصعاب طالما كانت للمعركة قصوة . لكن عندما تدهورت الأحوال تطعم للوقت ، وتفشل كل الترتيبات يضطر الرجال لقبول ما هو متاح . لأن الرضا يعني اللطم . تبقى الحقيقة المرة هي أن الخوف هو أساس الطاعة . كانت المدينة وكل ما بها يتماسك من قوة الخوف ، وكتب يقول " من الهزن والمولم أن

تري الرجال يرتشون وهم في مواجهة* ومع كل استعمال كل الطرق ليكون القسوة لكل بمجهوداتهم .

عندما دنا الشتاء بدأت المعاناة من الحصار وتناقصت الآمال في الوجود بأن النجدة قادمة، وكان أمر التحكم في الظروف والتمسك بالروح العالية يفوق طاقته أحسن للرجال إلا أن " غردون " كان لها .

لم تشع روحه العالية كما توهمت في أحلك الأيام ظلمة وصعوبة، وعندما انضمت القنود، كان يصنع الأوراق ويحضي عليها بنفسه ويعطيها للجنود، أمر فرقة الموسيقى أن تدلوم على المزف وأن تطلق الصواريخ لطمأنينة الناس ، عندما سرت إشاعات بأن القائد أصبح وحيدا بعد أن قاطعته حكومته، وليس هنالك أي وحدة قادمة، سارع إلى الأمر بأن يملأ جنودان المدينة بأعيار الجيش الجرلو وقوة انتصاراته في طريقه للمحيط، وطلب أن تاجر للتأثر الضعيفة على ضفاف النيل لسكن كبار قادة الجيش الإنجليزي القادمين !! استطاع هذه الجهود والتطورات أن تكمالك المدينة، وأطال الشطاح عنها طيلة صيف وعريف وشتاء عام ١٨٨٤ وحتى عام ١٨٨٥ .

سعال كل هذا الوقت كان القلق يتزايد ، إذا كانوا يتخلون عن غردون فانهم لن ينسوه، كانت أخبار حملته تابع بالاعتناء في كل أنحاء البلاد، وكان فشلها يسبب ضيقا شديداً، وحلت محل حية الأمل نذر الخطر .

لقد أثار لأول مرة عضو مجلس العموم اللورد واتمولوف تشرشل في يوم ١٦ مارس قضية سلامة المبحوث العلم، وانتهاز الفرصة وهاجم الحكومة على اللذابح في شرق السودان وفشلهم في فتح طريق سواكن وبربر، وواصل تطهيره من عطفورة موقف الجنرال غردون في المحيط .

أكد أيضا الكولونيل كوتكوجن بأن المحيط يمكن أن تسقط في أي لحظة، وأن الجنرال غردون يحاط بمقاتل عدائية من كل جانب، والاتصال مقطوع بينه وبين القاهرة ولندن . وسأل ما هي الخطوات التي اتخذتها حكومة صاحبة الجلالة لصدته وإعراجها

حيا.؟ وتساءل هل ستبقى الحكومة على عدم اهتمامها بالرجل الذي أرسلته لتد - سوية
المشاكل التي تخصها وتركة وحيدا يجاهد بمفرده دون عطفة واحدة لمساعدته .

استمرت الحكومة في سلبيتها، أعطى اللورد "فيلدمورس" بعض السرود مع
مهمة ومئات بعض النواب، ولكن ظلنا نضع للوضع فسوف يستمر النقاش . - ،
الفضل لحساس الرجل الشاب ، فقد ازدادت المعارضة للحكومة . وردود من -
"فيلدمورس" كانت كلها غريب، وإثبات الصحف الاحتفلة، وكبرت حملة المعارضة
حين من بعض نواب الحكومة ! استمر النقاش طويلا، وفي النهاية ألحج اللورد
"هارتينجتون" بأن هنالك حملة سترسل في الحريف .

كشف مستر "فومستر" معارضته الرئيسية، وامتد النقاش خارج مهاني البرلمان
وأصبح المضجيج عاليا.

إن الطريقة التي عالج بها مستر "فيلدمورس" الأمر لم تكن إطلاقا من منطلق عدم
الاهتمام، ولكنه كرجل وطني يدين للعمالء بالمكانة العظيمة التي وصل اليها كانت له
وجهة نظر. إن إرسال جنود شاربة القنابل البدائية بالمقارنة مع إلكترونيات الإمبراطورية
ليس بالأمر الصعب أو مستعجلة لا يستطيع تحملها رجل في مثل وزنه. لكنه شعر بأن
الأمر لا يستدعي إقحام جيش الإمبراطورية في أمور بحري في قلب السودان فهد إلقاء
شخص وطني واحد . كان يري أن ما على غردون لو رغب في ذلك التحرك بالبوامر
لخارج السودان ، كذلك كانت مشاعر الرفض ضده وهو الضابط الذي جر كل هذه
للمشاكل على الحكومة، ولكن بالرغم من كل قوته و ثقوفه قى النهاية اضطر للرضوخ
للضغوط الكثيرة. كان اللورد "هارتينجتون" مسكرتو وزلة الحرية أنذاك للدينسو
المحرك وراء قرار سرعة التصرف مما عليه الشرف على المجلس ومطالبة . للشعب، وقد
أيده كذلك القائد العام ووزير الدفاع . كانت موافقة مستر "فيلدمورس" مشروطة بأن
تكون الحملة من طرف واحدة ، اجتألت الحكومة في التحرك وأعلن على الأمة شبه
التحرك في هذا الاتجاه . إلا أن القائد العام أصر على أن تكون الحملة من عشية آلاف
رجل يتم تكويدها من كل وحدات الجيش ، كان من المستحيل تغيير الخطة في هذه

المرحلة، وبدأت حملة إيتاذ " فردون " واعتبر القائد " سوراتش كشنز " للذي كان على علم بالمهام التي تواجهه. لم يكن يجري خلف انتفاخ مثير يمكن أن يحقق انتصارا. مثبرا أو بأن عاسة عظيمة ، كان التعطيل المثالي هو طريقه للمعركة ومخطط ودبر كل شيء لكل الاحتمالات، متى يكون التقدم بطريقة مدروسة ومعلومة .

بدأت القوات والهجمات تتجمع عند وادي حلقا . تكونت فرقة المحاربة الجديدة ، تكونت من أربع كتائب بدأت الترتيبات اللازمة، ولكي تدير البواخر فوق الشلالات أحضرت فرقة بحرية من كتبا ، تحت كل الترتيبات وبدأت العملية . كانت الخطوة بسيطة. أن تعبر فرق المشاة بالبواخر على النيل ، وإذا تأخرت تكون هنالك فرقة المحاربة الجديدة في طريقها عبر الصحراء ، صحراء البويزة من كورتي الى النعمة. عند وصولها هناك ترسل قوة مع بواخر " فردون " للتعطيل لتقوية الدفاعات حتى وصول القوة الرئيسية في مارس أو أبريل عام ١٨٨٥ حتى يتم ذلك الحصار تدريجيا .

كانت شخصية العملية التدريسية مثلاً عميل الأمة وتابع الناس أعيان التقدم عن طريق النهر باهتمام شديد وقهار بكل التفاصيل :

كان وصف مصر فرقة النهر من نصيب للشخص الذي اشترك بدور فعال في هذه المحاولة . حملة الشلالات كانت عملاً شاقاً تتابع يوما بعد يوم ، صفوف الجنود معهم يهررون الجبال أو يندفعون للقاذيف للمراكب ذات الأجناف العريضة ، حتى إذا ما حله الليل هسكروا على ضفاف النيل وعلى رمال " صحراء المناصر " الموحشة ، كان ما يشعهم أن ثمة كفاحهم سوف تربي أكلها بمجرد وصولهم الى منحني النهر عند " أبو حمد " حيث متحلمهم من هناك الرياح الشمالية بسرعة للتعطيل بسرعة أضاف سرعته السابقة .

بدأت فرقة الصحراء رحلتها من كورتي يوم ٣٠ ديسمبر وكانت قوتهم لا تزيد على ١١٠٠ ضابط ورجال، ولكنهم كانوا حفرة المقاتلين في الجيش ، أنزلوا ومائل الاتصال وأعدوا طريق القوافل الى النعمة . للمعلومات التي تحصلنا عليها عن مصادر القوة عند رجال للهدى ، نجلنا تفهم حجم الحصار التي منوا بها بالرغم من أنهم غير

مدربين ولا يملكون أي سلاح حديث، إلا أن أعدادهم كثرة بقلوبهم لا تعرف الخوف. كانت أسلحة القوة الإنجليزية أيضا ليست في قوة الأسلحة التي استعملت في العمليات النهائية، كانوا مسلحين ببنادق "في ملفورد" بدلا من "مارتيني هنري" يحملون "قاردير" بدلا من "للاكسيم" للميت تلك البنادق التي هي نفسها التي فشلت في تامي "ومرة أخرى في" أبو كليا " بالرغم من هذا سارعت فرقة المحفظة بالالتحام بعدو يستحق أسلحة متطورة أكثر من هذه وجيش أقوى ١٢ مرة .

وصلت القوة يوم ٣ يناير أيار جندول بعد ١٠٠ ميل من بدء الرحلة ، نأهز سفرهم لانتظارهم فرقة أنصري تحمل اللون الى "جندول" وقضوا ذلك الوقت في بناء طابية وعازن للون حتى وصلت باقي القوة، وأصبح العدد يفوق ١٨٠٠ محارب ، لم يتحركوا حتى يوم ١٣ يناير، عدد الجمال لم يكن كافيا وأكلها كان من نوع سيئ بالنسبة للعمل الشاق الذي تقوم به. وعندما وصلت القوة يوم ١٦ يناير الى منطقة "أيسار أبو كيلي"، اصطدم الجيش بقوات من العدو . وصلت أنباء القوات القادمة الى المهدي بأنها لا تعدى ٢٠٠٠ رجل من أعداء الله الكفار ، حل جنودا لم يسموا بمهمة هيكس وجيشه العظيم ، كما ذكر سلاطين سمحت قوات من قوات الحصار حول الخرطوم وأرسلت تحت إمرة أكثر من أمير حتى بلغت القوة حوالي ١٠ آلاف محارب بعد أن انضمت اليها قوات من قبائل المحليين .

وقلت فرقة المحفظة عند "أهل أبو كيلي" وسمحت قوات للمهدي للفرقة الصغرى بأن تتقدم حيث لا يمكنها التراجع . هنا بنت الفرقة طابية صغيرة وعازن للون ولإيواء الجرحى ، بدأت القوة المحجوم في الصباح بعد أن هبت نفسها تماما للقتال .

بدأت أشرس معركة تشترك فيها قوات بريطانية للتصدي للقوات العربية معسكر القوة وألقوا بما إصابات عديدة . قتلوا ٩ ضباط و ٦٥ جنديا ، وجرحوا ٩ ضباط و ٦٥ جنديا أي حوالي ١٠% من القوة العسكرية القادمة . تم إجلادهم من المعسكر بعد مدحمة رهية، وعسكر المحفظة عند الآبار . في صباح يوم ١٨ ارتفعت القوات، دعت موتاهم ورائعت الجرحى في الطابية التي بنيت لهذا الغرض، وعند الظهيرة استأنفت

للسيرة ، وطوال الليل حتى قطروا ٢١ ميلا وأصبحوا على مشارف النهر حوالي يوم ١٩ .
 - تجمع جيش الأعداء واستطاع بعد ضرب مركز أن يلحق بعض الخسائر ، قتل سير " هوريت استيوارت " من جراء جراحة ، وحل محله سير " شارلس وليستون " . كان الموقف متأزما فقد أصبحوا على بعد حوالي ٤ كيلوا ابتداء من النهر ، ولكن بينهم وبين النهر قوات الدراويش المتأخذين على عساكرهم . لكنهم يطمون الحالة الصعبة التي بقي عليها جنودهم المتعبون فتقسمت القوة المتأخرة الى قسمين قسم يقسي مع المسون والمحرمي ، وحوالي ٩٠٠ مقاتل زحفوا نحو النهر ، هنا انتهز الدراويش الفرصة وهجموا من كل صوب ، علموا بأنهاء الصحراء . انتم كثرة وهم قلة . إن النصر حليفكم وفضاء وقف إطلاق النار . انتهت الذخيرة لديهم . هنا اتفري الجندي الإنجليزي المدرب لإصابة الهدف في مقتل وتساقط الأبطال بجراحهم ، ورجع البقية راحلين يمشون لأهم لا يمكن أن يهربوا . للمقاتل لا يهرب ، عادوا الى المدينة .

جمع سير " شارلس وليستون " رجاله وبقي ٣ أيام في اللتمة قبل أن يتوجه الى الخرطوم . لقد كشف الأسباب المتبعة لفقاده عن أهمية الوقوف . إذ لا ينتظر من قوة حاربت هذه المسألة أن تسمح بضياح لحظة واحدة . في اليوم الرابع أعيد سير " وليستون " الباهرين الثابتهين لفردون الاثنين كائناً في انتظار القوة ، وأعيد ٢٠ جندياً بريطانياً وقليلاً من ذوي الهبات الزرقاء ، " البهارة " وأمر نحو شلال السبلوقة . لقد كان ماجري لم أقرب الى الحكاوي الرومانسية أكثر من للمركة ، كانت المراكب تندفع على مجري النهر مع تيار الشلال القوي بين طلقات بنادق الدراويش من كل جانب وأصبحت غلاية البهارة بخدفة ، وتم إصلاحها في نفس اليوم ، منظر سير " استيوارت " وورتيكي " وهو يهدف عائداً الى اللتمة لطلب النجدة ، الرصاص ينهمر على الباهرين من كل جوانب شاطئ النيل ، فجأة انجذبت أنظار الرجال الشجعان نحو القصر فلم يروا العلم ، و عندها أحسوا أنهم قد حاصروا بعد قوات الأوان .

وصلت أخبار الحصار في "أيوكلي" و"أبو كروا" إلى المهدي، وكان الموقف خطيراً ولا يحتمل أي فشل آخر إن نجح الثورة كله مبنى على الانتصار، وقرر التحرك السريع، في يوم ٢٥ يناير، وجاء اليوم للنتظر.

عند المساء عزفت الموسيقى كالمعتاد وروينا نغم للظلام.. وعطد سكان المدينة الجوعى إلى النوم. شعر القائد الذي لا يقهر بأن الأزمة على الأبواب، ولكنه عاجز عن تفاديها، وكان راضياً عن نفسه لأنه عمل ما عليه وما عطد للنوم أيضاً. في هدوء الليل تسلل العدو الوحشي إلى داخل المدينة. كان هناك شك في أن الجنود المتعبين الجوعى للمهيكين من الحرب قد أخذوا الحراسة اللازمة، انتهز العدو الحصار جزء من الليل الأبيض الذي ترك فراخاً بين الليل والحائط، ومع سماع دوي هائل تنجس لانفجار البارود والصباح دخل آلاف الدراويش الخروطوم من خلال الأجزاء غير المؤمنة.

ذهب جزء من القوة إلى القصر، وظهر فرعون ملاقاتهم. امتلأ الجو بالرهبة وللعان الرماح، بأدركهم بالسؤال: أين قائدكم المهدي؟ لقد ظن أن بإمكانه إنقاذ بعض السكان، كان يعرف مدى نفوذه بين الأهالي المهلكين، جاءت لحظة شعر بأنه لا يواجه نهباً مزعوماً لكن أيضاً أوربيين تذكروا لئلا يتهم عندما صيروا بين الموت أو القرآن وكان محاصراً بدائرة التمسب الوحشي، مع شجاعة تدفعها قوة العقيدة واستهتار شديد بالموت طلباً للشهادة.

لم يتمكن من عمل شيء مع جنود الفرحة بالانتصار والانفراج الديني، هجموا عليه ولم يحاول حتى استعمال مسدسة، ولفلوا عليه طعناً في أجزاء مختلفة في جسمه، وقع على درجات السلم، هناك أجهزوا عليه قطعوها الرأس وحلواها للمهدي، وأعملوا في باقي الجثة حتى لم يبق منه شيء إلا أكوام لحم وعرق حمرة ملطخة بهالدم، هذا الشخص العظيم المشهور ومنسوب مملكة بريطانيا. ظلت يقع الدم الأسود في نفس المكان كما قال "سلاطين" كان العرب يزورون المكان مراراً، وذكر "أوهروندر" أنه شاهد يقع الدم الأسود على الملاط بعد ٦ أسابيع من سقوط المدينة، ولكنها احتضت بعد ذلك.

هكذا وباعتصار كانت قصة الخرطوم ومقتل "غردون". وكان وصول الباخرتين بعد يومين من سقوط المدينة قد جعل البعض يتساءل لولا التوقف في التتمة لثلاثة أيام لكان بالإمكان تفادي الكارثة. هذه المقولة غير صحيحة. كانت الخرطوم تحت رحمة العرب منذ وقت طويل. كان أمالهم في نجاح الحصار حتى يخطروها بدون قتال، ولا يكرروا تجربة الأبيض للريرة، غردون نفسه كتب في الجورنال: "إن للمدينة لا يمكن للدفاع عنها منذ منتصف ديسمبر". إن وصول ٢٠ جنديا بريطانيا ما كان ليغير من الأمر شيئا بل بالعكس كان سوف يزيد في حجم الخسارة.

ولكن كان الشعور السائد عند الجميع وكل من يقرأ الحكاية، يأمل لو أن أي وحدة وصلت للرجل الوحيد قبل حلول الظلام، لو صافحت يد إنجليزية حتى يشعر أن أبناء جنسه لم يتخلوا عنه لم ينسوه ولن ينسوه.

من الاستحالة أن تعرف الحكاية التي يتبناها "شارلس غردون" في التسايرج الإنجليزي ولكنها حتما مكانة سامية. هل سيوضع في مكانة القائد غاما كبير بروره، وولف، وكلايف، سهرور في ذلك الذين سوف يأتون من بعدنا.

يمكننا أن نقرر على كل حال أنه رجل مثالي للشرف والشجاعة للتضحية ولقد دلت شخصيته على عبقرية خلقة. لم يكن يعنيه التشريف والمباهج الدنيوية، كان على يقين بأنه سيجد للكفافة في دنيا مستقبلية. كان تشدده الديني لا يقف في طريق شخصيته الودودة. كان تقلب المزاج عنده سببا في عدم رجاحة بعض أفكاره، ولكنها لم تؤثر على صدق نواياه. إن التشاؤم الذي وضع لغردون مع الضباط المظالم الذين عمدوا في البحر أو الأرض أصبح مزلزا لاختلاف للنظر لكل المارة. لأن قصته يعرفها الجميع حتى سكان الأحياء الفقيرة في لندن ومن كل أنحاء المملكة المتحدة. ينفذ التشاؤم في هدوء بالرغم من ضجة حركة المرور، عني الرأس في تفكير عميق، حول مشاكل السودان المظلم، غير عابئ بضجيج الرجال وسائلا. ما هو القبول عند الرب؟ ١١ . .

بعد الاستيلاء على المدينة وموت للبحوث اختفت أسباب الحملة، ولم يبق إلا انسحاب القوات. للذين بقي حتى ما عبر الصحراء مع كل التكليف، تم التخلص منها

بسرعة برميها في النمل. البواخر للصاغة والتي انتظرت طويلا في التمهيد تم تفكيكها ،
فرقة المحانة بعد أن ماتت كل الجمال التي أتت بهم رجحوا واجلن الى كورتى ، كان
يجب الإسراع في الانسحاب نسبة لقوة العدو للتصير. قوات النهر التي استطاعت أن
تغير آخر حاجز للباخر اضطرت أن ترحل مع التيار الذي كافحت ضده كل تلك
الليلة - سارعت بالعودة بكل قوة للحملة. وحدات الحايكترز ، البحارة ، الحصار ، والجنود
المود ، البعال ، المحانة ، والدفعية كلها تراجعت زحفا على رمال الصحراء ، تاركة
وراءها المد المسمى الذي غطي كل أنحاء البلاد . استطاع ضابط مصري شجاع
الصمود لبضعة أشهر في حامية كسلا. لكن الجماعة والحصار أجبراهم على التسليم و
نأظم نفس معبر الحاميات في الأبيض ودففور. وسوياط وطوكر وسنكات وسار
والخرطوم، وهكذا تم الجلاء عن السودان .

الفصل الثالث

إمبراطورية الدراويش

ربما تبادر للأذهان لميزات الكثيرة والعظيمة التي نالها شعب السودان ليتحول من جماعات قبلية متناحرة إلى مجتمع متحد حرر نفسه وبهيش كأمة موحدة قوية تربطها قوانين عمودية ، وبمحكمها نظام واحد للحكم . لكن كان هناك بعض أشكال الحكم المركزي السيئ البعيد عن أي إصلاح ، حكم رجعي ، ومكلف وعالم ، وهو الحكم العسكري . هذه الثنائية تحدد لا على حسن الثقة وحسن النوايا ، ولكن تعتمد على المحافظة على النظام والطاعة العمياء للأوامر ، الخوف المشترك ، وليست الثقة المشتركة هي التي تحكم علاقات الأعضاء وتطور التعاون . أثبتت سجلات التاريخ وجود كثير من مثل تلك النظم ، سواء في اليهود الساجدة أو اليهود الحديثة ، المتدهورة أو الممجدية . بالرغم من التفاوت حسب التعليم والثقافة ، إلا أنها جميعها لا تستطيع تغير شخصيتها الديمقراطية ، المتمثلة في تجاهل القانون وجعله وسيلة ، عدم الاهتمام بمساندة الناس ، تدهور الفضائل الأساسية وانحطاط المثل وجهل تام بأمور الاقتصاد . إن الصفات الشبيهة لأثر عسكري هي واحدة في كل الأزمان ونتائج الحكم العسكري هي دائما سيئة عالميا .

إن للدرجات تفاوت من مكان لآخر حسب الزمان والمكان ، ولكن تبقى الحقيقة دائما ، إن السلطة العسكرية غالبا ما تتركز التمركز في عاصمة كبيرة فيها كل شيء ، مع إهمال تام لبقية الاقاليم ، يصبح تدهور كامل لأحوال الناس المساكين نتيجة للضغط والحاجة ، خراب التجارة ، وتدهور التعليم وتدن البروج المعنوية . حتى للضبط والربط في الجيش نتيجة للتفتحة الكاذبة واستمرار الزهو والإعجاب بالنفس .

ربما لم تسجل كتب التاريخ حكومة عسكرية أسوأ من إمبراطورية الدراويش . بعض الحكومات الأعرجي كانت تتحلى ببعض الفضائل التي تتوخى عن بعض النواقص ، الشهور بالشرف للشعبي يعرض الانخفاض في العدل القومي ، التوزيع الوطنية ،

نسامح الإغلاقات الاقتصادية بغطى على بوس الناس ، المظهر العسكري للهول ، التمدد في المثل العليا يعرضه في بعض الأحيان حسن الخلق . كانت فضيلة إمبراطورية الدراويش هي الشجاعة، وهي صفة تال الإصعاب وإن لم تكن نافذة ، مجابت الثورة بالحرب ، عاشت بالحرب وانتهت بالحرب.

ما بدأ يوم الاستيلاء على الخرطوم، حتى انتهى فجأة بعد ١٢ عاماً في معركة أم درمان . تماماً كما كان فرضي تار بعد انتصار كبير، استمر يهدر أثناء الاضطرابات ثم خمد نتيجة لصدمة حقيقة .

بعد أن غادر الجيش الأسباني الخرطوم، أصبح للهدى هو حاكم السودان المطلق ، كل طلباته مجابة، وكعادة القادة في عهد الإسلام، كان له ما أراد من حريم، وكل ما يطلبه من فنانكم الحرب الشيء الذي ربما نظرت إليه بعض العقول في الغرب كتسلويزات صاروخية، عم الخوف على أتباعه أيضاً، وحلت الجبهة الزلمية محل جبهة المحارب، وحتى المدينة نفسها لم تكن صالحة للمعيشة مع كثرة المستشفيات، فاعتزل للهدى مدينة أم درمان على الضفة الغربية للنيل، وبني لنفسه مسكناً وجمعاً وعازناً لأموال الدولة وأسلحتها في منتصف شهر يونيو ولم يمس خمسة أشهر على تلك الانتصارات حتى مرض المهدى ولزم الفراش، ولم يعد قادراً على الظهور في المجمع. وظل الخليفة عبد الله بمواره، وكذلك كبار القادة والأمراء طيلة فترة مرضه، وقد قتل البعض إنه قد أصيب بمرض التيفويد، ظل في غيبوبة إلا في لحظاته الأخيرة حيث تمالك نفسه، وأعلن للجميع حول مرور المرض أن الخليفة عبد الله هو خلفته، وعليهم طاعته والولاء له بنفس القدر، ثم تشهد وقال اللهم أرحمني واسلم روحه ليوارثها.

ملأ الحزن أرجاء المدينة، وبالرغم من تحريم التوبل والبكاء، ظل صوت النحيب يسمع في كل بيت. حرمان الناس من قائلهم الروحي وحاكم البلاد قد أثر في قلوب الناس، وانتقلت نفوسهم بالخوف. ثم تكفىن جثة للهدى ودفن في قبر عميق في نفس القرية التي مات فيها، ولم تلمس إلا بعد الاستيلاء على أم درمان عام ١٨٩٨ عندما أمر سير "مكتشتر" بإخراج الجثة .

أعلن المهدي في آخر نفس له خلافة عبد الله له لكن عبد الله أراد أن يثبت أمر الخلافة بطريقة اليقظة. جمع الناس في الميدان الفسيح خارج الجامع، وألقى خطبة باليقظة ومؤثرة فسارع الجميع لإعلان اليقظة له .

استمر هذا الاجتماع إلى ما بعد منتصف الليل. أكد "سلاطين" الذي كان حاضرا أنه سمع وتأكد من التفاف الناس حول الخليفة والولاء له بنفس قدر الولاء للمهدي . استلم الخليفة مقاليد الحكم وكان عليه أن يحتفظ عليه، وكانت الدهشة التي وجهها المهدي للمجاهد ما زالت مشتعلة واستمرت من بعده .

بعد وفاته ظهرت حركات متفرقة لبعض التمرد والقتال. بعد رحيل المصريين حل محلهم حكام وطنيون للمديريات، وكان هناك حكام عسكريون أنيط بهم حفظ النظام وجمع الضرائب. كانت المشاكل التي تواجه الخليفة ذات طابع سياسي، عسكري وديني. كانت حدود السودان مهددة. في الشرق تلوح القوة الحبشية الجبارة، كانت الحرب مستمرة مع مصر في الشمال وحول سواكن مع الإنجليز، مع الأخذ في الاعتبار تهديد الإيطاليين من مصروع، وبقي أمين باشا، مسيطرا على الاستوائية.

انتصر الخليفة في كل معاركه في كل الجبهات تقريبا على كل أعدائه. وشهدت الفترة من عام ١٨٨٥ حتى عام ١٨٩٨ أقوى فترة للسودان، هي نتاج قوة حكمه المتمكن رغم ظروف صعبة للغاية. ظل الخليفة يواجه الأمطار متعطبا الصعاب، وجاهزا لمواجهة كل تحد. من الصعب أن نتصور أن يسجل التاريخ أحداث تلك الفترة بطريقة يمكن أن تكون ذات أهمية، خاصة بالنسبة للأجيال القادمة .

وعلى كل ليس هناك حافز. بل زاد على ذلك صعوبة الأسماء الغريبة وعدم توافر السجلات بالمراجع، الأمر الذي سوف يصح عنه أي مؤرخ. فكل الحكساري، هي حكايات حرب ومعارك شرسة دامية، حروب بين قبائل يقاتل يقاتل، نفس الحوار يكاد يكون متكررا لدرجة اللال . للتصنيف الجسدية سواء كان المحرم حاكما أو قائدا أو مستشارا تجد رأسه مكافأ لها في حفرة كبيرة في قم درمان .

لقد طبق كل اساليب حكام الشرق. لم يترك طريقة إلا ولجأ إليها . كانت سياسته واضحة، وهي أن يزيح عن طريقه أي منافس قوي يمكن أن يطمع في الحكم، أو أي قائد طموح أكثر من اللازم يمكن أن يشكل عقبات في طريق تنفيذ السياسة التي وضعها الخليفة. والتي هي كما وصفها سير "الفريد ميلز" هي سياسة مخطط لها بعناية، تعمل على تركيز القوة العسكرية، مع عمل توازن بين قوة القبائل وقبائله هو شخصيا . أي معتصب للعرش في الشرق عادة ما ينصب للمشايخ لأي مسدع أو مطالب بكرسي الحكم، ولكن الخليفة استطاع أن يتجنب هذا التصرف. استطاع الخليفة أن يميز الموافقة على البيعة من اثنين من الخلفاء الآخرين، وأعضا من الأشراف الذين يتمون إلى نسب النبي ﷺ ولكن سرعان ما لوكه هؤلاء وأعلن كل منهم عن استقلاله . استقل كل واحد بأنبائه وأحاسه (التحلي هو رمز للمكانة والقيادة، وهو طبل كبير يقرع في المناسبات المهمة). أعلن الخلفاء للبعثون عن تمردهم ضد الخليفة، وبدأوا في الاستعداد للمواجهة. استطاع الخليفة الداهية أن يستقطب قبائل البقارة، وهي قبائل قريبة لقبائلهم وهم من أشجع الفرسان العرب. إضافة لجيش الأفاقة للمهاب، للمسلمين بالبنادق .

اجتمع الطرفان عمارج المنيعة ، بالرغم من كثرة عدد التابعين للمطاع المتمردين إلا أن القوة كانت في جانب الخليفة . قبل أن يبدأ الصدام استطاع الخليفة "ودحلو" أن يتوسط وينهي الصراع سلميا. استسلم المتمردون وانتهت المشكلة وانتهت معها أي قوة لهم إذ سردهم الخليفة من محاسنهم، أو أي ميزات خاصة ، ترك لكل واحد منهم حوالي ٥٠ حارسا خاصا، بلا علم، أو طبول حرب، فأصبحوا من المؤيدين للهمين لحكومة لم يستطيعوا مقاومتها بالقوة.

ظهر الخليفة أكثر عنفا ضد باقي المتمردين أولئك الذين هم أقل قوة، وأولئك المعادين منهم . أعدم الخليفة، عبد الكريم وعبد القادر. تم سحقهم مقيدين بالسلاسل، صردت كل أملاكهم وزوجاتهم ، اضطهد كل من يتبع لفئة الأشراف، أجبروا على العبادة لأكثر من ١٨ شهرا عقابا لهم، كما ذكر أحد المؤرخين المسيحيين. كان أسوأ نصيب هو للأمير أحمد ود سليمان الذي كان مسؤولا عن بيت المال. كان لا يمتشط

بأي سجلات أيام حكم المهدي، واستطاع تكوين ثروة كبيرة. لم يكن يخفي عداؤه للخليفة، وعليه أمره الخليفة بأن يعطي تفاصيل حساباته، وطبعاً لم يستطيع، عندها أمر الخليفة بمصادرة كل أملاكه، واختار سكان أم درمان الشرسين أن عقابه هو تنفيذ العدل. واستطاع الخليفة أن يسيطر سلطته من خلال مثل تلك التصاوزات ولكن استمرارية السلطة كانت تعتمد على القوة العسكرية التي ظلها سعي إليها وإنه لكي يحكم السودان لابد من جيش قوي. أن تحريك آلة الحرب في أيدي الفساد والذي يستطيع التحكم بهم تماماً كالذي يتحكم في مفاتيح الآلة. كانت تقته طيلة الفترة الماضية في الجيش شيئاً هو يجر عليه، ولكن شعر بأنه يجب أن يحرر ولا يعتمد على أحد، استطاع بمهارة تنفيذ مخططة ومشاريعه .

أرسل إلى رجال قبيلته، قبيلة الصائفة، أحد فروع قبيلة البقارة، ودعاهم للحضور لأم درمان مبشراً لهم بالخير، والنفوذ والتمدد. وضعت كل التسهيلات في طريقهم، هازن الغلال على الطريق، البواصر على النيل الأبيض وأعطيت منازل كثيرة في أجزاء كاملة من أم درمان لسكنهم. حضر أكثر من ٧ آلاف رجل تحت كسوتهم على حساب بيت المال، واستولوا على كل ما يحتاجونه من مخازن الدولة. لم يكفوا بهذا وبسبلوا في حب الأمان مما أثار غضبهم على هذه الفعلة المميرة. لقد تحقق هدف الخليفة من خلق فئة مميزة ذات صلة وثيقة به. كانوا مثله، مرغوبون من القبائل المحلية، مثله كانوا غرباء، ومثله كانوا شخصياتاً أقوياء. كل المخاطر، كل أعدائه، هم أعدائهم، مصالحه هي مصالحهم وحياتهم رهن حياته .

استطاع البقارة وبخاصة قبيلة الصائفة السيطرة على الجهادية السوداء الذين كسلوا الفترة الفاعلة أثناء الحكم للصيرفي، أصبحت هي الآن قوات الخليفة الخاصة، وزادت عدداً من قوات القبائل الأعرابي في عاصمة البلاد وسيطرت كذلك على باقي القوات في المحافظات الأعرابي. تمركزت كل القوة في أم درمان، كسل الأسلحة والذخيرة تمركزت في العاصمة. كل السلاح في أيدي الجهادية، بينما بقية الأهالي تركت لهم الحراش والسيوف، وحتى الأفارقة لا تصرف ذخيرة لثباتهم إلا عند الضرور .

وهكذا تركت كل تلك القوة في قبضة رجل واحد .

المبدأ الثالث في سياسة الخليفة هو القضاء على أي فروق كبيرة بين قوة القبائل حتى لا تسيطر واحدة على الأخرى، كذلك الأمراء إذا أظهر أحدهم أي تطلمعات ، أبعد على الفور وتمت تصفيته ، بنفس الأسلوب تحت السيطرة على مقاليد الأمور . ورغم تعقيدات فرض ميزان القوى ، تم فرض سيطرة قبيلة النعاشنة كقبوة حاكمية ، واستطاع الخليفة أن يحافظ على الحكم ١٣ عاما . تلك كانت هي مميزات هذا الحاكم القادم من كردغان .

كانت أكثر انتصاراته هي الحرب مع الخيشة . من غير المعروف أو المنطقي أن تتجاوز قوتان محبتان . عظمتان مختلفتان في الدين والعنصر دون أن تحدث مشاكل بينهما أو تحتاج أي مشكلة لسبب وجه لتطوق علي السطح ، كان هذا هو الحال بين الدرويش والأحباش .

في عام ١٨٨٥ ، كان أحد الدرويشي نصف تاجر ونصف قاطع طريق ، قد سطوا على كنيسة حبشية . راس "عدال" حاكم إقليم الأمهرا ، طالب أن يسلم هذا السارق للمقدسات إلى العدالة . رفض العرب هذا الطلب بشدة وجاء الرد سريعا . جمع الأحباش جيشا يقوى ٣٠ ألف مقاتل وهاجموا منطقة القلايات متوجهين نحو المدينة . أمام هذا الهجوم لم يستطع الأمير "وهارباب" جمع أكثر من ٦ آلاف مقاتل ، مدفوعا بالانتصارات في السنوات الأربع الماضية ، قبل الدرويش الهول في المعركة ، بالرغم من التفاسوت الكبير في أعداد الجيشين . كان لا للنظام ولا الجرة يمكن أن تحتمل مثل هذا الموقف وهذه الفروق ، لذلك انكسر جيش المسلمين نتيجة للهزيمة الشرسية ، وقبوة المهجوم نتيجة للكثرة العددية لأعدائهم ، واستشهدت القوات ومعها قائدها الباهل .

لم ينج أحد ، ولم تتركب الأحباش كل الأعمال الوحشية المتوقعة عند الانتصار ، قتلوا الجرحى ومثلوا بجثث الموتى ، أعنفوا النساء في الأسر ، وتم تعمير وحرق القلايات ، وجاءت الأمصار السبعة لأمر درمان . حيال كل هذه الضربة نحو للتوقعة تصرف الخليفة بتر و حكمة ، فبدأ للمفاوضات مع الملك "جون" ملك الحبشة على دفع دية فك أسسر

النساء والأطفال، وأرسل الأمير يونس على رأس قوة كبيرة للقتال. لأن تم تأمين كل الأمور الضرورية، بدأ الخليفة في التحضير لحرب الانتقام .

بعد كل قوة للعرب أثناء الخمسة عشر علما من الحروب المتواصلة في كل انحاء السودان، لم يمر قائد في قوة وصلابة الرجل الذي اعترضه الخليفة لكي يتقود جيش الانتقام للعمار جيش للقتال. الرجل الذي حقق نجاحات عظيمة ولم يفقه أحد شرفها، وإن كان هنالك من هو أشهر منه أنه "أبو عجة" .

كان "أبو عجة" رقيقا(عبدًا) عند عائلة الخليفة عبد الله لفترة طويلة قبل دعوته للهدى في جزيرة آبا وأيام الحكم للصري في السودان، بعد أن انتهى التمرد ، أمره قائده المغامر بالخطور من كردفان البعيدة يستعدا للحرب. جاء "أبو عجة" مطيعا كعادته دائما، وبكل الولاء. ليس كعبد ولكن كرفيق سلاح، وما أكثر المعارك التي خاضها مع سيده عبد الله في بداية الثورة .

كانت معركة الأبيض هي فرصته لظهور براعته في القتال والإقدام. لاحظ الخليفة الذي كان حكيما جيدا على الرجال، أن القوات السودانية التي استسلمت، وكسالت تستسلم من مدينة لأخرى، يمكنها أن تجمع في قوة ضاربة، وأنها تحتاج لقيادة قوية يمكن أن تصهرها وتجعل منها سلاحا قويا. عرف الخليفة أن "أبا عجة" هو الرجل الذي يمكنه النجاح بكل الإخلاص والقوة. أخذ أبو عجة مهمته بكل جدية وحس، وساعده نشأته المتواضعة أن يتلمع مع جنوده مما سبب لهم راحة كبيرة، وجنود قائدهم مثلهم وهو مثال للشجاعة والإقدام. كان "أبو عجة" أكثر المحاربين مشاركة في القضاء على جيش "هيكس" كانت غرته الجهادية (حيث كذلك لأنها تشترك في حرب جهاد مقدس) أكثر الفرق نجاحا وساعدت أسلحتهم المكونة من بنادق الرمي تتجوزون في قتل كثير من قوة "هيكس" وأوقفت تقدمهم، عندها جاء دور رجال الحراب والسيوف للقضاء على ما تبقى من القوة، وبهذا انتشرت سمعة جيش "أبو عجة" وعرف بالشجاعة والقوة والقسوة معا. كان أفراد قوة أبو عجة لا يزيد على ٥ آلاف مقاتل ارتفع مع إضافة مقاتلين في القرى في الطريق إلى ١٥ ألف رجل. أيام حصار الخرطوم

اشتهرت قوات حاكمي الينانق السود بالنهب والسلب والتخريب. فصدرت لها الأوامر
بالانسحاب لكرفال. هناك زادت شهرتها في العنف بعد اشتياكها مع قبائل النوبة
البدائية الذين لم يطلبوا شيئا غير استقلالهم .

في نهاية شهر يونيو زادت قوة "أبو عنجة" عند دخوله لأم درمان من ٢٢ ألفا إلى
٣٠ ألف مقاتل، منهم ١٠ آلاف مسلحون ينادق الرميحون. استقبله الخليفة بكل
الترحاب والشرف، وبعد لقاء خاص لبضع ساعات، سمح للقوات بدخول المدينة. عند
الصباح دخلت القوات في موكب مهيب وعسكرت بالقرب من تلال كرري، تلك
التلال التي شهدت هزيمة الهادية. لم يكن في مقدور المكان المشغوم التأثير على الخليفة
والقوة التي يمتلكها. بمجرد أن أطلقت عدة طلقات مدغمة كبحية ظهر أكثر من ١٠٠
ألف مقاتل بمصاحبة طبول الحرب وحزف "الإمباتات" وراء العلم الأسود المشهور. ثار
الناس في حماس للحفلة وتدفقوا حتى كادوا يصيرون قائدهم في الوسط، يلوحون
بأراهم وأعلامهم. امتلأت الساحة بالمقاتلين من كل شكل، البقارة، والنعاشة،
والأفارقة بجلالهم الزاهي، والحالة على خيرهم .

ظهرت على البعد قوة للهندي بلونها البني تملو فوق المدينة، كأنها تمنحهم بعض
الدفع الروحي، كان عبد الله في قمة مجده. إن الحركة التي بدأها رجل الدين من الخيرة
أبدا قد بلغت شأنا عظيما. ظهرت سلسلة جبال مرغام، عظمها الحشن في كابة. كأنها
تحرس في صمتها أسرار المستقبل. بعد نهاية عطلة عيد القطر، تحركت قوات أبو عنجة
للقلايات بعد أن تم تدعيمها من القوات في أم درمان حتى وضع أن الحرب مع الحبشة
قائمة لا محالة .

اعنى القائد الجنيد الأمر يونس من مهامه رخصا عنه مما دعا لاستيائه ، وأخلف
قواته للقوات الزاحفة حتى بلغت القوة ١٥ ألف مقاتل بالبنادق و ٤٥ ألف محارب
بالحراب. لقد عظم الخليفة جهدا هذه الحرب. كانت قوة الحبشة معروفة للعالم،
وكذلك لدى الدراويش. كان للهندي قد حفر من هذه الحرب، نسبة لرواها جاء فيها
أن ملك الحبشة سوف يرهط فرسه في شجرة في الخرطوم ويحوض في بحر من الدماء.

لكن الخليفة لم يكن يهاب الآلهة أو الرجال ، أميره "وطرباب" قد قتل الدم وحده هو
الذي سيسوي الأمر .

كان الأحباش يراقبون التكتلات المعادية بقلق ، "رأس عدنان" جمع جيشا أكبر من
جيش الدراويش، لكن تسليح الأخير كان مغشوقا من ناحية البنادق، زيادة على جرأة
المقاتلين السود من سلاح المشاة .

اعتمد الأحباش على سلاح الفرسان القوي، وتركوا العرب يدخلون إلى المناطق
الجهلية إلى أن وصلوا إلى منطقة "نمر متك" و "سهل دبراش" عندها أحسن أبو عنجة
بأنه لو توغل حتى صارت الجبال غلظة فسوف يحاصر ويهد فأسرع بالتقهقر . هنا بدأ
الأحباش بالمحوم فعمل فيهم سلاح البنادق التي ردتهم، فاعادوا الكرة وردوا مرة أخرى
بشجاعة وجرأة وأسلحة متطورة. بعد أن كثرت خسائرهم تردد الأحباش ، هنا بدأ
العرب المحوم المضاد وطردوا "رأس عدنان" من أرض المعركة. خرق كثير من رجاله في
النهر الذي اختار يتون حذر أن يحارب أمامه، سقط للعسكر، وانتهت المعركة بعد
هزيمة كاملة كما يحدث في معارك الجيوش للتوحدة، واستطاع أبو عنجة أن يواصل
زحفه حتى استولى على "رأس قدر" عاصمة الحبشة القديمة .

في هذه الأثناء كان الخليفة قلنا على جيشه الذي طار انتطاع أعيناره وهو يحارب
بين جبال الحبشة لأكثر من ثلاثين يوما، إلى أن جاءت البشارة بالنصر وعند محترم من
رؤوس أفراد العدو تأكيد النصر .

لم يمكث الدراويش ونجا طويلا في الحبشة، وعادوا في ديسمبر إلى قواتهم في
الثقابات. عاد القائد الباسل إلى أم درمان وحياء الخليفة بما يليق بالأبطال، وأيضاً
بالدموع فرحا لرجوعه سالما الأمر الذي ترك أثرا كبيرا في نفس القائد .

ما زال الصراع الأعظم على الطريق. الحبشة كلها كانت في غليظ للأحداث
للزسعة والملك "جون" بنفسه بدأ في الاستعداد لمعركة فاصلة معلنا، "أنه سوف يسمح
الدراويش من على سطح الأرض". كان جيشه كبيرا يقال إنه يقارب ١٣٠ ألف مقاتل
مهم ٢٠ ألف من سلاح الفرسان. وصلت شائعات عن حجم جيشه إلى قلايات

ولم درمان وسييت قلعا وحلر صميقهن. كان الخليفة قلعا على حكمه بعثما سمع من
تصريحات الملك "جون"، وخاضت الظروف أن تجوت رجل للهمات القصبة القائد
الباسل "أبو عنجة" تحت ظروف غامضة. مات من أثر مادة سامة تناولها لمعالجة
الإمساك.

اختار الخليفة "الزافي طمل" أحد مساعدي أبو عنجة لقيادة الجيش إلى القلايات
واستطاع الزافي أن يجمع حوالي ٨٥ ألف مقاتل، وانتهى من عمل دفاعاته عن المدينة
بما فيها زريبة كبيرة حول المدينة، وانتظر المحوم .

في صبيحة يوم ٩ مارس عام ١٨٨٩ ظهر جيش الأحباش على مقربة من
أعدائهم، وفي اليوم التالي بدأوا المحوم. بالرغم من قوة نيران المدافع استمرت القوة
الغبارية للأحباش في التقدم مركزه على جزء واحد من دفاعات الدولويش، الغبار
الكثيف من حوافر الخيل قد حجب الرؤيا تماما. استطاع الأحباش إشغال السار في
الزريبة ونجحوا في اختراق وحدة الجيش التي كانت تحت إمرة ودعلى التي تمت إبادتها
بالكامل. لم تدخل الأحباش داخل الزريبة حيث كان الأطفال والنساء فأعملوا فيهم
طعنا وقتلا بلا رحمة. وانتشر الجيش الفازي في كل مكان بحثا عن الغنمة، حتى أنهم
وصلوا إلى قبر "أبو عنجة" الذي كفلوا مصرين على الانتقام منه فزجوا "قنسر". كان
الدراويش في حالة ارتباك وأرسلت دعوتهم على النفاذ عندها فجأة انتشرت إشاعة
قوية بأن الملك يوحنا "جون" قد قتل، وبدأ الأحباش في الانسحاب مكثفين. بما غلبوا
وأعملوا الزريبة بالكامل.

كان العرب في حالة من الإعياء شديدة ولم يبادروا بملاحقة الأحباش. وعندما لم
يتكرر هجوم الأحباش في اليوم التالي، عرف الدولويش أنهم المنتصرون وأن جيش العدو
قد تراجع نحو نهر عطيرة. هنا قرر "الزافي طمل" ملاحظتهم عنابة، فلم يحملوا معهم
كثيرا من النساء بما فيهم زوجات أبو عنجة. بعد يومين من انتهاء للمركة لحق الجيش
متوخرة جيش الأحباش واستطاع أن يباغتهم وبشتت جيشهم. كما قتل القائد الذي

حل مكان الملك "جون" وعثر الدراويش على جثمان الملك، فقطعوا رأسه وأرسلوه الى الخليفة في أم درمان كدلالة على الانتصار .

تابع الجيش الحبشي تراجعهم ولم يشأ "الراكي طعل" ملاحقته داخل الجبال الوعرة. وسعت للمشاكل الداخلية للحاكم الحبشي الجديد "النجاشي" من متاعبة القتال، وانتهى بذلك الصراع السوداني الحبشي الى معارك بين الحدود تماما كما بدأ .

كان وصول رأس الملك "جون" الى "أم درمان" قد أسكر الخليفة من حدة الفرح، كانت الحبشة في تقويم السودانيين أقوى من مصر، وهاهو ملكهم مقتول وممثل برأسه. لقد كان النصر كبيرا و غاليا مات في المعركتين أكثر من ١٥ ألف مقاتل، وانتهى جيش أبو عنمة العظيم، وبالرغم من قوة الجيش للرباط في أم درمان لكن الخليفة ليس يستطيع بناء جيش يوازي القوات التي أسهمت في كسر الحول الحبشي.

وبينما كانت تدور المعارك مع الحبشة، استمرت المناوشات مع مصر. وكان المهدي معتمدا على تأييد الجماهير المصرية ، وكان دائما ما يذكر أنه ذاهب الى دلتا مصر لتحرير المصريين من الاحتلال التركي، وكان يخطط لذلك عندما داهمه المنيعة .

بعد وفاته رأى الخليفة أن يتابع الرسالة. لقد ورث الخليفة كل المشاكل، ولكنه لم يرث نفس القوة. لو كان للمهدي حيا لأمكنه احتلال العالم الإسلامي كله، لكنه ميت، ما هو إلا قديس، كما أن مشاعر الوطنية للفتية في مصر قد تراجعت. بالرغم من ذلك صمم الخليفة على الاستمرار، لعله كان مدفوعا بتحديات جيوشه في الحبشة .

الأمير رد النجمي الذي كان حاكما لمنطقة دنقلا قد كلف بقيادة للقوة ولكنه فشل هو واتباعه في معركة توشكي، وتأسف الخليفة لسماع هذه الأخبار. لكن البصير فسر هذا القرار بأنه جاء ليحتم الخوض الخليفة ومشايخه الخفية لميزان القوي. إذ تكون جيش رد النجمي من بعض قبائل الجبلين والبطاحين الذين كانوا يشكلون عوائق لدى الخليفة وحتى للدد الذي أرسل من أم درمان، تكون من كتائب علم الخليفة شريف الذي بدأ تفوقه يقوي!! لم يكن الخليفة بهذه السلاحة بأن يتوقع أن يهزم مصر، كان يقول لولا القوة الإنجليزية والتي حاربتا لكننا انتصرتنا على مصر، وكان هدفه، لسو

حصلت المعجزة وانقصر الجيش الصغير (فيكون المجد له ولو الهزم، فيكون قد تخلص من أفراد جيش قبائل أهل البحر والخليج) لن تقوم لهم قائمة. مهما كانت أهداف الخليفة فإن مناعته كانت واضحة، ولكن ان تستمر الإمبراطورية تأكل في نفسها فسوف يقصر هذا في عمرها بلا شك .

لقد تضاعفت القوي التي زادت في إغناك الدولة، ففي العام الذي تلا الحرب الحربية ضربت البلاد بموجة عتيفة، سلاطين، وأهوار ودر تبادلا وصف الأهوال والفظائع، وبينما اضطر الناس لأكل لحم الخمر النعمة والشوارع مليئة بالجنث، وفي وضع النهار شوهدت الجنث وهي تطفو على سطح النهر، كانت هذه بعض الأهوال. لقد تسببت المجاعة في خفض تعداد السكان بأكثر ما أحدثته الحروب .

امتدت آثار المجاعة بجميع أنحاء السودان طوال شواطئ النيل حتى وصلت مصر السفلى، كانت آثار المجاعة، حالة يرثي لها، مناطق بأكملها من أم درمان إلى بربر أصبحت بلا سكان، مناطق شديدي القوي المجاورة لها بلا أهالي، اضطر مربي الجمال لأكل النجا وأكل سكان المناطق النيلية البلور للعدة للزراعة .

سكان مناطق القلايات، القضايف، وكسلا انخفضوا إلى العشر. يمكن أن نتخيل حجم الكارثة إذا عرفنا أن جيش الزاكي طمل الذي بلغ حوالى ٨٧ ألف رجل ثم يسق منه سوي ١٠ آلاف رجل في ربيع ١٨٩٠م.

جاء الحصاد في وقت استطاع أن ينجذ أهل السودان من الانقراض، ولكن البهمة كانت تنظرها كوارث أهري، الشح والضغط أهام الحروب كان مقننوا عليهما، لكن لا حيلة لأحد مع جحافل الجراد التي حجبته الشمس، تلك الحشرة الصفراء اللون التي يمكن أن تكون وجبة أشبه بالجمري عند شواتها وهي وجبة مفضلة لدى بعض الأهالي، انتقلت إلى عصير مفر بالنسبة للمحاصيل، وزادت من معاناة المجاعة واطالت في عمرها. ظل الجراد يأتي كل عام بعد ذلك: وزاد من الخسة ظهور ملايين الجردان (الفران) الحمراء التي كانت تطفو في النيل قبل ابتلاء، كانت أعدادها كبيرة حتى أن الامطار الغزيرة كانت تعري أعضائها للريجة على سطح القربة بكميات كبيرة .

رغم كل هذه التكتبات استمر الخليفة في حكمه بلا اعتزاز، وساعدت الجماعة في تدعيم المركزية، وبينما الفار كثير من لندن والقري تقتضت أم درمان، وما زال حاكمها هو القائد للصالح في الجيش القوي. ولترك لوحة إمبراطورية الدراويش، لأن المدينة الكمية مدينة الدماء والطين والقتل التي ارتفعت على ضفاف مقرن النيلين، تستحق ما نظرة أخيرة وهي نعم بالاستقلال البري .

كان الوقت صباحاً، وبدأت الشمس ترتفع عند الأفق و ترمي ظلالها على أطلال الخرطوم وعلى مياه النيل المعكرة، والعاصمة القديمة شبه مهجورة، لاصوت لأحد يشق صمت الشوارع، لم يبق إلا الذكريات في الحدائق التي كانت متزها بالباشوات، أو القصر حيث سقط للنوب الإمبريالي. في الجهة الأخرى للنهر تمتد أملاك من منازل الطين تصطف على ضفاف النيل حتى عور شحات، ثم تمتد نحو الصحراء حتى مشرف التلال السوداء لتتلل على حجوم عاصمة العرب الجديدة .

ومع ارتفاع الشمس تلب الحياة في المدينة، على طول الطريق من كردي توري أهدادا من الجمال عملة بمحاصيل القري، عشرات للراكب الشراعية تحملها رياح الشمال وهي محملة لأعراها بالبضائع ترسو في المرسى، حيث تقف إحدى بواخر "فردون" وبانعة أخرى يعمل عليها نفس الطاقم الذي كان يديرها أيام المصريين، يرسلها الخليفة إلى سنار في مهمة تتعلق بالدولة. وبعيدا ناحية الجنوب، يشق خبار قوافل دارفور عنان السماء الزرقاء مشيرة للضباب والغياب. استمر قرع طبول الحرب لوقت طويل، وكان صوت الموسيقى الصادرة، من قرون البقر يشق صمت الليل .

ثم جاء يوم الجمعة وساعة الصلاة، وهذا هو اليوم الذي لن يستطيع أحمد أن يتغيب فيه، يجتمع الجميع في الميدان، حيث إن الجامع لن يستطيع أن يسع كسل هذه الجموع، لتأدية صلاة الجمعة، داعين الله العلي العظيم وللمهدي المبارك .

تنتهي الصلاة وينصرف الجميع إلى مشاهدة طابور العرض. كل أمر خلف العلم المميز له، وكل فارس يحتل بملايحه وجهته الجديدة حاملا سيفاً وبعض الخراب. تنطلق سبع طلقات من ملقح عمول على ظهر حمل، يقوده أحد رجال القوة الاقوياء صخيم

الجنّة، وبأنّ الخليفة وحوله حوالي ٢٠٠ فارس بأسلحتهم، ويظفون على كل التشكيلات كان الجميع حضوراً، والنظر يدل على السيطرة الكاملة، الى ان لاحظ الجميع وحوم الخليفة وبدأ التساؤل، ماذا حدث ، هل يهدد الأحياء قلايات ؟ أو هناك تمرد في غرب البلاد؟ هل تمردت القوات الإفريقية؟ أم هي مجرد مشاكل وسط الحجوم ؟ ينتهي العرض، ويعود الجنود إلى ترسانة الأسلحة، تجمع منهم البنادق ثم يتفرق الجميع بعضهم يذهب لاسوق لشراء بعض الضروريات، أو لسماع آخر الإشاعات أو لمشاهدة تنفيذ حكم الأعدام التي كثيراً ما كانت تتم علناً. البعض الآخر يتوجهون إلى سوق الرقيق حيث يذهبهم الفضول للفرس في أحسام اللقيطات للعروضات للبيع وتغد أعصاه أجسامهن.

ولكن الخليفة عاد إلى منزله وعقد مجلسه، الغرفة صغيرة فجلس هو عائلاً رجليه، أمامه بعض الأمراء والقضاة، كان هناك يعقوب، الخليفة ودخلوا والخليفة شريف، لم يتغيب إلا شيخ الذين ذلك الشاب الناسق الذي يدوام على معاملة الخمر.

كان الخليفة حزينا وقلقاً، جاءه رسول بأن الترك قد تمركزوا ورفضوا الى بعد حدودهم حتى وصلوا واستقروا في عكاكة.

أبدي ود بشارة تخوفه من أن يهاجموا للجنوب الموجود في "فركة" كانت هذه الحادثة بسيطة في حد ذاتها، فمناوشات الحدود لم تنته، ولكن الأمر المخطط هو أن أعداء الله قد بدأوا في إصلاح خط السكك الحديدية، وقد تم إصلاحه، حتى أنهم وصلوا به الى "صرص". وحتى الآن يرفضون هذا الطريق الحديدي نحو مركزهم في عكاكة متجهين الى الجنوب، ما هي أسباب كل هذا التصب؟ هل سيأتون مرة أخرى؟ هل سيحضر أولئك الجنود البيض الشرسين الذين أدموا قلوب المدنوة وأباحوا دهم وكنائس؟ مسا الذي جاء بهم على التيل، هل هي غلطة أم مجرد شهوة للحرب أم حب الانتقام وحب الدماء. صحيح أنهم يعيدون الآن لكن الأرجح أنهم عاقبتون كما عادوا من قبل، لكن الطريق الحديدي لن يتم في يوم وليلة، الحقيقة للطلقة أن سحب الحرب قد بدأت تتجمع في الشمال .

الفصل الرابع

سنوات التحضير

في صيف عام ١٨٨٦ عندما تراجعت كل القوات إلى وادي حلفا وعمت إبادة كل الغاميات في السودان ، حول البريطانيون أنظارهم عن وادي النيل في حقل وادي مس سلسلة طويلة من الكولرت وصلت إلى نهايتها للعزبة. فقد أسهمت فصول الدراما في تعميق الشعور بالمرثية ولم تحف من عظمة للأمة. وكانت التكاليف باهظة. بالإضافة إلى الحسارة والألم الذي سببه مقتل الجنرال "غردون" والفقد الكبير للضباط والرجال والتكاليف الخطيرة من تهديد للأموال العامة، وظلت الأمة تعاني من القشل وعيبة الأمل إضافة لشعور عميق بأن الدولة قد أهنت أمام أنظار العالم .

الحالة في مصر لم تكن بأحسن حال. فالإصلاحات التي تمت بمبادرات من رجال الإدارة البريطانية لم تلق قبولا ، وتدخلات " بلرنج " سببت المرض للخديوي ووزرائه ، وشدة بخل "فنست" كانت مدعاة للتهكم وجاء " مونجريف " وهز بعنف مصلحة الري ، أما جيش " وود " فقد كان بلا هوية. كانت تبرز بفترة جديدة . لكن المجسرا لم تر أي تباشير للمحصول الجديد ، كل الذي رأته رجالاً حديدن مغموسين في التواب والوحل، ورأت نفسها متورطة بلا أمل في للشاكل. قررت بكل السام والاشمسراز أن تضرب بكل الغمز والغمس من قبل القوي العظمي عرض الحائط وانجهدت نحو بلاد أخرى وأمور أخرى .

عندما انجهدت أنظار الأمة مرة أخرى نحو مصر ، كانت الصورة قد تغيرت تماما وكأنها بلصة سحرية من يد ملاك ، تحولت الحركة الضحلة المسوداء إلى مرتفعات مبهجة ذات سهم على ل هنا الخديوي ووزرائه واستكانوا بالكامل تحت قبضة القنصل العام القوية الحازمة .

أصبح للدولة - فاقض في الإيرادات بصرف للإصلاحات المالية - مصلحة الري المضطربة أسدلت غمى في الأرض ، وصعد الجيش أي احتلاء على الحدود ووقف ضد أي معطام .

تحولت النهضة إلى إعجاب ، والإعجاب أدى إلى الانتشراح . انتهى الكابوس وبدأ حلم جديد ، رؤى مشرقة ، وإن لم تكن واضحة للعالم للقوة الامبريالية ، قطارات عابرة للقارات ، حكام لأفريقيا ، أحلام للفوز والتجارة . ازدهار اهتمام الشعب البريطاني بقصة البحث الجديد ، كان كل إصلاح جديد يلاقى الاستحسان ، كل ميزانية جديدة تتم مراجعتها بالخير والإعتراف ، حال الناس بقصة الفضل التي تحولت إلى نجاح وزادت رغبة الناس في معرفة المزيد عن مصر ، من هؤلاء الأشخاص الذين حولوا الحلم إلى حقيقة .

جاء كتاب "سير الفريد ميلر" "انجلترا في مصر" بحققا تلك الرغبة ، وقد عرض بقلمه الشيق كيف تم التغلب على المشكلات أكثر من حديثه عن الإنجازات وبذلك برزت قيمة الإنجازات بصورة أقيم . ذكر "ميلر" كيف قام أبناء بريطانيا العظمى المنحطون النعفاء بتمها في مشغولة في مناطق صحري بإعادة التجربة الناجحة في الهند ، ولو على معدل أقل في مصر . إن الأعمال الصغيرة تنتشر بسرعة وقد استفاد الإداريون من التجارب وجاءت الحركة سريعة والعائد مذهشا . كانت تلك هي قصة النجاح المبهجة وكان القامض متمكنا من أدواته فحكى القصة بأسلوب شيق ليست هناك لحظة سأم وأصبح الكتاب ليس مجرد كتاب والكلمات كلها صريحة البوروجي تنادي الجسود لكي يتخطوا الحاجز الاسمر نحو النهر .

إن قصة البحث الجديد في مصر لا تدخل ضمن نطاق هذا السرد ، حسبي وإن لم يكن قد تم عرضها من قبل " سير الفريد ميلر " في كتابه المذكور ، ولكن إعادة تنظيم الجيش لإعادة غزو السودان ، مثل آلية لابد من التمرض لها .

في ٢٠ ديسمبر ١٨٨٢ تم تسريح الجيش المصري لتقديم ، إذ كان واضحا أنه لابد من خلق جيش جديد - كل الخيارات التي طرحت مثل الامتدانة بموتو - أتراك ، إلا أن

"لورد دو فرين" أصر على التمسك بليبدا الذي يقول لن يدافع عن بلد حشل أناته
وتقرر تكوين جيش مصري جديد . كان حتما نسبة للحالة المالية الخادة للحكومة أن
يكون حجم الجيش صغيرا . استقر الرأي على ٦ آلاف جندي يمكنهم حفظ الأمن
الداخلي والدفاع عن الحدود الجنوبية والقرية لمصر ضد الينو والعرب، يظل للسودان
دائما تحت ظل الكابوس الطويل .

كان هناك ٢٦ ضابطا بريطانيا وتولي شاوليشية أكفاء تدريب القوة الجديدة على
القتال . تولى سر "ليني لين رود" إدارة العملية وأصبح أول سرنر للجيش المصري . تم
العمل بسرعة فائقة وبعد ٣ شهور فقط تم استعراض القوة أمام الجندي وقبـد نال
طابور العرض إعجاب الحاضرين . قال البعض من ذوي التجارب إن هذا الجيش يختلف
كثيرا من الجيش القديم ، على الأقل سوف يقبضون مرتبات ، وسيعامل الجنود بمثل ،
ولن تُسرق وجباتهم من قبل الضباط ، سوف يعطون أجازات لزيرة أهاليهم وإذا
مرضوا يدسولون إلى المستشفيات بدلا من نيل الضرب باعتصار قد استبدل النظام
الشرقي بالنظام الأوروبي .

إن الجندي الفلاح يفقد الرغبة للقتل ، حتى الديانة الإسلامية لم تستطيع أن تفحص
حميته ، يمكن أن يكون قاصدا لكنه ليس شويرا ومع كل فاته شجاع يقابل الموت دون
مبالاة . إنما فئة الرجال البسطاء المتواضعين يحملها الرجال الأقوياء ولكن سوف لا
تنتظر منها الإعجاب .

إن له فضائل عسكرية أخرى . إنه مطيع ، أمين ، وإع ذو خلق سريع التعلم
وفوق كل هذا قوي البنية ، صفة ورثها عن أجداد أجداده . خلقت الظروف القاسية
إنسانا يستطيع أن يعمل مع أقل طعام وأقل حافز يعمل عملا شاقا وساعات طويلة
تحت أشعة الشمس غير الرحمة . خلال كل الحملات التيلية بالإضافة لصفوة الجيش
والروح المعنوية للقوات فإن مصدر القوة للحرب قد جاء من مصر نفسها .

تلك كانت هي المادة التي صنع منها الضباط الإنجليز الجيش المصري الجديد في
البداية ، أثناء التمارين والتدريب كانوا مدعاة للتهكم بين زملائهم من الجيش الإنجليزي

والجيش الهندي إلى أن صدرت الأوامر المشددة بأن الاستهزاء بأي جندي مصري هو إهانة للجندي البريطاني ، هكذا تطورت العلاقات بين الضباط والجندي المصري وساعد ارتفاع المعنويات في تحقيق النجاح الذي كان يبدو مستحيلا تحت أي ظروف معادية .

لم يمض وقت طويل قبل أن توضع للنظمية الحربية الجديدة تحت الاختبار - إن الجيش الذي أنشئ لحماية الحدود الداخلية قد يطلب لحماية الجسود الخارجية . إن الثورة في السودان التي عليها الجمع لها أسهل للشكالات بالنسبة لمصر قد فالت كل الأزمات وقد وجاء وقت تقييم القوة الجديدة . كتب مور هيكس في يونيو ١٨٨٣ ، وهو يعطى لحكمته المأسوية إلى سير "تيفلين وود" يقول :- "أرسل لي أربع كتاب من جيشك الجديد وسوف أكون مكثفا ومقتنعا" ولكن شاء الحظ أن ينفذ هذه القوة للولادة من بداية مأسوية وبقي الجيش الجديد بمصر . بالرغم من اشتراكه فيما بعد في حملة النيل ١٨٨٤-١٨٨٥ لحماية خطوط اللواصلات لكنه لم يشترك في القتال إلا عندما سحبت القوات البريطانية من دنقلا ، وبذلك تم تعيدها رسميا في معركة جيسي . ومن تلك اللحظة أصبح مكانهم في مقدمة الخطوط الامامية ومنذ عام ١٨٨٦ اثبتت القوات المصرية لها أهل للمسؤولية في مقاومة أي خطر للبروتيش نحو الشمال .

تضاعفت أعداد الجيش مع زيادة مسؤولياته ، حتى عام ١٨٨٣ لم يكن هناك سوي ثمان فرق من قوات الفلاحين في عام ١٨٨٤ تم تكوين فرقة السودانين ، إن الجندي الأسود الذي كان تقيضا للفلاح ، المصري قوي ، صبور صحته مكتملة ومسالما . الزنجي كان أقل شأنا في كل هذه الصفات ، ولكنه حساس ، لرجله ضعيفة ، وتكوينه الجسماني في غير عائق يعكس المعجم الكبير والتكوين الحديدي لتفانج الدنيا . الجندي الأسود سريع الانفعال وغر مطيع يحتاج دائما للنظام الحازم ، كان يكسره التدريب ويجب روحانيته ، شخصيته مرحة "سامبو" التي تعادل "تومي" كسول شرس طمعل غر محترم ولكنه قد يمتلك قلب أسد ، يحمل وفاء الكلب لسيده ، يجب ضابطه ولا يخشى شيئا في الوجود .

بإضافة هذا العنصر أصبح الجيش المصري آلة حرب مهولة، شامت للطسروف او كانت محطة موضوعة ، كان الجنود السود دائما في مقدمة القوات للقتالة .

في معارك لورد "كشتر" كان عدد الضحايا من هذه القوة يفوق العدد الكلي لعدد كل الضحايا من الجيش كله . لقد كانت خطوة طيبة تقوية القوات المصرية بهذه الإضافات الجديدة إذ تنتظرهم حروب مرهقة . لقد وضع سير "ريبنلاند" و"مجت" "كفاح مصر ضد المهدي" ووصف للمارك اللغاف عن جنود وادي حلفا وسواكن .

السنوات العشرة اللاحقة للحركة "جيسي" والتمركات الأولى لإعادة خسرو السودان كانت سنوات متمية للجيش المصري . كانت الحملة شاقة رغم تفرق المعارك ، كان لابد من التحلي بالخير والحرص الشديدتين . فقد تم عزل الرأي العام عما يحدث . وبدأ تطبيق الاقتصاد "سد البطون" وترشيد الإتفاق في كل مناحي الحياة، فحرم الضابط من أجازاته والجندي من الثمين والوجبات حتى يتم توفير أي مبالغ للخرينة المصرية .

كانت ملابس الجنود دافئة وأحذيتهم مخزقة وكانت أرجلهم تدمي عند التمارين في مناطق صحيرية ولكن لم يمنع كل ذلك من الاستمرار في الاستعداد وتحسنت قدرات الجنود حتى الفلاحين من جنود للشاة وانتظر الضباط ساعة التحرك من وادي حلفا وسواكن للملاحقة جيش الدراويش المتآكل .

تدف القوة التي أنشأها "بهنري وان وود" وقد جرهما "فرينلاند" على أخبة الاستعداد وهنا ظهر الرجل الذي سوف يفودها .

كان هوانير هيربرت كشتر الابن الاكبر لضابط برتبة كولونيل . ولد عام ١٨٥٠ بعد أن تلقى تعليما خاصا التحق بالأكاديمية الملكية للعربية في وولوش كطالب مصري في سلاح المهندسين . تخرج عام ١٨٧١ وظل يعمل لمدة عشر سنوات كضابط صادي يؤدي أعمالا عادية ، لم يلفت النظر اليه كشخص له ملكات خاصة أو قدرات تميزه عن غيره .

شاء حظه ان يلتحق بسلاح للساحة في ١٨٧٤ وأرسل الى قبرص وفلسطين وهناك تعلم اللغة العربية . لم يستفد من هذه اللبزة لأكثر من ٦ سنوات إلا أن ذهب

للاسكندرية بعد ان تعرضت لضرب الأسطول البريطاني وانزال الجنود البريطانيين ، كان وجود ضابط إنجليزي يجيد التصطت باللغة العربية في مصر في تلك اللحظات أمر مرغوب فيه بشدة وهكذا هيأت الظروف الفرصة لكنتشر الى طريق الشهرة . جاء "كنتشر" الى مصر وهي تعاني من شدة اليأس والاحباط وبقي ليشاهدها تزدجر بعد إعادة البعث لاحياءه وقد كتب التاريخ ان يكون له الدور الثاني في هذا التحول. كسان ضمن الـ ٢٦ ضابطاً الذين تم تعيينهم واشترك عام ١٨٨٢ في الحملة برتبة عقيد. وقد قادته إعادته للفرقة الى قسم الاستخبارات العسكرية. وبالرغم من الجهود الكبير الذي ظل يبذله إلا أن خدماته لم ترق الى حيازة إعصاب " غردون " عندما كان يتعاون معه، لكنه نال رضا رؤسائه وعين حاكماً لسواكن في عام ١٨٨٦ واستطاع أن ينظم دفاعات المدينة . وطورها حتى اتى عليه التقاعد دورمر في تقريره لمجلس الحرب بالبحرنا ولم يكن كل هذا كافياً فانه شخص طموح يحب للمغامرة والمبادرات وسرعان ما بدأ الالتحام مع القبائل في المناطق المجاورة لسواكن. ألغى كل أنواع التجارة فأثار هذا سكان المناطق وكانت نتيجته بدء تحرك قوات عثمان دقته. كانت الأوامر لكنتشر واضحة بالآ بشرى جندي بريطاني أو مصري في أي معارك هجومية لذلك استغل بعض الجماعات العديقة وكون منها قوة حاولت مهاجمة عثمان دقته في منطقة هساندوب. عندما خسرت القوة للمعركة انضم كنتشر ليحامي تراجعهم عندها أصيب بجرح في فكه عانى منه كثيراً . نقل في صيف ١٨٨٨ للقاهرة رئيساً للأركان للجيش المصري حيث ظل يعمل لمدة أربع سنوات استطاع خلالها إجراء إصلاحات اقتصادية وبرهن على مقدرة فائقة في الإدارة. كانت هذه سبباً في اختياره سروراً للجيش المصري بالرغم من حقيقة الكولونيل "رودهاوس" الذي هو أكثر خبرة منه في قيادة قوة كبيرة ، اذ كان قائدا للقوات المرتبطة في حلقا واشترك بالفعل في معارك مع العدو . يعرفه الجميع " القائد الذي حرم ود الهجومى " في معركة ارقين أيضاً استحق التقدير وكانت إدارته لشئون مديرية الحدود الأمنية "حلقاً" مقارراً للإعصاب، ولكن في النهاية وجحت الكفة مساندة صر "الهي ليس بلونج" وفاز "كنتشر" بالاعتبار.

كانت أكبر معاناة "لورد وولزلي" هي جهله التام بشعوب السودان و أهل السودان وقد عبر الجندي البريطاني اساليب قتال الدرويش فقط عند ملاقاتهم وكانت تجربة مريرة .

وعليه فإن سنوات التحضير قد تم الاستفادة منها لأبعد الحدود . كان الكولونيل (أصبح الآن سير " ريجينالد ونجت" هو مدير قسم الاستخبارات العسكرية بإطوش المصري الذي استطاع لادارته بمقدرة فائقة . لمدة عشر سنوات ظلت الاستخبارات تجمع المعلومات عن السودان تاريخه ، الطقس ، جغرافيته وأهاليه ، اعتبرت ولدي حلقا الخط الفاصل بين المدنية والصحبة حتى حافظ أم درمان العظيم ، داخل ترسانة الأسلحة ، في الخزانة في الجامع حتى منزل الخليفة نفسه كان مرصودا بتسجيل كل حركة وكل حديث يدور في أي شأن كان . انتشر الجواسيس الحكومة داخل السودان مرة كتحصار ومرة كمحاربين أو نساء وتغفلوا وسط الجماهير .

كان الجواسيس يسلكون كل الطرق للودية لأم درمان ، عندما يتعسر السير على الليل، كانوا يأتون عن طريق دارفور ثم يعبرون الصحراء إلى أم درمان أو مرارة عن طريق سواكن أو من مناطق الاحتلال الإيطالي في مصوع . كانت المعلومة يهمس بها حلقا وتدور في القاهرة حتى تضخمت السجلات وتم رصد كل معلومة مفيدة عن كل الأمراء ، وكل الخاسيات ، حتى أخبار المشاجرات التي لا تنتهي تم تسجيلها بدقة متناهية.

سأحدث للمقادير أن يتم تأكيد المعلومات التي جلبها الجواسيس ، عن طريق أهم شاهدين . مع نهاية عام ١٨٩١ استطاع القسيس " لوهو وولدر " أن يهرب من أم درمان ويوصل للحدود المصرية . بالإضافة للمعلومات القيمة التي أتى بها قسم الاستخبارات طبع كتابه الشيق "عشر سنوات في الأسر" الذي ترك انطباعا جيدا في إنجلترا . وفي عام ١٨٩٥ ، جاء لاحقا آخر إلى أسوان.

في صباح ١٦ مارس دخل عربي متعجب من عناء السفر يلبس حبة مرقعة ويمتطي جملا أعرج ، دخل على القمندان ، استقبل استقبالاً حاراً وأعطى أحسن حمام موجود .

خرج بعد ساعتين رجل غسولي مهذب واشتعل عطف الطفراف بالأجبار المسارة،
"سلاطين" الذي كان حاكما للثار فور قد حرب من أغلال الخليفة .

جاء الآن الرجل الذي يعرف كل شيء عن لمواطورية الدراويش ، كان عظام
الخليفة الموثوق به بل كان صديقه وكان هو الوحيد الذي يسمح له بتناول الطعام مع
الخليفة . لقد حضر كل مجالسه ، عرف كل الأمراء وهو كرجل عسكري وإداري
يستطيع أن يدير بين الأمور- . أعطى لقب الباشا وألحق بالاستشارات العسكرية .

بينما أكدت للمعلومات الوثيقة التي أعطتها للحكومة عن تنهول أحوال وقوة
الدراويش ، أثار كتابه "السيف والثار في السودان" سخط الشعب البريطاني على حكومة
الخليفة والمجاز الرأي العام نحو سياسة إعادة الغزو تماما .

جاءت حكومة المحافظين عام ١٨٩٥ بأغلبية كبيرة وإدارة اتحادية وتؤكد للجميع
أنها بالغة خمس أو ست سنوات على الأقل الأمر الذي ضمن للسوداء الاستمرارية
وتنفيذ كل مشاريعهم ، وجاءت الفرصة لإصلاح ما ألفسده "منافسهم" . كان عقد
مثل تلك المقارنات المطلوبة والمتوقعة ، فكرة استعادة غزو السودان عادت بقوة
وتبلورت كسياسة، كما حكمت بذلك الأحداث غير المرئية .

في ١ مارس عام ١٨٩٦ تعرضت إيطاليا إلى هزيمة ساحقة في معركة "عدوة"
بالحبشة، وجاءت هذه الهزيمة بأمرين أثرا على باقي الدول. الأول الضربة القوية التي
وجهت لنفوذ أوروبا في شمال أفريقيا ، وأصبح من المحتمل أن يشجع لمصالح الأحباش
الدراويش لمهاجمة الإيطاليين في كسلا أو حتى مهاجمة سواكن أو وادي حلفا .

الأمر الثاني تضاعف دور إيطاليا كلاعب أساسي في أوروبا وحقيقة إن السلاح الذي
حارب به الأحباش كان من مصادر فرنسية وروسية قد عقد الأمور وسوف يؤثر سلباً
على التحالف الثلاثي. كان لابد من أن تقوم بريطانيا بعمل بمقابل رسالة لطمينة
الإيطاليين معنا الصلح حتى يعود الميزان للاعتدال .

سرعان ما تحققت توقعات السلطات المصرية، بمجرد أن سمع الدراويش بانتصار
الأحباش في معركة "عدوة" فتحوا كسلا وظهرت بوادر نشاط غزو عادي في أم

درمان. كان أنسب تحرك لمساعدة إيطاليا أن تقوم بعمل حربي في وادي حلفا وبلجا
البريطانيون إلى مصر. كان أمر استدعاء المديرين والأشخاص المقعدين في السودان
يشعل تمكيد المصريين إلا أنهم كانوا يعتقدون أن الأمر يحتاج لتحضر ولصنع مسيرات
ثم كانت هالك أولويات مشاريع الخزانات التي ظل الخديوي يطلبها لما لاكثر من
ستين، وبما كان "كشتر" يكلف من أجل معركة إعادة الغزو كان سيد وليام
كارس يطلب بالخير وقد نجح أخيرا في إقناع لورد كرومر حاكم مصر.

لقد تمسك للمصريين من قرار بريطانيا الدخول في معركة محدودة في وادي حلفا
لإرضاء الإيطاليين على حسابهم لم يقدم الدبلوماسي على أي مبادرات هجومية تستدعي
الرد فطلت الجبهات هائلة وكان كرومر على يقين من أن بناء الخزان سوف يهدد كل
اعتبار بينما لا يتوقع أحد من حكومة الأحرار أن تساعد إعادة غزو السودان. وبناء
عليه تم تعديل الخطة أو الاقتراح البريطاني ليشمل احتلال دنقلا بأكملها بدلا من وادي
حلفا، كخطوة أولى نحو احتلال السودان.

لعله من الضروري قبل الدخول في تفاصيل المعارك أن نصف كيف تم توفير المال
اللازم لتمويل الحرب.

بدون أي رغبة في الدخول في أضياف السياسة المالية للمصرية وتعاريفها المنهشة
أرى لزاما على أن أعرض كم المشاكل التي كانت تواجهها الإدارة البريطانية والصراع
الذي تتعرض له الحكومة المصرية في تأمين احتياجاتها الضرورية من الأموال وهذا هو
أمر من صميم أمور السيادة، لعل تناول هذه الأموال ينال بعض عطف القارئ، أو
حنقه أو حتى إهماله.

كان نصف دخل مصر يصرف على التنمية في البلاد والنصف الآخر يذهب
لسداد فوائد الديون والمصاريف الخارجية. وحتى يوضع حد للصرف البذخي الذي
كان سائدا في الماضي تقرر في مؤتمر لندن عام ١٨٨٥ ألا تزيد ميزانية مصر عن رقم
معين في السنة ومقابل أي جنية زيادة يوضع جنية آخر في حساب مراقب الديون. معني
هذا أنه بعد تجاوز الميزانية فإن الحكومة يلزمها تدبير جنيته عن كل جنية مطلوب. لم

يحمل القس الضرائب التي فرضت للإبقاء بهذا القرض وصرف النظر عن ذلك المشروع واستبدل بأخر على أن يوضع الجنيه الثاني في صندوق احتياطي يصرف منه فقط في الحالات غير العادية .

بدأت حملة دنقلا بدون الرجوع للحظة العامة في مصر . وكان الوقت مناسباً ولكنه ليس أفضل الأوقات وكان من غير المتوقع أن تستطيع مصر توفير المال السلام في البرانية . تقدمت مصر بطلب سلفية من صندوق النقد الأوربي بمبلغ ٥٠٠ الف جنيه . استرلين . اجمع المحافظون الستة للصندوق الذين يمثلون إنجلترا ، وفرنسا ، وروسيا ، وألمانيا ، والنمسا ، وإيطاليا . فوافق أربعة وعارض اثنان وتمت الموافقة على القرض وسلم المبلغ للحكومة المصرية ويخصص للمجهود الحربي .

مصر التي هي قوة ذات سيادة ، طالبت بكل تواضع أن يسمح لها باستعمال جزء من فائض أموالها لتحقيق أهدافها الخاصة ولكن سوف تتلاقى للصعاب . العضوان الفرنسي والروسي اللذان عسرا في عملية التصويت على منح القرض طعنا في قرارات بقية المحافظين الأربعة وطالبا أن يلغى القرض لأنه قد تم عن طريق الخطأ كما يجب إرجاعه . عرضت فرنسا بعض جماعات من حملة السندات بأن هذا الأمر يضر مصالحهم عرضت القضية على المحكمة المختلة الموجودة في مصر ولكنها مستقلة تماماً عن سيادة الدولة .

دافعت مصر وكذلك المحافظون الأربعة بأن المحكمة المختلة ليس لها صلاحية نظر القضية وليس هناك حق للذين يهاجمون القرار لأن الحكومة المصرية اتبعت كل الطرق القانونية للحصول على القرض وأن القرار أصبح سارياً بمجرد أن وافق عليه صندوق المحافظين وهو الممثل الشرعي لحملة السندات .

كانت الحجة قوية ولكن حتى ولو كانت أقوى عشرة أضعاف فإن النتيجة كانت ستكون واحدة ، فاعضاء المحكمة العاليه قد استنلوا في قراراتهم على اعتبارات سياسية ونسلوا توجهاتهم من حكوماتهم أعلنوا بكل بساطة أن لفقات الحرب ليست "نفقات

فوق العادة* لما أمر عظيم جيش الخليفة أعصر كثر عادي يحدث كل يوم،
أما حالة

الحرب فالتحيرت أمراً عديلاً بناء على هذه الأسس الواقعية والحكيمة أموت مصر برد مبلغ
الـ ٥٠٠ ألف جنية قيمة القرض بالإضافة للقوائد والتكاليف الأخرى يعمد تردد ملحوظ ،
وما إذا كانت الساعة والوقت قد أُرِف لتعميق الضغوط المالية على مصر، اتخذ القرار للاجتماع
لأمر المحكمة ، وكان لابد أن يجد المبلغ الذي تم صرفه بالفعل.

كان الجيش قد احتل دقلا وللعارك مستمرة ولا يمكن إبقائها ولم يكن في وسع مصر
رد المبلغ الذي حرمت منه بعد أن تحصلت عليه متبعة كل الطرق القانونية .

هكذا كان أهم لنشاكل للدولة ذات الصعوبة البالغة أن تبادر دولة في كامل وعيها وملئمة
بكل حقوقها القانونية، تتجبع في علق أزمة في بلد طمنا بالغت في التطاهر بالاهتمام بمصالحه
وعبر أهله.

هكذا كانت الدبلوماسية الفرنسية. فرنسا التي تحتر نفسها صديقة لمصر ولها نفوذ
قوي للغاية في القطر المصري، مارست دهاء الدبلوماسية الخفية وراء الكواليس، رغم مكرها
مستعد يوما للمكر الأكبر.

الآن وكما حدث من قبل نفس دهاء وذكاء الوزراء الفرنسيين سوف يتسبب في لحظة
قوية ضد المصالح الفرنسية في مصر. في تلك المرحلة مارست فرنسا نفوذها كبيرا على الساحة
السياسية في مصر. إن الجانب المصري وإن كان ضعيفا الآن ولكن مصر شأن عظيم، التفت
فرنسا لتظف معه مساندته. كانت أعيان نجاح فرنسا قد التفت قلوبهم ورفعت من روحهم
للعنوية . إن الرجل في الشرق تحمى النتائج وكان الانحياز كاملاً ضد بريطانيا .

كانت الاستنتاجات في عقول الأعمال ونضجة للعيان ، بريطانيا تم تقييمها كقوي
أوروبية ، وأثبتت ضياعا كاملاً. في بلاد الشرق تظل مشاعر الناس تتراجع بين قوي ساجدة
أن تكون مع الجانب الفاتح. ومع كل هذه الإثارة بدأ الرأي العام يتحاز نحو الجانب الأتوبي
وعليه عندما رفضت المحكمة للمعطلة في الإسكندرية استئناف مصر، كانت هزيمة بريطانيا
كبيرة بالمقارنة مع انتصار فرنسا.

في الثاني من ديسمبر أسرع القنصل العام البريطاني وأيرق بنتيجة حكم اللجنة الى "لورد سالزبوري" وطالبا التصديق ليعان أن حكومة صاحبة الجلالة قد قررت أن تلغى القرض لمصر حسب الشروط التي سوف تعلن فيما بعد عندما أعلن في ٣ ديسمبر أن بريطانيا سوف تؤمن القرض فتدعش الجميع وترك هذا الامر إحساسا غير مريح لسدي السياسة للفرنسيين. كان بإمكان فرنسا بالرغم من تلك الظروف أن تلعب دورا مؤثرا في مصر وإن تعرقل مساعي بريطانيا لنيل هذا النصر . ظن الفرنسيون أن الامر يحتاج لموافقة البرلمان الإنجليزي، ولن تستطيع مصر الحصول على المال اللازم. تماما كما يحدث في البلدان الأمريكية ، فإن الضرائب لا تجمع بالتساوي مع شهور السنة في بعض النصول تكون الخزنة ملائمة بالنقد وفي النصول الأخرى تكون قليلة. شاءت الظروف أن تكون الخزنة عسرة في تلك الفترة.

عاب عليهم مما إذا كانت الخزنة ملائمة بالنقد من عائد الضرائب على القطن، وقرر لورد كرومر دفع القرض في الحال .

في الخامس من ديسمبر اجتمع مجلس الوزراء المصري برئاسة الخديوي وقرر مبادرة لإرسائي معطلف شكر الحكومة صاحبة الجلالة مكرماً عن الامتنان للمساعدة المالية. وكتب " بطرس باشا " أوجرو أن تغلقوا لسمو اللورد ماركيز سالزبوري بحال الص تعبيرنا بالامتنان من جانب الخديوي والحكومة المصرية للمعطف الكريم من حكومة صاحبة الجلالة تجاه مصر في هذه المناسبة .

في يوم ٦ ديسمبر وضعت ٥٠٠ ألف جنيه بالإضافة الى ١٥,٦٠٠ ألف جنيه عبارة عن الفوائد والتكاليف، من الذهب وسلمت لمكتب الصنمندوق الأوروبي بالفاخرة كان رد الفعل عظيما كل الناس كانوا يعرفون للمشاكل وعرفسوا كيف تم التغلب عليها. كان القوم واضحا للعيان في عقول الاهالي وكان تراجع النفود الفرنسي اكبر من أي نجاحات لفرنسا التي لم يشهد نفوذها في مصر مثل تلك الضربة وسوف تشهد هذه القصة في الزمن القصير الذي ترصد، كيف ستصاب فرنسا بحرج أكثر مطاعة .

الفصل الخامس

بداية الحرب

قبل منتصف ليلة ١٢ مارس عام ١٨٩٦ ، تلقى السردار تعليمات من السوردار كرومر تأمره بتحريك الحملة للبحرية دفقلا واحتلال عكاشة ، في صبيحة اليوم التالي نشر الخبر في جريدة التليجراف يتمويه كأنه أت من مراسل الصحيفة بالقاهرة ، واجتمع مجلس الوزراء المصري لمعطي الموافقة الرسمية . واستدعى الاحتياطي يوم ١٤ وفش الخديوي طابور العرض يوم ١٥ وعند انتهاء العرض أخبر سر . هـ . كنيش الخديوي ان الكتاب الأولي سوف تتوجه الى الجهة تلك الليلة .

كانت القوة الامامية في حالة استعداد دائم بفضل تحركات العبور للقلق ، وجاءت أخبار التحرك الذي طال انتظاره ، وحسب ما الضباط البريطانيون الذين علو الانتظار عند "وادي حلفا" و"صرص" . في يوم ١٥ مارس أي بعد ٣ أيام من تسلم السردار للتعليمات ، وقبل تحرك أول الإمدادات من القاهرة ، جهز الحفيد هتق فصيلة مكونة من عدة أسلحة لدسول واحتلال "عكاشة" في يوم ١٨ تحركت الفصيلة الصغيرة وبدأ بذلك الغزو الذي توقف لشره سنوات تاركاً الأمر للبرلوش .

كان المسار يقع على طريق بحري وحر في الأرض المتنازع عليها التي لم يجرها لسنوات بسبب الحرب لذلك عانت القوة من السور في صف واحد في بحر ضيق ، وتاعترت أكثر من ساعة كاملة لتعدية صف واحد بين المبحور للتأكله بسبب الزمن والعواصف حتي استحدثت الاسم الذي يطلق عليها "بطن البحر" . كان النيل على يمين القوة وبالرغم من اضطراب الجنود ترك النهر لتضادي مناطق وحررة وغير صالحة للسير ، الا انهم دائما ما يمسكرون بالليل قرب النهر . قامت وحدات من المعنسة وسلاح الفرسان بعدة طلعات نحو الجنوب والشرق تحسبا لقلوب جيش البرلوش لصعد الهجوم .

كانت القوة ترحف قرب النهر وعلى أهمية الاستعداد للنهوض في لحظات قليلة ومستعدة لأي نزاع . واصلت سيرها ووصلت "وادي عطرة" يوم ١٨ ويوم ١٩ إلى

"نايجور" ثم دخلت الفصيلة إلى "عكاشة" يوم ٢٠ مارس ظهرت بعض أحزاء الطابية البريطانية للقذعة وبعض المخازن من بقايا "حلبة إقناذ غردون" ١٨٨٥، خط السكك الحديدية من مصرى تم نزع كل الفلنكات إلا أن الخط الحليدي ترك متائرا بقرب الخط. كل شيء مهجور ، لم يدل أي شيء على وجود الدراويش سابقا إلا منظر كتيب، عند نهاية المحطة للقذعة هو بقايا مقصلة، صنعت من قضيب السكة الحديد، بالقرب من بقايا جبل دائب وعلى اليمين ناصعة البياض بفضل الريح والشمس. لم يكن هناك أكثر من ٦ أعراب مسلحين هم سكان الجزيرة عطف للشلال هم كل ما تبقى من السكان في المنطقة .

بدأت القوات في حضور دفاعاتها بسرعة فائقة - يوم ٢٢ رجع جزء من المعاناة والفرسان إلى "مصرى" ليصبحوا فصائل أكبر للجنبة بقيادة الرائد "ماكدونالد" وتكونت من الفرقة السادسة والسابعة السودانية. تركت فرق من الكتيبة الثالثة المصرية لحراسة آبار "لميكول" .

تحرك كرفان كبير يتكون من عازن عملة على ظهر ٦٠٠ جمل يوم ٢٤ مارس من مصرى ووصل دون أي حادثة إلى عكاشة بعد أربعة أيام وتسلم الرائد ماكدونالد قيادة كل القوة المتقدمة .

تحولت عكاشة إلى معسكر منيع يضم ثلاث كتائب ، سلاح مدفعية وقوات راكبة يحصلون على طلبهم بالجمال من "مصرى" . ظلت الدوريات تجوب المنطقة إلى الجنوب والشرق لمراقبة تحركات العدو وقوت خطوط الاتصالات بتكوين نقاط عند "ميمنا" "وادي عطيرة" و"نايجور" وكانت الفصائل الصليبية من البلسو، الكبابيش والفرقاء تحتل الآبار المنتشرة في المنطقة . ظل الدراويش كل هذا الوقت في تكاسل صليب يراقبون ما يجري من مواقعهم في "فركة" دون القيام بأي مبادرات أو نشاط يمكن أن يعرقل سير العمليات .

استمر تدفق القوات المصرية الى الخطوط الامامية وانصاع لجنود الاحتياط للأوامر طواعية، وتم تصعيد كل الكتائب الى حالة الاستعداد القصوي للحرب . تكونت كتيبتان من قوات الاحتياطي، الكتيبة ١٥، ١٦ وتركت ١٥ في "أسوان" و "كوروسكو" وأرسلت ١٦ الى سواكن لتعطف الأولى. رحلت قوات جمال الاسفورد شير من القاهرة لتسكن في حامية وادي حلفا لتحل محل كتيبة الست التي تحركت الى مصرص وعكاشة وكومت فرقة للبلغ المكسيم، أربعة منافع من قسوة : سيمفورد شير و "كونوت ريجرز" وأرسلت بسرعة جنوبا.

جاءت الكتائب الثانية، والرابعة، والخامسة ، والسادسة المصرية عن طريق السكة الحديد وطريق النهر وكلها والانسياب الكامل في سورها للجهة بدال عيسى حسن التعطيل لمكتب الحرب وقدرته التنظيمية .

خطوط للمواصلات من القاعدة الرئيسية في القاهرة الى النقطة المتقدمة في عكاشة يبلغ طولها ٨٢٥ ميلاً، ولكن بقي فقط للمنطقة جنوب أسوان ضمن مسرح الحرب . تم إنشاء قاعدة لحرية عند بعلاية حيث تصل بالقاهرة عن طريق السكك الحديد ذات القطبان العريضة ، يتم نقل المؤن والمهمات والإمدادات من بعلاية الى أسوان عن طريق مجموعة البواخر الخاصة بشركة كوك - يتم جر يوارج كبيرة بمجموعة صغيرة من الجرارات البحرية مع استخدام للمراكب الأهلية أيضا لاجار الصنادل حتى أسوان . للاختلاف حول أول شلال تم بناء خط سكك حديد لربط للمنطقة من أسوان للشلال ومن هناك توصل البوارج والبواخر الرحلة الى وادي حلفا، ومن هناك يستعمل خط السكة الحديد الحربي الى " مصرص " ثم تستعمل الجمال لتوصيل للمهمات الى جنسوب "مصرص". تم شراء ٤٥٠٠ جمل من القاهرة وشحنت بالبواخر الى أسوان، ومن هنالك عن طريق النهر الى "كوروسكو" تم الجبهة. وافقت الحكومة البريطانية على مد الخط الحديدي من " مصرص " الى عكاشة، وتم تكوين كتيبة خاصة لهذا المشروع وبدأ شحن كل المعدات الى "مصرص" سوف يجد القاري معلومات لتغطي الجزء الخاص بهذا الخط الحديدي الاستراتيجي في قسم منفصل ما كنت اتوقع لتعرض له.

اكتملت كل خطوط اللواصلات في واحد أبريل أي قبل من ٣ أسابيع من بداية التحرك وكل شيء عمل بكفاءة عالية ، رغم تكديس القوات الوافدة .

بمجرد وصول الكتيبة ١٦ (الاحتياطي للصري) الى سواكن تم إرسال الفرقة السودانية الرابعة الى قصر ومن هناك عن طريق البحر الى قنا للسافة ١٢٠ ميلاً ، وبالرغم من العواصف التي لم تشهدنا للمنطقة سابقاً، استطاعت الكتيبة قطع للسافة في أربعة أيام مما يدل على مقبرة الجندي الأسود على البحر كان مقرراً للفرقة الخامسة السودانية أن تلحق دوراً بالكتيبة الرابعة، إلا أن أحداثاً جرت في منطقة سواكن أدت الى تأجيل سفرها، وسوف يعرف القاريء الأسباب في حينها .

إن تاريخ ميناء سواكن وأهميته ربما يقدم لحظات مفيدة للسياسي الساهر . كل المنازل تلف على جزيرة يربطها بحر طويل بأكثر العمارات البيضاء العالية وظهورها للمفاجئ ربما يوحي للمشاهد أنه أمام مجمع صناعي . ولكن هذه بعض المرشحات لمساه البحر حيث لا توجد أي مياه حلية في المنطقة . كما أن المنظر من قرب يثبت الخسراب الذي تعيش فيه المدينة . فجزء كبير من المدينة مهجور ، وشوارعها الضيقة تتعرج حصول منازل متهدمة ومهجورة تلها الرياح بنوافذها والواجهات مغطاة بالألواح الخشبية . حتى في التربة تفوح منها رائحة الركوند والصدأ ، ويضج المكان بذكريات الضباع والفشل ، هذا هو ما يحسه أي زائر يرى تلك المناظر . فالسافر الذي يصل الى جزيرة تكون الكرتنيه أول ما يشاهده ثم يقايا خط حديد سواكن يمر ، ونسلاط قساطرات يملوها الصدأ ، وعربات بضاعة مهشمة وأقوات كثرة تقص الخط ملقاة في العراء بدون حراسة أو اهتمام قرب الورش القديمة .

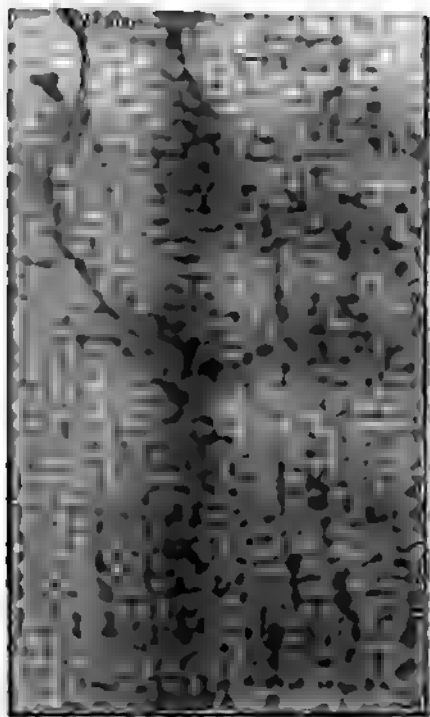
للكان الوحيد المتطور هو الملقن المسيحية حيث صفوف النساوعد والصبيان البيضاء للمقابر التي تحمل جثث الجنود البريطانيين والبحارة الذين قتلوا أما أثناء المعارك الحربية أو نهباً للعرض ، مع وجود مساحة عالية لاستقبال أي جثث جديدة مما يريد إسباط الزائر . أما مقابر التجار الأفريق والإسماء المكتوبة بالأعريقي فذكر الزائر بدروس اللاتيني الكلاسيكية . وكما الحواظ العالية للتهمة الخالية تؤكد للزائر أن سكان هذه

البلاد يقتلرون الحياة في المناطق الريفية، وأن حياتهم قد صبت طياهم بالوحشية والقسوة للتأهيتين .

لقد توقفت التجارة لأكثر من أحد عشر عاماً، أي نشاط تجاري كان نشاطاً غير مشروع بين العرب ومهرقي الشرق ، وكان لابد من الانتظار لأيام أحسن قادمة .
وعرف المصريون عدم تقع المنطقة فركت المنطقة بلا نشاط فلا يماثل المكان إلا بؤس وفقر سكانه .

في غابة البحر القادم من الجزيرة توجد بوابة مكتوب عليها " باب للسودان " باب حتى بشكل اللال يسمى الكاف به منزل الطين يحيط به جدران حائط بارتفاع ٥٠ قدماً سمكة حوالي ٦ أقدام ، تركت فتحات للنادق وايضا مواضع مفرقة لمنافع كرووب .
هنالك ثلاث حمامات قوية تكمل الدفاع عن سواكن. عشرة أميال ناحية الشمال هاللوب التي شهدت حادثة " كندو " ، بينما تقع مبوك وسط التلال داعل البلاد وحامية طوكر التي أنشئت لكي تحرم العرب من الاستفادة من دلتا طوكر الخصبة. طوكر حامية قوية وتحتاج لكتيبة كاملة لحراستها .

لا يكون أي وصف لسواكن كاملاً بدون ذكر الرجل الذي أسهم في شهرتها ذلكم هو " عثمان دقة " . كان " عثمان دقة " قاهر رقيق مشهور وعندما حاولت الحكومة المصرية وقف نشاطه اضطر للعودة للممارسة فانضم لثورة المهدي واستطاع نسبة لنفوذه القوي تجنيد كل قبائل المنطقة على شاطئ البحر الأحمر للوقوف مع المهدي. لقد عانت الحكومة الامبريالية سنة وراء سنة وضعت بكثير من الرجال والمال في معارك أدبه بصراع الغلاب حول عظام الناشئة ضد عثمان دقة. في بيكر تيسب، الشيب نامي ، توفريك ، نحاسين ، هاللوب ، جيمند والفاقات وهي كانت المعارك التي خاضها " عثمان دقة " ولم يصب فيها بفرح واحد. لقد هزم مرات ولكن لم يتم القضاء على قوته، هذا القائد الماكر يمكنه أن يقول إنه حارب أكثر من أي أمر في جيش الدراويش .



لم يتوقع أحد أن يكون التقدم نحو دقنة ذا أثر على الموقف حول كسلا ، ولكن أثبتت الأحداث نجاح الخطة البريطانية إذ مجرد ما سمع " عثمان دقنة " باحتلال عكاشة ، أعاد قوته المكونة من ٢٠٠ من الفرسان ٧٠ مضيفة و ٢٥٠٠ مشاة ورجع إلى قاعدته القوية في دلتا طوكر . بمجرد سماع الاضاعة بتحركه نحو طوكر ، تم إلغاء سفر الفرقة السودانية الخامسة التي كان مقررا لها أن تبحر إلى قصير ومنها إلى قنا عبر الصحراء ، وبقيت لحراسة حامية طوكر .

نسبة لحساسية موقع سواكن سارعت الحكومة البريطانية بوضع خطط للقوية الدعامات من سواكن بقوات قوية .

كانت الاحوال دائما مضطربة في شرق السودان ، لم يكن لحاكم البحر الأحمر أي وجود لو أحترام بأبعد عن مدي مطلق سواكن ، كانت قبائل المنطقة تدين بالولاء لمصر لمجرد أن تعيش في هدوء وعلى نحو ٢٠ ميلاً حول سواكن كان بعضها يتعامل مع عثمان دقنة ولو بالرغم منه أحسن مثال لذلك عمر تينا شيخ منطقة أركويت . في أوائل أبريل أعلن عمر تينا أن قوات عثمان دقنة شوهدت بالقرب من منطقة أركويت وأهلها أنه وهو حليف الحكومة قد اشتبك معه يوم ٣ وهزمه بمنسابة بلغت أربعة جمال وأطباء إذا رأت الحكومة يرسل قوة شاربة عثمان دقنة فأبى الحليف المخلص وسواصل منلوشة إلى حين حضور قوات الحكومة .

بعد اتصالات مع السردار قرر العقيد لويد حاكم سواكن الذي كان يعاني من شدة المرض أنه لا يملك قوات كافية للهجوم على عثمان دقنة عند منطقة أركويت . من سواكن حتى حدود المنفذ إن قيم معركة أمر سهل ويعتقد قوة و ثراء الجهة للمحتدي عليها يكون الرد . إذا كانوا عظماء يرسل أفراد من القبائل الصديقة أما إذا كانوا أغنياء فصعد فجأة اثنين أو ثلاثة لوانحت قد جهزت تشترك في حملة حتى تصاف أبحاد جديدة لسجلات الجيش البريطاني .

في تلك الظروف كانت الحكومة المصرية فقيرة ولم ترغب الحكومة البريطانية الاستفادة من تلك الفرص بل كانت مصممة على إرسال قوة صغيرة لعملية محدودة .

قرر الحاكم إجراء منورة تحت تلال فور ويتري مشتركة بين القوات من سواكن وطوكر. كانت حامية سواكن تتكون من الفرقة الأولى ونصف الفرقة الخامسة المصرية وفرقة الاحتياطي ١٦ المصرية التي حلت مكان الفرقة الرابعة السودانية ولم يكتمل تشكيلها بعد وسرية من الفرسان وفرق هطاة وبعض وحدات من المدفعية. وكانت حامية طوكر تتكون من الفرقة الخامسة السودانية وبعض المدفعية، هكذا تكونت من هذه القوات في ثاني أسبوع من أبريل "قوة دفاع سواكن" مع احتفال لائق.

كانت الخطة بسيطة فقد قرر العقيد لويد أن يلتقي مع قوة طوكر عند مفترق الطرق تحت تلال بداية الطريق لاركويت ، على أمل أن يزل هتمان دفنة وقوته لتبدأ المعركة في الغراء بعدها عند الاتصال تعود القوات إلى سواكن وطوكر .

وحيث تكون قوات سواكن متحركة ، ركبت القوات في أكثر من ألف حمل و ٦٠ بطل و ١٢٠ جماراً و ٢٠٠ من العرب لتهاذه هذه الحيوانات، صرخت تصيحات لسته أيام واحتياطي ماء يوم واحد، وم صرف عدد ٢٠٠ طلقة لكل رجل وحوالي ١٠٠ قذيفة لكل مدفع. وفي عصر يوم ١٤ أبريل تم استعراض طابور القوة خارج أسوار سواكن ثم عسكرت في الغراء جاهزة للتحرك عند الصباح .

في الصباح تحركت القوة المكونة من ١٢٠٠ مقاتل، وبعد مشوار ٤ ساعات في اتجاه جور ويتري ، بلغ الفرسان عن وجود بعض اللصوص من دوريات المراقبة . عندها أعطت القوة تشكيل مستطيل ، الفرقة السودانية للمخططة و ٢ مدفع في الأمام والفرق المصرية الثلاثة الجانبين والمخففة في المؤخرة ، لم تكن الجبال مدمرة فخطقت بعض للمشاكل عند المرور في المناطق المحمية ورغم التأخير تم الوصول إلى آبار تسوي في حوالي الرابعة بعد الظهر وهي تبعد ٨ أميال من جور ويتري ، هنا كانت القوة قد قطعت ١٩ ميلاً وقرر الحاكم العقيد لويد أن يتوقف . بينما كانت فرقة المشاة تجهز للزربية، أرسلت قوة من الفرسان تحت قيادة العقيد " فيونيك " (ضابط مشاة عيس صمن المجموعة) لكي يتم الاتصال بالقوة القادمة من طوكر التي كان من المفروض أن تكون وصلت إلى نقطة الالتقاء .

١٠ على اعتقاد أن عمر تيتا مورسل تحليرا عند قرب وصول قوات عثمان دقنسة لم تتخذ القوة أي احتياطات وفي حوالي الخامسة وجدت نفسها فجأة أمام حوالي ٢٠٠ من فرسان الدراويش وعدد كبير من المشاة .

بدأت السرية في تراجع سريع للرجوع إلى آبار تيروي ، كان الانسحاب غير منظم كما أسرع بعض الفرسان حول الاحطار والخراب المتشرة ، فمضت ١٦ جنديا من عيولهم وقتل واكبوها في الخال بالحرايب ، أخذ النقيب " فيونيك " ٣٦ من المتطعين واحتل قمة تل وأخذ استناده كضابط مشاة مدرب للدفاع عن نفسه ، بينما اوصلت بقية القوة اندفاعها للرجوع للقاعدة . وصل ٣٢ من الجنود بقيادة ضابط مصري يسلك إن حصانه قد حزن وفر إلى زريبة تيروي وأبلغوا بأنهم هوجوا وأن بقية القوة إما أهدت أو رجعت لسواكن وما زال العدو يطاردهم . كانت الأعشار مخرقة وزاد في المحنة وصول مجموعة من الدراويش حاملي الحرايب إلى عتارج الزريبة في تيروي . تعرض اثنان لمحاولة الذهاب لتفقد باقي قوة الفرسان أو جيش طوكر لكنهما سقطا قتلا بعد أن طاردهم الدراويش . وانتظرت بقية القوة متوقعة هجوما وشيكا .

زاد القلق في منتصف الليل عندما شوهدت جموع الدراويش تتحرك في الحضور للمقابل للجهة الجنوبية في نفس الوقت الذي سمعت فيه صيحات العدو القوية من الجانب الآخر والحمرت طلقات الرصاص وكذلك فكلّف للخدمة نحو العدو بدون تصويب تضرب في جنح الظلام ، اتسحب الدراويش بعد فترة تاركين وراءهم قتلا واحدا ، ولم تبادل للطلقات متفرقة لكنه لم يجدد الهجوم حتى الصباح ..

في هذه الأثناء استمر النقيب " فيونيك " في الدفاع عن موقعه ، وضدت المدفعات بنسبة لقلة البنادق عند العدو وأيضا بمحاورة القوة في تصويب نيرانها حتى استطاعوا ان يجبروهم على التراجع . في الصباح اكتشفت السرية انسحاب العدو فركبوا عيولهم وانضموا لباقي القوة وواصلوا السير حتى وصلوا إلى ويترى ، حيث وجدوا أن قوات طوكر قد وصلت بالفعل . لقد استطاع الرائد " سيدني " الذي كان على رأس ٢٥٠ جنديا في الفرقة الخامسة السوادية ، (القوة الوحيدة التي يعتمد عليها) أن يطرد

المجموعة من الدراويش التي كانت تحتل الخور في ويتري. وهنا وقبل أن تستريح القوات هاجتهم مجموعة من العرب تتكون من حوالي ٨٠ من الفرسان و ٥٠٠ مشاة ، تصدي لهم رجال الفرقة السودانية بسلاح، وانتهت للمركة بقتل ٣٠ من أفراد العدو مقابل ٣ جرحى من قوات الاحتياطي .

نجحت خطة العقيد لويد وتم لقاء القوتين من سواكن وطوكر في مفترق الطمرك مع طريق أركويت لكن أُلغيت فكرة انتظار عثمان دقة لقتاله ورجعت القوات إلى سواكن تاركين ١٨ جندياً مصرياً و ٣ جرحى. كان قد أحرق وحولهم فترة قلقة على مصيرهم لدى النقيب " خوردهنفسون " الذي ترك لحراسة سواكن ، بحالة غما من أي جنود. وفي حوالي الساعة الثانية ظهراً، وصلت إلى أبواب المدينة بقايا الفرقة ١٦ من الفرسان المصرية مع ٦ جنود بنون فرسان. أنتشرت إشاعة بأن الفرقة قد أبادت ولم ينجف العرب من سكان سواكن سرورهم وبدا كأن البقية تستعد للتحرش بالموقع. ولكن أخذت الموقف السفينة الحربية "سكاوث" التي كانت راسية في المياه حين وجهت مدافعها نحو الأحياء القريبة وأزلت عدداً من حدود البحرية بطاير في الشوارع للسيطرة على الموقف إلى أن وصلت القوة المنتصرة واستقبلت استقبالاً لائقاً وأقيمت الاحتفالات .

أعلن أن نجاح العمليات قد كسر شوكة عثمان دقة وأمنت لنا طوكر ومنعاً لحدوث أي حادث يعبر صفو الانتصار أجهلت القوة الخلفية لطوكر عن طريق البحر لولا إلى ترنكتات ومنها لطوكر. وبقيت قوات سواكن داخل المعسكر في مهام دفاعية بحتة. ثم سمع إن " عثمان دقة " قد أبحر على بعض القري. وعند وصول الفرقة الهندية كان من المفروض أن يكون عثمان دقة على بعد ١٢ ميلاً من المدينة، لكنه تراجع إلى ادراما على غر عطوة وبقي هناك أثناء الحملة على حقل .

لم تتكرر أي عمليات هجومية بعد ذلك في شرق السودان، ولكن رغم عدم مقدرة الدراويش على مهاجمة المصريين نظراً لاستحكامات دفاعهم حول المدينة إلا

أهم بقوا في المنطقة إلى أن تغير الحال بعد سقوط بربر على أيدي القوة الجبارة حملهم على النيل .

بعد معارك وبترتي وضع أن دفاعات سواكن لا يمكن أن تتحرك للفرقة ١٦ المصرية وحدها بالرغم من مطالبة سير (هـ كشر) بارسال أي جندي من الجيش المصري ليشترك في المعارك التي تجري حول النيل وعليه تقرر احتضار لواء من الهند ليحل محل الفرقة الخامسة السودانية والكتائب المصرية حتى تتوجه للاشتراك في غزو دنقلا .

استمر اللواء الهندي من الفرقة ٢٦ مشاة البنغال ، ٣٥ المشيخ الأولى بومبي لانسرز ، الخامسة بومبي بطارية الجبال ٢ مدافع مكسهم وجزء من الفرقة الملكية (مدراس) سايز وماينلز وبلغ العدد الكلي حوالي ٤٠٠٠ رجل تحت قيادة العقيد ايفرتون من فرقة المرشدين .

وصلت الفرقة الهندية التي كانت تتبر أقوى فرقة في السودان يوم ٣٠ مايو متحذرة للقتال ولكنها صمدت عندما علموا أنهم بالقوة في سواكن للحراسة ، لم تتحرك كل الأقوال من أنهم في انتظار ٥٠٠٠ رجل قادمة من الصومال لتقلهم لكسلا وبربر ، وعرض العقيد "ايفرتون" التوجه نحو نقاط لوكويت. ولكن رفض عرضه وأبلغ بالبقاء في سواكن وطوكرم .

جاءت موجة الحر الفظيخ حتى وصلت الحرارة إلى ١١٥ درجة ومعها العواصف الرملية ، ساءت أحوال الجنود وبالعظم الاغنية واللحم أصبحت نصف القوة بناء "الاسقربوط" "سكيرتي" الذي من أعراضه الأنيميا الحادة، الضعف العام، تساقط الأسنان ولزيف حاد من جروح مفتوحة وأعراض مولة ومفترزة. وهكذا فإن أعدادا كبيرة من الجنود والآنجليز تم اختيارهم غير لائقين للخدمة وأبحفوا للهند والجنتر وأبحفوا أعيد بقية اللواء إلى الهند مما أسعد القلة الباقية. لعله من الأفضل أن تترك الحديث المشعوم الكتيب عن أحداث شرق السودان لتتحول إلى الحديث إلى الحملة الناجحة على النيل .

في منتصف أبريل تمت عمليات تجميع القوات في مناطق الحدود ، تركست كل سبل المواصلات لتحمل للعدلات والاهتمام إلى الجنوب لأكثر من ١١ ألف جندي

وصلوا الى ما بعد وادي حلفا لكن سوف لا تبدأ أي معارك قبل وصول الامدادات واكمال القوة للكملة .

ورعت القوات الى ثلاثة معسكرات قوية ، في وادي حلفا ، صرص وعكاشه ووحدة صغيرة تسيطر على النقاط الصغرة بين المعسكرات الثلاثة .

بلغت لقوة وادي حلفا ٣٠٠٠ رجل عا فيهم "ستنفورد شير شمال" بلغت حدود المدينة. والمعسكر حوالي ٤٠٠ ياردة في العرض محصورة بين شاطئ النهر والصحراء في مسافة ثلاثة أميال، وكانت مكاتب الضباط من الطين ، منازل قليلة ترتفع ما بين دور ودورين على الأكثر. وفي شمال المدينة توجد منازل مبنية البناء على شاطئ النهر حول أشجار النخيل، كما أن الحوايط البيضاء ومنازة الجامع تقري المسافرين للقادم من كوروسكو والشلال بأنه سيحدث الترفه وحسن الاستقبال في منطقة حصرية .

لمدينة كلها بحمة بندق طويل وحائط عال من الطين بالبناء الصحراء مثبت به مدفع كروب حتى التقاء الحائط مع حافة النهر مع حرس حاميات صغيرة للحماية من داخل البلاد لهذا أصبح أي هجوم للعدو الآن عدم الفائدة. لقد أصبحت حلفا الآن المحطة الرئيسية، تصلها أسلاك من المواد، وبها المخازن والورش مما أضاف ضجة المدينة الى هذه البقعة الإفريقية .

لقد تم بناء حامية صرص على رهوة صحرية سوداء على حافة النيل ٣٠ ميلا جنوب حلفا، وخلال سنين التحضير الطويلة اكتملت صرص أهمية كمركز للقوات القادمة وكأمر عطة لسكة الحديد حتى صارت معسكرا يضم ٦ آلاف مقاتل، ثم عمل حائط حصري قوي من أول بداية الصحرة حتى تلتقي مع النهر في الجانب الآخر مع تقوية من السلك الشائك. امتدت صفوف الخيام والخيوليات داخل هذا المعسكر وأصبح العقيد "هتر" هو قائد الحامية التي عرفت باسم "حامية صرص والجنوب" .

اعتار الجيش للتقدم طريقين واحد لبناء السكة الحديد على نفس طريق الخط القديم عبر الصحراء الذي بني عام ١٨٨٥ وقافلة أخرى عن طريق شاطئ النهر، وكانت الفرقة المصرية السابعة تحرس الخط الجديد بينما كلفت نقاط صغيرة لمراقبة

الحملة بطريق النهر لتأمين الطريق حتى عكاشة. وكثرت القاعلة للمتقدمة خلال شهر أبريل ومايو وحتى أصبحت في موقف قوي. في مرة واحدة حاول العدو الاقتراب تصدت له المدفعية طويلة للذي وانسحبت القوة المعادية بعد أول قنفة ، لم يكن أحد يتصور فعالية المدفعية لهذه المسافة حتى اكتشفت في ثاني يوم حجة متضعة تحت حجة يبعاء عندها هنل رجال للمدفعية لقوة مدافعهم . كانت هذه القنفة إنذار كاف ، لم يحاول بعدها الدراويش التقدم مرة أخرى. لقد ترك المرحلو القاهرة يوم ٢٢ مارس بصحبة العقيد رندل نائب القائد وبقي فترة قصيرة في أسوان ثم واصل السير حتى وصل حلغا يوم ٢٥، وبقي هناك كل شهر أبريل يشرف ويطالب بسرعة نقل المواد واستعداد الخط الحديدي. ووصل عكاشة في أول مايو بصحبة سرية بقيادة الرائد بيون مودوخ، وكانت سرية أخرى قد وصلت عكاشة في اليوم الماضي فاصبح هناك سرتان للفرسان أضيفتا للقوة المتقدمة .

في نفس اللحظة التي وصل فيها السردار جاء بعض الأعراب وذكروا كيف أنهم فوجئوا بوجود بعض المحانة من الدراويش وكيف أنهم عسبروا اثنين وهم يحاولون الهروب منهم . فامر السردار السريات المصرية الثلاث مع الفرقة السادسة السودانية بملاحقة أي دوريات معادية وعمل استكشاف نحو بركة .

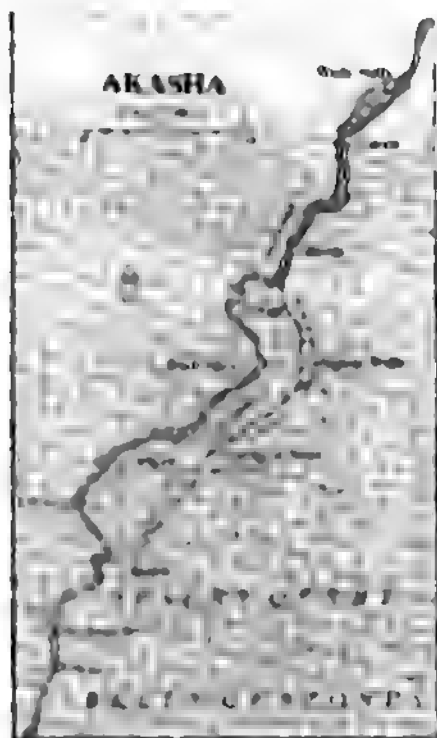
تحرك الرائد بيون مودوخ حول العاشرة صباحا مع أربعة ضباط بريطانيين و ٢٤٠ من جنود الألاسز. وبعد مسافة سبعة أو ثمانية أميال من عكاشة مرت القوة بمنطقة تلال رملية تحيطها من كل جانب مرتفعات حجرية غمر بوادي ضيق وقبل أن تحصل القوة من هذه المنطقة، شاهدت في للفتحة بعض أفراد قوة من الدراويش، هنا ذهب الرائد ليأني عليهم نظرة ولم تكن قوة من بعض راكبي الجمال لكنها قوة كبيرة تتكون من ١٥٠٠ مشاة و ٢٥٠ بحالة . كانت فرقة الفرسان قد ابتعدت عن باقي المشاة وكان منظر العدو خطيرا. لم يكن فرسان العدو يعدون أكثر من ٣٠٠ مساردة وبدلوا في الاستعداد للهجوم تساندتهم بعض المحانة من الطرف الأيمن وعطقتهم مجموعة كبيرة من حاملي الخراب :



لذلك قرر القائد الانسحاب من هذه المنطقة ، استمرت السريات في التراجع بلاحقتها الدراويش حين التحمت مع مؤخرتها واضطر الضباط البريطانيون للتفصل بالسيف والمسدسات . وسط هذه الضوضاء والارتباك تصاعد الدخان من حوافر الخيل وما كان يجدي أي تقدم في مثل تلك الحالة . لم تبد قوة الفرسان المصرية أي نية للرجوع للانقاة العدو لكن الضباط البريطانيين الذين كانوا في مقدمة القوة أصبحوا الآن في مؤخرتها وقرب العدو استطاعوا أن يوقفوا تقدم العدو ومعهم مجموعة من الجنود ، فراجع خيالة الدراويش تاركين حوالي ١٢ قتيلًا في أرض المعركة وانضموا لأفراد المشاة . أعلنت سريتان الوادي الضيق لمسافة ٧٠٠ ياردة بينما رجع بيون مردوخ مع السرية الثالثة واستطاع تشتيت العدو وطردهم من الوادي ، رجعت السريتان ونزل الفرسان وأحلوا وضعا مناسباً لاطلاق النار من التلال القريبة من مدخل الوادي مستعملين بنادق السربين السريعة للطلقات ، كان الميار روح فرسان الدراويش حاملًا في حدم مغلوبة الهجوم المضاد ، ولكن إطلاقهم للرصاص بدون فعالية لم يسبب أي خسائر .

إن شدة الحرارة والمطش أثرت على الجنود والخيول خاصة السرية التي كانت تراقب السردار فقد كانت بجهد من عتاء السفر لكن فرقة الفرسان تثبت في مواقعها واستطاعت ودع القوة للهجوم التي انسحبت بعد حوالي ساعتين من القتال . وصلت الفرقة السودانية متحفزة لقتال العرب لكن كان العدو قد تم انسحابه بالكامل ورجعت القوة للمعسكر ومعهما الحراب وستة جيول كانت خفية للمعركة ، ولكي تتعيل شدة الحرارة فإن أحد الجنود الأفارقة قد مات بسبب ضربة حمى .

هكذا كانت أحداث أول مايو رغم القتال الشرس لم تكن الحسنة تذكر . لقد حرج النقيب البريطاني " فينول " وقل جندي علي وحرج ثمانية جنود حراً مطيرة . لقد استمرت الاستعدادات لاحتلال فيكة واكتملت تماماً مع نهاية الشهر . إن وصول المعدات والمهمات للمستمر إلى حكادة قد جعلها قاعدة قوية يمكن للقوة أن تستند عليها لمدة شهر بدون الرجوع إلى الشمال ، وأصل تقدم الخط الحطويدي بما يولوي نصف ميل في اليوم حتى وصل آبلو أم بكونل حيث اتهمت حامية بما أربعة مبالغ وقوى في



الاستحكامات ، انخفضت المسافة التي يجب أن يقطعها مسافر من مصرص الى
عكاشة الى النصف وتضاعفت كمية اللون للرسلة فقدت مصرص بعدها الوقت
وتحولت عكاشة الى القاعدة الجديدة. لم يبق أي جنود حتى وادي حلفا بما كتيبة الجنود
البريطانيين فقط، ووصلت الكتيبتان للمصريتان من سواكن كذلك الفرقة السودانية
الخامسة في الطريق . تم رصد كل للمنطقة بعد عكاشة ورحمت الخرائط أصبح كل شيء
جاهزا .

بدأ التجمع في أوائل يونيو عندما تحرك السردلر من حلفا الى الجهة . وقف العمل
في خط سكة الحديد وترك الجنود "الكوليك" وحلوا بنادق الرمحون وأصبحوا
حراسا لنقاط المواصلات . سمح للمراسلين الحربيين بالتحرك الى عكاشة يوم ٢ يونيو،
وفي ٣ يونيو تحركت الفرقة السودانية مرورا ببار امبول في طريقها جنوبا تبعها
المدفعية المحمولة على الجياد والسرايا والكتائب المصرية التي كانت تسير على طول
خط النهر في النقاط المهمة بين امبول وعكاشة أيضا تحركت الى الجهة مقابل أوكل
وتحركت الفرقة المصرية الرابعة والسابعة من عند رأس الخط الحديدي وبذلك وصلت
أمر الكتائب الى الجهة .

بلغت القوة تسعة آلاف مقاتل مع كل احتياقاتهم وتم تجميعهم بالقرب من قوات
العدو .

ظل الدراويش في الحركة يشاهدون، بيلادة وقراخ وبلا اعتماد كل ما يجري من
استعدادات لإبادتهم . وكان من المفروض أن يكونوا ملهمين بمعلومات أكيدة عما
يجري، إذا كانت دوريات الخيالة المصرية قد منعت أي مناورات لهم فإن صيغهم كتلت
في المسكر عن طريق سائقي الجمال وحاملي الياه وغيرهم من العرب للتصلين بالقوة
للقادمة . صحيح لم يكن في مقدورهم معرفة التاريخ المحدد للهجوم لكن ما كان امامهم
غير التراجع لأن الهجوم لابد أن يكون وشيكا بعد اكتمال القوة في عكاشة .

كان الأمر حمودة لا يملك أكثر من ٣ آلاف رجل على الأكثر ولا يمكن حتى مع
سبعة وخمسين أمرا أن يروح هذا قوة للدراويش على كفه الجيش الكبير ، قيادتهم

سينه واللؤلؤ شحيحة وكان أمامهم وقت الانسحاب المتلفة كوشية أو صوارده حتى
يعدوا عن سيف العدو البتار. لكنهم لم يرضخوا لهذا الخيار. عناد وغباء للآخر
ومضيعة للوقت حتى هبت عليهم فجأة فاجعة كبرى وأبادتهم عن الوجود كقوة
عسكرية .

الفصل السادس

فرقة ٧ يونيو ١٨٩٦

كانت قوة القندرويش في فرقة تحت إمرة الأمير "جوذة" منذ نهاية عام ١٨٩٥ وكان لفراسي وكسل هذا العربي الفاجر السبب المباشر في تمكين القوة المصرية من تقوية مواقعها في عكاشة بدون أي قتال ، أسبوع تقو الأحرار ظلت هذه القوة تكابد في مناطق وهرة بين صرص وعكاشة دون أي متوشات أو دون أن تعرض الأورطة في عكاشة للهموم أو تظهر هذه القوة أي محاولة لمرحلة سر عطلت اتصالها .

لم تلب هذه النتائج الفاتحة للفراسي وعدم فعالية الأمير "جوذة" من "ود بشارة" حاكم مديرية دنقلا بالرغم من سلطته على كل القوات في المنطقة إلا أنه كان يفتقد بسط سيطرة بشكل فعال . وعندما تكررت شكواه من جوذة بدأ الأمر بعض التحرك فأرسل فرق استطاع أن تفرط على مواقع القوة المصرية في عكاشة لأكثر من مرة ولكن هذا لم يرض "ود بشارة" فاقصاه من منصبه وعين بدلا منه "عثمان ود أزرق" .

عثمان كان درويشا من نوع مختلف ونوعا آخر من الرجال.. كان من أهل مصر المتصبيين والمؤمنين بالمهدي مع إخلاص قوي للعائلة ظل يعمل في الحدود الشمالية لسنوات طويلة وكان معروفًا لدى السلطات المصرية من الفوارق المبرهنة بالوحشية وكان قاسيا على الأهالي المساكين الذين يسكنون في قري الحدود وبالتالي ما كان لثمان أي رحمة أو وقع في أيدي العدو .

مهارته وعبقريته قد حجت ولكن بين كل الأمراء الذين اجتمعوا في فرقة فان سوت "ود أزرق" سوف يسعد السلطات العسكرية أكثر من أي قائد آخر عطية وأنه الآن تسلم القيادة من جوذة .

لا يمكن الجزم بأن "عثمان ود أزرق" قد تسلم القيادة من جوذة في يوم ٦ يونيو ولكن من المحتمل أن جوذة لم يعترف له بذلك الحق واستمر الخلاف بينهما . وعلى

كل حال لريد " ود لوزق " أن يأخذ زمام المبادرة ولكي يثبت سلطته وساطة ، اخذ
 كمية ضخمة قوية عند الظهر وترك فرقة لاستطلاع مواقع العدو في عكاشة .

تحرك بحمل ووصل لشرف معسكر عكاشة بدون أن يلحظه أحد ، وكانت القوة
 التي سوف تهاجم فرقة في القصر تجري طواير العرض ، لكن شدة الخبار منعت الرؤية
 ولم تكتشف للكتيبة أي شيء غير عادي . لقد رسم الدواوير خمس الاضلاع على
 الأرض بلطب الخط وعاد إلى فرقة ليوستمر في حواره مع حوذة جد أن أعلن أن الأتراك
 هاديين .

كانت القوة التي أعدها السردار للاستيلاء على فرقة تسعه آلاف مقاتل مكوبة
 من الأتراك :-

الثلاث - السردار

* سلاح المشاة تحت قيادة العقيد " هنستر

القواء الاول	القواء الثاني	القواء الثالث
الرائد / لويس	الرائد / ماكبولد	الرائد / ماكسويل
الفرقة المصرية الثالثة	الفرقة الرابعة السودانية	الفرقة الثانية المصرية
الفرقة المصرية الرابعة	الفرقة السادسة السودانية	الفرقة الخامسة المصرية
الفرقة الخامسة السودانية	الفرقة السابعة السودانية	الفرقة الثامنة السودانية
الفرقة الثامنة السودانية		

* سلاح الفرسان تحت قيادة الرائد " جون مودوخ " :

٧ سرابا سلاح الفرسان المصري

٨ فرق قوات المشاة

* سلاح الخيالة :

١ بطارية تجرها الخيول

٢ بطارية ميلان

١ بطارية متفجعات مكسيم

كان هناك طريقان من حكاية لفرقة ، أحدهما يحاذي النيل والأحمر عن طريق الصحراء على خط السكك الحديدية المتوقع وقرر السردار أن يستعمل كلتا الطريقتين وقد قسمت القوة إلى قسمين ، القسم الأول بقيادة السردار تملك طريق النيل وتتألف من سلاح المشاة ، مدفعية الميدان ومدافع الكسوم .

وقوة الصحراء تحت قيادة الرائد " جون مودوخ " تكونت من القوة الراكبة ، المدفعية التي تجرها الخيول وقبيلة من عشيرة الفرقة السودانية السابعة بقيادة " ماكديونالد " ، وأعطيت جمال وكان العدد الكلي حوالي ألفي رجل . أعطيت تعليمات محددة للقوة الصفوية وكان على " مودوخ " اجتلال التلال جنوب شرق فرقة عند الساعة الرابعة والنصف صباحا على أن ينشر قوته بحيث تحتل موقعا نحو الغرب ، التحللا على الشمال ، المواجهة في الوسط والفرقة السودانية السابعة على الجنوب ، الخيار الوحيد الذي يترك لتقديره هو قوة المدافع التي تجرها الخيول، وقد حلر من أن تكون قوته على مدي نيران المشاة . بمجرد أن يتم طرد العدو ، تنضم الفرقة السودانية السابعة لقوة السردار على أن تواصل باقي قوة مودوخ، للهدف أولا كويكا ثم صوبارة .

تحركت لواءات المشاة من حكاية حوالي الساعة الثالثة والنصف عصر ٦ يونيو على طريق النهر . كان لواء لوميس في المقدمة مع الفرقة السودانية الخامسة ومدفعية مكسيم ، باقي المدفعية ثم لواء ماكديونالد وبعده لواء ماكسويل تبعه مستشفى الميدان ونصف كتية كاستيالي . سار السردار خلف المدفعية وترك آخر خط القوة المعسكر في الرابعة والنصف ، وبعد ساعتين تحركت قوة الصحراء الراكبة . حققت قوة طريق النهر بعض التقدم قبل حلول الظلام بعدها كان التقدم بطيئا ومرحقا ، سار الطريق في منعطفات شديدة وأرض ملائي بالمخاطرة لم تسمح بمرور أكثر من أربعة رجال في الوقت الواحد، وتشرنت البغال لمبور للطريق الضيق ، لم يظهر القمر وكان الظلام كساء لا وامتنع تدفق الرجال في صفوف طويلة لا يسمع صوت سوى صوت أقدام للمشاة والعناد الذي يحملونه . حوالي الساعة العاشرة والنصف وصل لواء لوميس لأول منطقة

رميلة مسطحة حولل ميل واحد شمال قرية ساكمتو ، هذه النقطة هي التي سرر
السردار أن يتوقف عندها للراحة وهي بالكاذ تبعد حوالي ثلاثة أميال من العدو .
كان خاطيء الليل مناسباً للتحويل من المياه زودت بالقرب والوزمبات بالمياه
شرب الجنود واليهائم وقدم بعض الطعام وتوالى وصول القوات ولحده خلف الأعصوي
الى أن اكتمل وصولها عند منتصف الليل ، وبذلك تم تركيز كل قوة لوميس وماكبوسلد
برئاسة السردار .

في ذات الوقت كانت القوة الزاكية في طريقها للرسمي ، وكما حدثت لقوات
طريق النهار عانت القوة من وعورة الطريق ولأن الفرقة السودانية السابعة لم تبعد
ركوب ، الجمال حل الارهاق بالفرادها وبعد الساعة الواحدة حل التعب والنعاس بكل
الفراد الفرقة وعانى الضباط الكثير وهم يحاولون الابقاء عليهم يقظين وهم على ظنهم
الجمال . وصلت على أي حال الفرقة نقطة فرقة في الساعة الثالثة الا ربعاً . عندها
ترجل الافراد السودانية من الجمال وعملوا تشكيل قوة مقاتلة من جديد .
ترك الافراد مبردوخ الجمال الزائدة تحت حراسة خاصة وتقديم لاحتلال التلال في
الواقع المحددة له قبالة قرية فرقة .

تترك السردار مع المشاة حوالي الساعة الثانية والنصف بدأ يظهر القصر على قسم
التلال شمال طابور القوة وكان ما زال حلالاً يرسل ضواض ضيفاً . تم التلصق على
اصعب جزء في السيرة مجرد أن بدأ التحرك بعد الراحة وبدأ زحف ٦ آلاف جندي في
طابور واحد مع قرب طلوع الفجر والتحرك مقترباً معسكر الدرويش بدأ القلق يظهر على
السردار وأعدائه وأرسل مناديب لباقي القوات لتصرع في الخطي حتى سمعت القوة
كالقطيع متزاخمة ومتحفدة من باب واحد وفي الرابطة تخطي اللواء المتقدم آمر العوائق
وانتهت بذلك مرحلة عصية في خطي للمر الضيق .

ودفعاً ومن ناحية الجنوب بدأت أصوات الطبول تعلن أن الدرويش مستعدون
وربما هاجموا القوة قبل أن تستعد ، سمعت صوت الطبول فجأة ، فلقد كانت إشارة

لموعد صلاة المحر لم تكن انفرا وظل الدراويش على جهلهم بالقوة القادمة هلاكهم السريع، مضوا في طريقهم لأداء شعائر الصلاة .

ظهر جبل فركة الكبير مع بصيص الضوء للضئيل في الأفق، على شمال القوة ظهر بينه وبين النهر شريط ضيق من الشجيرات والأعشاب وبعض أشجار النخيل وهذا طلب من اللواء الذي في المقدمة أن يتراجع ويستعد .

كان للموقع بسع بالكاد الفرقة السودانية الخامسة لتكوين طابور اصطفااف واكتفت الفرقة الثالثة والرابعة المصرية بتوسيع رقعة التشكيل بالنسبة للسرايا الثلاثة على يمين مؤخرة الفرقة الخامسة ، الرابعة في مؤخرة الوسط وبدأت القوة تظهر الآن في الفضاء الواسع كلما اتسع الطريق الخارج من الوادي الضيق على شاطئ النيل . توزعت بطاريات المدفعية الأولى شمال الخامسة السودانية والثانية على يمينها . ظهر ضوء النهار وبدأ أن قرية فركة تمتد نحو ميل واحد ترقد خلف كثبان التراب ولم يظهر أي دليل على أن الجيش الغازي لم اكتشاف تحركه، وأكد الصمت بعد أحتمال أي هجوم مضاد .

توقف اللواء الذي في المقدمة والمدفعية حتى تناح الفرصة لماكدونالد تجهيز كتابه الى سرايا . عند الساعة الخامسة بدأ التقدم هنا جاءت طلقة من عند كثف الجبل معانة أن النقطة المتقدمة لجيش الدراويش قد شاعفت الخطر القادم . جاءت طلقات اسعري متتابعة رد عليها من الفرقة السودانية مجموعة (ضرب جماعي) سرعان ما تبعها طلقات المدفعية من مدفع الميدان ومنافع الخيالة ، مفاجأة العدو كانت كاملة .

أصوات دبابات المدفعية زادت في حملات القوة الغازية وشجعهم أكثر عنصر المفاجأة للهجوم عند طلوع القمر .

وصلت الفرقة السودانية الخامسة الى أعلى نقطة كانت تحظى قرية فركة وظهرت القرية كاملة أمامهم تمتد على طول الشاطئ ، عبلة عن مجموعة متتارة من بيوت الطين بطول ميل واحد وعرض حوالي ٣٠٠ ياردة تتخللها جدران من الطين ومنازل صغيرة في نهاية شمال القرية وظهرت أشجار النخيل وأيضا بعض الراكب الراسية على

النيل التي يجعلها العرب وعلى عمال القوة هناك ما يشبه تل من الحجارة على رأسه
أعلام يندو كمسكر للقرية .

على طول القضاء الواقع بين التل ظهر مغلقت الدلولوش على ظهور الخيل ورجالين
يسرعون في تنظيم دفاعاتهم ظهر بعضهم على أعلى تل الحطارة لينظر بنفسه لمشاهدة
القوة القادمة للأعداء وإقالت بعض الطلقات على بيوت الطين وحجارة التل الأسود .
تطور الهجوم بسرعة تلقت اللواتي في لمر الضيق بين الجبل والنهر وانهمرت النيران
من الشمال واليمين من القوات المهاجمة، خضت الفرقة السودانية الخامسة نيرانها على
بيوت القرية من المنطقة العالية التي احتلتها ، المصرية الثالثة والرابعة نزلت على شمال
ويمن القوة الأساسية للهجوم. وبدأت منافع البطاريات ومنافع المبكسب تفتح نيرانها
على قوة المشاة المنظمة لهم . حجم لواء " لويس " على القرية من الجنوب وجاء
ماكدونالد بتقديم لواءه من جهة الشمال حول غابة التل الحصري محاولاً نحو الشمال
كانت هناك شجيرات وبعض الحجارة وعور صغير مما أضر تقدم قوته قليلاً .

ظهر علينا الموقف الحرج الذي وضع فيه العدو وبدأ في إطلاق النيران بصفة
مستمرة ولكن الفرقة السودانية المتمسكة وأصلحت هجومها نحو التل وعندما أصبحت
على بعد ٢٠٠ ياردة ظهر حوالي ٥٠ حيلة من الدلولوش تهاجم الجناح الشمالي للفرقة
ولكنها لم تستطيع مقاومة النيران الشديدة للمركبة .

عندما رأي باقي الرجال إبادة الحيلة وهي تضم الأمير حموده والأمير النور عنقورة
أمير الجهادية أهلكوا التل وترجموا موقع آخر ، تابعت الفرقة السودانية بالسلاح الأبيض
والذخيرة مطاردة العدو وفوق وتمت التلال حتى تمت تصفية المنطقة من المقاتلين لم يبق
إلا الجثث وسارح القاريون نحو شاطئ النهر .

نظم اللواء نفسه متجهاً للقرى والجند لاحتجون ينظرون إليهم بينما كان لسواء
ماكدونالد يهاجم التلال ، دخل لويس إلى القرية ومعسكر الدلولوش ، أبدي العرب
من خلال الفتحات الموجودة في المنازل مقاومة صلبة وانشطت الفرقة الرابعة في معركة
حقيقية ، أصيب جواد كابن الفرقة " سباركس " في أربع مناطق ، واستغل المصريون

توقعهم العددي والتسلح القوي في البلاء بلاء حسنا في المعركة كانت نقطة تحول في هذه الحرب .

عندما جنح اللواء " لويس " إلى اليمين واتجه نحو لواء " ماكثونالد " إلى الشمال انفرجت مساحة واسعة عند الوسط فضاء لواء ماكسويل واحتلها وكونت اللسعات الثلاثة خطا واحدا ثم كونت شبه نصف دائرة متجهة نحو الغرب إلى اتجاه النيل والعدو بعد أن فشل في صد الهجوم الكاسح لم يكن أمامه سوى التقهقر نحو النهر . كان في مقدور القوة على طريق الصحراء التحرك وقطع خط الرجعة على تراجع العدو ولكن الانحدار الشديد في المنطقة الممتدة على شاطئ النهر من الناحية الجنوبية كانت تقع خلف مرتفعات حجت الزوية فلما ووجد الفاريون فيها ملجأ .

بدلا من أن يقطع سلاح الفرسان والمتعانة جناح اكتفوا بمطاردة العدو الذي كسر خطوطهم ، وقد استطاع بعض الفاريين الحروب ناحية الجنوب واستطاع اصيرون السباحة إلى الضفة الغربية . عثمان أزرق العتيد وسلطه الآن بلا منازع إذ يرقد منافسه حجة هامة (حمدة) ، استطاع أن يركض مع عيوله من أرض المعركة ويوصل إلى صوادة .

ظل باقي الدراويش يحاربون داخل البيوت حتى النهاية مفضلين الموت والشهادة بدلا من التسليم للغازين .

طوقت اللوامات الثلاثة القرية بالكامل واستطاعت تطهيرها خطوة خطوة وتقدمت إلى حافة النهر ولم يتوقف لواء ماكثونالد وواصل ودخل المياه الضحلة حتى احتل الجزيرة .

رفض العرب الرجعة واستمروا في مقاومة ولو لما كانت بلا فاعلية ، وجدت أكثر من ثمانين حجة هامة داخل بعض البنايات وعند الساعة السابعة وعشرين دقيقة أوقف ضرب النار وأصبح كل معسكر الدراويش تحت قبضة القوات للضرية ، وانتهت بذلك معركة فركة .

شعل السردف نلسه الآن عطلردة القوة المضهقرة وأخذ كل القوة الراكبة وتوجه الى موجراكا حوالي ٥ أميال جنوب فركة واصلت فرقة الفرسان والمجانة مسيرهما حتى وصلت صواردة واستطاع عثمان أن يرق ان يجلي النساء والاطفال الى الشاطيء العربي للنيل مصحوبة ببعض القوات واللون قبل أن تصل القوة الى صواردة. عسدد وصول سلاح الفرسان ، لجأ الى التراجع شرق النيل بدون قتال وكان معه بعض القوة الراكبة. تأخر الأمير الذي تبط به مراقبه الأهالي الى الشاطيء الغربي وتعرض لوابل من الذنات من ملصية الخيلة طويلة اللذي ، عندها قرر الأهالي الذين أرهقهم المصاركة ، الكثيرة التي اجتاحت المنيرة الشمالية وكل هذه للذة الطويلة ، قبول قبول الحكام الجدد بترحاب وتوقف النشاط عند صواردة .

ولكن بعد أسبوعين توجه القتيب " ماهون " بمرتين ١٦ من قوات المجانة لمسافة عشرين ميلا جنوبا واستولي على شونة من الجنوب .

كانت محسورة الدواوش كبيرة إذ بلغت ٨٠٠ قتل على أرض المعركة ٥٠٠ جريح و ٦٠٠ أسير. بينما كانت الحسارة من الجيش المصري واحد ضابط بريطاني و" القتيب الى حي " جرح وقتل ٢٠ مقاتلاً من السودانيين وجرح ٨٣ .

تم تصنيف معركة فركة على أنها للمركة الكاملة وتم كتابة التقارير الرسمية وبقيت للقارئ أن يتحمل قوة التلاحم وخطاعة القتال. لقد كانت العملية كلها عطلعاً لها عطلعاً جيداً ونجاح والتنفيذ كان مثالي. وصول القوة بالليل بعد المشوار الطويل ووصول النواكين في توقيت واحد يرمي على النظام والتدريب برهنت وأسهم في نجاح المعركة ، النقد الوحيد الذي يمكن أن يوجه هو فشل قوة طريق الصحراء في وقف القوات للتراجع نحو النهر ولكن يجب أن تذكر طول سكة السفر وأنه لم يمكن أحد يدري مدى القوة الراكبة . كانت أخبار المعركة الناجحة ذات صدي طيا في إنجلترا وظل الجميع يترقب أخبار الحملة بفضول واهتمام شديد .

الفصل السابع

استعادة مديرية دقللا

إن الفرص في الحرب كثيرة بحيث لا يمكن تقديرها، إن القاريء للقصة أو المحارب المشترك فيها ليشعر بأنه كانت هنالك عدة احتمالات وحوادث كانت إحداها كافية بتغيير سير الأحداث إذا تمت بالفعل وأصبحت حقيقة . لاشك أن سطوة الإمكانيات تلعب دورا مهما في الملاحظات المتقاطعة عند الصراع فتخرج خطوط الحقيقة المؤكدة لترمي بظلالها للبهمة على كل جانب، ماذا إذا من الاحتمالات . نحن نعيش في عالم مليء بكلمة لو ، ماذا حدث لو ماذا كان سيحدث لو ، ولن نستطيع التحكم في هذه القوة غير الخبلي باليدين وستذهب كل محاولاتنا أدراج الرياح وعليه لعل من الحكمة وراحة البال أن نتعجل أن كل الفرص الجيدة والفرص السيئة سوف تتسويان في النهاية وعلىنا إبعادها تماما من حساباتنا .

لقد كان حفظ السردار في السردان مضمنا للأمثال كما سوف تتضح العبورة ونحن نواصل السرد والأمثلة كثيرة : -

كان من حسن الحظ أن الدراويش لم يهاجموا خطوط المواصلات ، أو الانقضاض على حكاية قبل الاستحكامات ، كان من حسن الحظ لهم حاربوا في فرقة، وانسحبوا من بربر وأن محمود لم يتقدم في يناير وتقدم في مارس ولم يتراجع قبل عطبرة، وأن الخليفة لم يحتل السيلوكة ولم يهاجم بلليل وانظر حتى النصر .

ولكن بعد فرقة كانت كل الأشياء على العكس تماما، أصاب سوء الحظ القوة مرة بعد أخرى كل الصعاب التي يتم التغلب عليها تأتي غيرها في الحال . شهد بحريف ١٨٩٦ كثيرا من التأخير وعمية الأمل . حالة النيل ، العواصف الفيضانات وباء الكوليرا ، مشاكل أخرى كلها كثرت للقائد ولكنها لم ترهقه ، كانت هتاك وقنسة طويلة للعمليات بعد انتصار معركة فرقة .

حقق الجيش وثبة للأمام ، يجب أن يستعد ليحقق قفزة أخرى ، استمرت الاستعدادات بخطين سريعة وقد انشئ معسكر قوي في فرقة ووصل لواء ماكسوالد الى صوارده بعد يومين من الحركة وأصبح هذا الموقع الجديد هو النقطة المتقدمة للقوة تماما كما كانت عكاشة في المرحلة الأولى للحملة . بدأت المعدات ترد الى فرقة وصوارده بشكل منتظم ونسبة التخطيط للسبق للعمليات كان بالامكان تجهيز وفي ظرف اسبوع واحد كل اللوازم التي تكفي لحماية صواردة المكونة من ألفي مقاتل لمدة شهرين وتكفي القوة العسكرية في فرقة وقوامها ٧ آلاف جندي لمدة شهر . تكشف النشاط بعد هذا في الإسراع في بناء الخط الجديد لتأمين الاحتجاجات اليومية لتسعة الآلاف مقاتل على أن تنمو القوة تدريجيا .

وصل الجيش الآن الى نقطة هي أبعد ما تكون عن صلاحية الجمل وأي نظام تموين يعتمد على ظهور الحيوان اللهم إلا إلى مسافات قصيرة وأصبح من الواضح منذ الآن أن السبيل الوحيد للتقدم هو إما عن طريق خط السكك الحديدية أو طريق النيل إلا إن الأفضل عن طريق كليهما .

من عند شلال دال بالقرب من كوشة يفتح طريق النيل الى مروي عند ارتفاع منسوب النيل فكان لزاما اذا تم توصيل خط السكك الحديدية الى كوشة قبل ان يبدأ أي ثرك جديد فعال . كانت هناك ملاحظة أخرى وهي وجوب اشتراك البوارج مع الجيش الزاحف لطرد قوات الدراويش من كومة ودقلا . كانت هناك أربع بوارج هي "الثامي" "الهب" "التمه" "وبو كليا" وثلاث بواخر "الكيار" و " دال " و " عكاشة " وكان من المفروض تسليحها . كانت هذه البواخر تبحر من اسوان لسوادي حلفا وساعدت في حماية الحدود من الدراويش . تجمعت كل هذه البواخر عند الشلال الثاني في انتظار ارتفاع منسوب النيل حتى تنعز . لزيادة هذه القوة البحرية لقد تم طلب ثلاث بواخر حربية جديدة من إنجلترا لتضم للأسطول النهري كانت متحضر مفككة حتى الشلال الثاني يتم تركيبها هناك .

كان لزمها أولاً وصول عبط السكك الحديد إلى كوشة - ثانياً أن يرتفع النيل
ثالثاً على البواخر الحاملة للملحقات القديمة أن تتخطى الشلال - رابعاً على أن تنحصر
البواخر الجديدة في المجرى الرئيسي الواسع في النيل خامساً بجميع اللون والعتاد - وهكذا
شغل السردار نفسه بكل تلك المهام الجسيمة .

استمرت إعادة بناء عبط السكك الحديد إلى عكاشة واستلذه حتى كوشة وقد
وصل الخط إلى عكاشة في ٢٦ يونيو . انتهى هنا لخط القديم وكان لزاماً على
المهندسين عمل دراسات جديدة ومسح شامل للمنطقة لتحديد عبط سير الخط الجديد .
تم الاستعانة بفريق من كتاب المصريين والسودانيين وظل العمل متواصلاً حتى وصل
الخط إلى فركة يوم ٢٤ يوليو وإلى كوشة يوم ٤ أغسطس .

بعد كوشة ٦ أميال جنوب فركة وتكون كباتي السودان الحربي مسن بضمه
منازل من الطين هي بقايا قرية متهمة استقر الرأي على تحويل للمسكر من فركة إلى
كوشة لأسباب واضحة وحيدة إذ تقع بعد شلال دال ويفتح مجرى النيل بدون حوائق
إلى ما بعد دنقلا .

سامت الأحوال الصحية في فركة بعد المعارك وانتشار الجثث التي تحللت
وأصبحت مصدراً للعدوى وظهرت أمراض الدوسنتاريا كثافاً انتظام من الأرواح التي
ما زالت على قيد الحياة وتلوث مياة النيل بالإضافة لما عمله لول أيام الفيضان من
رواسب الأحراش من الاستوائية في جنوب البلاد لقد كانت المياه غرة نقية ومطهرة ولم
بعد تمكنا بقاء المسكر في مثل تلك الأحوال .

كانت أولى التسهيلات على القطار القادم إلى كوشة هي البواخر الحاملة للملحقات
ومعداتها وأطمان من الحديد وللمكينات والأسلحة والورش التي تم تجميعها على رصيف
كوشة ومئات الأجراء بدأ تركيبها حتى تحولت كل تلك الآلات إلى آلة الحرب الحائلة .

كانت البواخر الجديدة ذات صفات كثيرة ، كان طولها ١٤٠ قدماً بالمقارنة مع
البواخر القديمة ٩٠ قدماً وعرضها ٢٤ قدماً تنحدر ١٢ ميلاً في الساعة ولها اضلع مميكة
تحميها من القذائف بالإضافة إلى تسليحها القوي . لقد تم تركيب عدة مدافع قوية في

كل باخرة بالاضافة للبائع للاكسيوم ولما كن لحفظ الذخيرة وتلفراف وكشافات
واوناش ومعدات جدية ومع كل هذا لا تحتاج لقاطس أكثر من ٢٣٩ بوصة من المياه .
نص العقد على تسليم البخرة " الظافر " في ٥ سبتمبر لكنها وصلت مصر يوم
٢٣ يوليو . تم بناء البخرة ومعلقا في لندن ثم وقمت أجزائها وفككت وشحنت
لمسافة ٤ آلاف ميل تم إعادة شحنها سبع مرات خلال تلك الرحلة ومع هذا لم يفقد
أي جزء منها شحنت من لندن للاسكندرية ثم تم ترجلها الى كوشة حيث تم تركيبها
كاملة .

كان قرار نقل معسكر الجيش من فرقة للبويرة قرارا صائبا . إذ سرعان ما ظهر
وباء الكوليرا في مصر ووصل الوباء مع عطوط امداد السردار من حلفا بسرعة شديدة .
وكانت أول ضحية في صفوف الاستفورد شير واستمر الوباء حتى نصف أغسطس في
معسكر جمعي واستمر حتى وصل للمعسكر في كوشة وتوفي أكثر من ثمانمائة جندي
وضابط ، كان هذا عدد لا يمكن بمجته ، سلاحه أعظم من أي سلاح في المعركة لم
يتدربوا قط على مواجهته . أصاب الإحباط كل أفراد القوة بالرغم من محاولات الضباط
الانجليز للتماسك ورفع الروح المعنوية الا أنهم أكثر من عاني بحكم معرفتهم بخطورة
الداء فرص في مثل هذه الحالة هنا أن تصبح نعمة الخيال عنة . كانت أياها عصبية
وكان الإحساس بفقد الأصدقاء والأزملاء في لحظة إحساسا مدمرا كانت حصيلة
الإصابات والخسائر من جراء الكوليرا على حملة دنقلا كما يلي :

عدد الإصابات	وفيات
أفراد الجيش البريطاني . ٢٤	١٩
أفراد الجيش الأهلي ٤٠٦	٢٦٠
المراقبون ٧٨٨	٦٤

حطفت الموت نتيجة للوباء الرهيب بحيرة الرجال من عطوط اللواصلات والجيش
البريطاني والجيش البدلي ، الشجاع في نيك "بول هويل" ضابط سكك الحديد السدي
ملك حب المصريين ، الدكتور الشجاع "تراسك" المهندس "نيكلسون" مس لندن

و"فارمر" كبير ملا حظي الليكائنات في حلقاء، "ورودي لوبين" طيب القلب كهم
ضمنهم للمقابر في حلقاء أو تحت سقف حبل فركه. مع منتصف أغسطس انتهى خط
الكوليرا ولكن كان لازما التشديد في التواصي الصحية وتباعد نظم الكرنيتيه مما قل من
مستوي التقدم في جميع العمليات .

كانت هناك مشاكل من نوع آخر أولاد السردار استخدم الراكب المسمرة
الخاصة بالأهالي للمساعدة في قتل التموين وبعض المعتاد وبدأ بالفعل في هذا العمل
مستفيدا من الرياح الشمالية إلى أن تغيرت الرياح فجأة من الجنوب إلى الشمال
وأوقفت ذلك النشاط .

كان من الأهمية بمكان الإسراع في قتل البورج إلى ما بعد الشلال الثاني الساي
ينخفض ٦٠ قدما وطوله حوالي ٩ أميال . يمر النيل على عدة مساطب صحيرية داخل
الماء باندفاع شديد ولكن سطح منبسط وعندما ينحسر النيل تبدأ الحفارة في الظهور
ويهب النيل بعنف نازكا وراء الزبد الأبيض يغطي الحفارة السوداء .

يمر النيل عند الشلال الثاني بمنطقة ضيقة بين كتل الصخور تشكل عقبة كبيرة لأي
ملاحة ، أكثرها صعوبة هي ما يعرف بالباب الكبير الذي يبلغ عرضها ٣٠ قدما ،
وينخفض النيل هنا لعشرة أقدام في سبعين ياردة ويتحدر ٥ أقدام في المرة الواحدة ،
تتكون بحيرة من اندفاع المياه عند زراعي النيل مما يجعل الملاحة في غابة الصعوبة .

كان من المتوقع أن يرتفع منسوب المياه في أوائل يوليو عند الشلال الثاني بالدرجة
التي تمكن عبور البواخر ولكن لم يكن فلك محكما قبل نصف أغسطس .

في ١٤ أغسطس جرت أول محاولة لعبور الباهرة "لثمة" زحمت كتيبة النورس
سيفوردشير ، والفرق المصرية السادسة والسابعة من كوشة إلى الهولية ، لكي يمر جسم
الباهرة عكس التيار تحت إشراف العقيد "هتر" ولقائد البحري "كوتيل" وصباطه
جهزت الباهرة بخنجر هذه العملية ووضعت المدافع والذخيرة ثم حوطت الباهرة
بمؤر عيشي من مقدمتها حتى للوعرة لتحمي من أي اصطدام بالصخور ثم لف سلك
حول جسم الباهرة وثبت في أكثر من موقع وعطلت اللاكيتات حتى يكون الاعتماد

كلية على القوة البدنية ثم استعلم ألفين من افراد القوة لجذب الباعرة حتى عدت
لشلال بدون عسلتر واستمر نقل باقي البواعر حتى انتهت العملية بسلام وبعد اسبوع
كان كل الأسطول النهري في الطرف الجنوبي للنيل والنهر المفتوح .

بدا الآن أن الحظ قد عاد للحملة، انتهى وباء الكوليرا والباعرة الجديدة "الظفر"
الآن شبه جاهرة في كوشة وقد سر منظرها لفراد الجيش ، وصلت قطع الأسطول
النهرى الدبيع الى شاطيء للمسكر في ٢٢ أغسطس وجاءت رياح شمالية معبنة في
نفس الوقت وأصبحت كل البواعر التي كانت تحلف لشلال عند ٦ اسابيع بحملة
بالمون والعتاد ومستعدة للتقدم وجاءت الرقيات تأمر بالاستعداد للحرك وعندها تنفس
الجنود الصعداء باعتبار أن الانتظار للمل قد انتهى .

تبعد المسافة بين كوشة وكرمة حيث يتمركز الترلويش حوالى ١٢٧ ميلا عن
طريق النيل ويمكن احتصار هذه المسافة بأكثر من ٤١ ميلا عن الطريق النهرى تلسادي
منحني للنيل من كوشة "صاعدين فائق" واحتصار ١١ ميلا بتفادي الزلوية من فريج
الى أب فاطمة . ومن كرمة لدقلا وهي المهدف من الحملة هناك مسافة ٣٥ ميلا ممسا
يحمل المجموع ١٢٠ ميلا بالطريق النهرى و ١٦١ ميلا عن طريق النهر . الطريق
الصحرأوى الطويل من كوشة الى "صاعدين فائق" كان هو الصعوبة الوحيدة إذ
بالرغم من أن النهر به شلالات صغيرة من كوشة الى كرمه أهمها شلال العمارة لكنها
لن تمنع البواعر من الملاحة ، من العمارة الى شلال "كبر" حوالى ٦٠ ميلا من المياه
للمتوحة و لا يشكل شلال "كبر" أي عائق للملاحة الا عند "حبك" على بعد
٣٠ ميلا توجد جزيرة حوالى ٣ اميال مع صحارة وشلال يسمى شلال الثالث
وهو مانع رهيب ، بعده يظل النيل مفتوحا ممابا لمسافة ٢٠٠ ميلا حتى مروي .

شاطيء النهر تمتد منبسطة ومنخفضة حتى اقترابه من "صاعدين فائق" حيث
تتلاقى النيل مع حافتي النيل ويتشر على الشاطيء الشرقي بعض أشجار الخيل ويمد
سريط من المزروعات فيما يعرف "بعميرة دقلا الخصبة" أما في الجانب الآخر فتكاد
الصحرأء أن تلامس سطح النهر . لقد تقرر أن يسر الجيش على عين النهر .

أول مرحلة للضد كانت احتلال أسيرات، حيث تقدم لواء "ماكدونالد" بسوم ٢٣ أغسطس من صوبورده عبر الصحراء إلى "صاعدين فاني" ثم محاربة النيل ثم قلاهد احتلال "أسيرات". عندها أمر اللواء "لويس" بالتقدم لتقوية ماكدونالد. المسافة بين كوشة وصاعدين فاني ٣٧ ميلا، وما كان بإمكان لواء لويس قطع هذه المسافة الصحراء بدون تأمين احتياجات القوة من مياه الشرب وقد أمر السردار بإقامة مضخات مياه حيث وضعت فخاخيز وقرب يتم تخزينها بالمياه بواسطة الجمال يومها. ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن.

في يوم ٢٥ هبت رياح جنوبية عاتية أعقبها عاصفة رملية ورعدية ممطرة ضربت كل خطوط المواصلات للحش من صوبورده إلى حلفا، وجاءت موجة أخرى في اليوم التالي وأخبرت تحرك لواء "لويس" لكنه تحرك في يوم ٢٧ غير أن كانت للنتائج كانت مأساوية. وهاجمتهم عاصفة ثالثة قبل أن يصلوا إلى أول نقاط المياه، غلف ٣٠٠ فرد وعادوا أذراجهم إلى كوشة، وقبل أن يصل الطابور إلى "صاعدين فاني" سقط أكثر من ١٧٠٠ جندي على الأرض من شدة الإرهاق والمطش ولم يصل إلا ٦٠ فردا من كتيبة قوية قوامها ٧٠٠ مقاتل. مات ٩ وأصيب ٨٠ بجفاف شديد، سميت تحركات اللواء من "كوشة" إلى "أسيرات" "بطابور الموت".

لم يكن "بطابور الموت" هو سوء الطالع الوحيد أو الحادثة الوحيدة من جوار المعاصف. تسببت الأمطار في فيضانات عارمة لم تشهد لها المنطقة منذ حسين عابسا، أطاحت بأثني عشر ميلا من خط سكة الحديد - خرجت القضبان الحديدية والثبات، وعدم كل الأسس وانقطع خط التفراف وضاع مجهود أسابيع في الحفلات، وأوقف التقدم قبل أن يبدأ. في الوقت الذي يتطلب فيه للوقوف الحربي سرعة التحرك وأخصد المبادرة يصبح التأجيل القاتل أمرا لا مفر منه.

مع تزامن هذه الازمات أصبح مصير نجاح الحملة كله مرهونا بالشكوك، ولم يكن سر "هيربرت كشنر" قد حقق أي نجاحات تكسبه تعاطف ضباطه وبل تقتنهم بعد، ولم يكن الرأي العام قد كون رأيا قاطعا في موضوع الحرب برمتها. إن سوء

الحظ الذي لازم في البداية قد أضاف الكثيرين وكان النقاد بالمرصاد وبدأ القيسق "حكومة طنانة" "جنرال غير كفؤ" كثرة أخرى في السودان . كانت تلك هي المسمات . لم تصل أخبار " طافور الموت " إلى إنجلترا بعد ولكن مناديب الصحف الذين أجبروا على البقاء في رئاسة القوات سوف يسارعون إلى نشر الأخبار . ومع كل هذا كان هناك الجيش الذي يجب إبطاءه والترويض التين يجب محاربتهم

في هذه اللحظات الحرجة التي كادت تقضي على مشروع الميسردار ، سرزت مواهب التنظيمية أكثر من أي وقت آخر في كل هذا المرد . سافر سريعا إلى مفرات واستطاع الحصول على تلفون وكان يعمل ، وعرف كل أخبار أفراد الحملة من جنود وجمال وبغال وأمر أكثر من ٥ آلاف رجل بالعمل المركز لإصلاح خط سكة الحديد حتى ينتهي العمل . بعد أسبوع واحد بدأ سير القطار من جديد وهكذا فإن التقدم قد تأخر ولكنه لن يمتنع .

في الخامس من سبتمبر تحرك لواء " لويس الأول " ولواء " ماكديونالد الثاني " إلى دلقو وتحرك في نفس التوقيت كل أفراد الجيش من كوشة إلى أسبرات عن طريق "صاعدين فاني" وتم بذلك حشد أكبر جندي للعمليات الخاصة بالحملة .

كان تنظيم الحملة كما يلي :

القائد العام : الميسردار

سلاح المشاة (العقيد هنتر قائد سلاح المشاة)

اللواء الثاني

رائد ماكديونالد

الفرقة السودانية السادسة

الفرقة السودانية السابعة

الفرقة الخامسة السودانية

اللواء الأول

رائد لويس

الفرقة المصرية الثالثة

الفرقة المصرية الرابعة

الفرقة الرابعة السودانية

الفرقة السودانية الثامنة

اللواء الثالث

رائد ماكسويل

الفرقة الثانية للمصرية

الفرقة السابعة للمصرية

الفرقة الثامنة للمصرية

اللواء الرابع

رائد ديفيد

الفرقة الاولى المصرية

الفرقة الخامسة المصرية

الفرقة الخامسة عشر المصرية

سلاح الفرسان والقوة الراكبة (رائد بيون مودوخ)

٦ فرق صفانة

٨ سرايا سلاح الفرسان

١ بطارية مدفعية المحمول

سلاح المدفعية (الرائد بلرسون)

٢ بطارية مدفعية ميدان

١ بطارية مدفعية مكسيم (بريطانية)

قوات مركبة (الرائد كوري)

١ كتيبة شمال ستيفورد هير

الأسطول النهري (قائد الأسطول كولفيل)

بوارج : الظافر - طماي - أبو كليا - منة - النيب

زوارق مدفعية : صبر - دال - عكاشة

المجموع ١٥ ألف مقاتل - ٨ بوارج حربية - ٣٦ مدفعا

وهكذا كان ١٣ كتيبة من مجموع ١٦ كتيبة مصرية قد تم إرسالها للجهة ،

الكتيبة السادسة والرازمة عشرة تركت لحراسة معطوط للواصلات لتحمس الحاميات

المحصنة وبقيت الكتيبة ١٦ للاحتياطي بسواكن . كان كل الجيش الأهلي (السوداني)

مشتركا في الحرب وترك أمر حفظ الأمن الداخلي بالنسبة للدولة الخديوي لقوات

الشرطة وقوات الاحتلال البريطاني . وصلت اللوائيات الأربعة لنقطة اللقاء في دلقسو

يوم ٩ .

سافرت القوة البريطانية بالقطار من صرص وجميعي إلى كوشة وتقرر إرسالها بالبواعر من هناك . جهز السردار نفسه ليرافق الأسطول النهري في يوم ١٢ سبتمبر . لقد نوات عبيات الأمل . البارجة " الظفر " التي تم تجهيزها في الوقت المحدد وتوقع الجميع أن تكون عتصرا فاعلا في الحملة تم أخيرا إقترانها للماء في أرواح صورة للقوة والبحرود وحضر الضباط لمراقبة التحرية الأولى بسوم ١١ سبتمبر واصطفيت الجماهير على شاطئ النيل لمشاهدة الحدث ، وكان السردار والقائد كولفيل على ظهر البارجة . ولم تكذب التبررات الحرك تدور إلا وسمع صوت انفجار اشد بصوت انفجار قبلة ، نزل القائد كولفيل للاستفسار عن الأمر فاكشف أن أسطوانة الضغط قد انفجرت ولا بد من إحضار قطع غير من حلقا .

بالرغم من ذلك لحدث لم يتأخر المحرم ، في يوم ١٣ احتل اللواء الأول والثاني والثالث كاديرما وقد سبقتهم بولرج الأسطول النهري وتباعا وصلت أعداد الأسطول حتى وصلت فريج يوم ١٤ ووفرت أشجار النخيل في المنطقة موقعا مناسباً للتوقف لبومين . حتى وصل اللواء الرابع يوم ١٦ ، بذلك اكتمل عدد القوات بالكامل . كان الأمير ود بشارة بعد قيادة قواته في المركز المتقدم في فرقة قد لجأ إلى دنقلا وبقي فيها كل الصيف حيث وصلت بعض الإمدادات تحت إمارة أحد الأمراء من أم درمان . لقد وعد الخليفة بأن إمدادات إضافية ستكون في الطريق ولكنها بقيت وعود بلا تنفيذ .

وعليه فقد شملت كل القوة تحت إمرة وبشارة على ٩٠٠ فرد من الجهادية و ٨٠٠ من البقارة و ٢٨٠٠ حراية و ٤٥٠ ححانة و ٦٥٠ من الخيالة مجموع ٥٦٠٠ رجل ، و ٦ مدافع صغيرة ومنفع متريوز واحد كانت هناك أعداد كبيرة من الأهالي يمكن أن تضاف لزيادة هذا العدد ولكن لأن هذه الأعداد كانت تنوي الانضمام لمليش الحكومة لذلك لم يكن لها أثر إيجابي بالنسبة للصراع فيما يخص بقوة وبشارة .

قطعت دورية الدملويش عطف التطرف يوم ٦ سبتمبر ، وكانت هذه هي أول إشارة بأن قوات العدو تقترب ، سمع السردار في يوم ١٠ أن هناك تحصينات قوية في كرمه

ورفعت مناوشات يوم ١٥ بين فرقة الفرسان المصرية وبعض أفراد الاستكشاف للدرابيش. تحرك الجيش يوم ١٨ إلى منطقة صارديك ، أصبح احتمال الاشتباك كبيرا خاصة أن كرمه بعد نحو أربعة أميال ولكن مضت الليلة بسلام . عند الإصباح بدأت الجموع في التحرك ، لقد كان منظرا مهيبا آلاف الجنود والأسلحة والبولارج على السبل قد ملأت رموس الجميع بالطعامية وقد قويا الجنود للمعركة مع العدو . ما إن ظهرت معالم كرمه حتى سوت معلومة بأن كرمه خطية وأن الدرويش قد أعطوا مواقعهم فيها ولم يتبق إلا الطابية المطلوبة دليلا على إقامة ودبشارة في الموقع، ولم يبق السؤال، ابن ذهب ؟ بلا إجابة لمدة طويلة .

حوالي نصف الليل جنوبا وفي الشاطئ المقابل للنهر ظهرت استحكامات وعنادق على طول الشاطئ - حواط بما ضحات للأسلحة بين صفوف أشجار التينيل تمركزت قوته في المستنقع الذي تمتد من النهر جنوباً وشمال الحفر . ظهرت بعض المراكب الصغيرة وباعرة مع بعض القوارب لرمسي من بعيد ، وضحت أن القائد قد قرر بنقطة ضعفه فقام بإحلاء قواته لإبعادها عن طريق الزحف القادم لإبادتهم .

في هذه الأثناء فإن البواخر الثلاث الباقية من البولارج الحربية في الأسطول النهري، (البارجة " المتعب " تعرضت لحادثة اصططع بالبحارة في شلال " حينك "، كانت تبعد نحو العدو بينما انحرف الجيش ناحية اليمين، وتكون بذلك منظر رائع مشير للاهتمام.

في الساعة السادسة والنصف بدأت مدفعية الخيالة تخط أطراف المياه بعرض النهر وتطلق النيران بشكل متضاري وبدأ الدخان يتصاعد من مواقع الدرويش وسارعوا هم بفتح نيران بنادقهم . لقد كانت المسافة صعبة بحيث لم تكن لبنادقهم السبعة أو ذخيرتهم المتخلقة أي أثر ، حتى الطلقات التي كانت تسقط على مقربة من الأرض التي اصطفت عليها المشاة لم تسفر عن أية خسائر وسط صفوف الجيش الذي وقف برقب شاطئ العدو وتحركاته.

كان موقع الدرويش بطول ميل ونصف ونحوه أن وصلت زوارق المدفعية إلى الطرف الشمالي بدأت في إطلاق نيران مقلضها بتركيز أدى إلى تحطيم الاستحكامات

والتاريخ مع كل دابة شوهدت أجزاءها تتطاير في الهواء ، بدأت رشاشات الماكسيم في التعامل مع السور بحثاً عن أفراد العدو ، وبدأت في نفس الوقت فصائل السيتيمورد شير البريطانية المصولة على الباعرتين غير المسلحتين " دال " و "عكاشة" في إطلاق مجموعات طويلة المدى في ضرب جماعي .

انزعج الدراويش ، كما يحدث دائماً ، أصحاب أعتابهم لشجاعتهم القتالية ، وقد شجعهم وصول غيلة من ألم درمان في ذلك الصباح المكونة من ١٠٠٠ من الجهادية السوداء و ٥٠٠ حراة بقيادة عبد الباقي . استطاعت مدفعية الدراويش الثبات في أماكنها ، وكذلك حاملوا البنادق بالرغم من كثافة النيران وكر حجم الحسائر وكثنت نيرانهم سامية .

استمر إبحار الزوارق بطولاً ضد التيار القوي وبحمد أن وصلت إلى أضيق نقطة عند الحفير حوالي ٦٠٠ ياردة فوجدت بكمين محكم ونيران مدفعية شديدة من منافع وضعت بأحكام في مواقع حساسة وأيضاً أطلقت بنادق من جنود في عنادق داخل الماء أو من على أسطح أشجار النخيل ، لم تستطع مصدات الزوارق حمايتها من هذا الهجوم العلوي وغرقت المياه حول الزوارق إلى كتل من الزبد حراء انفجارات الذخيرة . اعتزلت بعض الرصاصات أجزاء الزوارق غير المحصنة وسقطت دابة على " أبو كلسي " اعتزلت حط الماء ولكنها لم تنفجر لحسن الحظ ، فقد نسي الدراويش ضبط الفسوز . أصابت " اللتمة " ثلاث قذائف إما على ظهر " التامي " التي كانت تقود الهجوم فقد جرح القائد كولفيل بجرح في راسه وقتل للدفعي الشاويش وتشاردون فوق مدفعية المكسيم ، وكانت هناك إصابات على كل باعرة وقد بدأ القائد يشك في جدوى الاستمرار في التفذف من شدة نيران العدو وأعاد حط سبر التامي ، وعاد مسرعاً مع التيار ليبلغ الأمر للسردار .

استمرت الزوارق الأخرى في المعركة وبعد حين عادت " التامي " واشتركت في قصف مواقع الدراويش .

كان المظر الذي يشاهده أفراد الجيش مثورا للغاية على مدى النظر بحلف مياه
في صان الليل والسماء الزرقاء الصافية والشمس الحارقة ظهرت كل مواقع العدو ظاهرة
للعيان كانت سلسلة الخنادق يظهرها المعادن الأبيض الصانر من البنادق وفوقها
الأعلام الزاهية ترفرف في غمد ظهري ، ثم يأتي لعان القتلى في وضوح .

ظهرت خلف الاستحكامات وبين بيوت الطون بمجاميع من العرب لابسو الجبة
المشهورة بسما ظهر سلاح الفرسان على البعد في السهل للممد خلف البيوت ينم عن
وجودهم لعان أسنة الرماح العريضة ونحر كاهم ومناورهم . على شاطئ النيل امتلأت
أعالي أشجار المنجبل بمقاتلين يحملون بنادقهم في منتهى الجراءة يظهر مواقعهم الدسمان
الصاعد من أفواه البنادق أو عندما يصاب أحدهم ويسقط جسمه من على المنجبل فاما
كالثراب النوحى .

عادت الزورق الكرة ويحمر أن قاربت للمضيق في الحفر ، حبس أفراد الجيش
أنفاسهم للمرة الثانية شاهدوا تتغير بالبراعة القيادة للتمه وهي تعود لمنطقة السلامة
وسط تحليل وتكبير العرب . كان واضحا أن هذه الزورق لن تستطيع إسكات نيران
الدراويش ويتحسر الجميع على الفراغ الذي تركه عدم اشتراك " الظافر " في هذه
المعركة .

استمرت المعركة ساعتين ونصف واستمرت مقاومة العدو بنفس القوة التي بدأت
بها . عندها قرر السردار تغيير الخطة لعدم مقبرة هذه الزورق على إخماد النيران القوية .
أمر " دي روفنت " الذي تعلم القيادة من " كولفيل " أن يسرع ويتعطى
الاستحكامات بدون أن يحاول إسكات النيران حتى يصل إلى دفلا ولكي يعطيه التفوية
الكافية أمر سلاح المدفعية بقيادة لرائد بلوسون بالتمركز في جزيرة لرتفاشة الضحلة
التي ترتبط بالشاطئ بحجر صغير وفي نفس الوقت تمركزت ثلاث كتائب من المشاة
وحتى تكون قبالة العدو . في الساعة التاسعة بدأت الـ ١٨ مدفا إطلاق نيرانها على
المتاريس بطول ١٥٠٠ ياردة ، وفي نفس الوقت صب جنود المشاة نيرانهم على أسطح
المنجبل .

استطاعت للدفعية أن تصيب وغرست ثلاثة من منافع الدراويش الخمسة وتغرق باعرة الدراويش " المطهرة " ونجح سلاح المشاة في تطهير أعالي النخيل من المقاتلين استغلت الأوراق هذه القرصة وبدأت للملاحه على خط واحد متجاهلين رصاص العرب الذي اسمر في تمدد عنيد الى أن أعدت الاستحكامات وواصلت سيرها لدنقلا . بعد هذا استمر إطلاق النار على قنرات، وقد انتهت هذه المعركة على الأرجح على هذا الوقت .

ظلت القوتان للتصارعان كل تواجه الأخرى طيلة اليوم من حامي النهر، وبدا أن الدراويش فيما يبدو لم يملأوا استسلامهم للهزيمة وظلوا ملوحين ببنادقهم وإعلامهم وتواصلت صيحات التحدي حتى بلغت مواقع القوات الغازية، ولكن في الحقيقة كانت خسائرهم كبيرة. أصيب قائدهم للممر الشجاع أصابه بليغة بشظية دالة وأصيب عثمان أزرق العبد برصاصة وقتل أكثر من مائتي انصاري بينهم سبعة أمراء بالإضافة لطسابور طويل لنقل الجرحى شوهد متجها جنوبا إلا أنه لم يتم التأكد من تراجع وبشارة أو عدمه . يبدو أنه كان على يقين بأن السرحار سوف يعبر لغرب النيل ويذهب بجيشه نحو دنقلا تحت غطاء زوارقه المسلحة وكأي قائد إسلامي كان قلقا على عسك الرجعة وعطوط الامداد بالنسبة لقواته، ولا يمكن أن يلومه أحد مع قوة الجيش الذي يواجهه . كان هناك سبب أكثر إلحاحا من هذا السبب الاستراتيجي وهو أن كل مخازن الغلال كانت محملة على المراكب الشراعية التي ترسو على الشاطئ الضرب وكانت كلها على مرمى من نيران المدفعية ورشاشات المكسيم في جزيرة لرتقاشة وقد بدأت محاولات عديدة للدراويش للوصول لهذه المراكب بالنشل نتيجة لقذف المدفعية . وكان القمر ساطعا وأعطى رجال المدفعية فرصة كافية لرد أي اقتراب من مخازن المحسوب وعندما أصبح الصباح اكتشف الجيش أن الحفر قد تم إعلائها وأن العدو قد تراجع الى دنقلا .

قلق وبشارة على عطوط إمداده، لم يكن له ما يبرره إذ كان من المستحيل أن يتقدم السردل بجيشه تاركا عطوط ومواصلاته تحت رحمة قوة كبيرة من الدراويش أو

أن يقسم الجيش وترك جزء كبير الاحتلال الخفيف، ولكن بمجرد أن أغلق الدراويش استحكامهم أصبح الأمر أكثر سهولة .

جاء القرويون بكل المراكب التي تركها العرب إلى عين الضفة وأعلنوا أن ودشارة قد أغلق دفاعاته ورجع إلى دنقلا .

طمأن هذا الأخير السردار الذي باشر في عملية نقل قواته للشاطئ الغربي للنيل بكل نظام وظهرت هنا كفايته التنظيمية وتم ترحيل كل أفراد الجيش من مسلح ومرسان ومجانة ومشاة وأسلحة للبر الغربي في ظرف ٣٦ ساعة وبدون أي مصاعب تذكر .

لم تكن الخسائر كبيرة في معارك يوم ١٩ فهي بالنسبة لقوة تبلغ ١٥ ألف مقاتل تكاد لا تذكر، جرح القائد "كونفيل" قتل جاويش بريطان وضابط مصري وجرح ١١ جنديا أهليا، المجموع ١٤ أي أقل من واحد في الألف من مجموع القوة المقاتلة .

على كل حال لقد وصفت تلك المعركة ذات المشاهد الرائعة والتي حسمت بغير دماء اسم "معركة الخفير" كتبت عنها رسائل ميدان معاصرة واعتبرت في السجلات الرسمية "كعمل علم" وصلت بوقائع انتصاري من صاحبة الجلالة ومن الخديوي دلالة على الرضا .

كان نصر معركة الخفير أروع نصر تشهده الحروب في تاريخ المعارك القريبة .

استغل يوم ٢٠ وجزء من ٢١ في نقل الجيش للشاطئ الغربي للنيل، وكانت القوات ما زالت متحركة عند رجوع البواخر المسلحة من دنقلا . للمسافة بين دنقلا والخفير حوالي ٣٦ ميلا غربا وكان الأسطول النهري قد وصل قبالة المدينة في عصر يوم ١٩ وتم إعلاء الحامية بعد إطلاق حدة قذائف وتم أسر عدد من المراكب الشراعية .

إن النتائج التي حققتها الزورق المسلحة كانت بسبب المتفورة الناجحة للمسرदार عدد الحميم، وجعل إعلاء الامتحكامات لبواخر تسير بسلام على طول النهر دون أي تهديد .

واصل وديشارة تراجع طيلة يوم ٢٠ ووصل دنقلا في الساعة العاشرة من جرحه،
وأعاد احتلال المدينة وبدأ في استعادته للدفاع عن المناطق الحصينة .
لم تغب هذه الأنشطة عن أعين أعدائه فأرسلت الباغرة " أبو كلي " تحت قيادة
للأزوم " بيتي " لكي تتأوشه وتشغله وبدأت معركة يوم ٢١ طيلة اليوم بمسير الباغرة
واستحكامات للمدينة وعند شروق فجر يوم ٢٢ أرسلت باغرة أخرى لتساند " بيتي "
واستمر القتال للمدينة ودفاعاتها .

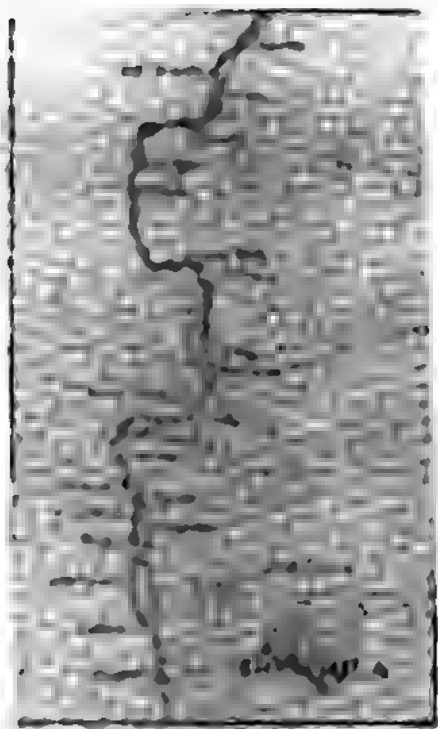
اكتمل عبور قوات الجيش للنهر في عصر يوم ٢١ ولكن إصرار السردار أصر على
التقدم، وأمر القوة بمواصلة المسيرة حتى قطع ١٢ ميلا جنوبا فمسكر الجند قبالة جزيرة
" ارقو " في صبيحة اليوم التالي أمر بالتحرك قبل أن تشتد حرارة الشمس حتى وصل إلى
" زورات " . بعد هذه المنطقة بحوالي ستة أميال من دنقلا وعندما كان من المقرر أن يبدأ
المركبة في اليوم التالي كان لابد من الراحة والاستحمام التام للساعات الثماني عشرة
القادمة، الأمر الذي قدره الجنود لقضي الجميع طيلة تلك الساعات تحت أشجار النخيل
على شاطئ النيل .

كان الضباط يراقبون من منظرهم للمنطقة زوارق المدفعية وهي تطلق قذائف
مدفعتها على دنقلا ، واستمر الضرب طيلة اليوم .

بين حين وآخر تقدمت طلائع من مشاة وحيلة الفرلويش نحو النقاط المتقدمة
للجيش وتم تبادل إطلاق النار .

ظلت هذه المناوشات والشعور العام بأن للمركبة الفاصلة قادمة وسيطر على الجميع
وبالكاد استسلم البعض للنوم العميق بينما سري قلق القرب في الكثيرون . أبقيت
القوات في الساعة الثالثة صباحا وبدأ التقدم نحو دنقلا .

كان الوقت مازال ليلا ، القمر الكامل يسطع في السماء الصافية في هذا الجو
الاستوائي الوديح بالكاد يهري تلال الرمال الممتدة أو المجموع المائلة للجيش العيازي .
ظلت القوة طيلة الليلة في تشكيلاتها كتائب رباعية ومع بدلية شروق الشمس تأسرح
الجيش حتى امتد إلى حية طولها أكثر من ميلين . كان لواء " لويس " على الشمال



بالقرب من النهر ثلاث كتائب كاملة وكتيبة رابية كاحتياطية. تبعها لسواء "ماكسويل" ثلاث كتائب كوت امتدادا للواء "لويس" كانت للدفع في الوسط تدعمها سرية "الستيفوردشور" مدفعية للكسيم يزيها الأحرار للمير كانت تمثل فاصلا بين الألوان الصغراء والبيضاء، بينما وضع لواء "ماكدونالد" على اليمين يتبعه لواء "ديفيد" في مؤخرة وسط القوة كاحتياطية أما سلاح الفرسان والمخاتنة ومطارية الخيالة فصحت لتحرس عن القوة بينما تبحر زورق المدفعية بطول النيل على الشمال .

كانت قوة الجيش هي الشيء الوحيد المتحرك وسط الرمال ولمدة ساعتين حتى الساعة السابعة ظهرت قوة سلاح الفرسان على يمين الجبهة، وبعد تقدم نصف ميل ظهر جيش الدراويش ، إمدادهم أقل من القوات المصرية لكن ملابسهم البيضاء وأعلامهم الملونة وهي ترفرف فوق الرؤوس قد جعلت للمنظر هيئة خاصة، وبما عرفت من شدة عزيمتهم وحساسة قلوبهم وبشارة ، توقع الجميع أن يهجموا في الحال .

كان التفاوت في إمداد القوات كبيرا تقدمت القوات المصرية وتراجعت قوات الدراويش يكتل ستر تراجعها بعض خيالة البقارة التي استطاعت تأخير تقدم القوة بتهدمها لقطاع الصحراء . لم يدخل وبشارة إلى دنقلا التي لا تزال تحت حصار الأسطول النهري المسلح وتقهقر إلى الدبة جنوبا عندما دخلت قوات المشاة إلى دنقلا وجدت المدينة بالفعل تحت سيطرة قوات الأسطول النهري الذين كانوا يتبادلون الاحاديث الودية مع وصفاتهم من الفرق السودانية . سقطت حامية الجهادية السوداء المكونة من ٤٠٠ مقاتل وانضموا للجيش القادم .

بينما احتلت قوات المشاة المدينة ، واصلت قوات المخاتنة وسلاح الفرسان ملاحقة العدو .

استطاع فرسان الخيالة البقارة الصمود وتنفيذ هجمات عديدة لتغطية انسحاب المشاة وفي إحدى تلك الهجمات تم التلاحم مع سرية الكلبين أدنى من سلاح الفرسان المصري، وقتل ٦ أفراد للعدو وجرح ثمانية أفراد من القوة . حصر المخاتنة وسلاح الفرسان حوالي ٢٠ ضحية في الملاحقة بالرغم من أن انسحاب الدراويش تم بنظام تام

إلا أن الروح المعنوية تأثرت جثا وتركت أثرها في انضباط القوة ففرقت في شكل مجموعات صغيرة سهلا أسرها وتم العثور على كميات مختلفة من الأسلحة والعتاد وأيضا أعداد كبيرة من الأطفال الذين محرم لياؤهم عند الانسحاب، حتى استعانت القوة بأحدى عربات للدفع حملهم إلى بر الأمان .

واصل القادة وديشارة وعثمان أوزق وفرسان البقارة تهجيرهم عبر الصحراء إلى النمة، وبالرغم من معاناة قاسية من شدة العطش تم الانسحاب بانضباط كامل وتركت قوة عند ابار "أبو كلي" حتى تتعامل مع أي قوة مطاردة .

أما فرق مشاة الدرنهوش فقد اختاروا أن يسلكوا طريق النهر متراحين إلى أبوحمدا، تعرضوا بذلك لتيران زولوق للندفة حتى ظهر الشلال الرابع وانتهى عنده أي نشاط للمتابعة والملاحقة .

كانت عسافر الجيش المصري لاستعادة مديرية دنقلا وملاحقة العدو - لاصابك بين البريطانيين - قتل جندي واحد من الأفراد المحليين وجرح ٢٥ المجموع ٢٦ .

وهكذا أُلحى احتلال دنقلا حملة ١٨٩٦ ، تم أسر ٩٠٠ أسير أغلبهم من المهادية السوداء ، تم الحصول على كل اللدفع الستة مئلف وكميات كبيرة من مخازن الخلال وكميات كبيرة من الحراب والسوف والأعلام كلها وقعت تحت يد الجيش المنتصر . وأصبحت كل مديرية دنقلا التي تعتبر من أصعب المديريات في السودان بحرة وعادت للسيادة المصرية .

إن افتتاح بحري النهر مباشرة بعد الشلال الثالث وحتى مروي أتاح أكثر من ٢٠٠ ميل من المياه الصالحة للملاحة بالنسبة للبواخر، وبذلك تم مركز كل القوات في المنطقة الواقعة بين الدبة وكورتي ومروي ، كانت تصلها الإمدادات عن طريق حط سكك الحديد ومن ثم بالبواخر في الممر النيللي للفتوح .

كان وجود قوة كبيرة في مروي التي تبعد عن أقصى نقطة شغالية لقوة الدراويش عند أبوحمدا مهما للغاية لاستمرارية الحملة عندما يحين الوقت . كان تأخير أي تقدم

بعد هذا أمر لامقر منه وبالفعل انقضى عام كاملا بدون أي استيكتات بين قوات
الحديوي وقوات الخليفة.

كان لنجاح الحملة صدي طيبا ووجود فعل جيدة في توسط الجماهير بالجنترأ. فقد
تم اتخاذ الخطوة الأولى. إذ تم إعادة دخول السودان بعد عشر اعوام من حرب دفاعية، و
تمت مهاجمة الدراويش ، وعندما يهاجمون بجيش كافي فالحكم ليسوا بالفظاعة المتصورة
وتم اعراض الاصوات المعارضة .

كان هناك شعور ورغبة عامة في كافة القطر بأن العمليات يجب ان تستمر
بالرغم من عدم تغير الحكومة لسياساتها تجاه السودان او رغبتها في القضاء المبرم على
جيش الخليفة ، قد تقرر ، طالما ان الطريق مائلا واما بلا مكدرات حتي الان فليس
هناك ما يدعو للتوقف والرجوع .

لقد نشرت سجلات الشرف في الغازية الرسمية للدولة والمثالت الاوسمة والوساط
الشرف والشجاعة وبلا استثناء ذكر كل الضباط الذين خدموا في الجيش المصري، رقمي
صو "هيربرت كيتشر"، المتيد هنتر والعقيد رندل الى رتبة الفلاد العام تقديرا لخدمتهم
التميزة في ميدان المعركة وتم صنع ميدالية مخصوصة بشكل النيل الازرق الشريط
الخاص بها وتم تخليد مركبي فرقة والحفير .

كانت الحساير من جراء الحملة بما في ذلك معارك سواكن هي عبارة عن ٤٣
قتيلا و ١٣٩ جرحا و ١٣٠ ضابطا توفوا من وباء الكوليرا وتوفي ١٢٦ من اسباب
اخرى واصبح عدد كبير من الضباط البريطانيين من الملقين .

الفصل الثامن

سكك حديد الصحراء

أصبح عرفاً سائداً أن مؤسسات القطاع العام الرائجة هي التي تنال كل الثنا - من الدولة فتتهال عليها المحبات والحوافز خاصة تلك التي تقطن عرض فتاتها بشكل ديمسي مؤثر بينما تكون هنالك مؤسسات لا تقل أهمية ودورها فعال للنجاح الكلي في بنسبي النسيان . إذا كان هذا القول صحيحاً بالنسبة للنفس البشرية فإنه أيضاً يطبق على طبيعة الأشياء .

عندما تسرد قصة الحرب يكون عقل القارئ كله مركزاً على المعارك مشاهدتها الحية وخطاتها للثورة وبمجرد النتائج البسيطة الواضحة التي تشعل الخيال وتغمر على الاهتمام . بينما تظل العين ثابتة على اللواحق القتالية وهي تتحرك خلف الدخان وعلى أسراب أعداد العدو ، وعلى القائد وكله إصرار وثبات مزهواً وسط رؤساء أركان جيشه ويبقى الخط الطويل المتتابع من خطوط الامتدادات بلا ملاحظة . ذلك أن النصر العظيم الذي يأتي على أسنة الرماح والسنج وهي ملطخة بالدماء الحمراء القانية يمتلك كل مشاعر المراقب فلا يأبه بالنظر إلى الخلف حيث آلاف الأمهال من خطوط السكك الحديدية ، والطرق القوية والملاحية على طول النهر ، ومئات الأفراد واللون والحداد وهي تزحف نحو الجبهة بدون انقطاع الواحدة بعد الأخرى .

إن النصر هو زهرة جميلة والمواصلات هي الساق الذي لا يمكن أن تنمو بدونه ومع هذا فإن المطالب الحربي في خمرة حماسة لتحليل العوامل المؤثرة للصراع الحقيقي كثيراً ما ينسي التصفيدات الحساسة لنصر الإمداد .

لا يمكن لأحد أن ينكر أن قوة المعارك الحربية لا يمكن أن يتحكم فيها التنظيم والاستراتيجية وحدهما ، قد تكون الخطة محكمة الاضلاع ، والقوات غفلاًها جيداً ، أسلحتها وافرة وفي المقابل قوة العدو مشتتة ، جائعة وأقل عدداً ثم تأتي كل تناقصات أرض للمركة وتقلب وتنعكس كل شيء . إن الحصر البشري وهو يتحدى الخبرة وكل

الاحتمالات ربما يأتي بنتائج فوق التصور وضد كل طبيعة الأشياء، قد يكون جائعا يفوق عدوه مأورة وتسليحا ، لكنه يكسب السلامة والطعام والشرف لشجاعته .

ان كل هذه الاعتبارات قد تكون أكثر ملائمة لحروب يكون فيها الطرفان المتقابلان كفتهما رابحة بالنسبة للعتاد والإعداد والتنظيم لكن في حرب وحشية على ارض منبسطة فان قوة الآلة الحربية الحديثة من العنف والضروة بحيث لا يمكن ان تصمد أمامها قوة الجسد والدماء فقط، وتكاد تعلم فرصة للتلاحم والحركة الحقيقية ، مقاتلة الدراويش كانت صارة عن مسألة سبل مواصلات . لقد هزم الخليفة بخط السكة الحديد .

حين هذه اللحظة والعمليات العسكرية تقدم كنا نتحدث على خط سلك الحديد في اشارات محلي ، كيف يتم بناؤه انجازه خلف المعارك خطوط إمداد واتصالات ، فاني أدعو القارئ أن يلتقي نظرة وثيقة . هذا الجزء سوف نتحدث فيه عن البواخر ، خط سلك الحديد ، المحطات المرافقة للحملة ، ولكن يتركز أكثر على خط سلك الحديد .

كان النيل هو خط الاتصال الوحيد بين القاعدة بمصر وكل خطوط حملة استعادة مديرية دنقلا لعام ١٨٩٦ . لقد تم إرسال كل العتاد واللون للجهة عن طريق النيل ، وحشما لم تكن هناك موانع فقد ظل للنهر هو الوسيلة الوحيدة. لقد كانت كل الوسائل الأخرى من نقل بري على ظهور الحيوانات أو عن طريق خط سلك الحديد ، هي وسائل مساعدة، ذلك أن البواخر تحمل أكثر وتكلف أقل من أي نوع آخر من المواصلات. إن الملاحة لا تعرض إلى أي مقاطعات ، ماكينات البواخر تحتاج إلى تصليح وصيانة بسيطة ويجري النيل قد شقه الخلق .

ومع هذا فان يجري النيل لا يصلح كله للملاحة كل الاوقات اذ تعرضه شلالات كثيرة في مواقع عدة تكون للملاحة لمسافات بعيدة ممكنة فقط أثناء فيضان النيل وعليه كانت هناك ضرورة لأشكال أخرى من المواصلات للاضفاف حول تلك الشلالات لضمان الاستمرارية. كانت الحاجة ملحة لاستعمال خطوط سلك الحديد والقوافل.

لتعزيز حملة استعادة دنقلا كان لزاما بناء خط سكك الحديد ليجرط الأجزاء الصالحة للملاحة التي تمتد من أسوان لوادي حلفا ومن كرمه الى مروي . أمكن تقصير هذه للسفلة لأن النيل في ذروته تكون للملاحة ممكنة بين الشلال الثالث وكرمه . وعليه فكان من المقدر أن يتم بناء الخط لمسافة ١٠٨ أميال بين وادي حلفا وكوشة . خلال السنوات التي كانت فيها وادي حلفا هي أقصى نقطة جنوبا للقوات المصرية ، كانت هناك حامية قوية في صرص . في رحلة النيل عام ١٨٨٥ تم إحصاء الخط الحديدي مسين وادي حلفا عن طريق صرص وحتى عكاشة لمسافة ستة وعشرين ميلا . بعد أن تم حياطة القوات المصرية عن السودان حطم الدراويش الخط شمالا حتى صرص، لكن بينما كانت الردمية القديمة لا تزال موجودة ، تم طلع الكتل الخشبية (الفلنكات) وتم إخراجها وكذلك حطمت أجزاء الخط الحديدي وتركزت ملتوية في كثير من المواضع . يمكن تلخيص الموقف عام ١٨٩٦ كما يلي :-

كان الجزء الممتد ثلاثين ميلا من وادي حلفا الى صرص في حالة جيدة ويمكن استعماله في الحال . الجزء من صرص الى عكاشة بطول ثلاثة وخمسين ميلا كان يحتاج الى اصلاح وترميم جزئي ، الجزء من عكاشة الى كوشة بطول اثنين وثلاثين ميلا يحتاج لبناء من جديد ما عدا عشرة أميال بما ودية تم بنائها أثناء حملة ١٨٨٥ . وأخيرا فان الجزء من عكاشة الى كرمه يجب أن يتم بنائه قبل المسار مياه الفيضان .

كانت للهمة الأولى التي أوكلت للمهندسين هي إعادة بناء الخط الحديدي مسين صرص حتى عكاشة ، ولعدم وجود الصلابة للدرية تم تكوين ما عرف بكتبة سكك الحديد وتتكون من ٨٠٠ فرد أغوياء تم اختيارهم من كل القبائل المرافقة للحملة . كل هؤلاءهم قوة الاحتمال والرغبة في العمل . كان منظرهم مزريدا ، أسري مسر قوات الدراويش تم إطلاق سراحهم ولكنهم ما زالوا يلبسون الجبة كلفوا بمساعدة العمال لمصريين في تفريغ الكتل الخشبية والخط الحديدي بينما يقوم أفراد من قبائل الديك، الجعليين للشلوك والبربرة في بناء الردمية اللازمة لغرس الفلنكات للخط الجديد . تم تعيين مائة من الجنود للتقاعدين من بين المواطنين السودانيين كملاحطين للإشراف على

العمال لسهولة التفاهم بينهم وأيضا لأنهم أهل ثقة . سرعان ما اكتسبوا الخبرة وأصبحوا فخورين بعملهم . بعض الملاحظين من عمال السكك الحديدية في صعيد مصر غم إحتضارهم للمشاركة، وفيما بعد تم استدعائهم من أفراد كتبة سكك الحديدية الدهس اكتسبوا الخبرة مع مرور الزمن ولتعتاد الخط الحديدي . كان عطف السور والاتجاه وتنفيذ كل العمل على مسؤولية الضباط الإنجليز من سلاح الهندسين كان لشهرهم "أدوارد جير ولود" "جرد" .

بدأ العمل جنوب صرص في كوانر مارس. في البداية كانت أعمال العمال غير المهرة مدعاة للاستهزاء أكثر من الحصول على أي نتائج ولكن قليلا ما تبلورت خبرة قائدهم الشاب ووضع حماس وتفاقي وذكاء مساعديه الشباب في ازدياد معدلات العمل نسبة لاستتباط أساليب من وحي الخبرة العملية التي زادت من كفاءة العمل . عندما ازداد الخط طولاً ، تم اختيار بعض أعضاء الضباط الإحتياطي من بين قوات الأهالي ومن بين القوة المصرية وتم تعينهم كمنظار للمحطات . اختير البعض من ضباط الإحتياطي لوظائف المشيخة والحراس وزعمال الإشارة واستعمل التليفون لمراقبة سير الحركة . اختير لتقسيم الحركة الأفراد الذين يمكنهم القراءة والكتابة ، حتى هؤلاء كانوا يفضلون البصمة على الإمضاء ثم أصبح هؤلاء هم الكتبة بعد أن تم فرزهم عن طريق التجربة.

لتعلم هؤلاء ومدعم بالخبرة اللازمة لإدارة سكك الحديد تم إنشاء مدرستين للسكك الحديدية حلقا . تلك المؤسسات التي لم تخرج عن كونها ظلال شجري الخيشل استطاعت استيعاب عشرين طالبا لتلقي علوم إدارة سكك الحديد، وكان حماسهم وسر تفوقهم ومعرفة استيعابهم تحت ظلال الخيشل يفوق رصفاتهم في أعظم المدارس في البلاد المتقدمة .

كانت معدلات التشغيل لخط حلقا - صرص كفيه ومجالة جيدة إلا أن القاطرات الثمانية كانت دائمة العطلة وتحتاج لصيانة باستمرار وبشكل مكرر وموالم . كان تكرار الأعطال سببا في عدم استمرارية الطريق حتى اكتسب عطف حليد "السودان الحسري"

سمع سبعة في الأيام الأولى لحملة استعادة دنقلا وسارع هؤلاء الذين لم يكونوا مقتنعين
بالمشروع بصب جام غضبهم وتمكهم على للهندسين . بالرغم من ذلك استمر العمل
بلا توقف .

ضاعت من حدة المشاكل الأولية التي صاحبت هذا العمل ، كارتة لم تكن في
الحساب تلك العاصفة الترابية للمطرة التي جاء ذكرها في الجزء الخاص عمليية دنقلا .
لقد أوضح أحد الكتاب وهو يمرض للمرحلة الأولى من هذه الحرب خطورة ما
قد يترتب على تلك الحادثة (هيلارد أترج نحو الخرطوم) .

في البلاد التي تسقط فيها الأمطار بشكل عادي لا يمكن لمهندس أن يخط
سكك الحديد في بطن الوادي ولكنه يختار اكثاف للتخفيف ليني الخط ، وعندما يمر بأي
بحري أو منخفض فإنه يترك جزءا من الاستحكامات لكي يمر منه مياه الأمطار أو
السيول الموسمية . أما هنا في هذه المنطقة الصحراوية الخالية من الأمطار وفي هذا الجزء
بالذات فقد بني الخط ميلا بعد الآخر في بطن وادي طويل يعرف باسم حور أهروسة
على طول الخط من صرص جنوبا ، وبالطبع لم يصنع أي حساب لشار للأمطار أو يعتقد
أحد بأهميتها وهكذا عندما جاء الفيضان فإنه لم يقطع الخط لمسافات متباعدة متباعدة
عدة امتار ، ولكن أغرقت المياه الخط كله وحرفت كل الاستحكامات من تحت القضب
الحديدي حتى ظهر في بعض المواقع مقلقا في الهواء تاركا فجوة كبيرة تمتد لمسافات
طويلة .

لقد تم تدمير أربعة عشر ميلا من الخط الحديدي كما دمر معسكر عمال الإنشاء
تماما واحتضت بعض بنادق حرس المعسكر حتى تم استعادة بعضها مدفونة بعمق ثلاثة
أقدام تحت الرمال . وفي المناطق التي صمدت فيها الردمية ، تكونت بحفرة كبيرة بمساحة
عشرات الأمتار المربعة . لكن تم إصلاح كل التلقيات في ظرف أسبوع وأحد بمجهود
غير عادي وعارق للعادة .

بمجرد أن اكتمل بناء الخط حتى كوشة بدأ التقدم نحو دنقلا وما إن تم تطهير
منطقة الخيف من الترابوش حتى واصلت الحملة تقدمها حتى وصلت مبروى وكان

اعتمادها في كل هذه الفترة على الملاحة النيلية بدأت مياه النيل في الانحسار وبسرعة وأصبح الجيش في عطر لأن يبقى فاقدا للحركة نسبة لبحر الحركة بين الشلال الثالث وكرمه، وعليه كان امتداد الخط من كوشة الى كرمه في غاية الأهمية .

تمت أعمال المساحة على عجل وتم اختيار المسار في المنطقة المحررة حديثا كانت المسافة الكلية خمسة وتسعين ميلا منها خمسة وستون ميلا أراض صحراوية وقد كسب رجال الإنشاء عمرة كافية في التعامل مع مثل تلك التربة التي كان لها أبلغ الأثر في اكتمال الخط العظيم من وادي حلفا الى عطيرة .

كثاب من القنات تم نشرها على طريق الخط وأمرت بالعمل لبناء الاستحكامات المطلوبة من ردميات ورفصة في الناصح من أكتوبر بدأ العمل بحمة ونشاط ومع تقدم الخط وقبل اكتماله أصبح الجزء من النهر الواصل بين الشلال الثالث وكرمه غير صالح للملاحة وأصبح الجيش الآن يعتمد على الجزء الذي تم إنشاؤه من الخط الحديدي تم على نظم ترحيل بحري من عند نقطة النهاية تعتمد على قوارب الجبال ، يقل حملها كلما تقدم الخط .

كانت أكبر مشكلة هي إتمام هذا الجيش بدون التأثير على عمل بناء الخط الحديدي ، ولقد كانت مشكلة من الصعوبة بمكان وشديدة الحساسية .

حولة القطارات كانت ضعيفة خلاث قطارات فقط صالحة للاستعمال بينما بحري أعمال صيانة ثقيلة لبقي القطارات على أن تمد في عمرها قليلا وتكون ذات نفع مستقبلا . توقف العمل ثلاث مرات حتى يعاد تنظيم الجيش وتم التغلب على المصاعب واحدة تلو الأخرى . وصل الخط الى كرمه مع بداية مايو وتم إغلاء سبيل "كتيبة سكك الحديد" ضباطها وعلموها ، ووجهت كل الجهود للعملية الرئيسية .

في الأسبوع الأول من ديسمبر عاد السردار من إنجلترا ومعها التعليمات والتصديق بالتقدم نحو الخرطوم ، ووفقا على السطح موضوع خط السير الذي يجب أن يسلكه الجيش الغازي . كان من السهل جدا اعتبار الاستمرار في العمل على طول النيل مع ربط الأجزاء غير الصالحة للملاحة بأجزاء من عطف السكك الحديدية ، ولكن المسافة من

مروري الى أبو حمد لتصلها شلالات كثيرة وطبيعة الأرض في كلا جانبي النيل لا تصلح لبناء خط سكك حديد. وإذا كانت تحركات الحملة الفرنسية نحو أعالي النيل تستوجب الاستعمال ، فإن الحالة الاقتصادية لمصر تستوجب التجهيز .

إن محور طريق النيل سيكون مكلفا جدا ، ويجب البحث عن طريق مختصر . لهذا عرضت للاعتبار ثلاثة مشاريع حربية وطموحة (١) الطريق السدي سلطنة فصيله الصحراء عام ١٨٨٤ عبر الصحراء من كورني للتمتمة (٢) الطريق للشهور أن لم يكن مغطيا من سواكن الى بربر (٣) عبر صحراء النوبة من كورسكو لو وادي حلفا الى أبو حمد .

لم يواجه سر " هوبرت كشتنر " سؤالا أكثر أهمية من هذا السؤال مسوي في الدواحي الادارية المكتوبة أو شغوف للمعارك إذ أنه وثق الصلة باستراتيجية الحرب كلها . الطلبي لأورطة بربرية ، المحكوم على زهرة حمودة ، التوجه شمالا نحو أم درمان أثناء تلك للمركة أو التماسل مع حملة المارشاند ، كانت كلها أمور مقدور عليها بالمقارنة مع اختيار خط سر التقدم .

كانت قوة الحملة الجبارة للمروقة تستوجب حشد جيش كبير وقوي حتى تكتم هزيمته والاستيلاء على عاصمته . كان الاعتماد على استعمال خط سكك حديد لربط الأجزاء التي تصل الى بحري النهر للفتوح للملاحقة أمر في غاية الأهمية .

إن بربر والتمتمة معروفان ولكن أبو حمد سوف توفى بهذا الغرض مع العلم بأن كلا بربر والتمتة هي نقاط استراتيجية مهمة .

ما كان من المنظور أن يترك الدراويش هاتين للمدينتين بربر والتمتة الضروريتين للدفاع عن الخرطوم ، بدون مقاومة . إن الصحراء بين كورني والتمتة وبين سواكن وبربر توجد بها بعض الآثار للتناثر ويمكن لأي حصون أن يقطع خط سكك الحديد ويهلك الجيش جوعا . ولهذا كان من المستحيل التفكير في توصيل خط سكك الحديد الى بربر والتمتة قبل أن تسقط هاتان للمدينتان في أيدي القوات الغازية . رفض نصبار طريق كورني للتمتة وأيضا سواكن - بربر وبما ساعد في استبعاد الخيار الأخير صعوبة

بناء خط سكك حديد في سلسلة التلال خلف سواكن . تم اختيار مسار حلقا - أبو حمد بعد استبعاد الخيارات الأخرى . كانت أبو حمد لها امتيازات وأفضحة ، أولا لقرىها مسكن الجيش في مروي وهي ليست ذات أهمية بالنسبة للثواروش أو للدفاعاتم كأكاديمية بربر أو المنمة . ومن الممكن إرسال فصيلة حطالة بمحطة التهر للاستيلاء عليها .

لم تكن هناك آبار في الصحراء التي سيقطعها خط سكك الحديد أبو حمد مما يصعب مهمة أي غارات من قوات العدو كهاجمة عمال إنشاء الخط وقبل ان يهمل الخط الى أبو حمد تكون قد سقطت في قبضة الجيش .

كانت الخطوة جيدة والصحيح في صالحها مقنعة لكن بقي السؤال ما هي إمكانية بناء خط حديد الصحراء، واجه السردار هذا السؤال ولجأ لاستشارة الخبراء من أكفأ المهندسين المختصين في شؤون السكك الحديدية . كان الرد بلا استثناء هو استحالة تنفيذ المشروع خاصة عند الأسط في الاعتبار ظروف الحرب الدائرة . استشار محاربون مشهور لهم بالكفاءة لكن كان الرد بأن المشروع غير ممكن ولا يقبله عقل ، حتى الذين لم يستشاروا وتبعوا بأفكارهم قالوا إن الفكرة فكرة مجنونة جملة وتفصيلا . استمع السردار لكل هذه الآراء والنصائح وقرر البدء فوراً في تنفيذ إنشاء الخط وبلا تأخير .

برز في الخيال سؤال آخر، هل يبدأ الخط لأبو حمد من كورمسكو أو وادي حلفا؟ وكانت هناك آراء مؤيدة لكل من الجانبين . اختيار مسار كورمسكو ميقصر طريق النيل من أسوان بثمان وأربعين ساعة، كان طريق القوافل القديم الذي سلكه جنرال غردون في رحلته الأخيرة للبحرطوم يمر من كورمسكو هو آبار مولوت الى أبو حمد في الجانب الآخر إن وادي حلفا كانت هي آخر نقطة شمال المحطة الرئيسية لسكك حديد دنقلا وبها ورش مجهزة ومعدات كثيرة يمكن استعملها وهي ميزة كبيرة . تم إجراء مسح شامل للطريقين وتم اختيار مسار وادي حلفا وبدأ العمل في الحال .

كلف للآزم " جيرولد " بعمل التقديرات اللازمة وجكف للآزم على تخصيص الكشوفات. لم يقبل أي شيء وضم كشفه كل ما يمكن أن يحتاج إليه ، تمسك كل الصعوبات التي يمكن أن تواجه المشروع وكانت الاسئلة كثيرة عن أنواع الأشياء التي

يجب طلبها والتي شملت: كم سعة الحمولة المطلوبة ؟ كم عربة وكم قاطرة وكميات قطع العيار اللازمة ؟ كمية الزيوت عند المقارط والتقاطعات، وأجزاء معدات الورش .

ماذا عن ترتيبات الإشارة اللازمة- عدد اللامبات وعدد النقاط ؟ كم أعداد من التولي ؟ كمية الفحم التي يجب إحضارها ؟ كمية المياه اللازمة ؟ كيفية حملها ؟ وكيف سوف يؤثر هذا على القوة الساحية بالنسبة لكل الحسابات السابقة ؟ وكم عدد المقاطرات ؟ وكم ميلا من الخط الحديد ؟ كم ألف كتلة خشبية كملنكات ؟ ومن أين يمكن شراء كل هذه المواد في هذا الوقت الضيق ؟ كم عدد بنومات مسكك الحديد سيحتاجها المشروع ؟ وما هي الآلات اللازمة ؟ أي أنواع الماكينات . كم عدد العمال المهرة وما هو العدد المتوافر منهم ؟ كيف يمكن توفير الطعام والمياه للعمال ؟ كم كمية الطعام المطلوبة ؟ كم عدد المقاطرات التي يجب تسيرها يوميا لنقل الطعام للعمال وحدود الحراسة ؟ وكم قطاراً لحمل للعدلات ؟ كيف تؤثر هذه الاحتياجات على التقديرات بالنسبة للقوة الساحية ؟

الأجوبة من كل تلك الأسئلة وغيرها الكثير الذي لأبدي داعيا لكي أتكلم ما على القاريه ضمنها الملزم " جيروارد " في ملف بلغ سمكه عدة بوصات . كانت دقة وشمولية كشف الاحتياجات من التفان بحيث لم تتأخر الحملة وقرق إنشاء الخط أو تعطل أو تحتاج حتى تسلك نحاس في كل مراحل المشروع .

نحت أي ظرف فإن العمل كان سوف يكون شاقا ، وقد تضاعفت حمسة حواصل لكي تعقد الأمور . كان يجب تنفيذ المشروع مع حملة حربية ، ليست هناك أي مياه على طول الخط ، وكان إعدام حوالى ألفين من جمال القريسة في صحراء مكشوفة مشكلة في حد ذاتها ، وكان يجب الانتهاء من العمل قبل حلول فصل الشتاء وخامسا وأخيرا فإن الأموال المطلوبة غير متوفرة، تركت كل هذه المهمة للسردار .

أرسل الملزم " جيروارد " إلى إنجلترا لشراء للعدلات والقوة الساحية، التي طلبت ضمن خمس عشرة قاطرة حديدية وماتني عربة وتم إنشاء الورش الحديدية في حلما وعين لليكانيكيون من ذوي الخبرة لإطارتها ، تم إضافة ألف وخمسمائة فرد لكتيبة مسكك

الحديد وتم تلميعهم . تم التعامل مع مشكلة المياه . أوضحت تقارير فرق المساحة أن الخط جيد لمسافة مائة وعشرة أميال وحسب رواية العرب لا توجد أي مياه للمائة وعشرين ميلا التالية ، كانت هناك منطقتان فقط لاحتمال حفر آبار ولا استعمال الجملان للترحيل أمر غير وارد وكان يجب أن يبنى التخطيط على أن تحمل القاطرة المياه حتى آخر الخط وللمودة ومع فائض للطوارئ أو الحوادث .

كان من الواضح أن كميات المياه التي سوف تحملها القاطرات سوف تزداد مع زيادة طول الخط ومع تقدم الخط وتقدم العمل حتى يأتي وقت سوف تضطر فيه القاطرة لتعصيص ثلث حمولتها لنقل المياه اللازمة لاستهلاكهم . كميات المياه تحددها درجات الخط وتوضح أن الصحراء المسطحة ما هي إلا منحدر مستمر حتى ارتفاع ألف وستمائة قدم من حلفا بما عتد كل الحسابات . كان لابد من حسم للمشكلة ، ثم شراء مائة طن من سعة ألف وخمسمائة جالون ، وتم تركيبها على عربات سكك حديد متصلة بطرولم كان من الظواهر المعيبة منظر قطار سكك حديد " السودان المصري " وصنوف المناظر البحرية على محطات عليها تتوقف حياة القاطرة وحياة الركاب بنفس القدر .

بدأ حفر أول حفنة ومال في بناء خط حديد الصحراء في أول أيام عمام ١٨٩٧ وحتى أول مايو عندما انتهى خط كرمه لم يكتمل إلا بناء أربعين ميلا من الخط الحديدي ولم يهزل أي مجهود كبير . استمر تقريب " كنية سكك الحديد " الجديدة واستمر تلقى وصول المعدات والماكينات والعداد من كل نوع من إيثايرا . بدأت الورش الجديدة في وادي حلفا تباشر أعمالها ، أصوات المطارق والماكينات تملأ أرجاء المكان ويظهر الدخان الأسود من عمليات التصنيع ليملاً السماء الأفريقية . يهوى المدينة الكرية قد قدم للأمة المصرية ، كل هذه هي تحضيرات ولم يبدأ بناء الخط الحديدي حتى يوم الثامن من مايو .

جاء كل فريق بناء خط سكك حديد كرمه الى وادي حلفا ، جاء رواد الحرب الحديثة بكل الجراة ومخترعهم عبر الصحاري للوحشة يحرون خط سكك حديد حلفا ،

طريق سالم وأكد لقوات المشاة ، الفرسان وملغيتها واليوارج سوف تلحق بكل السرعة والأمان .

لا توجد كلمات يمكن أن تصف قسوة ووحشية المناطق التي سير عليها الخط وعمال المياه ، كالمخطط الأملي الناعم كانت تمتد ذرات الرمال اللامعة الى مدي البصر حتى الأفق ، ونحرق أشعة الشمس الامتوائية سطح الأرض حتى يصعب ملاستها باليد الجردة ويزجر الهواء الحار مثل النار على القرن وبين القينة والاعري تظهر كتل الحجارة كأنها حور من النحر في بحر من النار .

وقف رأس عيط سكك الحديد وحيدا في كل هذا الفضاء الواسع مدينة من الخيام تتسع لألفين وخمسائة نسمة كاملة محطة وعازن ومكتب بريد ومكتب تلفراف ، وكنتين لا تربطها بالعالم الخارجي وحالم الحياة إلا عطين حديديين متوقفين بممرضى ثلاث أقدام وست بوصات يجولون عن الأنظار وينكمش في المنظور الطويل حتى يتلوي ويختفي حول السراب الى ما لا نهاية .

كل صباح وسط هذه العتمة والدم يظهر شبح أسود ، يكرر كلما قربت المسافة الى أن تدق صافرة القطار صمت القرون معلنة الترحيب بأول قطار للمواد يحمل المياه الخاصة به والذين وخمسائة باردة من قضيب سكك الحديد ، الفلنكات ولوازمها . عند الظهر تظهر بقعة سوداء أخرى ، قطار عمود يحمل المياه الخاصة به والطعام والمياه الكافية لنصف الكتبة الحارسة ، والتي حامل وفي ، والخطابات والصحف والمقاي (السحك) والمربة والويسكي والصودا والسحائر التي تمكن العريطين من هزيمة العالم دون أن يشعر بأي خطر .

وتبدأ القاطرات رحلة العودة عاكسة الرحلة الأولى فضغنى تدريجيا على الخط كأنها تظهر في الهواء وتخفى في ظلال عالم غير حقيقي .

كانت الحياة في هذه المدينة القريبة للوحشة تسير على عيط واحد لا يتغير كالأله ، كأنها تعتمد من الطريق الحديدي عصبها عصاها أنه سر بقائها . في عمام الساعة الثالثة صباحا تبدأ ماكينة للمسك وتبدأ الامتدادات لوجيات الطعام عند العجر يصل

قطار الإمداد ويلتف حوله عمال القريسة تماما كالذهب ويحملهم إلى آخر مرحلة من الخط . الكل يعرف مهام عمله ويعرف الأرجوح للمعسكر قبل الانتهاء منه يبدأ الجميع العمل دون الحاجة إلى تعليمات يبدأ تفريغ مائة باردة من المولد توضع الفلنكات على شكل صفوف مترابطة ثم يبدأ تثبيت القنابيب على الفلنكة الثانية ثم تبدأ القاطرة الضعيفة التي ترز ثمانين طنا في التحرك إلى الأمام بحذر شديد كأنها قبل يحاول المرور فوق كوبري ضعيف . تماد العملية باستمرار طيلة الساعات المحرقة لكل يوم . تأتي خلف القطار المجموعات التي تقوم بغرس الفلنكات وتثبيت القنابيب الحديدية على طول الردمية الممتدة للخط . بعد أن يكونوا قد أكفوا عملهم . وعندما تغيب الشمس خلف الرمال فوق الأفق الغربي يأتي القطار بالعربات الفارغة حاملا مئات الأجساد المجهدة راجعين إلى رأس الخط حيث للمعسكر الدائم هنا يكون سير القطار على عطف حديدي ثم اكتماله .

تأتي فترة قصيرة للراحة تتوحيح خلالها أنوار للمعسكر كأنها أنوار سفينة ركاب عملاقة تبحر في المحيط بينما يحدث الضباط ويندردشون أثناء تناوّلهم طعام العشاء . ثم يأتي الظلام ولا شيء يكسر صمت الصحراء حتى يأتي الفجر بنوره الساطع ومعهم يسوم آخر من العمل الشاق .

وهكذا أسبوع بعد الآخر تتابع العمل ومع مرور الأيام يتم التقدم نحو المجهل . يتغير المنظر ، ولكنه يبقى نفس المنظر ، وكلما بعدت وادي حلفا واقتربت أبو محمد ظهرت بوادر الخط لتضيف للمعاناة العجبة التي يعيشها سكان معسكر رأس سكك الحديد . ماذا لو أقدم الدراويش على قطع الخط الحديدي ، كان لديهم كميات مياه كافية لمدة ثلاثة أيام كاحتياطي وبعلها ما لم يتم التغلب على أسباب الصوارص وتستأنف الحركة فإن الموت والهلاك سوف يكون مصير الجميع وسوف لا تبقى سوى عظامهم وأوان الأكل كشاهد على مصير مشروعهم .

في العشرين من يوليو تم الحجاز مائة وثلاثين ميلا من الخط وأصبح من الخطورة بمكان التقدم بعد هذا حتى يتم تظهير أبو محمد من قوالب الدراويش . صححهم

يعدون مسافة مائة ميل ولكن الجمال تسافر سريعا ويصلا ولم تكن إمكانات العبد
معروفة وظن الجميع أن التقدم سوف يتوقف ولكن في السابع من اغسطس تحرك
الجمال "هنتر" من مروي مع محاذلة النهر وهاجم ابو حمد واستولى عليها في عملية
سيان وصفها لاحقا. وهكذا بدأ العمل من جديد ونشاط أصبح معدل الإنجاز الآن
والا فقد تم مسح وبناء خمسة الآف وثلاثمائة ياردة من الخط في يوم واحد . وصل
الخط الى أبو حمد يوم أول نوفمبر وهكذا انضم الرجال الذين عاشوا معركة الانتصار
على الصحراء مع أولئك الذين سبقوا طريقهم عبر النهر ، عندما تم اللقاء على ضفاف
النيل .

كانت هناك آثار سلبية للمتاعب والمعاناة فقد تولى اثنان من شباب المهندسين هما
"بوهويل" و "كاتور" من بين الثمانية مهندسين ، وقد تم شغل أماكنهم بأخرين بكل
الحماس .

لقد تم الانتهاء من الخط قبل شهر تقريبا من موعده المحدد نسبة لحسن الطالع
والثوق في الثور على المياه حيث أثمرت الجهود التي استمرت الى ستة أسابيع عن
حفر بئر في المحطة رقم ٤ التي تبعد سبعة وسبعين ميلا من زادي حلقا وحسدت المياه
بوفرة على عمق تسعين قدما وتم تركيب طلمبة مياه واستمر تدفق المياه العذبة بلا
انقطاع .

ثم حفر بئر أخرى على بعد خمسة وخمسين ميلا من البئر الأولي عن المحطة رقم ٦
وجاءت بحكميات أوفر من المياه . لقد ساهمت تلك الاكتشافات في تقليل مشكلة المياه
رغم انها لم تحلها تماما ، لقد زادت من صعوبة الخط وقلت الخطورة على أرواح
المجموعات العاملة على الخط . كانت فكرة حفر الآبار هي من الاقتراحات السردار
بالرغم من تمكهم الأعراب الأصيلة ولكن بقي السجل أن التناطح كان بفضل صبره
حظ ، إذ لم يسفر حفر ثمانية آبار أخرى عن نقطة ماء بالرغم من ألوصول بالحفر
لأعماق أكثر .

كان لابد للتحريات من متابعة الخط وكانت رسائل التفككات تأتي ومعها ما يحتاجه الخط من أعمدة التحريات والأسلاك والعارلات وقديماً للثلاثم "مانيي فولد" الذي اشترك في الفسار ضد العرب، وكان من سلاح للهنتمين، بناء عطف التحريات من مروي الى أبي حمد وبذلك اكتملت دائرة الاتصالات التي ربطت بين سكك الحديد والمتنهر .

لم تنته أمراء "كتيبة سكك الحديد" وظيفتها بانتهاء العمل في خط حلقا - أبو حمد ، لقد تم بناء عطف سكك حديد الصحراء ويجب أن يستمر العمل ، لتدعيمه ، وصيانته وامتداده . أصبحت المحطة الأخيرة في وادي حلقا مدينة مزدحمة ، تحولت قرية العيون الى مجمع صغير شبه مدينة "كروي" تم تطوير الورش التي ازدهرت مع نمو الخط الجديد وتأملت بأحدث الآلات من جميع الأشكال والأنواع . كما تم استيراد السورس الكاملة أما من مصر أو طلبت من إنجلترا حتى اكوام الحفرة التي كان يحتفظ بها "اسماعيل" كان لها دور في توريد بعض الأجزاء ذات النفع .

وهكذا امتلأت المنحازون بأشكال متنوعة من المعدات بشكل غير عادي من المسالك والمخارط والمهندسات ومطارق البحار ومكابس هايدروليكه أفران وماكينات قاطعة للمسار ، ومناقب قد تم توفيرها وكانت كلها تعمل باستمرار . كل ذلك استدعى اهتمام مستمر ، كل جهاز لإصلاح الأعيار . كان متوافراً .

لتوفير القوة الساجية للحمولات اللازمة لتأمين الجيش وامتداد عطف سكك الحديد، تم استيراد أربعين فائرة ، طلبت من عدة بلاد في أوقات مختلفة كانت تشمل عشرة أنواع مما استدعى أن يتم حفظ عشرة أنواع من قطع الغيار . تضاعفت التوليفة والامتثال في المنحازين كانت بعض قطع القوة الساجية عبارة عن مساطرات قديمة استهلكت بالكامل وكانت اعطائها متكررة وقد أثرت الرمال القاسية على كل أجزاء الاحتكاك وكان لابد من متابعة عمليات الصيانة بشكل مستمر . كانت الورش مشغولة صباح مساء ، طيلة أيام الأسبوع السبعة .

أضف الى تعقيدات للاكيدات فرضي اللغات. فلقد تم التعاقد مع حسابات مختلفة من الملاحظين من عدة بلاد من لوريا وكان التفاهم يتم بلسان لغات دافعيل السوريش- تحولت وادي حلقا الى باهل جديدة ومع كل انتشت الاعمال . استعمل ضباط سلاح للمهندسين الديبلوماسية وطول الببال وكان قائلهم يارد الأعصاب لا يكمل ولا عمل وفرض السردار سيطرته الكاملة على الجميع دون أن يأبه لمشاعر الآخرين ولكنه طويل الببال لا يفعل بسرعة وإحكامه معقولة . كان يتحول دافعيل الورش أو وسط صفوف الجنود حتى يطمئن بأن العملية تسير حسب ما عخطط لها ، باقتصاد في النفقات مع الإيجاز المطلوب . لقد نال تعاطف العمال العاديين بما اكسبه احترام وحسب ضباطه . لم يعرف في أي مكان من السودان كما عرف في سكك الحديد ، ولم يؤمن به في أي مكان مثل ما يؤمن به هناك .

الآن آن لنا أن نتجمل سير الأحداث . استغني الجنرال "هتر" عن استعمال الجمال لخطوط مواصلاته الى مروي بمجرد أن وصل القطار الى (أبو حمد) وصار يطلب ممره وأسا من وادي حلقا عن طريق الخط الجديد .

بعد الانتهاء من حط سكك حديد الصحراء بقيت معدات تصلح لبناء حط لمسافة سبعة عشر ميلا إضافية وعلى الفور تم إنشاء حط حقي (دقش) بطول ستة عشر ميلا جنوب أبو حمد . تم الاستيلاء على بربر في هذه الأثناء وحتمت الضرورة العسكرية بقاء قوة كبيرة في هذه المدينة للدفاع عنها تم إرسال الكتائب الأربع التي بقيت في مروي بالوحدات الى كريمة ومنها بالقطار لحلقا، ثم رحلت بقطار للصحراء الى دقش عن طريق أبو حمد الرحلة كانت بطول اربعمائة وخمسين ميلا .

عندما بدأ العمل في حط سكك الحديد عبر الصحراء كان الاعتقاد بشأن النهر صالح للملاحة بعد أبو حمد بلون أي عراق وقد أكد هذا للمسح الذي تم ولكن بعد انحسار مياه النهر اتضح أن هذه المعلومة غير صحيحة. بمجرد أن انحسرت مياه النيل ظهرت الشلالات وعليه كان لولما ان تمت لخط أولا الى (باشطناب) ثم الى العبيدية وأخيرا حتى عطبرة. لتنفيذ هذه المرحلة احتاج الأمر لاعتمادات مالية إضافية في وقت

كثرت فيه المشاكل المالية ولكن تم التغلب على الصعاب واستوفى العمل بمعدل ميل واحد في اليوم . تختلف طبيعة البلد كثيرا في المنطقة الواقعة بين أبو حمد وحر عطيرة . يجازي الخط غر النيل لمسافة ستين ميلا يسير على حافة النهر على عمق الخط تقع الأراضي الزراعية التي هي لا تزرع تراكمت عليها الأتربة وكونت تلال من الرمال من جراء الإهمال - تنمو فيها مجموعات أشجار القوم والسست وبطال النيل من بين أغصان هذه الشجيرات بنى ضبان منيع . على المسار تحت الصحراء تظهر فيها بعض الأحجار والخيران من الباشطاب ال العبيدية كان لا بد من الاتجاه بالخط نحو الصحراء نسبة لطبيعة الأرض الخشنة للنيل غير الصالحة للخط . وذلك لمسافة خمسين ميلا من العبيدية الى عطيرة يسير الخط على أراضي طينة تنمو عليها الأشجار الظليلة التي تروىها مياه الأمطار . دخل الخط مناطق نزول الأمطار فيها احتمال واد وكان لا بد من الاحتياط بعمل كباري واستحكامات ونصحات لمياه الخريف والسيول حتى لا تحطم الخط مما زاد من كمية الحاد والمواد المطلوبة بلغت في حقلها حوالي ألف طن إضافة على المواد المطلوبة . عندما وصلت القوات الإضافية لمنطقة بربر تضاعفت القسوة الموجودة وتضاعفت أيضا مهام الترميم . أن طعام الجيش في الصحراء وعلى بعد ألف ميل مسن قاعدته ومع عدم وجود أي وسيلة للغذاء على مسافة يوم كامل ، ليست بالأمر السار وإن لم تقل أهمية عن بناء خط سكك الحديد الذي ترتبط به حياتهم لنقل الترميم إلى الجبهة . إن الترميم أو الأفراد وللواصلات ترتبط مع بعضها تقف أو تنهار معا ويعتمد التاريخ على كليهما . ولكي نوضح دور إدارة الترميم واللون الخربة ، أجد أنما على أن أكرر وأوضح بعضا من التفاصيل . كان السردار يشرف اشرفا مباشرا على إدارة الإمدادات إلا أن دوره يقتصر على الإشراف على توزيع الوجبات أما تحضير الطعام والتموين المستمر وقد أوكل إلى العقيد " روجرز " الذي أنهى خلال ثلاث سنوات أنه فعلا يستحق لقب " معلم الجيش " لفقه حسابه والفكر السليم الذي لا يغفل أي احتمالات .

كانت للهمة الحربية الاولى كما أشرنا هي تركيز أكبر قوة من القوات المهيبة في
عكاشة وما كان لمسائل التمويل أن تشكل أي متاعب لأن هذه طوارئ كل شيء
مغسوب حسابه. شاعت للتأخير أن شهد بداية عام ١٨٩٦ تقضا كبير في العلال : نسبة
لأنخفاض محصول عام ١٨٩٥ إلى أقل من المتوسط فأضطرت مصر التي عرفت دائما
صومعة خلال ضخمة إلى استيراد الحبوب واستورد جنودها أربعة آلاف طن شعير من
الهند وروسيا حتى تبدأ الحملة .

إن الوجهة الرئيسية للجندي في أغلب الجيوش تتكون من الخبز (الرغيف) و الماء
تسبب الخبز السيء والبدل الذي لا يخرج عن البسكويت الخفيف ، في مشاكل صعبة
للجنود في كثير من المعارك الحربية . كان الجيش يحتاج لعشرين طنا من الخبز يوميا
ويمكننا تقبل للمشاكل والمفاوضات التي كانت سوف تنشأ بين ضباط الإمدادات
والمقاولين عندما يصير العنصر الأول على النوعية الجيدة ويكون هم العنصر الثاني هو
الربح لا أكثر . لم تعرض إدارة الحملة المصرية للنظمة إلى أي من تلك المشاكل .

استولت وزارة الحربية في عام ١٨٩٢ على مصنع اسماعيل باشا لصناعة الأسلحة
بالقرب من القاهرة وحوطه إلى شونة ومطاحن للغلال ومصنع للبسكويت ينتج ما
يكفي ستين ألف وجبة يوميا وأنشئ مصنع للصابون في نفس المنطقة . كان لهذه
الترتيبات أثر كبير إذ ساهمت في تأكيد جودة الخبز وبذلك انعمت للشكوي من
الخبز السيء وحل الصابون على الجيش والشحم الذي كان يورده المقاولون فيما مضى
واستطاع الجندي أن يغسل وأن يغسل ملابسه أيضا مما كان له أثر عظيم .

ثانيا انعمت مشكلة التأخير في التسليم في النوع ، كما كان يحدث مع المقاولين
وأعمرا استخدم الفاضل في إنشاء مائة وخمسين مخبزا ، وهكذا بالرغم من الأموال السيئة
صرفت لاستيراد الحبوب جاءت بداية الحرب ووجدت إدارة لقون والتمويل في الجيش
المصري في حالة جيدة وكفاءة عالية .

لقد خصصت مخازن في أسوان وأيضا في وادي حلفا وتم تخزين كميات هائلة من
الواد التموينية ، ولم يكن يسمح بسحب أوقية واحدة بدون تعليمات من المردار

شخصيا. كان القائد يتحمل المسؤولية كاملة ولا يخضع لصليحات من أحد وقد تمحاشى المشاكل الناتجة من كثرة الآراء من رؤساء الأركان . عندما اكتملت الإمدادات الكافية في عكاشة ، تمت معركة فركه بعلها جلت الصعوبة في الحفاظ على الطعام الجسود وفي نفس الوقت الاستمرارا في بناء خط سكة الحديد وتحميل الطعام اللازم لذلك صرفت تعبات صعبة للمسافة بين حلفا وكوشة ، تعرضت للسرقه والتلف من جراء المياه حين أثرت على خطوط الامداد وأعيد بعض أفراد من الجيش إلى الشمال لضادي الجحاة. لقد تدهور الموقف عندما تحركت القوة جنوبا إلى دلقو وقدرت المسافة حتى دنقلا بمسيرة عشرة أيام وهي كانت الحملة القصوي لقوافل الجمال والحمولة البواخر . استعملت بعض للراكب الشراعية لنقل الحبوب وكانت الوسيلة الوحيدة لكنها تأخرت بسبب القمار والوقود ، ربما استطاع الجيش أسر بعض الراكب الحاملة للحبوب وربما يلتقط الأفراد بعض ثمار البطح ولكن بالكاد يوجد أي مصدر للطعام . جاء الفرج بعد أن قلب القواء جنوبا وتم شحن خمسين يكتفي اثني عشر يوما على الراكب الشراعية والمبواخر ووصلت مع القوة إلى دنقلا ومع وصول هذا الاحتياطي لهم تمت عملية احتلال مديرية دنقلا وبالرغم من أن الجيش عاش بتموين يوم حتى وصول الخط إلى كرمه لم تكن هناك أزمات في تموين الجيش يمكن أن تؤثر على سير الحملة . انتهى إلى هنا سرد قصة إدارة الحرب مع نهاية الاستيلاء على مدينة دنقلا ولكننا نستمر معها وهي ترفق بناء خط السكة الحديد .

في مرحلة أبوحمدة كانت الإمدادات تصل بسهولة منتظمة ومتابعة ، كانت الفرقة التي تتبع طريق القوافل عبر آبار مورات تأتي بانتظام حتى أن أحدي هذه الرحلات وصلت في اليوم التالي لانهاء المعركة، وتم بعد ذلك فتح خط إمداد من مروي . كان دخول بربر بعد أبوحمدة غير المتوقع سببا في أرباك الإمدادات حتى تم توصيل الخط إلى بربر كان الاعتماد قبل هذا على عدة أصعدة ، قوافل الجمال وهي تعبر الأراضي بين مروي وأبوحمدة وسط أشجار وأشواك كثيرة وطرق غير معده مما أدى إلى ازدياد المعاقدة

أثناء الرحلة وايضا واستخدمت القوافل عبر آبار مورتات قوية من رأس الخط الحديدي بالإضافة للمراكب الشراعية من مروي توزع اللون والإمدادات للجهات المحددة لها .
حتى بعد وصول الخط الى دنش لم تبدأ حالة القلق إلا قليلا . أن تموين قوة كبيرة من الجيش على بعد مائة وعشمة أميال من رأس خط سكك الحديد ، تطلب الاحتفاظ بنظام تموين يعتمد على قوافل الجمال وحولات للمراكب الشراعية .
قل الاعتماد على هذه الطريقة كلما تقدم الخط الحديدي وقلت المشاكل ايضا عندما تم استبدال قوافل الجمال والمراكب الشراعية بالقطار الحديدي .
لكي نعطى القارئ فكرة عن حجم المسئولية وأهمية دور الإمداد نذكره لتتابع رحلة لصندوق بسكوت من القاهرة الى البر . كان الطريق كما يلي : - من القاهرة لنجع حمادي (٣٤٠ ميلا) بالقطار ، من نجع حمادي الى أسوان (٢٠٥ ميلا) بالمراكب ، من أسوان لدنش رأس الخط (٢٤٨ ميلا) بالقطار المصري من دنش الى الشريك (٤٥ ميلا) بالمراكب ، من الشريك بالجمال (١٣ ميلا) حول الشلال الى الباشطباب ، من هناك بالمركب الى أم شيو (٢٥ ميلا) من أم شيو حول شلال آخر بالجمال (١١ ميلا) الى قهنيطة ومنها (٢٢ ميلا) بالمركب الى بربر . إن الطريق الذي سلكه صندوق البسكوت هو نفس سلكه كل طن من اللون والعتاد التي يحتاجها عشرة آلاف مقاتل على أرض المعركة . كان لذلك أهمية عملية الإمدادات على أن تسير وسط خطة محكمة عبارة عن سلسلة من العمليات كلها تخدم بعضها في تناسق تام دون أي اختناقات كانت سوف تؤثر على سر بقية الحملة القاهرة . كان هذا هو الأمر الذي شغل بال ضباط المواصلات واحتاج القرار الصحيح لكل الوقت وكل مرة . بالرغم من اعتماد المراكب على ثقلها الهواء التي ربما تؤثر الملاحة ، وبسببهم من تعرض الجمال للأمراض والملوث أحيانا وبالرغم من أعطال الماكينات المستمرة في مواجهة كل الصعاب أمكن تحقيق إمداد مستمر ولم يتأثر بناء خط سكة الحديد ولم يسجل أي نقص في إمداد الجنود .

استمر الخط الحديدي في النمو ومع كل تقدم تقل مشاكل الترميم انتقلت
الأعمال من على ظهور الجمال ويطون المراكب إلى داخل عربات النقل على الطريق؛
الحديدي ، توجهت كل الجهود الآن إلى عظمة الحرب ، وقد حلت سرعة القطار
على زحف القوافل البطيئة .

كثرت غارات الدراويش على تقدم الخط الحديدي لبربر وكان الحشد الحربي
واجبا ، تم توقف العمل لمرور اللواء البريطاني الأول إلى الجبهة وأيضا لتتابع وصول المؤن
واللحاحات بشكل يومي . اكتمل بناء الخط حتى الباشنطاب في العاشر من مارس ووصل
إلى العبيدية في خمسة أيام ووصل الخط الطويل من حلفا إلى عطوة يوم ثلاثة يوليو .
واكتمل بناء رئاسة السكة الحديد الجنوبية عند المعسكر الحصين الذي أقام عند ملتقى
النيل مع بحر عطوة . من الآن فصاعدا انتهت مشكلة الإمدادات عاجزا . لقد وصلت
الإمدادات التي تكفي الحملة لمدة ثلاثة أشهر في أقل من أسبوع وانتهت بذلك متاعب
ضباط إدارة الشؤون الحربي وانتهى معها العمل المرهق . أضيفت إنجازاتهم للنجاحات
العظيمة التي حققتها رجال السكة الحديد ، لقد كافح القائد ورجاله طويلا وقد كللت
بجهودهم بهذا النجاح المثلل . إن أول قطار وصل حاملا للعتود إلى المعسكر الحصين
على ملتقى بحر عطوة مع النيل قد حشد مصر الدراويش وغايتهم . أصبح الآن متاحا
وممكن إرسال قوة وبسرعة إلى قلب السودان بصرف النظر عن اللوازم مع إمدادهم
ليس بالأسلحة والأطعمة ولكن بألة الحرب العلمية الحديثة ومساندة جهودات القوة
الزاحفة بأسطول بحري مسلح يمكنه السيطرة على النهر وشواطئه ويستطيع الأسطول في
أي وقت تجاوز الخرطوم نفسها وحتى الوصول إلى سنار وغشودة والسوبات .

إن النصر قد تحقق قبل أن تبدأ الحركة إن الخليفة وعاصمته وجيشه وجميعهم
الآن تحت قبضة السردف ، بقي عليه فقط التقدم لقطف الثمار في الوقت المناسب له
وبدون عناء وبأقل التكاليف .

الفصل التاسع أبو حنيفة

بما لا شك فيه أن الجزء السابق "سكك حديد الصحراء" قد قاد إلى مسرد اختيار الحرب بسرعة مذهلة وأن القارئ الذي وصل الآن إلى استحکامات الجيش العازي على ملتقى غر عطوة والتبل قد حياً نفسه للتقدم الكبير نحو الخرطوم . لهه من الضروري ان يسمح لنا كره بالرجوع للفترة عندما كانت الحاميات المصرية تعج بالجيش المصرية على طول خط النهر في حاميات دنقلا ، القبة ، كورني ومروي ، وعند بدء الاستعدادات لاهادة الاستيلاء على مديرية دنقلا وعندما كان خط سكك حديد الصحراء يتمدد بصورة مرضية نحو أبو حنيفة .

أخبار سقوط دنقلا قد سببت الفزع في أم درمان فركت أهدادا كبيرة من الغرب المدينة عندما احسوا بأن سلطة الخليفة سوف تنهار ، توقفت جميع الأعمال وتوقفت عمليات الإمداد لعدة أيام الخليفة نفسه أزم مولاه حتى يتنى فيضة وتكلمه من أفراد رعيته .

في اليوم الخامس بعد وصول تلك الأخبار ، ذهب الخليفة إلى الجامع لأداء صلاة الفجر ، ثم اعتلى المنبر الخشبي للحد للخطبة وخطب في الصلوات . بعد ان اعترف بانسحاب الدراويش تحت قيادة " ودهشارة " ، هول من حجم خسائر الإرتك ووصف الخلة إلى حالة التي همرون بها . كرر الخليفة استهزاء الشنيد من استسلام بعض المراد الجهادية مذكرا مستمعيه ، كيف يعلب الإنجليز والمصريون من يقع في الأسر وكيف يتعرض لمذابح فظيخ . لقد نأح وكاد يكي وهو يصف عدم الإيمان بالله الذي جعل حفته من الأنصار تحس الجهاد ضد الكفار وقلة الإيمان والتقوى التي تسببت في هذا الفار .

وعاد وأكد ثقته في رعاياه وفي وقوف الله ثم للهدى لتصرعه واستمر حتى ألعب مشاهير الجهاديين وعندما بدأ خطبة وثالثة فقال: صحيح أن قوادنا قد انسحبوا من دنقلا ولكنهم لن ينهروا ، وأن الذين هلكوا هم الذين عصوا أمرنا فقط فأنا الذي أصدرت أوامري بانسحاب القوات إلى التمة وعدم مواصلة القتال ، وهكذا قالهم قد تلقوا الأوامر التي أرسلتها لهم .

لقد حاجتني رؤية في التام من الروح القدس ولللافة وروح للهدى تخبرني بأن الأعداء الأشرار والإنجليز القوساء سوف تتأثر عظمتهم البيضاء بين دنقلا وأم درمان في منطقة معبة

وهكذا سوف ينهزم الكفار ، ثم سل سيفه وصاح بصوت جهوري " ان الذين مصـور " وسوف ينصر الله الاسلام .

كانت في هذه اللحظة الجماهير التي يزيد تعدادها على عشرين ألفا من الفصليين قد ملأت أركان الميدان للربيع وإن لم تكن تسمع صوته إلا ألفا قدراًته واستل كل فرد سيفه أو لوح بحريته مكبوا لله أكبر .

عندما مدلت الضوضاء أعلن الخليفة ان الذين لا يرغبون في الاستمرار في الإيمان يمكنهم ان يذهبوا الى أين يشاءوا اما هو فهو باق وواقف من نصرة الله وهكذا احاد الطمأنينة للجماهير .

عرف الخليفة ان الحركة الالهية يجب ان يستلها الجهود البشري وعليه انكب على تخطيط الاستعداد ولم يترك أي ساحة الاوفكر فيها . في البداية كان الخليفة حلي يدين أن جيش السردار سوف يتقدم فوراً الى أم درمان سالكا نفس الطريق الذي سلكته قوة الصحراء حسام من كورتلي الى لنتسة وعليه فقد أصدر أوامره لثمان لوزي رغم حرجه أن يأخذ ما تبقى له من قوة ويحتل أبلر أبوكلي- أما وديشارة الذي كان يجمع ما تبقى من لوتة بمعد معركة دقلا فقد وصلته الأوامر لاحتلال لنتسة عاصمة الجمليين ، كما بعث الرسل من أجل أن يتم حشد القوات في أم درمان . وطلب الأمر إبراهيم خليل من الجزيرة بالمنطقة الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض - فوصل الى المدينة ومعه قوته المكونة من أربعة آلاف جهادية من البقارة . وصلت الأوامر لأحمد فضل الذي كان في طريقه الى القضايف بالعودة للعاصمة . عثمان دقنة جاء على جناح السرعة من ادواما ولكن يظهر أن الخليفة أراد أن يستشيرَه فقط لأنه لم يامر بتحنيض القوات في الحملات الصغرى على طول حط عطوة الثمار في اداراما واصبوري والفاشر وعليه عاد عثمان دقنة الى ادواما بعد زيارة قصيرة .

وأخيراً ولكن ليس من حيث الاهمية أمر محمود قلند الجيش في الغرب بمسترك قسوات صغيرة في كردفان ودارفور والتوجه بما تبقى من قوته التي ربما بلغت عشرة آلاف مقاتل الى النيل رمى ثم الى أم درمان .

محمود الطمروح الجناح بنفس درجة غروره وقلة كفايته استلم الأوامر بسعادة وبدأ في تجميع قواته .

كان واضحا للمطيفة أنه لن يستطيع وضع كل شئته في أفراد التتبال التالية -أولاد البلد-
كان عدم الرضا عند الجعليين والولاءة اللعن يحسوا من حكمه ومن الحرب وكانت كمسبة
الاعلاص والضرائب تقل كلما تقدم الجيش المصري لهذه الأسبب صرف للنظر عن أي
مواجهه في بربر وأمر الأمور يوتس فقد للتعطلة بعد عودته من دنقلا عام ١٨٩٥ الى جمع كل
الجمال والمراكب والحبوب وكل الملون التي يمكن أن يستفيد منها جيش الفراء بجميعها
وارسالا الى لفته .

وقد أبحر للهمة على غير وجه . أحمر السكان على التخطي من ممتلكاتهم والآشاء
الضرورية لحياتهم مما تسبب في تذرهم من هذه المعاملة القاسية مما يفسر سر الأحداث
فيما بعد خاصة بعد سقوط أبو جند . كانت لبر حد هي آخر نقطة شمالية للجعليية ولم
تعتبر نقطة مهمة وعليه فقد كانت تحت إمرة محمد زين مع قلة من الدرويش ولم تنفد
إليه الا قلة من الامدادات .

عرف العرب جيدا قوة البواخر المسلحة وقوة مدافعها بعد معركة دنقلا . بدأ
الحليفة محاولات لقتل الشلال السادس في مضيق السيلوة وشوهذت الباعرة "بوردين"
إحدى بواخر خردون وهي تحمل المدافع والهمات من أم درمان الى ود حامد ولقد
أرسل أحمد فضيل مع قوته ليصكر هناك بعد الانتهاء من عمل الطايبات شمال
السيلوة . كانت نبوة للمهدي ذات أثر كبير في تفكير وتصرفات الحليفة فيما يخص
بالمركة الكبيرة عند تلال كردي ، بالرغم من أنه لم يفل أي تفاصيل لكن كانت تلك
الفكرة مسيطرة عليه تماما . كان يشاهد طواير جيوشه بانتظام وهي تستعرض في أم
درمان ، وكان كل يوم تستمر فيه القوة في غنائها على الساحة التي سوف تنأثر
أحسادهم عليها .

بعد مرور فترة قصيرة ظهر أن الأتراك سوف لا يتقدمون . يظهر لهم اكتموا
بالأراضي التي احتلوا ، البولفس لم تبحر بعد من مروي ولخط الخديدي لم يتجاوز
كرمه . لماذا لم يواصل القزلة بجاحهم ، لعلمهم يخشون الجيش الكبير الذي ينتظرهم في أم

درمان ١. تشجيع الخليفة وبدأ استعداده لعمل حكومي في يناير ١٨٩٧ حتى يطرده العزاة من دنقلا .

يجمع الجيش عند منوح للال كروي واستمرت طوابع التمارين وتجهيز المسون مع تحضير كميات من الخبز البلدي "الكسرة" الناشفة وهي غذاء الدراويش في حملاتهم لم تحتف كل تلك الاستعدادات عن علم السردار لقد كانت عبون استخباراته بمدته معلومات كاملة عن تحركات الخليفة ، فأرسل لتمرير القوات في دنقلا ولقفل أي ثغرات يمكن ان تهدد أمن قواته.

أرسلت فرق الاستكشاف من سلاح الفرسان عن طريق الصحراء حتى أبار حقدول وعلى طول النهر . علم أن الأمير يونس قد عبر النهر في آخر مايو وبدأ مهاجمة القرى الواقعة تحت أبو حمد . أمر ، بناء عليه السردار بقيام دوريات تحت قيادة النقيب "لي قالباس" مكونة من ثلاث سرايا من سلاح الفرسان بقيادة النقيب ملهون ، ثلاث فرق حضانة ومائة رجل من الفرقة السودانية الرتبة على ظهور الجمال مع مدفع ماكسيم للاستطلاع اعلى النهر من عند بحر شوكو حتى سلامه .

لم تعرض هذه القوة لأي حادثة في رحلة الذهاب ولكن وقع تصادم عند رحلة العودة ، جرح خلاله الضابط البريطاني بيتون جرحا خطيرا وقتل تسعة جنود مصريين وجرح ثلاثة آخرون . كانت هذه الحادثة دليلا على تحرك الدراويش مما استدعى أن تكون القوات حذره وعلى أتم استعداد .

وصل محمود بقواته من الغرب في نهاية مايو واستعرض الخليفة القوات بكل الترحاب خارج المدينة . لم يكن محمود أي حيرة بالأسلحة والبنادق بالرغم من ذلك كان واقفا أنه يستطيع هزيمة الأعداء ودمرحهم . وكان متفرضا إما أن يخضع قبائل الجبلين للولاء أو أن يثوروا قبل وصول الجيش المصري لتحتكم عندما علم أن الخليفة مصمما على إرسال جيش كردفان الى النمة ، أحضر الخليفة زعيم الجبلين عبد الله ودسعد وأعطاه بيتي في الدفاع عن الجبلين في النمة وأنه قرر إرسال جيش بمحمسود لذلك العرض وعلى قبيله أن يمدوهم بكل ما يحتاجون اليه من مؤن وأغذية ومسكن

هذا احتج زعيم الجبلين وذكر للخليفة الحالة البائسة التي عليها لعل التهمة وقسما
نعم على استبعاد لصد العدو وطلب ألا يرسل جيش محمود ليزيد الأعداء عليهم .
طلب الصو لتقدم هذا الاحتجاج الذي لعلته الظروف الصعبة التي تمر بأهلنا .

هنا فقد الخليفة أعصابه وتوترته للجهود في الجبلين العامة وتحت عبد الله ودعمه
بكل الصفات السنية قائلا انه كان يشك منذ مدة طويلة في ولاءه ، وأنه لا يستحق
ان ينضم منه وأن قبيلته لا تستحق إلا أن توصف بأنها طليعة على الأرض وأنه يرسل
محمود القادر لتأديبهم ، هم وزوجاتهم . اعتذر عبد الله ودعمه لما ينظر منه وعرج .

رجع عبد الله ودعمه الى التهمة وحكى لقومه ما تم بينه وبين الخليفة وذلك اللقاء
العاصف . وعرف الجميع معنى إرسال محمود وحشيه الذي لم يتورع عن مصادرة
أموالهم وعزائيرهم وانتهاك حرمانهم فقرروا بالاجماع الاستسلام لجيش السردار
وطلب النجدة منه سواء كانت عبارة عن حدود أو أسلحة . كتبوا خطابين - للسردار
الأول يطلب للمساعدة وعزمهم على غارة الترويض إذا وصل الدعم أو عدمه والثاني
خطاب سباب شديد الى الخليفة . وصلت الخطابات مع رسول الى الجنرال " رندل " في
مروي يوم ٢٤ يونيو ، ووصل الخطاب الثاني للخليفة يوم ٢٧ يونيو .

استجابة الجنرال " رندل " كانت فورية ، أرسل ١١٠٠ بندقية ومنتحون وكمية
كبيرة من الذخيرة عملة على جمال على طريق كورني - التهمة مع حراسة قوية من
المجانة . عندما تسلم الخليفة خطاب السباب من الجبلين يوم ٢٧ كانت بعض قسوة
محمود قد اتجهت بالفعل نحو الشمال وتبعها محمود وبقي القوة يوم ٢٨ يونيو ووصلت
القوة الأولى الى التهمة يوم ٣٠ يونيو .

استطاع عبد الله ودعمه ان يجمع كل الرجال للوجودين في التهمة حوالي ٢٥٠٠
رجل وحوالي ٨٠٠ بندقية مع ١٥ طلقة ذخيرة لكل بندقية . تولوا حراسة الجهة الجنوبية
من التهمة والبقية على الجهة الشمالية يحملون الخراب . كما توقع عبد الله ودعمه حمله
محمود في أول يوليو من الجهة اليمنى للتهمة وأبدى أفراد عبد الله مقاومة شرسة
سقط على أثرها الكثير من أفراد جيش محمود . كانت قوة محمود حوالي ١٠ آلاف الى

١٢ ألف جندي ، نفقت ذخيرة رجال عبد الله ودعمه فانهال جيش محمود عليهم من الجهة اليمنى والشمالية ودخلوا البلدة وكانت مذبحة حقيقية لم يسلم فيها النساء او الاطفال وكان عبد الله ودعمه أحد القتلى .

وصل بعض أفراد قبيلة البجليين الى أبان جفال ، وهنا وجدوا قوة النجدة من الصحابة والبنادق والذخيرة للرسلة من جنرال رندل ، ولكنها كثرتها التي ارسلت لخدمة أولئك الذين كانوا يعانون من أسوأ الظروف ، قد وصلت متأخرة . رجعت القافلة وحولتها الى كوربي .

بينما كان الخليفة مشغولا بهذه الامور ، كان هناك خطر داهم يهدد به ألا وهو خط السكة الحديد الذي ظل يمتد عبر الصحراء ، سواء علم به أم لم يعلم الدراويش لكنهم لم ينقدروا مدي خطورته ، وصل الخط في منتصف يوليو الى ١٣٠ ميلا ، وكما ذكر في الجزء السابق كان العمل قد أوقف حين الاستيلاء على أبو حمد ووصول الجيش المصري اليها . كان ارتفاع منسوب النيل في استمراره وسوف يمكن البواغ من اللامعة متى ما حصلت الشلال الرابع وكان لحدوث تقدم الأتراك واضحا متى ما ارتفعت مياه النهر . وكان الخليفة على علم بهذا الاحتمال فسارع بأمر " الأمر يونس " لتمرير التحرك الى منطقة المناصير ويناقش دوريات الاستكشافات القادمة من مروي ، لم ينفذ " الأمر يونس " لهذا الامر وبقي على الشاطئ الشمالي قبالة بربر حتى أرسل الخليفة وامتنعه للمضجور الى أم درمان ليوضع موقفه .

الحسابات الدقيقة لارتفاع النهر وتقدم خط السكة الحديد قد حددت موعد تقدم الجيش المصري .

تمت التحضيرات بكامل السرعة لارسال فرقة سريعة لأبو حمد . كانت حامية الدراويش هناك تحت إمرة " محمد زين " لا تتعدى ٦٠٠ عكروب . ولكن لضمان نتائج مؤكدة تقدر برسال لواء كامل .

كان اللواء يتكون من كل الأسلحة وتشكل كما يلي : -

القائد " جنرال هنتر "

سلاح الفرسان : كتيبة

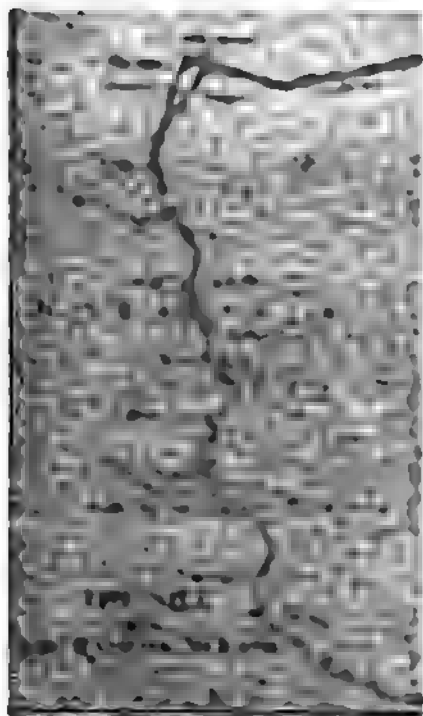
الملفمية - بطارية الليثان رقم ٢ (٦ مدافع كروب ، ٢ مدفع مكسيم ، واحد قارندر
وواحد خوردين في بلد)

للشاة : لواء ماكسونالد

كان سير لرشبولد حتر الضابط الذي كلف بقيادة الحملة أشهر ضابط في الجيش
المصري وقد نال هذه السمعة بطرائقه وتقنيته فقد سبق ان خدم جيش الخديوي أثناء حملة
النبيل لعام ١٨٨٥ - ١٨٨٤ . وتقلد كل المناصب متلوها من رتبة عقيد حتى وصل الى قائد
عام وقد نال هذه الرتبة بخدمته الممتازة فقد حرح مرتين ، مرة وهو على مقدمة اللواء الذي
يتقدمه وعليه اكتسب احترام رؤسائه وأصحاب زملائه في القتال في أثناء "حرب النهر" ومن
المنجيب أنه رغم قصوته أصبح معبود الجنود. لقد كان أهم عناصر نجاح حملة السرديار،
روحه للرحلة وقيادته الحكيمة عرف كرجل للهجمات القتالية . كانت القوة التي وضعت
لحمته امرته تتكون من ثلاثة آلاف ومستمائة جندي وقد أوقفت جميع العمليات حتى الانتهاء
من هذه العملية حتى يحط سلكك الحديد أوقف نشاطه في قلب الصحراء .

تجمعت قوة اللواء الطائر في قرية الكاسنجر التي تبعد عن مروي بضعة أميال على مسين
النهر أو الشاطئ الذي تقع عليه أبو حمد .

بدأ الجنرال "هتر" مسيرته يوم ٢٩ يوليو، لتقطع المسافة بين الكاسنجر وأبو حمد والتي
تبلغ ١٤٦ ميلا. بالرغم من السرعة الكاملة التي خربت على تحركات الحملة إلا أنه كان
من الوارد انه بمجرد أن تحرك القوة سوف يعلم بما التروايكش فيسرعون الى إرسال
النجندات لأبو حمد بما قد يصعب للهمة ويحمل القوة غير قادرة على الاستيلاء على القرية.
اذن السرعة مطلوبة ولكن حرارة الطقس وتأثير الشمس الحارقة قد اضطرت القائد أن يتم
المسير ليلا في أغلب مراحل المشور ولكن لم يمكن هذا الحل القائد من الاستفادة الكاملة
مسية الليل في أراضي رحيمة وفي جنح الظلام. تعتبر صحراء الناصو من أكثر المناطق وحارة
على طول النيل في رحلته الطويلة وهي منطقة خطوية غير مأهولة بالسكان. إن النهر يتقطع
في أجزاء كثيرة حتى تظهر الصخور التي تكون شلالات صغيرة عظيمة وتزحف الصحراء
الى حافة النهر.



الشاهد الوحيد للحياة في المنطقة ظهور بعض أشجار النخيل أو بيت من قطين. كان الطابور يسير عازيا للنهر، ولم يكن هناك ثمة طريق واضح للعلم يمكن التعمد أن يسيروا عليه كان الجود يقاتون من الرمال الناعمة الرعوف وقد غاصت أجسامهم في بعض الأحيان حتى الركبة داخل الرمال ولتلاقت أحذيتهم بالرمل والوحل أو يعاني الذين يسرون على ظهرهم من الحجارة البارزة التي لا تزال تحفظ بمرارة الشمس بالرغم من طلوع القمر . استمر طابور القوة في خط طويل يصارع ويتأوي بألم تماما كالفيل الذي قيل فيه : " حملا كما يتلوي جسده على التراب ، فان التراب سيلتهمك " .

تحرك الطابور في الساعة الخامسة والنصف مساء ووصل بعد ستة عشر ونصف ميل إلى "مشرع العيد" عندما أمر القائد بالراحة حتى يستقي الجميع. هذه المنطقة لا تتأثر بالشاطئ الغربي للنيل ، بالكاد مشر شجيرات ملاي بالشوك ولكنها مناسبة كنقطة لزود بليلاء. أمر القائد بالتحرك في الساعة الثالثة والنصف صباحا يوم ٣٠ يوليو حتى وصلوا بعد ثمانية أميال إلى قرية شيبات . كان السور بطيئا وصعبا وكان الجنود في حالة من الإعياء والتعب اضطر القائد إلى وقف الاستمرار إلى حوض الجريف ، خاصة أن بعض الأفراد قد ضلوا من بقية الفرقة ووصلوا في حالة يرثي لها من الإعياء .

وعليه لم تصل القوة حوض الجريف حتى أول أغسطس . عندما اضطرت القوة بعد أسبوع حراز إلى الاعتماد عن مجري النيل لمسافة خمسة أميال ، فبدأت الراحة إذ استطاعت القوة تعويض التأخير فيما حققتة لاحقا .

تحركت القوة مرة أخرى بالليل وحسرت بالنهار في مسلي . استمر السور في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي . كان من السهل استمرار منافع ذلكسيم المحمولة على عجلات أن تستمر لماشرفت داخل الصحراء لمسافة ٢٨ ميلا تقطع نفس المسافة التي قطعها القوة وهي ١٠ أميال . وحتى لا تصل للناقص إلى حاكفيل بدون حماية سبقتها القائد "هنتر" الذي تحرك مع الفرقة السودانية الرابعة في الساعة ١١ مساء اليوم السابق. لقد وصلت الحملة بعد أن قطعت مسافة ١٨ ميلا من الرمال للوحلة إلى قرية الكاب . جاءت طلبة واحدة من الشاطئ للقاء لفرقة ان دخلت القوة القرية الكاب دلالة واضحة ان أمر

المحرم القادم قد اتكشف لدى الدلويش . استمرت القوة للتهكة في التقدم ومعها خطوط مواصلاً باعصاب ، رغم معانقها القاسية .

استهلك الثياب في السير ، لم يستطع الجنود التقدم بالنهار لاتساع الظل ، وصل الارهاب بكل الرتب حذا جعل بعض الجنود يستقون أثناء السير ليلاً وينظفون في النوم العميق لئلا ينحصر من يوقظهم بلهجة أمر حادة . استمرت للسيرة مسرعة حتي وصلت خولة بعد مسيرة ١٤ ميلاً . انضم اليهم في هذه النقطة الشيخ " عبد العظيم " ومعه ١٥٠ رجلاً من العبادنة على ظهور الجمال . توفي ثلاثة مصريين من إرهاب الرحلة وتركوا القوة ٤٨ رجلاً أمكنهم السفر مع عازن للون ، صرفت كميات من اللحمة كمين مضاعف لكل افراد القوة وواصلت السير حتي وصلت الى الجنباب الساعة الثامنة من صباح يوم ٦ أغسطس . وجاءت أخبار من العدو كانت مزعومة ، اتضح منها عزم " محمد زين " للقتال وأن هناك بلدة كبيرة أرسلت من بربر لتدعيم الحامية في أبو حمد .

بالرغم من المسيرة الطويلة للرهقة قرر الجنرال " هنتر " الإسراع ، وكان قد عرض اليوم الذي ضاع عند أبو حراز وأراد أن يقدم برنامج خطته وعليه استمرت القوة في السير كل ليالى يوم ٧ و ٦ ولم يتوقف فيها الا لساعة ونصف حتي يهاجم أبو حمد عند الفجر . وصل الى الجنباب في الساعة الثالثة والنصف صباحاً وهي تبعد ١٤٤ ميلاً من الكاسنجر وعلى بعد ميلين فقط من العدو . أمر براسة لمدة ساعتين حتي تستعد القوة ، ترك الكتيبة المصرية الثالثة لحراسة خطوط مواصلاته و الإمدادات وتحرك باقي القوة نحو موقع العدو .

ترقد قرية أبو حمد على شاطئ النيل تتكون من مجموعة من بيوت الطين تتحلقها بعض الأزقة والطرق الضيقة ، طولها حوالي ٥٠٠ ياردة وعرضها ١٠٠ ياردة ، وعلى الناحية الشمالية والجنوبية لبعض بيوت الطين للخدمة وكميات من الحجارة في المنطقة الجنوبية .

يحيط بالقرية من ثلاث جهات مرتفع مسافة ٣٠٠ ياردة ، في أعلى هذا المرتفع ثلاثة أبراج بيت من الحجارة كان قد شيدها الجنرال " غردون " .

احتلت الأبراج بعض أفراد الدلويش للمراقبة وتحركت قوتهم في الحنادق والاستحكامات داخل بيوت الطين ذات النوافذ المفتوحة .

اعرفت القوة شمالاً ثم استلحوت يمينا حتى تكون في اتجاه النهر وتحرك اللواء "هدوء" نحو مواقع العدو وقد انحلت المرتفع في الساعة السادسة . على اليمين ، الدفعة على شمال شرق القرية تتبعها بقية الفرقة المصرية الثالثة ، السودانية الرابعة في الوسط والخامسة على شمال القوة ، تراجع قوة الدرويش التي كانت عند نقاط للفرقة في الأبراج عندما تحرك الجيش القادم ، عندها ظهرت كل الفرقة من المرتفع أمام أفراد القوة الغازية .

بدأت محيوط القصر الأولي ، لرتفعت شجيرة بيضاء على سطح النهر الرمادي وظهرت ملامح القرية بوضوح ومنازل الطين على عطفية للنظر . حسم أفراد قوة الدرويش داخل الحندق الذي حفر حول القرية ، أما الفرسان الذين قد يروى عندهم ثلاثة فارس أسرعوا بهيئتهم لاحتلال المنطقة المرتفعة الجنوبية حيث كتل الخساعة وعنفها لرمي رمية أكملت سلسلة التلال على شكل حدوة الحصان والخط الأسود من القوات المصرية . في هذا المسرح الدائري الصغير سوف تعرض دراما حربية صغيرة .

عند الساعة السادسة والنصف تحت للدفعة تفرقتها على يوت الطين وبعد بضعة دقائق أسر القائد هتر بالتقدم الكامل في تشكيل رابع ، الكتاب الثلاث السودانية مع القائد هتر ولتقدم ماكنونالد وبعض الضباط البريطانيين على ظهور جيادهم في الخلد الأول ، تقدموا ببطء نازلين من التلال وصبروا نواحي رعية على الاستحكامات . المسافة لم تكن بالكاد ٣٠٠ ياردة وقبل متصلها انحطرت الفرقة السودانية الخامسة للتوقف حتى تنسادي ليران الفرقة السودانية السادسة من على اليمين . صمد الدرويش حتى أصبحت القوة على بعد ١٠٠ ياردة عندها فتحوا مجموعة تليها مجموعة أخرى على القوة للفرقة وكانت ذات أثر كبير لوف الرائد سيدني والتقيب فيتر كلارنس و ١٢ جندي في الحقل وجرح أكثر من خمسون من أفراد القوة .

جمعت القوات السودانية على استحكامات الدرويش وطاردتهم داخل يوت الطين وهي تطلق صيحات عالية واستمر القتال في الشوارع، ولم يتوقف حتى وصلت القوة الى شاطئ النهر في الساعة السابعة والنصف وهي منتصرة وهكذا استولى الجيش المصري على ابرحمد . وتراجعت خيالة الدرويش الى بربر عندها رمت لتتصلب القوة ولم ينج أحد من المشاة.

أسفرت للمركة بالإضافة إلى قتل الرائد سيدي والقيب في تراكلاونس البريطانيين إلى قتل ٢١ من الجنود الأهلية وجرح منهم ٦١ جندياً أرسلت لتعيل سقوط أبو حمد عن طريق الجبال والاسلكي إلى من يهجم الأمر وأصدر السردار الذي كان يترقب الأخطار أوامرهم للبواصر كي تبدأ الاستعداد لعبور الشلال الرابع. وكذلك لخط السكة حديد كي يواصل العمل وبدأ الخط يتم بخطوات سريعة .

أما الدراويش الذين جاءوا مسرعين من بربر لتقوية الخامية في أبو حمد فقد قابلوا فلول القوة المتسحبة على بعد ٢٠ ميلاً من أبو حمد وحلوه عادت أفرانها وانسحبت إلى الشلال الخامس لبعضة أيام ثم وأصلت لتسحبها. كان موقعهم من أبو حمد يظهر قصر الوقت للذي كان متاحاً للجنرال مختار، يؤكد صحة تقديره وصواب قراره بالامراع في المسيرة. وصلت أسوار سقوط الخامية للتقدمه لأمر بربر يوم ٩ مارس فأرسل للأمر محمود الذي أُلاد يوم ١١ أنه قادم بكل حشدة لتجدة بربر ولكن كان واضحاً أنه لن يستطيع التحرك بدون أوامر من الخليفة إذ كان مائلاً بمعسكره حتى يوم ٢٠ وظل موقفاً الأمر بربر عن أسوار المشترك وكانت للحقيقة الأسوار كثيرة .

بدأت يوم ٤ أغسطس محاولات عبور البواصر النيب والتامي للشلال الرابع حتى تحول إلى النهر عند أبو حمد بربر. كانت العملية تحت قيادة الرائد ديليد وتولى قيادة الباصرين للقباء هود ويحيى من سلاح البحرية الملكية. كان ٢٠٠٠ فرد من الفرقة المصرية السابعة قد حملوا على صنادل لكي يساعدوا في تعبئة البواصر عند النقاط الصعبة لأن التيار كان قوياً وتركزت ثلاثة صنادل تحمل ١٦٠ جندياً عند حافة الشلال .

لم يكن هذا المانع من الواجب التي تتصو محاولة وعلى أية حال قرر الرائد ديليد بدءاً العملية وبدأ في اليوم الخامس محاولة عبور التامي فأحضر ٣٠٠ فرد من قبيلة الشايبية، وترك أمر توجيههم لاثنتين من المصريين أو على الأصح سوء توجيههم إذ لم توضح لهم الأوامر ماعز للطلوب بالضبط ودخلت التامي الشلال وماكيناً لها تطور بسرعة كاملة ومسا إن وصلت إلى نصف المسافة حتى انقضت عليها القوة وحرقها فطارت مقلبتها دورة كاملة وكانت بين قوسين أو تحدي من الفرق لولا حرقها التيار القوي بعيداً إلى يجري النهر .

ظن الصابط أن التشنج يرجع لقلة القوة أو التحكم في السبلة التي تربط الباصرة - ثم جلب ٤١٠ عدد إصطليحي من الشافية وبدأت عند العصر محاولة تعديبة التيب كان حظه .
 أسوأ بكثير من الثاني . فقد كان تعذب التعلون والتنظام وسط المجموعة التي كلفت بمحمل السبلة (الحبل) وعدم وضوح التعليمات سببا في ضعف القوة الجاذبة وعدم تصرفها كمسألة يجب ، وهكذا انتضت المياه فوق سور الباصرة الحصين حتى غطت أرضية للركب بالكامل وفي لحظات دارت مقدمة الباصرة حوذة كاملة قبل أن تتقلب رأسها على جنب ولم يظسهر منها غير أسفلها هنا ترك الرجال الحبل تحت ضغط قوة الانطلاق وحرفت التيب مع التبرار الى بحري النهر . قفز التقيب بين بعض البحارة وسقط البعض الآخر في المياه المسورة وزبدها الأبيض وجرفهم التيار الى بحري النهر الرئيسي تلقفتهم الثاني التي كانت لحسن الحظ في حالة تشميل ومكتها دائرة . كانت بحافهم معصرة لا من كل العدة الذي سقط وقفز للماء حرق مصري واحد واحترق ثان في عداد المفقودين . حشزت بعض الصحور الباصرة "التيب" الفارقة فلمع الضابط والبحار على ظهر الثاني للنظر في امر انقاذها وكان أسفلها فقط ظاهرا فوق سطح الماء وبدأ للجميع ان اصلاحها صوف يستغرق شهرا على الأقل . في اللحظة التي قرر فيها الضابط ترك الباصرة مبع - عبط على هيكل الباصرة من الداخل .

لذا احضرت الآلات وتم رفع الصاج فخرج بالسلامة وصحة تامة مساعد للهنتمس والعطشسي من المساء الذي مسهمدا . إذا اعتدنا في الاعتبار انقلاب الباصرة والملاكنات دائرة ، والقلايات ملاكي ومع الظلام الذي ساد والياه للرفعة تبقي بحاة مساعد للهنتمس والعطشسي بحرية لا يمكن ان نسمي وامر عجيب حقا .

ثم البحث عن عمر آخر وقد وجد على الجانب الأيمن للنهر وصلت الباصرة "لثمة" يوم لموعلى ظهرها ٣٠٠ فرد من القوة المصرية السابعة هذه المرة استقرت الاستعدادات ثلاثة أيام وانتظرت الحملة حتى لرتفعت مياه النيل قليلا في يوم ١٢ عوت "لثمة" بسلام ورسى على النشاطي تبعتها "الثاني" في اليوم التالي في يوم ١٩ ، ٢٠ عوت البواصر "الفتح" "الباصر" و"الظافر" وهي اقوي باصرة على النهر . في هذه الأثناء كانت لثمة الثاني قد

واصلت للملاحقة لأعلى النهر. في يوم ٢٢ عرفت الباغرة غير المسلحة دال ووصل كل الأسطول النهري بسلام لأبو حمد يوم ٢٩ .

تطورت الأمور بشكل سريع بعد وصول البواخر الحربية. فأخبار الفجعة السريعة على أبو حمد قد أريكت كل حسابات الدراويش، وعندما شعر زكي عثمان أمر بربر بعدم تقدم عمود لخملة بربر الت سحب هو وقواته وترك بربر يوم ٢٤ واتجه نحو الجنوب. عندما علم القائد هنتر أرسل فرقة استكشاف من ٤٠ من العصابة وعلي وأنهم عبد العظيم شسيخ العصابة وشقيقة أحمد في علفقة على ظهور الخيل الى بربر لاستجلاء الأمر. شقت هذه الفرقة الشديدة البأس طريقها الى بربر والتحمت مع جوية من الدراويش ودخلت بربر في الطريق وجعلوا الأهالي في كل مكان مرعوبين أو بالسين فقتلوا بينهم حكايات مرعبة عن الجيش القوي القادم، ولم يكن هناك أي أفراد لقوة الدراويش فاحتل عبد العظيم شونة الحبوب باسم الحكومة وأرسل للقائد بظفره بما فعل وفي انتظار التطورات .

وصلت الأخبار للبلدشة من سقوط بربر للقائد حتر يوم ٢ ستمر فشارك مروي في الحال. واجه سر هيرث كتشتر سؤال مهم هو هل يمثل بربر ؟ في أول الأمر بدأ هذا الاحتمال واردا خاصة إذا عرفنا أن هدف الحملة هو أم درمان وأن احتلال فرقة مصرية بربر سوف يؤمن طريق موانئ على الفور والمعروف أن بربر هي ميناء مفتوح للملاحقة لعاصمة البلاد. احتلال بربر سوف تكون له أكثر أهمية بالغة على كل سكان المناطق البلية بل كل أنحاء السودان. لأن بربر هي أنظر نقطة استراتيجية على كل طريق الزحف وهاهي تعرض نفسها كعجزة عند الطالب .

كانت الاحتمالات الأخرى وهمية، إن احتلال أبو حمد كان نقطة تحول عظيمة في مسيرة التقدم والزحف. فللمخلة من مروي الى كل الحاميات في دنقلا أصبحت مواقع حصينة، ويمكن الدفاع عن كل لمخط من أبو حمد حتى الدبة بسهولة ويمكن تحصين أبو حمد بحيث تصبح قلعة منيعة ضد أي هجوم للدراويش. والقوات الموجودة في دنقلا يمكن تركيزها لحماية أي نقاط ضعف في هذه المرحلة من الحملة. اعلم من المناسب أن يقسم الزحف بكل سلامة ويتنظر بينما يضعف موقف الخليفة فإن عيط للسكة حديد سيمحو

وبمجرد أن يصل إلى نقطة تكون زاوية للنهر عند أبو حجد يمكن الزحف إلى ويستمر بحمل
وحسابات مدروسة .

لكن احتلال بربر يعرض القوة إلى جهش محمود وفروقه للمستعمرة الرابطة في اللتمة وأيضا
يجعلها على مسافة بسيطة من عجمان دقة الذي يحتل احراما مع قوة تبلغ ألفي غارب هذا
بينما كان عطل للسكة حديد لا يزال يرتجح في الصحراء وإرسال قوة من دنقلا للمحافظة
على بربر سوف يضعف الموقف في دنقلا إضافة إلى أن وجود الدرويش في المناطق
الداخلية تحت زاوية أبو حجد يمكنه أن يهدد خطوط إمدادات الجيش مما يجعله يحدد حاسي
مؤن جعلها الجمال عبر الصحراء من مروي ونظرة سريعة للخريطة تبين خطورة هذا
الموقف. إن دخول بربر سوف يؤثر على مجرى الحرب بأكملها وربما اضطرت القوات
للدفاع عن وجودها إذ قطعت خطوط مواصلاتها. احتلال بربر لن يكون كمعركة حربية
شبيهة بمعركة الحلف أو أبو حجد مع ترجيح كفة الجيش المصري من حيث العدد لكنها
ستكون معركة متكافئة. إن وجود قوة بريطانية ضرورية ملحة لحل هذه المعركة ولكن تحت
تلك الظروف لا يوجد احتمال بالحصول عليها. أما إذ تقرر التقدم واحتلال بربر قبل وصول
القوة البريطانية إليها ستكون مخاطرة متروكة لمربحائها للظروف. لقد نجح حتى الآن
السردار وبسلام شديد فهل ينتظر في سلام أم يجازف بالمخطر؟ كانت الحالة غير واضحة
للعالم وانتظر الضباط الذين خدموا في الجيش المصري لمدة طويلة بحثاً عن حل لهذه المعضلة
انتظروا القرار بلهفة وترقب وتحمل السردار والقتل العام للمسئولية معا. إلى أن تسلم القائد
هتتر أمراً بحتلال بربر في الثالث من صبحو.

بدأ على الفور بقوة ٣٥٠ من الفرقة السودانية الرابعة على ظهر البواخر "الناسي"
"الظافر" "ناصر" و"الفتح" عند صباح يوم ٥ سبحر رفع العلم المصري على للثنية بعد أن
تم إنزال أفراد المشاة في المدينة ووصلت قطع الأسطول النهرية للاستراحة بتوبيا لملاحقة الأمر.
الذي تمكنوا من الانحلال به في اليوم التالي على شاطئ النهر في حالة فوضي وعدم انتظام
سير هو ومنه فلزول اللاجئين. فتح الأسطول نوافل منلقه وفرق شملهم فحرب الجميع عمالة
وراجلين إلى الصحراء بعيدا عن نوافل الأسطول. ورجعت البواخر إلى بربر بعد أن غنمت
دسته مراكب عملة بالحبوب وهي عضلة كبيرة للعدو ومكبب كبير للجيش. في هذه

الأثناء لهذا قرر المرشدون زيارة الجبهة شخصيا لمتابعة من مروي عبر الصحراء مع بعض الحرس إلى أن وصل إلى مشروع البقارة وعبر النهر إلى بربر يوم ١٠ سبتمبر. وبعد أن فتش الخطوط الدفاعية واصل سيرة ورجع إلى أبو حمد. فبدأ التحضير للتطورات القادمة التي يلزمها أما قادمة لأعماله وفي غضون الشهور القليلة المقبلة .

الفصل العاشر

بربر

تقع مدينة بربر على مسافة قصيرة من النيل على عين بحري موسمي ، يمتلئ بالمياه عند حدوث الفيضان . بين هذا البحري والنهر يمتد شريط من التربة الغنية التي يغطيها الميضان كل عام بالعلمي المخصب للأرض . عند انحصار مياه الفيضان تغطي هذه الرقعة بشقي المحاصيل أغلب لوقات العام . وقد حدد هذا الشريط المخصب حدود بربر إذ أنها تمتد معه على مسافة تزيد على سبعة أميال . تماما كبقية قري النيل فلها ضيقة ، عرضها لا يزيد على ثلاثة أرباع الميل . هناك طريقتان يفتان القرية طولها من الشمال إلى الجنوب تنفرع منهما الأزقة والبحاري والطرق الفرعية التي أما إن تنحى إلى الصحراء أو إلى النيل . بقايا مدينة بربر أيام المصريين ترقد على جنوب الطرق الرئيسية بينما شيد النولوش للدينة الجديدة على شمال الطرق كالأعمدة كبريه وهو محمي . وإن بدأت بربر القديمة كالأطلال فإن المدينة الجديدة لا تفوقها في شئ وتبدو للنظر كأنها في حالة التخليد . التصميم الهندسي يكاد يكون مطابقا . يتم البناء بطريقة سهلة وبسيطة . تحفر حفرة كبيرة يستعمل للتراب في عمل الطون لبناء الجدران ثم تستف بأحضان الشوك والجريد والسعف من أشجار السحوم والنخيل . هكذا كانت تبدو بربر "مركز السوحان الصحاري" كما كان يسميها للتحصين كان بها عند استيلاء الجيش المصري حوالي ٥٠٠٠ رجل و ٧٠٠٠ امرأة ينظرون لأي ممتلكات كالنقار يوتهم لأي روثي حسن (١) .

تكونت الحامية المصرية في بربر في الأيام الأولى من ٣٥٠ رجلا من الفرقة السودانية الرابعة بالإضافة للمفرخين معانة التي وصلت يوم ١٦ سبتمبر هو طريق الصحراء من مروي . كان من الضروري تقوية الحامية نسبة لقرب موقع عثمان دقنة في اندراما . في أواخر سبتمبر تحركت قوة ماكلونالد كل اللواء ما عدا نصف الكتيبة المصرية الثالثة لحرك جنوبا من أبو حد حتى وصلت القوة مع لحاية الشهر لثلاث ونصف كتيبة في ١١ أكتوبر وصلت الفرقة السودانية الثالثة عشر وباقي نصف الكتيبة المصرية الثالثة وهكذا

بلغت القوة في حامية بربر خمس كتائب (الثلاثة ، الرابعة ، الخامسة ، السادسة ، والثامنة) مع الفرقة الثانية مدفعية ميدان وفرقتي المشاة . بعد أن تراجع الدرويش عن بحين شاطئ النيل وانجهموا جنوباً وبقي أن ترسل قوة محاربة بصحية جماعة الأعراب الخلفاء إلى المدخله ، على ملتقى بحر عطوة وغر النيل . كانت هذه البلية للتواضع هي نوبة تطور عطوة إلى استحكامات عظيمة في وقت قصير .

كان لاحتلال بربر أثر كبير على القبائل التي تعيش حول سواكن فقد عاد المنوء وولاء القبائل بعد أن عم السلام وانتهى نفوذ عثمان مدقة ، ولم تعد هناك غارات على القبائل الخليفة . أصبح حاكم المدينة اسماء علي مسمي حاكم ساحل البحر الأحمر وفتح الطريق من سواكن إلى بربر ، وحاصرت فرقة محاربة بصحية بعض قواكل التجار ومجموعة من للراشدين الاغنياء الذين بقي لهم أن يملكون ثلث أورويون يسلكون هذا الطريق بسلام منذ ١٣ سنة .

لعله من الضروري الآن أن نلقي نظرة على العدو . لو أن الخليفة قد سمح لهجومه بالتقدم للدفاع عن بربر ، لكان قادراً على الدفاع عنها بحشد القوي ، وكان سر الأمور سيكون عكسياً تماماً . بعد سقوط أبو حمد ، كان من المحتمل أن يتأخر التقدم حتى يصل خط السكة الحديد إلى النهر لوروما تأخر الهجوم لعدم كماله . ولكن كما جاء ذكره في الجزء السابق ، الاستيلاء للقاضي لأبو حمد وهروب القبائل الشيلة ثم ظهور الولاة الحربية بعد الشلال الرابع كل هذا قد فوجئ للخليفة أن الحركة المتصلة قادمة وأن الجيش الفلزي لابد وأصل إلى حاصته .

لذلك كرم كل جهده في عمل استحكامات دفاعية ومنع أي من فواده من أي نشاط هجومي شمال القمة . كانت الصحة سقوط بربر وقد أكد هذا للخليفة أن قراراته كانت صائبة !! سار العمل بجهد مضاعف فقد تم بناء طابعت للمدافع في سور على طول طينكف النهر للواجهة لمدينة أم حرمين ، وتم حشد القوات من القضايف ، كرخان ، ودار فور . كميات كبيرة من الحبوب والجمال واللؤلؤ الأخرى يتم جمعها من منطقة الجزيرة (الأرض الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض) وتم تخزينها في المدينة . كان عدم الرضا

واصبأا لدي القبال لهذه الضراب الاضاقية ولكن لم يشفع لهم ، وكان الرد حاسماً من الخليفة وهو أن الكل يحد في سبل الحركة .

تم يحد أفراد القبال للضرورة وأجروا على التمارين العسكرية بانتظام ، الخليفة شريف الذي اقم بمطابقة مع قبيلة الجليلين أدخل إلى السجن وأي حصيان قويل بشد القلب ، ثم فرض حصار على المدينة ومنع أي اتصال بالشمال بما عصب وصول للعلومات للجيش المصري . وبالرغم من حدوث ثمر صفر في كرتقان بعد انسحاب محمود وجيشه إلا أن الأحوال كانت مادية وتم السيطرة الكاملة للخطبة الذي استطاع أن يجهز القوة الباقية لمواجهة محرم الأحداث المتوقع .

في الأسبوع الأول من أكتوبر قرر السردار إرسال البواخر الحربية التي تمركزت بصعوبة على بعد الشمال الخامس ، لكي تحسب منطقة قلعة وتستكشف قوة وموقع جيش محمود . في يوم ١٤ أرسلت البواخر "الظافر" و"الفتح" و"ناصر" للملاحة جنوباً من بربر تحت قيادة القمندان كبيل ، وحملت كل باخرة بالاضافة لطاقتها من البخرة المليون ، ٥٠ فرداً من الكتيبة السودانية الزينة ، واثنين ثاوية برجلتين من مدفعية البحرية . بمجرد طلوع الفجر تحرك الأسطول نحو مراكز العدو ، وكان الصمت شاملاً للدرجة التي فاجأت قوة صغيرة من الدرايش في النقطة المتقدمة وهم نيام . استغلوا على أصوات طلقات مدافع للكسهم ولمشاهدوا هذه المناكبات العظيمة وهي تحاصرهم . وصلت البواخر للامحاصوب شندي ولم ناه لبعض الطلقات التي جاءت من الطلال شندي ووصلت إلى مشارف قلعة حبالو السابعة ، على مدي النيران ، كانت المدينة تحصد بحوال ١٠٠٠ باردة من النبل ، ولكن كانت هناك ٦ طابيات من الطون بما منطلق على طول الشاطئ للبدفاع عنه . تمهدت البواخر إلى الجهة الشرقية للنبل حتى تهد عن مدني توفيق مدفعية للدرايش . ومن على بعد ٤٠٠٠ باردة بدأت البواخر الضرب المركز واستهدفت قو طابيتين وهوهدبت اجزوا متناثر في الهواء ، رد الدرايش النيران ولكن لم تكن بالفعالية للضرورة ، فقد وصلت دقة إلى سطح "الظافر" وحلت جديدا سودانيا ووصلت دقتان إلى "الفتح" واستمر القصف لمدة ساعة تحرك بعدها التشكيل النهري إلى الجهة الأعري للعدو واضطرت باقي الطابيات حتى استكثها تماماً . بدأ بعض أفراد القوة التي كانت عند الطولي وبعض الخيل من البقرة في الركض بمهادهم على

ضفاف النيل وكثرت هذقا سهلا للدفع للكسيم التي لحسهم رغم للذي الجيد . بمحسرد أن
 عورت البوانتر منطقة الطائيات توقفت نيران القرووش لصعوبة توجيه للدفع الثانية نحو
 الجنوب وعرف القاعدة أقدم في لمان ولكن ينملهم يهزون أنفسهم فحاة جاعهم مجموعة من
 الرصاص يطلقها حوالي ٢٠ أو ٣٠ درويشاً من جميعهم قرب الشاطئ تحت ظلال اشجار
 المسط ، ولم يصب أحد بالرغم من القمار الرصاص . طوت مدافع الكسيم على عاورها
 ولمطرحهم بسول دمي ابتعاداً لفلتهم . تعدت البوانتر حدود المدينة وأكملت استكشافها ثم
 رجعت مع ٦ مراكب حاملة للجنود كغنيمة . في طريق العودة تبادلت إطلاق النيران مع
 الدرويش ووصلت إلى جزيرة صغيرة بعد ٦ أميال من التمه حيث رست لقضاء الليلة .
 كانت البوانتر قد أوقفت تماماً منذ الساعة الثانية والنصف ظهراً .

كان واضحاً أن تبادل إطلاق النيران كان محصاً ومثوراً وعليه قرر الأسطول الصغير
 تكرار التجربة ، وتحركت القطع صباح اليوم التالي في الرابعة صباحاً حتى إمدت موقعها
 قبالة التمه قبل طلوع الشمس . مع طلوع الفجر بدأ تبادل إطلاق النيران وظهر فجأة أن
 الدرويش كانوا في حالة من النشاط بالليل . عندما أحس محمود بأن توقعاته محروم قادم من
 جهة آبار حقلول غير واردة ، أحضر للدفع التي كان قد وضعها على الشاطئ الشرقي نوع
 قنات للملاحاة الممدو والتعامل معه احضرها إلى الطائيات وبني طابرين اضائتين ، وهكذا تسنى
 للدرويش ١١ مدفعاً من ثمانية مواقع صغيرة . لم تكن توقعهم فعالية ولم تسبب أي خسائر
 للأسطول الذي استمر توقعه اليوم التالي على التوالي والحق خسائر جسيمة بأعدائه . بعد
 أربع ساعات من الضرب للركز أمر القائد كليل الأسطول بالانسحاب . بالرغم من
 خسائرهم الكبيرة ، حال الدرويش ، نظراً انسحاب الأسطول واستمروا في إطلاق النيران
 عليه حتى غاب عن الأنظار . بينماواصل الضباط تسليحهم فجأة شاعروا منظرهم
 وعظفوا تماماً من الطائيات عددة فعالية ، شاعروا جموع خفوة تمحرك وإعلام ترفرف فوق
 التلال الرملية خلف القرية . ظهر جيش الدرويش بالكامل حوالي ١٠.٠٠٠ مقاتل من
 عيالة ومشاة ينشدون الاغاني ولعازيج النصر ، لكنه كان نصرهم الوحيد ..

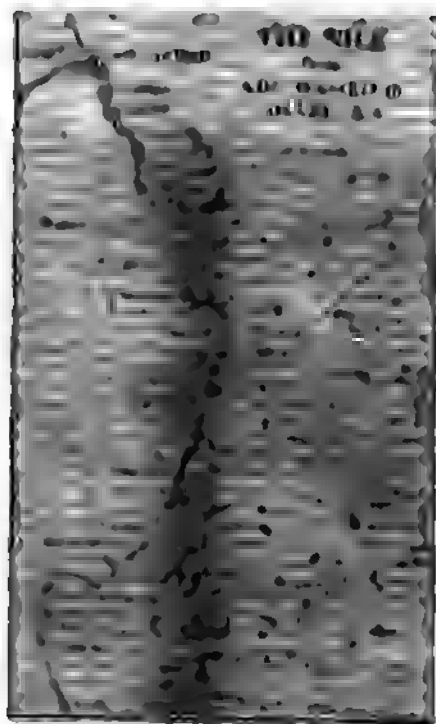
كانت الخسائر بالنسبة للأسطول قتل واحد ، الجندي السوداني الذي توفي متأثراً
 بجراحة رصاص الإصابات الحقيقية بينما بلغت خسائر العدو من اللخة حوالي ١٠٠٠ قتيل

أو إن لم نرد للمباينة نصف هذا العدد. استعظمي في يومي القتال ٦٥٠ دافعة مدفع وبضغ
آلاف من رصاص المكسيم الرشاش - وجح الأسطول إلى بربر وتم الإبلاغ عن مواقع العدو
وقواته .

بمجرد أن أحكمت القوات المصرية قبضتها بعد احتلال بربر بدأ عثمان دقة عظمورة
موقفة في ادراكها وعدم جدية بقائه هناك ، وكان محمود قد كرر طلبه له للانسحاب إلى
وبالرغم من كرمه الشديد للقائد الكردي لئلا يسوء استعمال سلطانه ، فإن للضرورة أحكام
هذا أسد ، قوته المكونة من ٢٠٠٠ مقاتل عثماني وسارحاهل نحو عطوة حتى وصل نقطة
يضيئ فيها النهر مما يسهل عبوره وغير مع جوده وواصل إلى شندي بكل سهولة . ثم هذا
أثناء هجوم البواخر على القنطرة .

عندما بلغت السفن هذه الأخبار أورد أن يتحقق منها وأيضاً لكي يدمر أي ممتلكات
يكون قد تركها خلفه عثمان دقة ورأيه بعد قسحها . أرسل في ٢٢ أكتوبر "فرقة طائرة"،
تركزت بربر مكونة من الفرقة الرابعة السودانية تحت إمرة الرائد جاكسون ٢ مدفع ، فرقة
هجانق وعبدالعظيم وبمعه ١٥٠ من الحفاريين غير النظاميين بأسلحة خفيفة ، يحملون الإمدادات
على ظهر ٥٠٠ جمل تحت قيادة الجنرال "هتزر" وحملت الحملة المتقي النهرين يوم ٢٤
وواصلت سيرها حتى وصلت ادراكها يوم ٢٩ بعد أن قطعت ٨٤ ميلاً . ثبت صحة
الأخبار عن رجوع عثمان دقة إلى النيل . هوية من ٦٠ من أفراد المساندة استطاعت مسافة
٤٠ ميلاً على طول نهر عطوة ولم تجد أثراً للعدو . أحرقت معسكر عثمان دقة عن أعين
وعادت القوة إلى بربر .

جاء نوفمبر وبدأت مياه النيل في الانخفاض مريحا ، ظهرت شلالات على بعد أربعة
أميال شمال ملتقى النهرين ، سوف يصعب عبورها وكان لندي للسفينة مهلة قصيرة لكي
يفر ما إذا كان سيرك أسطولته النهري خلف هذا الشلال ، وبالتالي تتقدم قمرتها على
المنارة متى ظهر الشلال كاملاً ، أو يتركها ويتركها جنوب الشلال ناحية العدو حتى
يستطيع استطلاع مواقعه عند القنطرة . في النهاية قرر أن تعبر البواخر قبل فوات الآوان ولكن



بأي أعمال ضرورية لقطع الأسطول . ثأمن هذا البناء المغير في الخيعة ، تحركت نصف الفرقة المصرية الثلاثة من بربر وأقامت في معسكر عند اللقي . بعد أسابيع قليلة لحقت باقي الفرقة الثلاثة ، وهكذا سوف يتحول هذا المعسكر إلى سكتات جيش عاتلة بعد شهرين قليلة . استمرت التطورات العادية بالنسبة اليونسف على جبل رأس الشهر وفي أول نوفمبر تحركت البواصر الثلاث ، الظافر ، النعمة وناصر وأبحرت جنوباً تحت قيادة كميل . في اليوم التالي لحقت بهم الباعرة "فتح" . في ٢٠ نوفمبر ، طلعت اليونسف قبالة التحسدي ، طابيات المدو- أطلقت بعض القنابل ولكن تصويب الدلويس لم يكن مضبوطاً كالعادة ولم تصب أي من البواصر . لو سط أن قوة المدو لم تنفر إلا أن هناك ثلاث طابيات جديدة أقيمت جنوب النعمة . استمرت البواصر في اللحاح جنوباً حتى وصلت ولد حيشي ، تراقها سيالة العرب من على بعد على طول الشاطئ . بعد أن أثبتت لنظرة عادت البواصر مضطربة الطابيات في النعمة .

هذه المرة لم تمر البواصر بدون مدح ، سقطت دالة على سطح الباعرة فتح وجرحت ثلاثة رجال .

لم تأت حادثة تعكر ملل شهر نوفمبر . استمر الحظيفة في استكمال استعداداته . بقى محمود بدون حركة ، بالرغم من توصلاته الكثيرة للتقدم والانسحاب بالقوة القادمة عند بربر ، فوبلت بالرفض التلقائي بالإشارة على بعض القوي الواقعة يسار شاطئ النيل ومسلب كميات كبيرة من الحبوب لإمداد شونة الحبوب لديه ، استمر خط السير البطيء في التقدم وكان لابد للمعاناة التي سببها الاحتلال الثنائي لدر خطوط الإمداد أن تنتهي . وبمجرد سعي تقدم الخط . المدوء الذي ساد بعد احتلال بربر كان فرصة بقر ما كان غير متوقع . ساعد السردار كثيراً أن مفاصلة لم تعرض إلى أي حادثة مية ، لم يهاجم أو يذوق ، لذلك سافر إلى كسلا ليعاد إلى استعادتها .

لوقع المعبر لكسلا حيث إنما تقع على بعد نفس المسافة من أم درمان ، بربر ، سواكن ومصرع ، تربتها الخصبة تجعلها في مصاف لوقي المدن في شرق السودان كله . تربتها غنية جداً ، الطقس معتدل طيلة العام ما عدا أثناء موسم الأمطار ، وهو صيفي جداً ، التسميم العلوي بالليل يلطف حرارة النهار ووجود كميات وفيرة من المياه الجوفية على عمق أقدم

قليلة يعرفونها عن وجود النهر . كان تعداد السكان عام ١٨٨٣ أكثر من مئتين ألف نسمة، فبدرها للصربون حثاً وأقاموا لها حامية عليها ٣٩٠٠ جندي . كان هناك مصنعاً لنسيج القطن به معاملات كافية وتساعد الدخان من المصحة يعطي إحساساً بالأمل في التصنيع مستقبلاً وأنهت الرورادات للحرية أن هناك نشاطاً قهرياً ملحوظاً ولكن جاءت الكورلوت متلاحقة وعطلت ازدهار عاصمة الشرق الجديدة ، في عام ١٨٨٥ سقطت حامية كسلا بعد صراع مرير في أيدي الدراويش ، كانت مدخنة بمن لم يقتل ضم إسماعيل أسرة الرقيق نو جيش الهندية . انهارت المدينة ومعها النشاط التجاري . لأكثر من عشرة أعوام احتل الدراويش للعسكر والبلاني المظلمة وأصبحت كسلا هي نقطة الحدود بالنسبة لهم . كان يمكن أن يبقى الحال كما هو عليه ، إلى بعد معركة أم درمان لو اكتفى الدراويش بالاحتلال كسلا ، ولكن قائد المنطقة لكي يثبت جنودته اخفاء طموحه بمهاجمة الإيطاليين في أغورادات في أريتريا حتى يكون موافقة الخليفة . هاجم بقوة للقنطرة بحوالي ٨ آلاف محارب قلعة أغورادات الحصنة خلف الجبال وكان عدد القوة الإيطالية ٢٣٠٠ جندي بقيادة للتسلم "أريوندي".

بعد هجوم عنيف بولكنه بلا أمل تم صد الدراويش بعد أن خسروا ٣٠٠٠ مقاتل في للركض على رأسهم فلاحهم للهور . كانت هذه لمواجهة كارثة لإيطاليا كما هي كارثة للعليلة . كانت ضربة قوية للسياسة الأفريقية لدى سنود كرسبي، وكلارك وشمسايح سياستهم القوسية في الحبشة ، تقدم الإيطاليون وحصلوا كسلا تحت قيادة الجنرال بارتيزي من منطقة أغورادات . اعترفت مصر بهذا الاحتلال بدون التفريط في الاحتفاظ بمخيمها وحصل ٩٠٠ جندي إيطالي وأقاموا معسكراً وقلمة حصينة . كانت الفرصة للهبة لجنرال بارتيزي في معركة حادة على أيدي الجيش الحبشي عام ١٨٩٦ الذي أباد قوة بارتيزي ، وتولاهما سقوط حكرمة سنود كرسبي قد نمت أي طموحات أفريقية لإيطاليا وهكذا أصبحت تركة ثقيلة، خاصة عندما شجع اتصال الأبحاش الكبير الدراويش، وبدلوا مهاجمة الحامية الإيطالية ، مما اضطر الإيطاليين للدفاع والتمسود بقوة للدفاع عن مراكزهم ، بالرغم من عدم حماس أو رغبة حكومتهم في هذا الأمر . هنا قررت الحكومة الإيطالية أن تعرض للتخفي عن كسلا للقوات المصرية، وقد قبل العرض وتمت الترتيبات اللازمة . كان تقدم قوات الحديدي

لاحتلال دنقلا أثره على مصحات الدرويش، كما جاء ذكره. فقد احتل العرب بعض النساط حول بحر عطيرة والقرب من المدينة، واكتفت قواهم بالاختارة فقط دون الواجبة، وممدا الطليان في موقف للدافع فقط. ينتظرون بلهفة الفرصة لتسليم القلعة للقوات المصرية .

لم يجد السردار أي صعوبة في الاتفاق مع القائد الجنرال كاتيفا لكي تجعل القوات المصرية الحامية، ويتم شراء الأسلحة والعلقات الموجودة بعد تأمينها وينضم أفراد القوة العربية غير النظامية المحلوة مع الطليان إلى الخدمة في صفوف الجيش المصري. رجع السردار للنيل، حيث أصبحت الحالة فجأة حرجية. بحلول شهر نوفمبر وترك العقيد بازسونز الفرقة ١٦ المصرية وبعض المدفعية من الإسمالى من سواكن ووصلوا إلى كسلا يوم ٢١ ديسمبر. قوة الأعراب غير النظامية، التي سوف تطلق عليها من الآن فصاعداً اسم "الكتيبة العربية" والتي أرسلت على الفور لمهاجمة الدرويش في منطقتي الفاشر وأبوري، تمت مفاجأة الدرويش واحتلت القوة هذه النقاط بدون أي عسائر. إن الضباط الإيطاليين رغم مسرارة إهمزازهم من مجريات الأحداث، حاملوا عظمى مصر بكل احترام وتمت إجراءات التسليم والتسلم على أن تنتهي في يوم عيد الميلاد "الكريسماس".

احتفالية التسليم والتسلم تمت بحراسهم تحتحق الذكر، كانت الطابية على شكل مستطيل جدرانها من الطين جوفها مور كسائر وجه فتحات للهنداق. بالداخل الخيام والحدازن وفي الوسط تماماً مصنع النسيج، كل المكينات مغطيت ولكن شكل المبني الرئيسي رئاسة للطابية واستعملت للدخنة الطويلة كمنقلة للمراقبة وعمود الإضاءة لرفع العلم. كانت بيوت الطين للخدمة على جنوب الطابية توجد في حوزة، عطلها سلسلة جبال الخيشة السوداء. رفع العلمان الإيطالي والمصري واسطف الجنود في طابور طويل تسادلا الشحية العسكرية الواجبة وسار الحرس المصري لتسلم مواقع الجنود الإيطاليين، هزفت مرميتي المنحلى التابعة للكتيبة ١٦ بعض اللواشات، وأزل العلم الإيطالي وباطلاق ٢١ طلقة تمت استعدادة كسلا بالكامل.

دعونا الآن نترك ولادة سنة كاملة بالعقيد بازسون وقوته الصغيرة، مع حرب طابية الطين في كسلا، يشغل نفسه برد غارات الدرويش وهو يرنو نحو القضايف آملاً أن دوره

قادم لا محالة متى ما سقطت لم حرمان . وعملاً كالسرطل على القاري أن يسرع الخطى الى النيل مرة أخرى .

عندما جاء آخر نوفمبر ، تحقق للخليفة أن الأتراك سوف لن يتقدموا إلا بعد مدة عند وصول فيضان النهر القادم وسوف تبقى القوة بالقرب من بربر ، ويحط السكة حديد لا يزال على بعد مسافة جنوب أبو حمد . الضربة القادمة لكنها تأجلت . عندما وصل الى هذا الاستنتاج أصبح أكثر استجابة لطايات عمود التكررة . كان يعتقد أن الحصار مياه الشهر سوف تعوق تحرك البواخر جنوباً وأن كل القوة للوجود ببربر لا تزيد على ألفى جندي . لم يقدر القوة الكبيرة التي جاء بماء عط السكة حديد مما ساعد أعداءه لحشد تلك القوة المائلة ، ففكر في المبادرة بهجمات هجومية ولكن محمود يحب ألا يترك وحدة ، كل قوات الدراويش يجب أن يجهد لطرد القرنة .

قرر أن تحرك كل القوات الى الشمال . وبدأ حشد القوات في كرري وتم مفسكر كبيرين كمرري ، شجعت الاف الجنود وبدأت الاستعدادات للتحرك المهم . أرسل الخليفة سكرتيرة الخاص يبلغ محمود بالخطة وأعاد لها بكل الاستعدادات من حذاء وجنود . أعلن الخليفة حرب جهاد جديدة لطرد الأتراك ، وكان قريباً أن يوجد المهادين للنيل من الكفار وليس أفراد الجيش المصري ، كان اتفاقاً من الموضع الرئيسي لمهاجمة ومخيم دولته . كان عدد الأوربيين في السودان في هذه الأثناء حوالي ١٥٠ فرداً وكان قسم دور واضح ومعروفون للجميع .

كان السرطلو عائداً من كسلا عندما سمع إشاعة نية الدراويش بالمحموم ، فطلب ممن الاستعدادات سرعة التعامل لجميع أي معلومة في هذا الخصوص ، عند وصوله لوداي حلها يوم ١٨ ديسمبر تأكدت له الأخبار ، أن الخليفة ، ومحمود وكل جيش الأكمصار وأمرائه سوف يتحركون شمالاً . مما لا شك فيه أن هذه التحركات من جسابات المسافر سوف تؤثر على سير الحملة ووضع أن ثمة معارك لابد أن تدور حتى لا يجر الجيش الغازي على التفهقر . كان رد السرطل على نوايا الخليفة والوضحة أن أمر بحشد القوات حول بربر ، أبرق لورد كرومر طالباً لواء بريطاني وقيل طرف سواكن بربر .

ظهر الآن وجود الأسطول النهري ناحية العدو في حماية نصف لواء قسطنطين في متسوي الخطورة ، ولأن الأسطول لن يستطيع أن يعود عمالاً نسبة لانسحاب المياه عملاً في الشلال ، كان عمراً للبقاء حيث هو ومنه مراكز الصيانة التي أقيمت وأصبح حمايته بقوة كبيرة لمسر مهم. بالرغم من شعور السردار بضعف موقعه حتى على الدفاع إلا أنه وجد من الضروري أن يستمر في التوجه جنوباً. وفي ٢٢ ديسمبر تحرك لواء لويس وكنايته الأربع مع المدفعية عن طريق النيل إلى مفتحي النهرين وبدا بسرعة لقمعة معسكر حربي عند زاوية للمفتي، وهكذا ظهرت حماية عطوة إلى الوجود .

استمر حشد القوات ، كل القوة التي كانت في دنقلا ما حذا أفراد للال تركوا الحراسة الحاميات في كورني والدبة مروى ، ثم نقل القوات بالمراكب مع أسلحتها إلى كربة ومن هناك بالمسكة حديد خلفاً وأسرع بما يخط مسكة حديد الصحراء من وادي حلفا لأبو حمد، ثم واصلت الرحلة إلى غاية الخط الذي كان قد وصل في أول يناير إلى دنقلا . كل هذه الرحلة من مروى إلى دنقلا استغرقت أربعة أيام ، بينما استغرقت أربعة أيام من الجنرال هنتر وفرقة الطائرة ، برهاناً حقيقياً، أنه في بعض الظروف تكون زلوتيا للاستغلال مما هما النصر من الضلع الثالث ، وهذا برهان لم يفلح له "أوكليد" عالم الرياضيات اليوناني القدم. وصلت الأوامر إلى سلاح الفرسان المصري يوم ٢٥ ديسمبر ، تحرك الضباط الانجليز خلال عيد الذكر من مسرعين متجهين إلى بربر عن طريق منحي النهر. وزعت المشاة المصرية الثمانية بمحس أرسلت ثلاثة للاحق بلواء لويس في معسكر عطوة ، أو ما عرف "بالعطوة" ثلاثة انضمت للحشد الكبير في بربر وبقيت الاثنان في دنقلا للوقت الحاضر، ترافيان أن الطريق القادم من آبار جندول وثلاثة بكل اهتمام وثقوب .

ازداد قلق وزارة الحربية مع تطور الأحوال ، واحتلت احوال ١٨٨٤-١٨٨٥ مازالت حية في الأذهان بؤسراحت بوسائل القوة البريطانية التي طلبت على محسب مايبث الإمكانيات الجيدة لادارة العمليات عندما يستلزم الأمر الاتماع لمستوي الحدث .

الفرق العسكرية ، كتاب الفرقة ورويك شير لللكية بفرقة لينكسون والكمرون هايلندز تجمعت كلواء وأرسلت إلى القاهرة إلى الجبهة في السودان . لحضرت فرقة سبي فورس هايلندز من مالطا إلى القاهرة في حالة استعداد للنهب للجبهة بأسرع وقت .

وصلت فرق أخرى تحمل عمل الفرق المسطرة للجهة وذلك حتى لا تتأثر قوات الاحتلال
بمصر .

الصابط الذي اختار قيادة اللواء البريطاني كان الجنرال كاتكري للشهور بالكفاءة ،
عندما قاد اللواء في حملة شيرال في الهند ، وعندما كان يعمل تحت قيادة سر ووبرت لو وسير
بنون بلود . وقد اكتسب سمعة طيبة عندما اقتحم بحر مالكتند والمبارك اللاحقة في سهول
غار ، ثم لهذا اللواء مع لواء الجنرال كينلوخ وأرسل إلى شيرال . ونقل الجنرال من جبال
الحدود إلى الشمال الغربي إلى يومئذ حيث بدأ في محاربة داه الطامعون الذي انتشر في المنطقة
وهكلا وحول بمجهوداته من للمبارك الحربية إلى معركة محاربة الطامعون وحمل المتفرقة اللازمة
لعزل للصايين من بين الأسعاء . كان قد عين برحلتهم قبل اندلاع التمرد في الحدود عند
المرشوط بجمدة الآن يرسل بسرعة للسودان . كان متوسط الحجم ، قوي البنية ، دالـب
الحركة شجاع دائم القلب ، لا يعبه إلا النشاط المستمر حتى يصيبه الإعياء ويكون ضحية
للعطلة . احتشدت القوات المضاربة على طول النهر من أبوجا حتى عطبرة ولم يتحرك
الدرابش حتى هذه اللحظة .

تجمعت قوات الخليفة في كوري وغت الاستعدادات لكن ظهرت على السطح مسألة
القيادة . كان الخليفة قد أوجز لأمريه أنه سيعلن بأنه سيؤدي الحملة بنفسه ، ولكن عليهم
الإحراج عليه بعدم إقفاة مثل تلك الخطوة حتى لا يعرض قدامته لمثل هذه التجربة . التفت
إلى قوله فتقدم الأمر على وحلوا لنيل هذا الشرف الكبير بالنسبة لأهل السودان . فاجسأ
الخليفة الأمر ودخلوا بأن القوة سوف تلحقه بدون تفادى لعدم وجودها ، وأن هذا لن يؤثر
لن في شيء . رأى ودخلوا أن الأمر خطير وسحب ترشيحه للقيادة فتقدم عثمان شيخ الدين ،
إذا سمح له بتسليح القبائل الثيلة وضربا لقوته ، هنا اعترض يعقوب بشدة واستمسك تلك
القبائل بالغبية وأقيم كلاب لا تستحق إلا الذبح ، واستمرس في وصف طرق التعذيب التي
يمكن أن تتبع مع أفراد تلك القبائل .

استمرت المناقشة والراع ، عندما جس الخليفة من حل الاشكال قرر أن يرسل ممدداً
عسكراً فقط محمود يتكون من ٥٠٠٠ مقاتل تحت قيادة يونس . اكتشف أن محمود لا يطبق

يونس بولس يقبل أي تعامل أو تعاون معه. أمر الخليفة بفض للمسكر ورجع الجيش لخمسة
الثانية للمدينة مع شعور الخيف والاضطرار .

كان ظاهرا للذين يعطون تصرفات حركة الدواويش أنه قد صرف النظر من أي عطف
هجومية. مجرد أن تنفض للمسكر، وقد تأكلت الاستعبارات بأن هذا معناه عدم وجود
أي نية للمحرك عمالاً.

سهر الصيف بدون أحداث ومع وصول فيضان النيل سيتحرك الجيش العازي للمعركة
الفاصلة . كانت أسبوع صاره تلك التي وصلت يوم ١٥ فبراير بأن عمود قد هرب النهر بدون
أي مدد من أي نوع . لم يصدق السردار هذه الأخبار السعيدة وبدا على الفور في تركيز
قوته عند المتلقى . في ٢١ فبراير صدرت الأوامر للقوة البريطانية لتكون على أهبة الاستعداد
وتحركت فرقة السي فورس من القاهرة وتحركت الكتائب المصرية للمطالبة بحماية برنس
والمسكر الكبير في عطية. ووصل عبر عبور عمود للشاطئ الأيمن للنهر في يوم ٢٥
وأعلنت التعبئة العامة بين الجنود .

الفصل الحادى عشر

الاستطلاع

بالرغم من أن حكمة الحملة تتكون بالضرورة من تفاصيل كثيرة لا يمكن إغفالها ، إلا لإظهار الحقيقة ثم لمصلحة السرد نفسه فانه من الضروري جداً للقارئ أن يجتاز تصوراً عاماً على مدى السرد كله . والأخلاق كل قصص التقدم والعارك والاستطلاع قد تبسّطوا كاحداث لا تاربط بينهما وإن الأمر لا يخرج عن وصف معركة كبيرة تحت بشكل عشوائي ؛ لكي يتم تقدير هذا العمل ، ليس من لهم أن يرى القارئ للعارك الوحشية والأحداث للفترة بقدر ما يكون له تصور كامل عن المطلق وراء كل الأحداث التي تكون في النهاية الحكم على اعتبار القوة . لقد تم رصد الأعطال التي صاحبت الاستطلاع الهزلي لهرير في الجزء الأخير . في الفترة من أكتوبر للتسمير كانت الأعطال بحدة وتازم للوطف في ديسمبر فجأة . ولو كان الأمر محمود كان تقدم حتى منتصف يناير وكان بإمكانه استعادة بربر ، أما إذا كان الجيش الكبير قد قلم أسنانه من أم حرمان لكن هذا الواقع حقيقة مؤكدة .

لقد قرأ القائد الصغير التقدم من كردفان للوقوف جيداً وطالب مراراً متوسلاً أن يعطى الإذن لانتهاز الفرصة ، ولكن لم يأت الإذن إلا بعد أن عاد جيش الخليفة أمراجه إلى المدينة ، وكان عنده سوء تقدير رهيب عن إملاء قوة العدو في الجيش المصري والإمكانات المتاحة . تسلم محمود الأمر في نهاية يناير وكان للوقوف قد تغير تماماً . فقد تم حشد الجيش المصري ، ووجيل اللواء البريطاني ، كما وصل خط سكة الحديد إلى القنيطرة . أما للموازن والورش المتراضعة في الدخيلة فقد تحولت إلى حامية ، ومن حامية إلى معسكر ضخم للجيش الفنازي تمسكوا عند متلقى النهرين ، حطيرة والنبيل . لم يكن للبرابيش لاعلم ولا قوة يمكن أن تنف أمام هذا الحشد . لعل محمود لم يقرر مقبرة السكة الحديد في حشد كل تلك القوة ربما ظن مثل الخليفة أن القوة التي دخلت بربر لا تريد على أثنى رجل مصري ، أو قد أعماه ضروره واستهتاره عن وعي الحقيقة وهذا هو الأرجح . على كل حال لقد بدأ في الأسبوع الأول من فبراير بتحريك قواته شمالاً . مع كل ما طلة العرب ، زحف بقوته على مهل إلى ملتقى النهرين . وعندما وصل إلى الزيلاب تصرف كقوة أحس بقوة أعفائه توقف بدون قرار

وعقد مجلس الحرب. كان عمود يرى التقدم القوي ومهاجمة العدو إلا أن القائد المحسك عثمان دقة قد عارضه، والعروف أن عثمان دقة كان قد اكتسب خبرة طويلة في عاربة العدو خاصة القوات النظامية، وخبر عن قرب قوة البلقية الحليفة، لقد قدم حجة للفائد الذي ينفر منه ويحضره، بشكل واضح. إن للشكالة التي تواجههم جد كبير، وإذا كان لابد من التصرف في حسب تجنب للواجهة للباشرة. اقترح عثمان دقة الانخاف حول المعسكر في عطيرة بالاتجاه نحو الصحراء ثم الهجوم على بربر واستعادتها مع أمل أن يستعد أهالي بربر في العملية، ثم يتم قطع السكة الحديد الذي يحترق شريان الحياة بالنسبة للفرقة ومعي ما وصل الدرويش خلف للقوة فلما انتهت. وافق مجلس الحرب على رأي عثمان دقة بما أضعف موقف عمود وقلل من هيته، فكره عثمان دقة أكثر. تحرك بقواته يوم ١٨ مارس عبر الصحراء إلى قرية المدي على بحر عطيرة، ومن هناك مع مسيرة طويلة يصل إلى النيل ثم إلى بربر. بينما لم تكن معلوماته عن أعدائه كافية عن طريق حواسيسه من الخلفاء، كان السردار يمتلك كل المعلومات عن تحرك عمود مرة باليوبر مرة عن طريق سلاح المراسل. أول ما علم بخططه عمود للانخاف حول الجيش، حرك السردار القوات نحو عطيرة إلى المدي. وهكذا وضع عمود في موقف صعب أما أن يهاجم السردار وهو في مركز قوي أو يتحاشاه، وقد استأثر القرار الأخير وتوغل أكثر في الصحراء متجها إلى الشرق باتجاهه حول المدي ووصل إلى بحر عطيرة مرة أخرى عند النخيلة. فلتسالة من هذا لبربر بعيدة والأبار قليلة مما يهدد عمود وخطته وعليه كان أي تقدم حثيث مستحيل. قرر عمود أن يعسكر في ذلك المكان، ولكن بدأت اللون والأهلية تنحصر. فقد دمرت كل عازلة في شتدي عمود أن تركها، ومع أن الدروسى يمكن أن يعيش على أكمل اليوم، ولكنهم لم يستمروا على ذلك طويلا. فسلأ بدأ بعض الجنود في الحرب. وعثمان دقة كان في حالة عداء وغضب مستمر ظلما كانت الشورة شوته، ورأي قواته تنحصر.

كان العدو الرهيب في هذه الأثناء يتابع عمود كالنمر الذي يحوم حول فريسته المضمونة التي لا حول ولا قوة لها، كان يتابع في صمت بالراحة ومتبهي الجحوت. بمجرد أن وصل التكبيك إلى حد أضعف والعدو واصفا معنوياته إلى درجة الاستكانة والعجز عسى الحرب عندها ينقض عليه النمر بخطوات عسوية في المدي، وأبطل ومن يهتار حتى أم ديبه

وقطعه تقطيعاً. هذا وصف موجز لاستراتيجية المواجهة في حملة غر عطوة ولكن سرد الحكاية يجب أن يكون كاملاً .

علم الخليفة يوم ٢٢ يناير بوصول القوة البريطانية قرب أبو حديد وعندما أرفقته المناقشات حول من يقود الجيش إلى الشمال ، أمر بإلقاء المسكر وعوده القوات للمدينة التي بدأ في عمل التحصينات حولها . بعد أيام قليلة من هذه الخطوة أصدر أوامره بشروع القتال ، ثم جرى على هذه العملية بقوة ٦٠ ألف مقاتل ، بحلول الآن بقوة ٢٠ ألف مقاتل ، الحسم الذي كان سيكون فعالاً لو تم خلال الثلاثة شهور الماضية معضي فيه الآن ليقود إلى عسراب وتدمير كامل . أصدر الأمر بعد أن أصبحت المحاولة ضرباً من الجنون القتال . كيف ياتي هذا التصرف من رجل اشتهر بالذكاء واللمهارة في إدارة العمليات الحربية وقد انتهت للملوك الدامية ؟ .

استمرت البواخر في درويش مستمرة على طول النهر وتم تبادل إطلاق بعض الدانكوت مع طاية الدراويش ، ولكن معني شهر يناير يكون أي حوادث تستحق الذكر . لقد حصلت تقارير الجواسيس بأن الخليفة إما في كروي أو في أم درمان ، وإن أحد فضيل في منطقة السيلولة بينما عضمان دقة في شندي وكانت الطائيتان الاضالعتان اللتان تم بتلاهما جنوب للمدينة شاهنتان على وجوده . لقد كان موقف الدراويش على حي تلك الملاحظة . في يوم ١٢ فبراير انسحبت قوتهم من شعري وقيل للجميع أن هذا دلاله على نشاط جديد ، انضج فهماً بعد أن محمود كان يمر النهر بقوة خجالت البواخر تأخير مواصلاته واستولت على بعض المراكب الصغيرة ولكن محمود نجح في المرور بكل قوته يوم ٢٨ فبراير وأقام معسكراً شرق النيل في حوش بلقاء وهي قرية صغيرة على بعد خمسة أميال جنوب شندي . تأخر التقدم لمدة أسبوعين كانت خلالها البواخر في منتهى اللفظة تحسباً لأي تحركات . وتم قتل طريق سواكن - بربر أمام القوافل ووصل السردار إلى بربر يوم ١١ مارس . مستأقني من أفراد قبيلة الجعليين التي تمركزت حول آبار حقل وصل للقتل لتصلها عطية الأمن بقايا البحث الخاصة بأهلهم . أما الفرقة المصرية فقد عسكرت في جزيرة شبلي يوم ١٣ ، حيث هاجمتها قوة من الدراويش محمداً أصيب خلاله الرائد سيتول بجروح ، في نفس الوقت جاءت الأخبار أن محمود توجه إلى العالجاب شمالاً وكان هذا دليلاً على أن تقدمه قد بدأ .

تحرك محمود من شتلي بقوة قطعت به ١٩ ألفاً فيها نساء وأطفال وتبع، وقتل عدد القتلى ١٢ ألفاً مع كل واحد مائة تكفي لشهر و ٩٠ طليقة. بينما أمر السردار كسل القوة البريطانية / المصرية للتمركز في كتور ، ما عدا سلاح الفرسان ولواء لويس الذي بقي معه ثلاث فصائل لحماية المعسكر عند ملتقى النهرين . - .

تحرك بروود مع الفصائل الخمس الباقية يوم ١٦ ومع كل سلاح الفرسان وقوة المجاعة المرتبطة المتعلقة على طول نهر النيل وعطيرة .

استمر الحشد في كتور واتحدت اللواتي السودانية تحت قيادة الجنرال هنتر، ووصلت مع سلاح المدفعية إلى كتور في ليلة يوم ١٥ ووصلت الفرق البريطانية - البوروك - البوروك والكومون سورما إلى النجيلة . فرقة السي فورس هاجلتلرز التي كانت لا تزال في وادي حلفا، ثم إرسافا بالسكة الحديد على وجه السرعة نحو الصحراء إلى القنيطرة ، من هناك أرسلت نصف الكتيبة بالهوانس إلى كتور ونسبة لقلة الهوانس وضرورة الاستعجال، أرسلت البقية على ظهور الجمال من رأس خط السكة الحديد وهو الصحراء إلى كتور ، وهي تجربة لم يجرن عليها أحد حتى ملائمتهم لم تكن مناسبة لمثل هذه الرحلة .

اكتملت القوة كلها يوم ١٦ وجاء السردار في اليوم التالي لفتح قواته . وأعطى الجميع الأيام الثلاثة التالية في قلق وترقب. فقد جاءت شائعة تقول أن محمود قد عبر عطيرة عند المندي وعلى بعد عشرة أميال من المعسكر وفي حركة الضال ليتجه إلى بربر - .
معنى هذا أن للمركة على الأبواب .

أمسك الضباط بنظارهم للمظلة يشكشكون الرمال وكل الأفق لاي بادرة للعدو، ولكن ظل الموقف صامتا لا حركة إلا للريح والغبار وعاد المفقود مرة أخرى . هنا تأسف الضباط على الأشياء للهبة التي تركوها في القنيطرة وهم على حيلة لتنفيذ الأوامر بالتوجه إلى كتور بأقصى الإغراض

في يوم ١٩ مارس لم يفت اليونسفر أن محمود قد ترك النيل دلالة على أنه بدأ مشروعه، وهذا أمرت كل القوة بالتوجه في اليوم التالي من كتور إلى المندي. كان منظر الجيش مبهما وسلاح الفرسان والمجاعة، فالذئع المحمولى تجرما الخيول غطت كل الجهة اليمنى للقوة، وللشاة وعلى يمينها القوة البريطانية تحركت في شكل اصطفاا للمركة - كتله من اللوات

عالمها الإمدادات والاتصالات . هبت عاصفة رملية عيقه ، قطعت القوافل مسافة ١١٠ أميال في خمس ساعات لكنها وصلت قبل الليل واستطاعت بناء زريبة كبيرة وقوية . هذا جاء ثواء لويس المصري قادماً من مصسكر عطوة وتركت الكتيبة ١٥ حراسة عطوة . فأصبحت القوة التي تحت إمرة السردار الآن ١٤ ألف مقاتل ، تشكلت القوة كما يلي :-

القائد العام - السردار

الثواء البريطاني - الجنرال كاتاكري

الكتيبة الأولى وورويك شو للكتبة (٦ فرق)

للكتيبة الأولى لينكون شو

الكتيبة الأولى سي فردس هاملنلرز

الكتيبة الأولى كامبرون هاملنلرز

قوة المشاة المصرية - الجنرال هنر

<u>الثواء الثالث</u>	<u>الثواء الثاني</u>	<u>الثواء الأول</u>
<u>العقيد لويس</u>	<u>العقيد ماكلونالد</u>	<u>العقيد ماكسيول</u>
الفرقة المصرية الثالثة	الفرقة المصرية الثانية	الفرقة الثامنة المصرية
الفرقة المصرية الرابعة	الفرقة الرابعة السودانية	الفرقة السابعة السودانية
الفرقة المصرية السابعة	الفرقة الخامسة السودانية	الفرقة الثامنة السودانية
	الفرقة السادسة السودانية	الفرقة الرابعة عشر السودانية

قوة سلاح القربان

١ العقيد بروود

٨ فصائل

٢ مقلع مكسيم

قوة سلاح المجاعة

الرائد توجوي

٦ فرق

سلاح للمضيق

العقيد لوتج

جزء من الفرقة ١٦ - ٦ مدافع خمسة بوصة ب ٥ . ٨ ملوبتر

مدفعية بحول مضيق ٦ مدافع

الطائرات للميلان المصرية ، الأولى والثانية والثالثة ١٨ مدفعا

بطارية للكسب البريطانية ٤ مدافع

بطارية الصواريخ ٢ قسم

عندما علم محمود بحركات الجيش المصري الإنجليزي ، ظهر من خطته الأولى للصرور عند المدي لأنه سوف لا يستطيع ملاقاته جيش السردار بأكمله ، وعليه فقد كان مصرا على الاستمرار إلى النجيلة . اختفى العرب بالترحال والقتال عروبة ولذلك فلا غرابة في أن تتحرك محمود بكاملها وتواصل السير من الماتية إلى النجيلة عبر صحراء لامساء فيها ، وينون توقف بما تشمل من مشاة وحيالة ومدافع ، ونساء ورجال وأطفال لتقطع مسافة أربعين ميلا في يوم واحد وتصل النجيلة مساء يوم ٢٠ . كان هدف السردار أن يعيد العدو على طول قمر عطية بحيث لا يشكل أي تهديد لفرير أو رامن خط السكة الحديد ، فاصدر أوامره لتحرك كل القوة إلى رأس المدي حتى تكون على بعد ١٥ ميلا من العدو ، كما كان يعتقد . فضاعت هذه الحركة من المسافة التي يجب على العرب قطعها لتفديد خطة الالتفاف حول الجيش ، وأصبح من ربيع للمسيحات لقوغم التقدم ، للاشتغال حول جيش يمثل محور الدائرة بالكامل .

كانت تحركات القوة المصرية / الإنجليزية تحت حراسة سبع سرايا من سلاح القرمسان ومدفعية الخيول ، وقد أمر العقيد بوجوده باستمرار مناوراته على طول النهر حتى يتقصص تحركات ومواقع العدو . للمنطقة الواقعة على حافتي قمر عطية غير صالحة لتحركات الجيوش الحديثة ، لأنها لما بها من أشجار شوكية ، وأشجار اللوز التي تمتد بعرض ثلاثة أرباع الميل

جريدتها الأمتير الكثيف لتغطي منظرًا سلوًا يعكس للنظر عند شاطئ النيل، فيها الخضرة وأصوات المصافير الجمالية وبعض الينابيع وطيور الزيتة . بعد رأس المديني يتحول نهر عطوة الى ككل رمال بيضاء في الفترة ما بين مارس وأبريل، بحيث تجد هناك بعض اليرك التي تحتفظ بلباء الصباغ تجد فيها الأسماك والتماسيح ملجأً لأخيرا بعد انقصار مياه النهر .

الجو رطب مما يزيد من الشعور بالحر ويؤيد من العرق . بينما لا يجب الأهمالي مياه النيل لوي لأن طعمها به بعض اللزوجة بالقلادة مع مياه النيل الحلوة ، وجد اليريطانيون أن مياهه طيب ومقبول . الأرض خارج هذه المنطقة ليست منبسطة تماماً فالسطح إما حجري أو عبارة عن بحري مياه الفيضان والامطر، ملائق بالبحر ، والخوان ملائق بالأحشاش للوسمة الطويلة مما أضاف تحركات الفرسان والندفة بشكل عاصي .

تمت مثل هذه الظروف تحركات القصاصات بحلو وبعد أن قطعت ١٥ ميلا بعد المسدي وصلت الى طابية قديمة في أهدلر ، هنا حسكر بوجود مع جنوده وواصلت للسور فصيلة واحدة تحت قيادة النقيب كالياس . رجعت هذه الفصيلة في الساعة الثانية صباحاً بعد ان خالفت دورية صغيرة للعدو وليس القوة الكاملة .

بينما كانت القوات تستقي عيونها بالعدو من النهر ، كلف النقيب بارنج مع فصيلة لعمل حراسة على مسافة ميل وربع ناحية الجنوب الشرقي كنقطة حراسة متقدمة . كانت هناك قوة من عماله الدرويش قد نمت فصيلة النقيب في كالياس وحاجت مسترة داخل الأحشاش الطويلة والأشجار وانتضت على النقطة المتقدمة وقطعت عمالية وحرجت سبعة مع الجنود وفقدت النقطة ١٢ حصاناً ، بعضها بعد أن تخلص من فارسه، اسرع بالركوض خلف مهر الخيل التي كان يحطها الدرويش .

جاءت عصر ذلك اليوم أخبار عن هجوم وقع على القوام واستطاع العقيد بارسونز صد العرب بفرقة من الأحباش الحلفاء لكن لاداعي للدعول في تفاصيل ذلك الهجوم إذ ليس به ما يستحق الذكر ونسبته أفضل ، وليس هذا مجال سرد لمظاهر التضال للحنفاء من الأهالي .

ولفت القوة المصرية الإنجليزية لأكثر من أسبوع في رأس المديني، تنظر أن تنهار السروح المعنوية للعدو وتجعله في حالة من اليأس حتى يقدم على الهجوم . كل صباح يستعد سلاح

الفرسان ويتوجه نحو معسكر الأعداء ، يشاهد فرسان القنطرة أو يناوش بعضهم ، وفي المساء تعود للفرقة للتمسك إلى المعسكر . كل صباح تمسك القوة لصعد المحجوم ولكنها ترجع في نهاية اليوم إلى الزريبة في حالة من الاحتراز وعام في سلام . في هذه الفترة بدأت تسري روح الاستقرار في المعسكر ، فكوت الزريبة وتوسع للطبخ ، واتسعت البوك في حجر عطشوة . استمرت الشمس تلمع الرجال البيض بلا راحة ولا انقطاع أيضا كانوا تحت أكواخ القش أو في الخيام ، سحلت درجات الحرارة أثناء النهار أعلى معدلا كما حيث بلغت ١١٥ درجة ، أما في المساء فإن الطقس رطب ومتش .

بالرغم من شعور القوة الرئيسة بأن اليوم بحر طويلا وملا إلا أن الوقت الذي قضاه الجيش في رأس المدي لم يكن عاليا من النشاط . كان عمل الفصائل والبطاريات اليومية عملا شاقا على الجنود والجنود التي لم تجد الراحة إلا في المساء . كان السردار يعم تسويق فرسان العدو وكان لابد من اللقطة الثابتة لثقافة سلاح الفرسان ، البواخر المدرعة أيضا وجد لها بعض المهام .

عندما ترك محمود شندي كان قد ترك ١٤ عتزون لياقي اللون وزيوجات الأمراء تحسنت حراسة ٧٠٠ مقاتل من حملة الهندك و ٢٥٠ بحالة . بالنظر العسكري العادي أو حتى لاختلاف العرب والاضطراب قد تقرر لاحتلال هذه المنطقة وبشرة ما ١٤ من مدافعهم . وعليه عادت الكتيبة الثالثة للصربية يوم ٢٤ بقيادة لويس من رأس المدي إلى عطشوة ، لتحل محل الفرقة ١٥ الموجودة هناك . وتجمعت قوة صغيرة تحت إمرة الفيندلان كليل تتكون من الفرقة ١٥ بقيادة لوراندي مع مدفعي ميلان من بطارية بيك و ١٥٠ من الجنود من القوات هو النظامية . ركبت القوة على مراكب كانت تجرها البواخر ، الطائر وناصر والفاتح ، التي انجرت إلى شندي في نفس تلك الليلة .

في شهر يوم ٢٧ ظهرت وحدات الأسطول النهري على مشارف شندي ، وشعر بها اللدروايش وجهزوا دفاعاتهم لكن كانت قوتها بالنسبة لهم مهولة . تحت ستار مدفعية البواخر تم انزال المشاة والدافع وبمجرد أن بدأ تعمل للقنطرة . حرب العرب وهم يطلقون رصاص ياتحهم عبقة القتالية . ترك أمر للطردة لأفراد قوة الجنود الذين كان يهجم جدا النار لأبناء فينتهم فقتلوا ١٦٠ من اللدروايش وكان انتصارا محسوسا خاصة أنه في نفس الموقع

الذي سقط فيه أهلهم صرعى. كان كل ما في البلدة خنيفة ، امتلأت البيوت بأغراض كثيرة ، ويسما هربت نساء وزوجات الأمراء بقيت ٦٥٠ امرأة بائعات من الطليقات الشعبية ثم ترحلن إلى عطبرة ، مرحلان ما يتخذن مع القردة الجنود السودانيين وكما كان ظهراً على الجميع في سعادة ومناة أسر جديدة . لم تكن هناك أي خصائر في القوة للهامة ، لكن الجاعلين فقدوا بعض الأفراد أثناء مطاردتهم للعدو ، ثم عادت القوة إلى عطبرة.

كان الثالث من أبريل هو آخر يوم للحيش في رأس المدي ، انتهت فترة الانتظار ، وحري استطلاع كامل عن قوة العدو التي تستمر في التدهور بحيث لا يجرى على الهجوم لكن في نفس الوقت تدهورت الحالة الصحية في معسكر رأس المدي. وبالرغم من أن الموقف كان على ما يرام ، لكن السردار ما كان يفتتح باستمرو الوضخ كما هو طيلة الوقت والجيش يركز نشاطه على طول العطبرة كانت كل إمداداته تصل مع خلاص من عطبرة لئلا تخمبها قوة صغيرة من المجاعة لحافة أربعة أيام هي للدة التي مستغرقها الرحلة من عطبرة إلى رأس المدي .

إن جهل الدرويش وحده هو الذي سمح باستمر هذا التدفق بدون أي اشتباك. إن محمود يملك سلاح فرسان قوي، ولذلك وإذا نظر أي شخص إلى الخريطة يتعجب كيف لم يفكر محمود في إرسال قوة على جمال النهر لتخرب سمر تلك القوافل .

كان مثل هذا النشاط سوف يضعف من قوة السردار ، إذ سوف يضطر لسحب بعض أفراد المشاة ليكونوا في حراسة القوافل وقائمات خطوط المواصلات ، كما أن تأخير اللوز كان سيؤثر على القوة أو على الأكل يؤخر حصولها ولكن لم يفعل الدرويش أي شيء من هذا القبيل. وهنا قرر القائد وضع حد لهذه العملية، فحركات كل القوافل يوم ١٤ أبريل إلى أبعاد وأقامت معسكرها على بعد ٥ أميال من مواقع العدو. لقد تعب النمر من مشاطة فريسته فوثب الوثبة الأولى نحوها .

بالرغم من وفرة المعلومات عن حجم وأحوال قوة العدو إلا أن السردار أمر باستطلاع آخر يوم ٥ أبريل .

ابتدا برودود في الراجبة صباحاً قطعاً للزوية التي يكونها بحر عطيرة مع قرية أم حايصا ، متجنباً أشجار الشوك ووصل في قرب معسكر الدراويش . ثم يشاهد أي الفراد دخلت الأشجار ، ولا توجد أي آثار للحية وكان الصمت كالملا . تحركت الفصائل حتى وصلت الى حوالي ١٢٠٠ ياردة من زرية العدو في وضع مؤثري للزربة ، هنا ظهرت لهم بعض قوات سلاح فرسان العدو ، ثم يتأكد من تعدادها الا انها بقيت كقوة كبيرة للاستطلاع . فرسان الدراويش استمروا في السير الى الجنوب الشرقي حتى كانوا بلاسون جناح الفرقة المصرية للشمال ، بينما تقدمت القوة المصرية وعند وصولها الى الجانب الجنوبي لنهاية الزريبة ، ظهرت قوة فرسان أخرى من الجانب الشمال مهددة خط تراجعهم . وفي نفس الوقت دب النشاط داخل الزريبة وشوهد أفراد كثيرون يستعدون لأخذ مواقعهم للدفاعية وهم يتابعون سير القتال . وتقرب سلاح الفرسان الى مسافة حوالي ١٠٠٠ ياردة من الزريبة . وأطلق الدراويش بعض الأعيرة ، خفيفة النيران .

راجعت فرقة سلاح الفرسان على الأوضاع بطريقة منتظمة لكن استمر فرسان الدراويش حتى كانوا يطوقون الفرقة مما يهدد باستئصال مجموعهم . ولكي يقابل هذا التهديد أرسل برودود إحدى فصائله من وسط التشكيل لتتجه للفصيلة التي يتقدمها تحت قيادة النقيب بارنج ، وهكذا كانت هناك أربع فصائل لقوة الاستطلاع في الصحراء ، اثنتان معهم مدافع واثنتان على ضفاف النهر . أخرى ضعف الجناح على النهر فرسان العدو فأسرعوا بالمحور للاستيلاء على اللدائن ، ولقد كانت حركة جريئة وذكية ولكن قابلها قائد سلاح الفرسان بمبادرة تستحق الإعجاب . كانت حركة الدبلو على بعد ٣٠٠ ياردة من الموقع هي الإلتزام الوحيد له بنية العدو ، فسلم قيادة الفصيلتين تحت إمرة برمي ولى كالياس وأمرهم بالترجع كما مع المحور .

هجمت القوة بتقدمها ضباطها البريطانيين وأسعرت بالركض نحو بحالة لبقارة ، الذي يربو عندهم على حوالي ٤٠٠ فارس ولكنها قوة مشتتة ، أبادتهم . أثناء سير هذه الحركة ، حاول بحالة الدراويش المحور مرة أخرى نحو الموقع في الجانب على الصحراء وأسرع النقيب بارنج مع فصيلتين واشتباك معهم وفرقتهم مع بعض الحماة . كان المحور جريئاً وفاعلاً ، لكنه تم بشكل غير متظلم مما سبب بعض الارتباك وسط الكتيبتين عند لقاء

الدرويش على ضفاف النهر ولسرح القصب يروس والقصب لى كاليبس وظلوا من جنودهم
الترحل من حيولهم وقصوا نزلهم على الدرويش لفرانجون، ونجح هذا التصرف ليسكن في
صد الأعداء فقط ولكنه أيضا منع اختلاط الفصائل مع تلك التي بدأت المحوم وهي في حالة
ارتباك وسوء تنظيم .

بالرغم من هزيمة فرسان الدرويش فقد استمر مشاقم في المحوم على فصائل الفرسان
التي تراجعت وتم تبادل إطلاق النيران لفترة طويلة، وجرح القصب يروس جرح كبير وأصيب
بعض الجنود، تم انسحاب كل القوة في الساعة الحادية عشرة بعد أن توقف المحوم . كانت
الحسائر وسط القوة مع حسن الخط جد بسيطة، إذ جرح ضابط بريطاني واحد وتولى ٦
مصريون وجرح عشرة، وفقدت فصائل الفرسان حوالي ٣٠ حصانا ما بين مفقود ومعال.

--- - - - -
لقد أصبح الآن المعلومات عن العدو واضحة إذا تم الحصول عليها من مصادر
موثوق بها، ووضع من تكرار قرار أفراد قوته والتميز معروفة أن الأمل له في النجاح وهذا
جاءت ساحة الخلاص عليه وتدمره .

في صباح يوم ١٦ أبريل تحرك الجيش من معسكر البدار وسار إلى قرية مهجورة اسمها
أم دابيا ومعسكر بالقرب من بركة على حر خطورة تبعد بمزالي سبعة أميال من موقع العدو .

الفصل الثاني عشر

معركة نهر عطيرة ٨ أبريل ١٨٩٨

في مساء يوم الخميس ٧ أبريل ، أقام الجيش في أم حلفيا استعداداً للهجوم على زريعة عمود ، كان المعسكر داخل الأشجار القصيرة الكثيفة التي تنمو على جفتي نهر عطيرة تماماً كذلك التي توجد عند شاطئ النيل. والاستفادة من السهل المفتوح ، تمركبت للسرايات الأربعة للمشاة يتقدمهم اللواء البريطاني نهر الصحراء على طرق متوازية ، بينما بقيت في المعسكر فرق الخيالة وبطاريات للدفع الأربعة حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي وبقيت في حالة استعدادها. إذ للسافة بين الشجيرات على ضفاف النهر والصحراء حوالي الليل ونصف ، لكن القوة استطاعت الخروج من تلك المنطقة حوالي الساعة السادسة مساء . مالت الشمس إلى الغيب وبدأ الوهج الأحمر يثب على التلال الرملية مما جعل الأفق بلا نهاية حتى لا يكاد نلره يفرق أين ينتهي الأفق وأين تبدأ السماء. كانت لمة بمجموعة من الفران في طريقها إلى مورد الماء اعتراضها تمركات القوات ، فركضت بقوة بعيداً حجارة من نقاط يضاء على سطح لون الرمال التي الوردي ، وعلى السهل الممتد وقف ١٢ ألف جندي مشاة والقون من قنوم ومتهفون للاقتال العدو ، اصطبلوا بطريقة منسقة في أربع كتل بشرية صلبة. لم بدأت المسيرة ، كانت للسافة بين المعسكر وموقع الإهداء حوالي سبعة أميال زادت بمقدار خمسة أميال أعزى نسبة لتوسيع الفتحة لكي تظن حول الأشجار وتجنب الحفنة النهر. كان سر القوة بطيء ، ولم تعد كثيراً قبل أن تغرب الشمس تماماً وبدون فاصل بين الضوء والليل ، غطي الظلام كل شيء ، وأصلت القوة في السير في مكون الليل الهادي تتقدم في هدوء لا يقطعها إلا صوت الأرجل على الرمال ، وأصلت للاقتضاض على الإهداء. ليس هناك اضطراب وأخرج من عملية حربية تتم بالليل ، كثيراً ومراراً وفي بلاد عديدة ، تعرضت للقوات التي حاولتها إلى كارثة وفناء حقيقي ، وفي حالة الاحتكام والصلابة ، يتغير شكل الأرض وتتغير ملامحها .

مناطق معروفة بالتهار تكون مجهولة تماماً بالليل لأي حادثه صغيرة تؤثر في تقدم القوة التي عليها السير ببطء وحذر شديد مع ضرورة التوقف والتراجع بين حين وآخر . تتأثر

أعصاب الأفراد يتوقع الكارثة بنفس قدر تضررها بطبيعة الأرض، إلا يسير الجنود بهبط وأدافع مرهقة لسماع أي صوت قادم وتكاد أنظارهم تحترق سائر الظلام ، وكل حادثة في النفس تنهياً لتوقع المجهول .

في مثل تلك الساعات يسيطر الخشك والخوف معا على عقل المصارع ، ويمكسر في البصر للتأمل ، هل سيمر الأمر بسلام على الجيش وعليه هو شعبنا ؟ هل هو ناج من هذا الحدث ؟ وماذا إذا قنصر هذا القصر الأسود فجأة واشتعلت طلقات الرصاص وصيحات الجنود للمهاجمين ؟ سوف يربك هذا الأمر أثبت القوات ويحولها إلى كتلة من الخلع لن يتوقف إلا بعد تدمير القوة بالكامل . كان المصوم عند القصر أمرا ملحاً حتى ينتهي القتال أثناء النهار وعليه بالرغم من الأحداث والمخاطر فإن الزحف ليلاً أمر معروف في المعارك الحربية .

هكذا استمرت القوات تتحرك لمدة ساعتين، على الرمال الناعمة التي تبديلها بعض الشجيرات والأحجار، وكانت بعض الحفران المملوءة بالأعشاب الطويلة تؤخر تقدم اللواتي حتى لا تعدو السرعة أكثر من ميلون في الساعة . كانت للأعشاب رائحة حلوة ، سوف تعيش في ذاكرة البعض كل ما جاءت ذكر انطلاقاتها تلك الليلة . النسيم الذي هب بعد غروب الشمس لطيف الجو وأثار عاصفة رملية ناعمة ، حطمت الظلام برزاز أبيض .

عند الساعة الخامسة وقف الجيش في نقطة ثم تم تحليلها مسبقاً بالقرب من قرية معلوس للمهجرة وعلى بعد ميلون من النهر . مكنا ثم قطع نصف المسافة إلى قرية محمود، ولم تسبق إلا أربعة أميال تفصلهم عنه ، ولكن نسبة لعدم الرغبة في الوصول قبل القصر سمح للقوات أن ترتاح وجلست على الأرض بنفس تشكيلاتها، ووزعت عليهم وجبة من البسكويت واللحم . وكانت قوة حراسة لمراقبة حيوانات النمل التي تسقي من النهر على غر حطيرة، لتتأثر تنوكة المياه وكذلك زمزميات المياه . بعد أن تم اقتناء قوة الحراسة ، نام الأفراد الجيش على حافة الاستعداد للقتال . ظهر القمر أثناء فترة الراحة ، وعندما استأنف السمر حوالى الساعة الواحدة صباحاً ، أظهر ضوء القمر حجم القوة الكبير وانعكس الضوء على لمعان السنج فأشاع منظرًا قريباً توجع للرايح بشوم ساطع .

استمرت القوة في السور في صمت كامل لمدة ٣ ساعات ومنع التدخين تماما . في هذه الأثناء وصلت قوات سلاح الفرسان وسلاح المشاة والدفعية وتم حشد كل القو . ونما الدريلويش بهم .

في تمام الساعة الثالثة بدأت الأتول تظهر في الجنوب ، وهكذا وصلت الأريسا إلى موقع الدريلويش ، ما عدا اللواء الاحيائي ، واصطفت اصطفاا متحوم في عطف طويل موزعة بين الشجيرات والأعشاب وبدأت تظهر على مرتفع كبير يحل على زريبة عمود من مسافة ٩٠٠ ياردة .

كان الليل مازال برحى سدوله وشبورة الضباب تلتف حول معسكر الدريلويش يستلح بينها ضوء نيران الخرساة وكان الصمت رهبا . لا يمكن لأحد أن يصدق أن أكثر من ٢٥ ألف رجل كانوا على أهبه الاستعداد للقتال على بعد نصف ميل . لم يكن التقدم بالهففى تماما فقد علم العرب أن عدوهم اللغود يتربص بهم عند المرتفع ينتظر الهلاج الفجر وتأملت الاثارة الى حين . وأستورا وبعد أن مرت خطرات ظنها البعض لما بلا نهاية ، وسجن تم اصغراق السواد الذي كان يغلف كل الأنف بأول ضوء لوقت السحر . بدأ الضوء يقوي لدرجتها ويرتفع كمتارة للمسرح ، ليذهب الظلام وتبدأ الأشكال للمهمة تتحول الى واقع ملموس وتظهر الصورة كاملة .

على طول المرتفع ظهر الجيش البريطاني للمصري كتوس عظيم ، اللواء البريطاني على الشمال ، لواء ماكثونالد في الوسط ولواء ماكسويل على اليمين وسطح التربة كله تسوج بلحمان السنج والآف الأجسام النحلة من الرجال يحملون أو يستلقون على الأرض يحملون أمامهم في فضول ، وكانت حلقهم في مربع مثلد للواصلات والامتدادات يحرصها لواء لويس . مرابا الفرسان للتقدمة ، اجندت مواقعها يتمهل على شمال التشيكل تحركات البطاريات الأربع للمدفعية ووحدة الصواريخ وتمركزت في منظمتين مناسبتين أمام الكسائب بمسوال ١٠٠ ياردة . كل شيء أصبح جاهزا ولكن ظل المرتفع هادئا ومع الصمت للصاحب لضوء الفجر ، كأنما الطبيعة تمهس انقاسها .

على بعد نصف ميل وتحت المرتفع ، ظهرت صفوف غير منتظمة من شجيرات الشوك السوداء تعلف دعاعات الدريلويش وعطف هذه الزريبة سور متعفض واستحكامات تعطي

ظهرها للنهر والشجيرات حول ضفافه. ظهرت على وسط الحلقة ظلمات من الظلمين هنا وهناك ، اظهرت مواقع للقطع وبعض الاستحكامات الأخرى .

انتظر المقاتلون في السهل للتبسط ، الذي كانت بعد إعلاسه ثلثا من الأشجار والأعشاب ، مضية الرمال الناعمة ، ووقفت وسط كل هذه بعض أكواخ القش ، يرداد تعليلها كلما نظرت جنوبا ومن بينها أشجار النخيل وعظفها يظهر بوضوح مجري نهر عطبرة الجفاف وبركة مياه واحدة تلمع مع ضوء النهار. تلك كانت هي زريبة محمود الشهيرة التي شملت فكر القوات لأكثر من شهر ، منظرها لا يوحي بأي انطباع بالقوة ، بل إن بعض الجنود ظنوها مهجورة. كان هناك دمة خيالة يجلسون على ظهور حيولهم ينظرون لعلوهم وبين الحين والآخر يظهر بعض الأفراد غيلف السور المنخفض ويختفون .

بالرغم من أن منظر الزريبة لم يكن مهابا ، إلا أن كمية النيران التي تنحدر وجبة الصباح ، التي لن يأكلها أسد ، تدل على أن هناك رجالا يحتلون الزريبة ، وكانت الأعلام الحفافة حول الاستحكامات أو على صدر للمعسكر دلالة على أن هناك فئز مسعفون للموت دفاعا عنها .

ودوت قبلة كسرت حاجز الصمت وحالة الترقب الذي القواوت ورفع الجميع رؤوسهم ناحية الصوت ، بطارية كروب على يمين الكمرون هائلندرد فحقت النيران وحاجبت دالة أنصري من ناحية اليمين وانضمرت دالة في أكواخ القش داخل أشجار النخيل ، بدأت بطاريتا مدافع الكسبم نوردن فيلد إطلاق رشاشاتهما. ونظر الضباط إلى ساحاتهما وكانت الساعة السادسة والربع ، وبدأ هجوم للنضبة .

انفجار ثلث انفجار في دفعات متتالية ، حتى اشتركت قوة الصواريخ ، دافعا تطالقت صوتا وصريرا عندما تنطلق من قواعدهما متجهة نحو الزريبة حتى ابتلأت سماء المعسكر بالدفابل واحدة ثلث الأخرى وكونت شاهدة داخل الدخان الذي ملأ الكسبان . بعد أول طلقة ، اختفى الأفراد ذوي الرداء الأبيض ، تقزوا داخل الخنادق ، وقف بعض الخيالة ليرمة وسط للمعسكر يشاهدون كثر النيران كان الأمر لا يعنيههم ووقف أفراد القوة البريطانية على أطراف أرجلهم يشاهدون منظر الحرب للثو لأول مرة ، وفي البداية تسللوا كل دالة وتفاكروا في الأثر الذي تركته ، إلى أن ضاعف للندفعية من ضرهم ، وتكاثرت الدانات في

المواء في نفس الوقت حتى أصبح للنظر يدور للملح بعد حين، قبل الضباط بظفارهم وجلسوا على الأرض مرة لعري بعضهم قد نام بالقبول وتعب البقية من متابعة للنظر المشير الذي لم يشاهدوا مظه قط وفتظروا في تلف في متابعة أحداث اتري ، لو شيء جديدة .

بعد انقضاء عشرة دقائق على انطلاق القتال : شجعت مجموعة من خيالة الدراويش تغطي جيادها وتخرج من تحتها في لمر للعسكر على الناحية اليمنى في الفسحة المفتوحة، وتظاهر الفهار من التركز فيها .

لمقاومة احتمال هجوم على الناحية الشمالية للتشكيل سارعت سرافيا للتمانية لسلاح الفرسان بالتوجه ناحية لمطرق القادم. وغطي الفهار الكثيف النتائج من حركة لمطرب كل للسلطة دلالة على كثرة عددها حتى حسبت الرؤيا امام للشاة الا ان استمرار الفهار عن ناحية الاشجار وسماح رشاش للكسيم كان يدل على اشتباك سلاح الفرسان في المعركة . امتنع فرسان البقارة من التدخل في معركة متكلفة ، اكثر من مرة شعر جنود سلاح الفرسان اهم سياتصمون في مواجهة ولكن كان رشاش للكسيم سلاحا فاعلا في صد العدو ، في كل مرة يوقع اصابات مباشرة لا تقل عن عشرين بين كتيل وحرج ، بخلاف مرة واحدة جنحت ناحية اليمين كانت بقية سرافيا سلاح الفرسان للصبرية على حمل التشكيل تحمسي للشاة ومجومهم.

في هذه الاثناء استمرت للدفعه التي ما عاد احد يشاهد نشاطها بنفس اللفظة ، استمرت في اصابة الاهداف بدقة متنامية وظلت تختار الاهداف واشتدت النيران في اكواخ القش وهدمت الزريبة والسور في اكثر من موقع. وفي تمام الساعة السابعة والربع لمرت فرقة للشاة بتكوين اصطفاك تقدم للهجوم .

كانت خطة الهجوم للعيش بسيطة، القوات التي طال حشدنا تتضمن استحكامات العدو ، بحمر نوالها القوية نيران العدو وغرسها ، وتعلم الزريبة بمخطوما كاملا لتحلل الكتل البشرية غطاء نوالها داخل الزريبة في الفتحات التي يتم تدميرها ثم تنحرف ناحية اليمين لتظهر للمنطقة من افراد العدو بالرصاص او السلاح الابيض .

في تمام الساعة الثامنة الا ثلث ، امر السردار البورجي بحرف نداء التقدم العام وقد رددته كل الوحدات وظهر النداء واضحا حتى غطي على صوت المدافع . كسل الضباط

رؤوساء الوحدات تجلبوا وأعطوا مراقبتهم أمام وحلقهم ما عدا القواد حتر ، ماكسويل وماكدونالد .

نحرت كل كتل للشاة بما يقدر بأحد عشر ألف مقاتل نحو الزريبة ، كان مظهر القنوت وهي نزل من على المرتفع على شكل حلال رافع ومعيب ، كتل بشرية في صفوف مزدوجة وبطابور منظم تتقدمها شعاراتها وأعلامها تتقدم للالتحام . موسيقى للقرب التابعة للهايلندرز اعتنقت مع موسيقى السودانيين وطول الفرقة الانجليزية لتعطي إحساسا مسرورا للحماس ، بمجرد أن تغطي المجرى مواقع للدفع ، تحرك هذه إلى الأمام لتشارك مسانده المجرى . وتحت فرق للشاة نزلها بدون توقف على الاستحكامات مما جعل الخطوة بطيئة لوعا ما .

بقي الدراويش صليحين إلى أن وصلت القنوت إلى ٣٠٠ ياردة فبدأ القنار الرصاص من عند السياج للنبح تاركا الدخان يصاعد من على طول السياج ، يزداد إطلاق الرصاص بصورة تدريجية حتى تعرضت قوات الشاة عند مسافة ٢٥٠ ياردة إلى نيران مركزة حامية وفعالة وبدأت تنساق الخسائر . غطت النيران والدخان كل الاستحكامات وجعلها بذلك الدراويش ظهوروا للعيان وهم يتعاملون مع كتل للشاة المتقدمة ، ظهر خلفهم مئات من حملة السيوف والخرايف .

كانت هناك روبة أمام فرقة لينكون استطاعت أن تحميها ولكن بدأ الجنود بمساقطون من بين كتفي الهايلندرز . كان الجرح مشحون بأصوات الرصاص للثمن ، الذي يثر القنار أو يحدث أصواتا عند الاصطدام ، بدأت طلقات العرب تملأ من نفسها بتشكل فعال ، حتى غطي صوت الرصاص على صوت الانفجار ، بدأت كل كتل للشاة المهاجمة في تلقي الخسائر ولكنها هي والفرقة المتقدمة لم تنزل أو تتراجع رغم صرعة النيران ، سبل جوارف من الرجال غير مائلين أو جالسين ولا يمكن مقاومتهم . لمسافة ٢٠٠ ياردة من الاستحكامات و ١٥٠ ياردة من زريبة الشوك بدأ إطلاق النار ، مستقر ، ولكنه على طول الخط من بدايته لنهايته .

استمرت الفرقة البريطانية والسودانية في إطلاق النار باستمرار لكن دون عجلة أو ارتباط واستمر تقدم القوة بلا مهالة أو شفقة ، وكان واضحا بالرغم من شدة نيران العدو التي بدأت تحدث خسائر كثيرة في الأرواح ، أن الهجوم سيكون ناجحا . كانت الحسائر عند التقاط الزرية والهجوم على الاستحكامات كبيرة ومؤثرة . فقد أصيب النقيب فيشلي والرائد لوكوهارت من فرقة الكمرون هيليندرز إصابات مميتة وفقدت روحاهما وهما يشقان من أثر جراحهم ويختلفان على القتال . وأصيب الرائد نابو من نفس الفرقة والنقيب بيلي من السي غورث هيليندرز وتوفي في وقت لاحق متأثرين بجراحهما ، على مسافة باردة قليلة . لكن استطاعت جموع المشاة كسر السياج في كل موقع ودخلت قلب المعسكر ، خلف السياج ظهرت عتاد ثلثة واعتزلت كل مساحة للمنطقة الداخلية بالحفر والعتاد الطولية التي يشغلها آلاف الدراويش الذين كانوا يحاولون باستمالة ان تكون جبهة أمام الهجوم . قتل الملازم جور ضابط صغير حديث الصرح من سائلهوست ، بسين زرية الشوك والسياج وأصيب ضابط آخرون من فرقة الليكون وورويك شير إصابات خطيرة وقتل جنود كثيرون وجرح آخرون في المكان الضيق . كانت هناك إصابات مماثلة لدى اللوات للهاجمة . في زمن الدقائق الخمس التي استغرقها التقدم الزرية بلغت السجلات حوالي ٤٠٠ قتيل ، واستمر القتال .

التحم اللواء البريطاني الجانب الشمال للزرية وهو يطلق النيران القوية على طول خط للواجهة حتى جرفت أفراد قوة الدراويش أمامها واعتزلت المساحة بعشهم . وبالرغم من التقاء الخطوط الهجومية لا يسمح إلا لنصف اللواء بالتقدم ، إلا أن اللواء بكامله استمر في التقدم ، وقد أعطى قائد الفرق بالوضع وارتفع الضباط لمستوي الموقف ونظم كل قائد فرقته بمسح تسمى موقعها مع المجموعة دون فقدان للنظام ، يدفع بها كلما ظهر فراغ بين الخطوط وكل ما اتسع للفراغ في الخطوط الأمامية وانقضت القوة بالكامل ، الفرق ، الكتائب وحسب اللوات اتحدت كتوة ضاربة تتقدم ناحية النهر تلزم الأعداء أمامها وهم لا حول ولا قوة لهم وفي حالة ذمول تام . ومع كل بالرغم من فشل الدراويش في تكوين خط مواجهة لصد الهجوم إلا أنهم لم يفروا . صمد الكثيرون يطلقون رصاص بنادقهم الى النهاية بكل شجاعة ، حارب البعض بالسيوف والخناجر . الغالية منهم تراجعوا وهم يقاتلون إما للجزء الى الخنادق

أو يسرون على السهل ، يلتفون ويطلقوا رصاص يتألفهم أكثر من مرة . تعرضت الفرقة السودانية السادسة للقوة عنيفة بعد اجتياز الدفاعات ، حيث واجهت قوة صغيرة داخل الزرية كانت معدة لقوات حرس الأمير محمود ، إذ أطلق هؤلاء مجموعات متتالية على وسط الفرقة السودانية وألحقت بها إصابات مباشرة قاتلة حتى كادت تبقى الفرقة بأكملها ، وسقط الجنود وعم على هيئة التشكيل ، حتى صاح ضابط إنجليزي فيهم " ماذا كنتم فاعلون ، تستلقون على الأرض ؟ " وبلا مبالاة لما حدث لأفرادها ، استمرت الفرق بقيادة عقيدهم ومساندة الفرقة السودانية الخامسة في الهجوم على تلك الزرية حتى ذهبوا للدفاع عن حشائها لآخر رجل .

وقد تم أسر الأمير محمود نفسه - الذي كان قد ، لجأ إلى أحد الاستحكامات التي بنت حصنها له بعد أن لقي ترتيبات دفاعاته . لقد تم إضرابه منها ، وما إن تعرف عليه البعض حتى كانوا يعتقدون به لولا أن تدخل ضابط بريطاني وقلده من ثورة السودانيين للمحمدين .

استمر التقدم والهجوم وكان هؤلاء الذين اشتركوا فيه أشبه بكابوس مرعب أكثر منه حقيقة واقعة . التهاب والضباط الصغار ، جمعوا ما تيسر لهم من مقاتلين بصرف النظر عن الجنس أو الزرية وجاهدوا لتحكم في إطلاقهم للنيران ، وكلما ذهب لابسو الجلب وأطلقوا النار أو هجموا ، تم التصدي لهم وأخذوا في كل مرة لآخر رجل . وبسرع الزحف فسوق أحسادهم ، فوق الخنادق المليئة بالجثث والمضربين ، وبين كتل من الجبال والحجر المنزقة الأشلاء مبعثرة الأطراف بارزة الأحشاء ، وتحيمة لثقل اللدغة الوحشية كان هنالك عشرات القتلى والجرحى من النساء والأطفال ، والنسوة اللائي لم يصبن ينصرعن في رعب للرحمة ، والرجال سود مقيدون بالسلاسل داخل الخنادق ، قتلوا وهم لا يزالون في الأضلال ، وكان الجيش للتصحر يتقدم ، دائما للأمام والدماء تقطر من سنج يتألفهم ، ملابسهم أباديهم ووجوههم ملطخة بالطين والتراب ، تملأ الروائح الكريهة خيامهم فوقهم ، وتصفر الطلقات حول أذانهم .

وصلت كل القوة لشاطئ غر عطوة في تمام الساعة الثامنة وثلث تقريبا فرقة سي مورس هابلدنز ، بعد أن دمرت للمسكرين فيه ، إما طعنا بالسج أو رميا بالرصاص ،

كان هناك مئات الدرويش يترجمون إلى المشجرات في الجانب الآخر للنهر ، ضمت فرق
 السي فورس هابندرز وليتكون وما وجد من فرق الكمرون نيران بتأديهم على تلك
 المجموعة ، حقيقة لهم لا يفرون قد جعلت عساكرهم كبيرة . وكان منظر غريباً ، آخر
 انطباع لليوم ، أن تشاهدوهم يصارعون القوات بين سحب من الغبار كثرة طلقات الرصاص
 من حولهم ، لم ينج إلا القليل وانتشرت حث موتاهم ملأ مجرى النهر الجفاف ، في تمام
 الساعة الثامنة وخمسة وعشرين دقيقة جاء قلم وقف إطلاق النار ، وبذلك انتهت معركة غر
 عطيرة .

بدأت الكتاب إعادة التشكيل وتصاد الأفراد ، كانت الخسائر حسيمة . في مجموع لم
 يستمر أكثر من نصف ساعة ، قتل ١٨ ضابطاً برطانيا ، ١٦ ضابطاً ألمانيا و ٥٢٥ جندياً
 بين قليل وجريح ، أكبر الخسائر كانت عند عبور الزريبة .

لم تتواصل ملاحقة العدو . الكتيبتان تحت إمرة لويس عند اجتماعها للجبهة الجنوبي
 للزريبة وجدت بعض الدرويش يترجمون جعل المشجرات قبل شاطئ النهر وأطلقت
 عليهم الرصاص . كل سلاح الفرسان وفرقة المشاة حوت النهر ولوخلت في منطقة ذات
 أشجار كثيفة وميوان وحفر مما جعل من مهمة المطاردة أمراً صعباً ، وبعد أن قطعت ثلاثة
 أميال أمت المطاردة ، واستطاع العرب التراجع بسلام . كان فرسان البقارة ، بقيادة القائد
 الهنك عثمان دقة في موقع يسمح له بالتفوق واستطاعت التراجع بأقل الخسائر . أما باقي
 الجيش إما قتل أفراد أو تشتتوا . هرب بعضهم على طول نهر عطيرة جنوباً تاركين الجرحى
 لمصيرهم المحتوم على طول خط التراجع . لم يبق من جيش محمود القوي المكون من ١٢ ألف
 مقاتل ، سوى ٤ آلاف وصلوا القضاوف بسلام ، أضيفوا لقوات أحمد فضيل وبذلك لم
 يذهبوا إلى أم درمان لينشروا الأخبار للروحة بين سكان العاصمة ، بينما رجع عثمان دقة
 وود بشارة وبعض الأمراء الذين لا يشك في ولائهم إلى أم درمان ، بدون مرافق .

بعد أن تم تكوين الفرق لمخيل الزريبة من القوات وتحركت القوة إلى مرتفع يستقر
 من المنطقة وكانت وقتها الساعة السابعة صباحاً فحصب ، وكان الهواء برداً ومعتشاً . أوقد
 الجنود النيران وحضروا لشاي ثم مرقت لهم العصينات من السيكويت واللحم ، بعد أن
 تناولوا الوجبة ، استلقوا على الأرض في انتظار السماء لزدادت حرارة الشمس مع مرور

الوقت، وليس هناك أي ظل سوى الشجيرات الصغيرة، واستمرت الحرارة وأشعة الشمس
تغرق حتى البلاد بالرغم من الموسم، وكانت ساحات النهار مخضية ببطء وثقل . تعكس
الرمال على المرتفع أشعة الشمس فتحول إلى قرون ملتهب والأرض إلى رمال عروقية .
حتى الماء داخل القناتير والقنوات كان حاراً وتغيراً ، فبك في المطر الذي أصبحت ملوثة
وكريهة بالرغم من تغليض ضباط السلاح الطبي الذين سمح لهم بحرق القوة ، إلا أن المعاناة
بالنسبة للضباط والجنود البحري كانت رهبة وأن البعض قد توفي متأثراً بجراحه، وربما
كانت ستكتب لهم الشهادة لو وجدوا في ظروف تحفظ عن تلك الظروف .

مئات الأفراد تم أسرهم ، كان أغلبهم من الفوج والقوات السوداء ، لأن العرب
رفضوا الاستسلام إما حاربوا حتى النهاية أو تراجعوا . كانت هذه الفترة السوداء على
استعداد للقتال مع أي جانب لذلك تم استعمالهم مع الفرقة السودانية ، وهكذا فإن اللهب
حاربوا إلى جانب الخليفة ، سوف يحاربون كدحره في أم درمان . كان أهم شخص هو الأمر
محمود ، وهو عربي طويل القامة قوي الهياكل عمره حوالي ثلاثين عاماً ، اقتيد إلى السودان
بمحرمه أن وقع في الأسر .

يهاجر السوداني محمود بالسؤال ، لماذا أتيت إلى بلادي ترقى وتقتل؟؟ أنا أطبع
الأوامر "كانت الإجابة" - وهكذا أنت أيضاً رد الأسر بذلك لا تظن من الكرمة . كانت
إجاباته مختصرة أو مروعة وقال له إنه سوف يدفع ثمن هذه اللوحة ، عندما يواجه القسوة في
أم درمان . كان نموذجاً جيداً لشموخ القسوة ، وكان ربما يستحق مصيراً أكرم من أن يلقى
عمره في سجن رشيد .

ما إن جاء للساء حتى فركت القوات سرير العطب ورجعت إلى أم دهبية، وكانت
العودة تجربة قاسية والقوات منهكة في طريق الذهاب، وكانت الفرقة تحمل البحري اللهب
بدأوا يعانون من الحمى وكانت ألامهم لا تحتمل ، لم تصل القوة إلى المسمى إلا عند
منتصف الليل. ظل أفراد القوة تحت السلاح في المطر والسر والعارك وفي الشمس الحارقة
لاكثر من ثلاثين ساعة لم يمتص لهم جفن ليومين كاملين . جاهد الضباط والجنود
البريطانيون ، السودانيون والمصريون أثناء فترة الراحة وراحوا في نوم عميق ، منهارين مس
التمس لكنهم متصرفون .

كانت جملة الخسائر المبركة عظيمة كما يلي :

الملازم الأمير طاهر

ضابط بريطانيون قتلوا أو توفوا متأثرين بجراحهم (٥)

الرائد أ. ر. اف . تايور فرقة الكومون هابلندرز

الرائد بي . سي . لوكهارد فرقة الكومون هابلندرز

نقيب سي . فنتلي لوكهارد فرقة الكومون هابلندرز

نقيب أ . س . بيلي فرقة سي فورس هابلندرز

ملازم ثاني . بي . فور فرقة سي فورس هابلندرز

ضابط جرحي بريطانيون (A)

ملازم أم . جرين فرقة روكسو للكمية

عقيد . بي . أي . ليدز فرقة لينكون شهر

ملازم اتشي . بوكسر فرقة لينكون شهر

ملازم . س . ج . بياني فرقة لينكون شهر

عقيد . ار . اتش . موري فرقة فورس هابلندرز

نقيب . سي . ماك لانغلان فرقة فورس هابلندرز

ملازم . لو . اس . فاندولر فرقة فورس هابلندرز

ملازم . ان . أ . تومسون فرقة فورس هابلندرز

اسم الفرقة	كامل	جرح	المجموع
ضابط	ضابط	ضابط	ضابط
ورور كشر	-	٢	١٤
لينكون شهر	-	١	١٣
سي فوري هابلندرز	١	٥	٢٣
كامبروني هابلندرز	٢	١٣	٦٠
خدمات الجيش	-	-	١
المجموع	٣	٢١	١٢٥

الجيش المصري

ضباط بريطانيون جرحوا (٥)

تقيب أنثشي موسى : الحرس دولقون الثانية والجيش المصري

تقيب سي وول : لواء الهنادق والجيش المصري

رائد أبك مارلي : د . أس . أو القوة الثانية والجيش المصري

رائد أنثشي بي شيكلون : سالوس لا تكشير والجيش المصري

تقيب إف ولتر : لا تكشير في فليفلز والجيش المصري

ضباط بريطانيون احتياطي - ٢ جرحي

القوة الأهلية

سلاح الفرسان ٦ قتل ١٢ جريح

سلاح المشاة - ٢ جريح

سلاح المدرعة ٣ قتل ١٥ جريح

سلاح المشاة :

لواء ماكسويل : قتل جريح

الثامنة المصرية ١ -

المخيم السودانية ٤ ٤٠

الثامنة السودانية ٦ ٥٢

الرابعة عشر السودانية ٦ ٦١

لواء ماكنتونالد : قتل جريح

الثانية المصرية ٧ ٥

الرابعة السودانية ٧ ٦١

الخامسة السودانية ٦ ٣٧

السادسة السودانية ١٧ ٧٨

لواء لويس :	قتل	جريح
الثالثة المصرية	-	٥
الرابعة المصرية	-	-
المساحة المصرية	-	٣

المجموع ٥٦ ٣٧١

المجموع الكلي ، كل الرتب بريطانيون ومصريون : ٢٠ ضابطا بريطانيا و ٥٣٩ رجلا
عساكر الدراويش قدرت رسميا ، ٤٠ أميرا و ٣٠٠٠ مقاتل لم تكن هناك إحصائية بعد
الجرحي .

ولأن معركة عظيمة كانت معركة حاسمة ، وزعت القوات بعدها الى راحة صفيحة ،
ووزع الجيش المصري على ثلاث حقبات رئيسية ، ٤ كتائب لمطيرة ، ٦ كتائب مع
الفرسان لوبر و ٣ كتائب للصيد . وزعت فلولاصلات والدفعه بنسب متساوية . اللسواء
البريطاني كتيبتان في دارمالي وكتيبتان في سليم على بعد ميل ونصف الليل من بعضهما .
طلبت ٣ بواخر جديدة من الميناء للمرحلة الأخيرة من الحملة أرسلت على أجزاء من
طريق سكة حديد الصحراء . كل الإحراجات اللازمة تم القيام بها من قبل ضباط الحفظ بحمة
وكفاءة وركنت العربات التي تحمل الشحنة القوية الى خط جاني ووصل السردار بنفسه
لباشر عملية تركيب البواخر في الميدان ، هذه البواخر التي سوف يعتمد عليها كسوا .
وفي كل الصيف يراقب بناء البواخر الحربية بنفق خطه ، ينتظر ارتفاع مياه النهر لكي
يحقق اسقاط دولة أعدائه ، دولة الدراويش .

الفصل الثالث عشر

الزحف الكبير .

انقضت، كل شهور الصيف الأول في التحضيرات للزحف الكبير النهائي. طلب لسواء بريطاني نان لتوجه إلى السودان، بطارية جنديّة للدفع الملوّتر ٣٧ التي تقلد دانات وحمية ومخمرات مكونة من اللاديت اللادة الحارقة أرسلت من إنجلترا . أرسل مدفعان كيوان ٤٠ رطل من القاهرة، سحزت فرقة من أربعة مدافع مكسيم في القاهرة من رجال الفرقة الأيرلندية الملكية بقيادة ثلاثة بواتر مسلحة من أكبر الأحجام ونيران قوية ، وصلت على أجزاء، وتختفي فقط على خط سلك حديد الصحراء ، تبحر الآن في مياه النيل المفتوحة بعد معسكر عطية . وأمسوا ولهم أعرا تم إرسال فرقة الأنصر ٢١* (الرمحة) لتنضم للحملة في النيل ، تلاشت الأحداث بسرعة مزحلة . بعد ثلاثة أسابيع فقط من وصول الإمدادات كانت ذروة الحرب قد انتهت ، وبعد خمسة أسابيع كانت اللواتي البريطانية راجعة في طريق العودة للوطن . لم يكن هناك أي تدمير وحرق قبل وصول اللواء الثاني بأكمله ، قد تم إرسال بعض كتابته إلى ود حامد ، نقطة التمرركز الجديدة .

بعد ود حامد أميال قليلة من خلال السيلوفة، وعلى بعد ٥٨ ميلا فقط من أم دورمان. تأكد أن الملحظة الخامسة خلال السنوات الثلاث الماضية قد كانت تم استعمال البواتر لترحيل للوطنين ، مشاة الفرقة البريطانية، المدفعية والمخترن، مع استعمال صنادل ، إلى الجنوب ، جنوب للمعسكر الكبير في عطية ، اللواتي المصرية سارت إلى ودحامد عن طريق البر . أرسلت جيول البطاريات وحيوانات النقل للقوة البريطانية (عدد ماحوال ٤٠٠ رأس)، مساعدو الضباط، بعض الأبقار ، وأغلب المرسلين للصحة تم إرسالهم على الشاطئ الشمالي للنهر ، تحت حماية فرقة الثلاث ٢١ (الرمحة) ، مسربين ومراقبين و٢٠ مدافع مكسيم .

بقيت السرايا الـ ١٢ ثلاثة أيام في ودحامد كانت فرصة طيبة بعد عشاء السفر لالتقاط الانعاس وزيارات الفرقة الأخرى ، الأمر الشائع في مثل غير تلك الظروف ثم كتابة

* كان المؤلف قرة من هذه الفرقة أثناء الزحف النهائي على أم دورمان ، ومن هذا الواقع حصل الأحداث في الأجزاء اللاحقة ككتابته.

الجوابات. هذه الأخيرة ، كتابة للجوابات مهمة لأنه أصبح واضحاً الآن ، سوف لا تكون هناك اتصالات أو وسائل مع مصر أو أوروبا إلى ما بعد الانتهاء من الحركة الفاصلة .

لترتيب هذه الفترة أيضاً بسبب آخر ، أن للعسكر الجديد يستحق التسامح . أقوم للعسكر بشكل طولي ، على طول شاطئ النيل على مسافة ميلين ، يوم الليل دفاعاته من الشرق . للناسفة الغربية والجنوبية ملوفا أشجار الشوك ، قطع بعضها لعمل الزريعة ، أما الواجهة الشمالية يومها يجري حور عميق يساعد النهر في تصريف المياه من شاطئ هلال النور تستطيع أن تشاهد للعسكر كله . في أقصى النهاية الجنوبية تشاهد الجبال البيضاء مصر الفرقة البريطانية ، ثم تشاهد بعد ذلك أكواخ القش وبعض خيام من البطاطين مصر الفرقة المصرية والسودانية ، ثم حمة المردلو البيضاء الكبيرة يرغف عليها العلم المصري بلونه الأحمر في لحظة موعلي المدين حيث أشجار النخيل ، عسكر سلاح الفرسان المصري . ابتداء شاطئ النيل على طوله بغاية من الصواري ، مجموعات من للراكب الشراعية ، الصنادل والبواخر رأسية قرية من بعضها إن للظهر العام والمدافع للباخرة توحى للناظر بأنه أمام ميناء مدينة أهلة بالسكان كأي مدينة في بلد متقدم ومتحضر . تصاطم الصورة والرؤى عندما يسبق العقل النظر إلى ما بعد التلال المنخفضة وشلال المسلوقة إلى حيث غرايات لخرطوم ومدينة أم درمان . كان من المعروف أن الخليفة قد حشد ٥٠ ألف مقاتل في آخر منطقة حصينة لديه . يمكننا أن نحيل مدى الإثارة والشجاعة التي تملأ العاصمة المهددة بالقلب . أهل الخليفة أنه سوف يحطم الغازين الوقفاء وقد ظهر له للمهدي في المنام وطمأنه أن جيوشا من الملائكة سوف تحارب معه ومع جيوش الإسلام . سوف يفتح أعداء الله وسوف تنتشر عظمتهم البيضاء على السهل المربض . كان الظاهر بلا حيلولة وكم قسما قد أعلن له إزالة الكفار للكلاب عند وصولهم للمدينة امتلاك شوارع المدينة بمحافل الرجال وأصواتهم العالية ، كل التحضيرات تجري بكل التحدي ، وبالرغم من ذلك كانت سحابة نخوف السوداء عاتقة فوق الهواء خربا قريبا يرون هذا الجيش كنعان ضخم ، يتحرك ببطء ولكنه دائما متقدم . كان قبل أسبوع على مسافة ٦٠ ميلا الآن على بعد ٥٠ ميلا ، في الأسبوع القادم ستكون المسافة بالكاد عشرين ميلا سوف تقصير القنوت عن بعضها ومهما كان من أمر فإن النهاية المحتومة لابد للخدمة .

كان الطريق للمعسكر القادم طويلا ، فإن المسافة لجزيرة الرويان التي اختبرت للمعسكر تبعد مائة أميال بالطريق المباشر إلا أنه كان من الضروري تفادي المرتفعات حول شلال السيلوة ، بالاتجاه نحو الصحراء والسير ثمانية أميال قبل الرجوع بينما عمو للتهر مرة أخرى . وافقت للشاه بعض الجمال تحمل المياه على قناطر حديد صغيرة ، واستطاعت أن تقطع الرحلة في نصف الطريق وتواصل سورها اليوم للتأليل .

القوة الراكبة التي بقيت في ودحامد حتى غادرت كل القوة ، أغمرت بالتحرك يوم ٢٧ أغسطس حتى تلحق بباقي الجيش .

ودحامد احتضت الآن إلا ١٥٠ ، تم ترحيل للعازن وتواصلات بالمر والنهر إلى جنوب السيلوة حيث أقيمت قاعدة حول جزيرة الرويان أنهت كل الاتصالات مع معسكر عطيرة والقاهرة وحملت القوة معها بالوالمتر كميات من اللون تكفي لملء معركة أم درمان على أن ترجع اللوانيات البريطانية فور انتهاء المعارك . قدر أن العملية لن تستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع ، صرف للجيش ثمانية يوم ٢٧ تكفي لواحد وخمسين يوما ، حملت هي ما يكفي لبومين ، ثمانية هـ أيام على صنادل الفرقة ، وثمانية ١٤ يوما على بواخر للاتصالات للجيش وما تبقى من مؤن تم تخزينه في الرويان وأقيمت فيها مستشفى ميدان . كانت قوة الحملة التي تم حشدتها وتسليحها وإعدادها للمعركة الفاصلة لحرب النهر تتكون من الأسلحة الآتية :

لتفادى العلم : المرحل

القوة البريطانية - تحت قيادة كاتاكوي

الواء الأول

المرحل العلم : ووشهوب:

الكتيبة الأولى فرقة وروكشم للكتيبة.

الكتيبة الأولى فرقة ليتكون شو.

الكتيبة الأولى سي فورس ها يفتدريز.

الكتيبة الأولى فرقة كامرون ها يفتدريز.

القوة المصرية تحت قيادة الجبرال هتر

الواء الأول

العقيد مأكونالند

الثانية المصرية

الرابعة السودانية.

الحامسة السودانية.

السادسة السودانية .

الواء الثاني

العقيد ماكسويل

الثامنة المصرية

الثانية عشرة السودانية.

الثالثة عشرة السودانية.

الرابعة عشرة السودانية .

الواء الثالث

العقيد لويس

الثالثة المصرية

الرابعة المصرية.

السادسة المصرية.

الحامسة عشر المصرية .

الواء الرابع

العقيد كولنسون

المصرية الاولى

تصلب للمصرية الحامسة.

المصرية السابعة عشر.

المصرية الثامنة عشر.

الواء الثاني

المرحل العلم : ليتون

الكتيبة الأولى فرقة حرس البحر ديو.

الكتيبة الأولى فرقة بيادة نورث همب لاند.

الكتيبة الثانية فرقة بيادة لانكشير .

الكتيبة الثالثة فرقة لواء البنادق.

سلاح المشاة

تحت قيادة العقيد لونج

بريطانية :-

٣٢ بطارية ميدان مع مدفعين ٤٠ وطلا ٨-٨ ملقح.

٣٧ بطارية ميدان ٥ بوصة هلو ترووز - ٦ ملقح .

مصرية :-

بطارية المحول أو أكروب -

٦ مدافع .

- الفرقة الأولى بطارية ميدان مكسيم نوردين فيلر ٦ مدافع .
- الفرقة الثانية بطارية ميدان أ. ٦ مدافع .
- الفرقة الثالثة بطارية ميدان أ. ٦ مدافع .
- الفرقة الرابعة بطارية ميدان أ. ٦ مدافع .

دعاشات (مشين قن)

بريطانية :-

- الفصل ١٦ الفرقة الشرقية أ ٦ مدافع مكسيم .
- الفصل الأيرلندية الملكية زيادة ٤ مدافع مكسيم .

المصرية :-

- ٢ مدافع مكسيم لكل فرقة من الفرق الخمس ١٠ مدافع مكسيم .

ملاح المهندسين

فصل من فرقة للمهندسين الملكية

الأسطول النهري

بقيادة قومندان كينل (الجنرال)

بواخر مسلحة موديل ١٨٩٨ ٣-٣

- سلطان تحمل كل واحدة :

- ميلك ٢ مدافع نوردين فيلر

- شيخ ١ مدافع سريع الطلقات ١٢ رطلا

١ مدفع هاوتزر

٤ مدافع مكسيم

بواخر بوزلاب مسلحة موديل ١٨٩٨ ٣-٣

تحمل كل باخرة :-

ناصر ١ مدافع سريع الطلقات ١٢ رطلا

- يظهر ٢ مدفع ٦ أرطال

٤ مدافع مكسيم .

بواخر قذيفة رولاب عسلعة ٤

- للناس تحمل كل باخرة

* - الحفر ١ مدفع ١٢ رطلا

- أبو كيلي . ٤ مدافع مكسيم نوردن في

٥ بواخر مواصلات

دال - حكاشة - الطاهرة - حكمة - كيبار

القوة الكاملة للحملة تكونت من ٨٢٠٠ بريطاني ١٧٦٠٠ جندي جيش مصري

مع ٤ مدفعا ٢٠ مدافع مكسيم في البحر مع ٢٥٢٤ رجل ٢٢٩ حمارا بالإضافة للمراقبين

وحيو النظم ، حملة حطمت ... الخ .

بينما يزحف الجيش غرب النيل ، الجهة التي تقع عندها أم درمان ، تكونت قوة من

الأعراب الأصيلة بقوة غير نظامية وتحركت شرق النيل لتظهر أي قوة درويش تكون

موجودة ، وهكذا فإن بالقوة التي حطمتها القوات المصرية ، تساق الآن المحاربة للدولة

للمهارة .

منحرفون للسلب والنهب وحريصون ليكونوا مع الجانب الكسبان ؛ هرع شيوخ

وأمرأ من قبائل كثيرة مع ما تركته لهم الحروب الطويلة ، بل ودحاند . في يوم ٢٦

أغسطس تكت القوة غير النظامية من ٢٥٠٠ رجل أغلبهم من قبيلة البطحين الذين نجحوا ،

وأفراد من قبائل البشارين يمددونه من موانئ الشكربة مربي الجمال من البطحين الذين

عانوا كثيرا على أيدي الخليفة ، من الشايقة حلفاء خردون للصين ، وبعض من قبيلة

الجبلاب بقيادة ابن الزبير باشا الشهير . أعطيت قيادة هذه القوة للقوة إلى الرائد ستوارت

ورتل على أن يرافقه اللازم وود كاركان حرب . كان وجود هؤلاء الصابط وسط هذه

الزمرة من الأعراب غير الموثوق فيهم نفرا للخطر .

عندما كانت قوات الخشة تسير حول مرتفعات السيلوة نزلت البواخر وعدت مصيبي

شلال السيلوة ساحية علقها كل الصنادل والراكب الشراعية . كانت حماية المنطقة الشمالية

للشلال عروسة بحجم طولي ألفي قدم الآن عالية جدا. أن تصحب الدروبش منها. كلت الطابيات قوية ووضعت باثقال على الجانب الغربي وواحدة على الجانب الشرقي كل طابية بها ثلاث فتحات للمنفذ وكانت وكان مقصود أن تكون مانعا رهيبا للبلدع عن البحر الضيق إذ تم استخدامها .

دخلت البواخر واحدة خلف الأخرى إلى المضيق . النيل تحت المسافة ميل مضيق لمسافة ٢٠٠ ياردة حيث توجد سرعة للمياه ، هنا تظهر حجارة سوداء طويلة كالها حجارة مسن البازلت ترتفع وتخفض على سطح النهر ثم للمياه القدرة بصوت مسموع وفي شكل زبد أبيض كلما ارتطمت مع الحجارة القريبة من السطح . تمر بعض الأشجار والأحشاب من عند المرتفع إلى حافة الشلال وتكون منظرا رائعا بالمقارنة مع لون المياه البس والاحجار السوداء . إنه بحر رهيب ، بعض حلة البنادق على المرتفع وبعض للبلدع في الطابيات وبفضل الباب دائما .

تحركت القوات الراكبة فجر يوم ٢٧ غاربة في الصحراء من وحيد وهي تمر الشلال الحجرية بجانب فرقة الثلاثس ٢١ وتبع سرايا للحملة المصرية من سلاح الفرسان ضم الطابور ٨٠٠ من فرقة المجاعة القوية ، وطلقة مدغية الجيول .

كان منظرنا فريدا أن ترى الجيول والجمال وهي تركض في الرمال بنفس تشكلاها ، من فرق وسرايا تاركة حاصفة من القبار خلفها متجهة ناحية الشمال .

كانت القوات السودانية التي كانت أول من وصل موقع للمسكر والقاعدة الجبلية في جزيرة الرويان قد انتهت من بناء التورية ونظافة الأرض ، ثم إنشاء مخزن للمون والحصاة وأيضا مستشفى ميدان من الخيام البيضاء ووراءها خلية من مولوى للراكب وشراهاها . كانت الصنادل والراكب الحملة للإمدادات في انتظار القوات التي كان عليها أن تسيرح ويخمد لها ملجأ من حرولة الشمس الحارقة . تلال السباوقة السوداء التي شيد للمسكر حوصا ولحقها كانت ترقد خلفنا . جنوب هذه المنطقة يقع سهل منسط علىء بالشجيرات الصغيرة تظهر من حين لآخر بعض مرتفعات حجرية تقطع رتابة السهل .

الليل لذلك يجري مسرعا بجانب النيام والمخزون ويحظى بطريقة غامضة داخل الشلال،
ويظهر على الجانب الآخر جبل عظيم ، جبل الرويان والذي يقال يمكن أن تشاهد الخرطوم
من أعلى قمة فيه .

ترك الجيش كله معسكر الرويان يوم ٢٨ أغسطس في حوالي الرابعة عصرا وسار حتى
وصل وادي العبد على مسافة ٦ أميال جنوبا وصلنا الآن إلى منطقة مفتوحة يمكن أن يتحول
مها الجيش إلى تشكيل قتال، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يمكن للمرء مشاهدة كبل
وحدات الجيش مجتمعة، للشاة ، الفرمان ، والدغية كلها زاحفة .

في الفراء الطليق تبدأ تفاصيل الصورة مدعشة كانت هناك ٦ لوائح مكونة من ٢٤
كتيبة من المشاة ، ومع ذلك كانت كل كتيبة ظاهرة للعيان تتكون من أحجام صغيرة،
أرسل لواء من الفرقة السودانية إلى الموقع للحراسة ضد أي تمديد للقوات حتى يتم بناء
الزريبة . استطاع أحد أفراد الفيلووش أن يمنحني هؤلاء ومع مذهب الشمس وصل حتى
مكان فرقة روكشير ورمى عليهم حريته في تحد ساغر والعجب في الأمر أن عنصر المفاجأة
ألهم الجميع واستطاع ذلك الفارس للفوار أن يثقل بعمله وفر بسلام .

يوم ٢٩ بقيت القوات والقة في موقع قبالة لم طريف فرقة الفرمان للصبرية هي التي
ذهبت للاستطلاع والاستكشاف ، عاد العقيد برودود بعد أن كشفوا المنطقة لمسافة ٨-٩
أميال ولم يجد أي مكان مناسب للمعسكر .

أثناء ذلك التهاوى جاءت الأخبار بكارنتين على النيل واحدة نخسنا والأخرى تمس
العدو . في يوم ٢٨ أبحرت الباعرة المسلحة للظافر من القاعدة في عطوة في طريقها لتعبدة
شلال السبلوقة وبلوخ ودمساد . فضاء دخلها ليلاء وبالرغم من كل المحاولات لإنقاذها
انقلبت على رأسها وخرقت في ليلاء العميقة قرب الشاة . الرجال الذين كانوا على ظهرها
ومعهم القومندان كيبيل قائد الأسطول النهري استطاعوا بعد جهد الوصول إلى الشاساطي
حيث وجدوا بعد حين يعاقبون من العود والجرع . ثلثا عشية الهجوم على دنقلا ، سوء
الطالع لارمها هذه المرة أيضا . وصلت هذه الأخبار إلى الرادر تأسف لقد باخرة قريبة
ولكنه كان قد أعد في حسبه عمالا لحسارة وفي النهاية تقبل سوء الطالع بروح عالية ، أعلم
للعانة الحرة قد ولت ، فهو يعرف أن الحادث لن يؤثر على القوة للكفيلة التي لديه .

الكارثة الأخرى جاء ١٤ الجواسيس الذين ينتمون وسط قوات الخليفة وحقوقي
تتقدم . لم يقع الخليفة بالاستحكامات التي بناها على الشاطئ ، كان يتخاف مواجعة البواخر
المسلحة ، أرسل إلى ضابط سابق في الجيش المصري وأحضره من سمعه ولمر بعمل لضم
بحري . جاء بغلاتين قدامى ملكا بالبرود ووضعت أسطحا على الباصرة الإسماعيلية لحملها
ووضعها في مكان استراتيجي - كانت الخطة أن يتم ربط ممسك بحيط ، يطلق النار على
المسح عند حمله انزلت الغلاية من الباصرة . كان الخليفة يتلصق "أن البارود سينفجر بمحرك
جذب الحيط " وقد كان محقا فيما يقول ، انجذب الحيط بطريق الخطأ أثناء تسير الغلاية
وتسبح في الحال ، دمرت الإسماعيلية ومن عليها إلى أشلاء .

غير مهال بلغت الأرواح ، أمر الخليفة بإزالة الغلاية الأخرى ، بعد أن مات الضابط
المصري الخبير ، ترك الأمر لأحد الأمراء الذي ارتفع مستوى التسوية ، أعد حله بأن
سكب الماء في البارود لإبعده ، نجح في إزالتها على النيل ، الخليفة الذي عجز أن البارود الآن
عديم الفاعلية ألقي كتيرا على ساحل البحر ولمر له بالهدم .

في وادي العبد ، مضى اليوم والجنود تبادل تلك القصص وجاء الليل فظهرت العنكب
والخنافس ولذت العقارب بعض الرجال ، لدغتها مولا لكنها لم تستطع حطمة .

عند المسح هطلت الأمطار غزيرة بللت الكل حتى أخرجت الشمس من خلف التلال
وفرت السحاب إلى كتل كلفا شعة بلون القشعة ثم ركبنا ونحركنا . في هذا اليوم تحركت
القوات وهي في حالة استعداد للقتال وأرسلت فرق سلاح الفرسان إلى الأمام كاستارة
جبهة تمتد من عند البواخر في النيل حتى مشارف المسجة عند الصحراء . بعد قليل من
تحركنا ظهر أمامنا مرتفع جلي - تلال مرج ، تحركت فرقة الأكر ٢١ واحتلت هذه
للنطقة وظهرت كل مساحة البلد أمامنا ، كنا على بعد ٢١ ميلا من الخرطوم ظهرت لنا
منها على الأقل عشرة أميال ، ولكن لا أثر لأي أعلاء ، حل حربوا ؟ ليست هناك مواجعة
أو مقاومة ، حل مسجدة ثم درمان متحجرة ومستسلمة ؟ كانت كل هذه الأسئلة تساور في
عقل كل واحد وتمت الإجابة عنها بشكل إجمالي . كان العقيد مارتين قد بلغ السردار أن كل
للنطقة معالية تماما من أي حروب . بعد حين صدرت الأوامر أن تبقى مراقبة للمراقبة

وتعود البقية إلى للعسكر . أرسلنا مجموعة لمسافة ميل وانتظرنا نظروا وفراقب من التل ، مر الوقت ببطء وكانت الشمس حامية فجأة ظهر أن أحد أفراد

المجموعة يرسل إشارة بشكل قوى ، كانت إشارة وأجوبة ، الضابط مع المجموعة شاهد الدرويش أمامه ، شامخا بجبال نظاراتنا وجعلنا فعلا أن هناك أحضاما صغيرة من اللون الأحمر تتحرك نحو موقع فرقة الفرسان المصرية التي تربط في أقصى الغرب ، كان تعدادهم حوالي ٧٠ فارسا لم نستطع أن نرفع نظرتنا عنهم ، هؤلاء القوم الذين جعلنا إن لم يكن أن نملكهم . وصلت دورية الدرويش هذه إلى عين فرقتنا ويظهر أنهم كانوا أقرب مما يتصورون . فتح للناظر كوني نوان سلاح الكاربان عليهم فاستندروا حاملين دون أن يركضوا .

عند هودتنا وجدنا معسكرا يتخلف كانوا عن ذلك الذي تركناه في الصباح . بدلا من شاطئ النيل أنهم هذا وسط شعيرات الشوك تم تنظف المكان وشجرت زريبة كبيرة يضاهية للشكل ضمت داخلها كل الأوعية الستة مع الفرسان والمذمبة وعطوط المواصلات . في الساعات الأولى لوقت المسح في اليوم القتال بدأ الجيش الطويل على ضوء للمصوم ومع طلوع الخيوط الأولى للمحرق ، أرسلت فرقة الفرسان إلى المقدمة . مؤمنة تماما بحرف متارة الفرسان والمجاعة تحركت قوات المشاة في تشكيلاتها العادية . بعد يوم ٢٧ الفرقة تسير كوحدة متجانسة ، بعد يوم ٣٠ كان السير على شكل قوات مقاتلة . للفرقة البريطانية على الشمال والجيش المصري على اليمين . كل اللواتي ملأت في اصطفاا للمركبة الكاثب على الأجنحة شكلت قوتها على التقدم أو لأرباع الكاثب البريطانية الأخرى جعلت تشكيلاتها ليست فرق في المقدمة اصطفاا تقدم رماحي وفرقان للمساندة . ملأت اللواتي المصرية عادة ثلاث كاثب في المقدمة وكثيرة في الإحياطي ومعها أربع فسرى في المقدمة واثنان للمساندة .

كان مظهر الجيش المتحرك ، جيش قليل العظم وهو يتقدم لتحقيق أهدافه كان المنظر في الصباح الباكر مع لغواء الصافي واما ومهيبا . صفوف طويلة من كتل بشرية سمراء اللون مشاة ومدعية وفي الأطراف جوع عيول طويلة من الفرسان وجمال المجاعة وهي تنهب الصحراء ، رجال يلون الشكولاتة على جمال بينه اللون تنتشر في الصحراء في الجانب الأيمن،

والبواخر البيضاء وهي تحتضر جهاب للاء في صمت تام ملاصقا ترصد الشواطئ وفي المؤخرة خطوط للواصلات تظهر وسط السراب ، وتظهر للتأخير للعتمة مواقع العدو على الأفق البعيد ، ساعة بساعة ويوما بعد يوم استمر التقدم عندما وصلت إلى مقر للمسكر المجنيد ، كان لابد من تشييد زريبة وقد استغرق هذا العمل الشاق كل خرة الظهيرة . كلفت قوات المشاة المتعبة بالقيام بالحراسة وظلت في مرور مستمر تحرس الزريبة وكل من يداخلها .

المسكر نشأ في كان في أرض منمطة تتيح ضرب النيران على كل الاتجاهات . نام كل واحد نوما لقا مع شعور قوي بالتربق وعلى كل حال سرف يتحلى للوقوف في اليوم التالي . سمر قوة سلاح الفرسان إلى جبال كبرى إن لم يجد قوات الدراويش تستمر حتى جدران أم درمان . إذا كان للدراويش جيش ، إذ كان هناك احتمال لمركة سوف نعلم علم اليقين بعد ساعات قليلة . كانت الزيارات التي أرسلت في المساء هي آخر الزيارات التي وصلت إلى الجبل . عطلت أقطار غزيرة أثناء الليل وغسلت كل البلاد بلياء ، كان عط التلذذ قد وضع في الأرض نسبة لثقة الوقت لعمل عدنان له . الرسل لتسبلة تفقد مصابيتها العازلة فقد توقفت كل الاتصالات وأصبح كل هؤلاء في الوطن من لحم أزواج ، أبناء ، أشقاء ، أو أصدقاء يعملون ضمن الحملة ، في حالة من عدم الروية عما كلك التي نينا ونحن عليها وأكثر إبلاسا .

أصاب التعب الجميع من جراء هذا اليوم الطويل . كانت طيلة فترة الأربعة عشر يوما منذ أن تحركت الحملة من قاعدة عطية هي فترة شاقة ، وعليه كان ضباط الأتسر سعداء بتناول وجبة سريعة ونسوا هذا الإزعاج ، هذه الأرض الصلبة وتوقع الأحلام للراحة أثناء النوم العميق . استمرت قوات المشاة في حراسة للمسكر كل الليل وحتى أثناء النهار . في تمام الساعة الثانية صباحا عطلت أقطار مصحوبة بمصيفة رعدية وبق أعضاء المكان والكتل البشرية النائمة والحيوانات والحمام تحت من جراء الهواء والريح ، ومن وسط للمسكر كان بالإمكان رؤية أفراد المشاة والحرس الذين استمروا في أداء واجبهم بدون كلل . لم يكن هذا هو كل شيء . على البعد بالقرب من تلال كبرى ظهرت قرية تحترق لا تظني نورها الأمطار ، وتغشى فقط عند انتشار ضوء القوق ، كانت الحرب فقرة في الاتجاه الجنوبي .

الفصل الرابع عشر

معارك أول سبتمبر

كانت فرق الفرسان الويلزية و للصربية تتلور و تركض الى الأمام بانتظام
سرعان ما اكتشمت مراكز العدو تفصلها عنهم ٨ أميال . اعتادت فرقة الفرسان
اللاتس ٢١ أن تكون على الناحية الشمالية بالقرب من النهر ، بينما المراسل
الجنوبية تشكل منحنى على شكل نصف القمر (هلال) يميل الى الخلف لكي تؤمن
الجانب الأيمن وتساعد فرق المشاة والمدفعية الخيالة ، شاهدت البوانسر تحركه ،
الأسطول النهري المسلح ، بدأت للراحة في الليل ، البوانسر البيضاء واحدة من حلف
الأعرجي تبحر بكل هدوء ، منظرها رائع . بدأت تظهر على فترات ، بالساعة حوالي
ميل أو ميلين بين البانيرة والأعرجي التي خلفها ، الآن احتفظت المسافة للمعادة و هي
٣٠٠ ياردة . كانت الأوامر لسلاح الفرسان استطلاع مواقع العدو والأوامر
لأسطول أن يدمر أم درمان .

بعد أن تركت سرايا اللاتس ٢١ كتف تلال كرري ، شاهدنا على البعد
قبة بنية اللون ترتفع فوق الأفق ، إنها قبة للهندي حوسط أسياء مدينة أم درمان .
تمكنا من المنطقة المرتفعة أن نشاهد بالظلمات للمظلة بيوت الطين ، صفوف حلف
الأعرجي ، تشكل كتلا بنية على سطح الأرض ، على الشمال بان الكهر بلونه
الرمادي الهندي مع ضوء الصباح يرتفع الى فرعين وعلى اللسان الذي يفصل
بينهما ظهر مبنى أبيض حلف الأشجار ، كانت أمامنا بقايا الخرطوم و حطابها
وملتقى مفرق النيلين الأزرق و الأبيض .

كان هناك غل أسود كبير يحل للكان الذي يفصل تلال كرري وأم درمان ،
تد منه مرتفع أخضر الأرض التي تقع عطفه . باقي المنطقة عبارة عن سهل رملي بلا
حدود تتخلله بعض أكوام الحجارة والأعشاب وفي منطقة أعرجي تنمو الشجيرات
الصغيرة . على شواطئ النهر الذي يحضن الصورة كالمرواز ظهرت قرية ، بيوت من
الطين تغف شمال الشاطئ ، كانت وإن لم تعلم وقتها هي ميدان أم درمان ، كانت

مهمجرة ، لم نشاهد أثر للعروق. الآن بطل البعض يردد مرة أخرى سوف لن يكون هناك قتال بها نحن أمام جدران أم درمان ولا أثر للعروق في طريقنا. بدت السرايا الأربع كتقاط صغيرة وسط السهل الفسيح ، تحركت للأمام بوق نعرس الوقت تحركت فرقة الفرسان المصرية وفرقة المجنحة ودخلت منطقة السهل من ناحية الغرب ، تركض على بعد عدة أميال .

كما على بعد ثلاثة أميال لأخر المرتفع الذي يفصل بيننا والمدينة ، إذا كان هناك جيش للدراويش ، فإذا كانت هناك معركة وإذا تمسك الخليفة برسائط الخيل واحتلزه بقبول تحكيم للمعركة والغرب ، يجب أن يظهر الكثر من هذا المرتفع. نظرنا ، في أول الأمر لم نر شيئا سوى بيوت أم درمان والسهل الرملي الممتد من عند النهر حتى التلال البعيدة و فجأة ظهر صف طويل على بعد أربعة أميال من مولعنا صف أسود تتوسطه نقاط بيضاء ، إنه العدو. بدا لنا أن هناك حوالي ٣٠٠٠ رجل داسل زربية من الشوك. قال بعض الضباط شيئا أحسن من لا شيء. لا يمكن أن نحتاج لوصف حالة الاضطراب النفسي الذي كبا نعاله ونحن نتحرك نحو مواليع الدراويش. لنظر للأمر من زاوية مرة ومن زاوية أخرى مرات أخرى وفي كل الحالات نردد القراما. تقدمت فرق الفرسان وتوقفت على السهل على بعد ثلاثة أميال، ثلاثة أحضان عظيمة من الرجال . ثيمان فاتح اللون هي اللانسر (٢١) ، أحرر أطول. أسود اللون هي الفرسان المصرية وأحرر مرقش الأكيوان هي فرقة المطاعة ومدفعية ليلية. من هذه المسافة كانت الرؤية واضحة شاهدنا بعض فرسان العدو على مصوبها أمام الصف الأسود الطويل الذي يغطي سطح التمدد ، أتجه بعض هؤلاء بلا حذر للنظر على السرايا ، لم يكن ثم علم عسدي وشلال الكاربين لي ما تنور المطوية. ترحلت مجموعة وعندما اقترب الصلح لمسافة ٨٠٠ ياردة ، فحقت المجموعة النار عليهم أصيب ثمان وسقطا على الأرض ، ترحل زملاؤهما فحصرهما ، حملوا واحدا وتركوا الآخر وركبوا عاتلين من دون أن يعملوا أي حساب لبرصاص حتى بالإسراع في الخطوة .

مرت هذه الحادثة ومر معها الوقت ، إنها الآن الساعة الحادية عشرة. فجأة بدأ الصف الأسود الذي كنا نظنه زوية في التحرك كان يتكون من الرجال و ليس من الشجيرات ، ظهرت خلف هذا الصف كتل من البشر عوج بما سطح الأرض ، وبينما نحن مبهورون من هذا للشهد متسللاً كل السهل بأسراب من التوحشين واكتست الأرض بلون السواد . غطت هذه الجموع مسافة أربعة أميال من طرف لطرف ، بدأت كخميس كورط بدأ هذا الجيش للهول في التحرك وبسرعة حين بدأ كأن التل قد بدأ يتحرك بوسط هذه الكتلة يتحرك فرسانهم بشكل مستعمر ، أمامهم بعض الدوريات تظهر في السهل كتقاط بيضاء صغيرة فوقهم تلوح صفات الأعلام والشمس ترسل أشعتها على آلاف الخراب للعادية ، يتحولها إلى سحابة لامعة .

أصبح من المعلوم الآن أن الخليفة قد استطاع حشد جيش أكثر من ٦٠ ألف مقاتل في أم درمان . قد تذكر أن كل الانتصارات التي حققها الجيش المصري كان مهاجماً فيها بينما دفع الدراويش في كل الغزاهم الأخيرة التي حلت بهم . لذلك قرر ألا يواجه الجيش في السيلولة أو أثناء زحفه لأم درمان . سوف يسوى الأمر كله في معركة فاصلة عند تلال كروي . لقد تحققت نبوة السهلي ، جيش الدراويش كان مهولاً ، عندما يصل الأكراد سوف يلتقون في النهر .

و بناء عليه كان الخليفة يتابع مراقبة تقدم جيش الحملة من ود حامد بمحموعة فرسان لقواء تبلغ ٢٠٠ فارس . في يوم ٣٠ أغسطس أصدر بأن الجيش يقترب ، في يوم ٣١ جمع كل قواته وقوات الحرس الخاص ما عدا الأفراد الذين يرايطون في الطايات على شاطئ النهر مع طاقية للدفع ، جميعهم في ميدان لم درمان الخاص بالاستعراضات وألقى خطبة رفيعة على قادتهم وأعطى الأيلة وسط معسكر قواته . في اليوم التالي أجبر كل الرمال الباقين بالتوجه نحو الجبهة ، لم يسبق إلا مدفعجية وحامية النهر بقيت في المدينة بالرغم من الحزم و تشييد الرقابة حرب حوالي ٦ آلاف رجل في ليلة ٣١ ولؤل سبتمبر ، جعل هذا مع تصاعد القوة في الحامية أن يمتنع عند القوات التي اشتدكت في القتال إلى ٥٢ ألف مقاتل .

عدد الذين تقدموا نحو فرق الفرسان البريطانية و المصرية حوالي ٤٠٠٠
أشداء كان تشكيلهم في طابور منتظم ومحمداً يواجه الشمال الشرقي بمعرض ٤
أميال من ركن بوقت فصيلة قوية من اللاتمين في الوسط .على ود حلو
وأعلام الخضراء كون امتداداً من ناحية الشمال يتبعه ٥٠٠٠ محارب أغلبهم من
قبائل دهم وكافة ،أصبح يقترب من الفرسان المصرية في الوسط كان الجيش
الأساسي في تشكيلات رباعية تحت قيادة عثمان شيخ الدين وثمان أزرق ،قوته
١٢ ألف بملقة و ١٢ ألف حراسة من القوات السوداء يوسطها علم كبير لونه
أخضر غامق ، احتاره شيخ الدين ليعطى على ودحو الذي كان يمار من لون علمه
الأخضر الفاتح . سطهم سار الخليفة خلف قوات الحرس حوالي ٢٠٠٠ رجل
أشداء .. خلف كل هؤلاء ركب يتقرب وعلمه الأسود مع ١٢ ألف رجل
مسلحين بالسيف والحراب مكونا مع القوة السبق امتدت في المقدمة قوات تأمين
تكونت الجبهة اليمنى من لواء الخليفة شريف وعلمه الأحمر وقوته ٢٠٠٠ رجل
من الدناقلة ، عثمان دقه ،وهو لا يحتاج لعلم ومعه ١٧٠٠ رجل من قبيلة
الحدنوة، كان يؤمن أقصى اليمن و البناح الذي يقترب من أم درمان كان هذا
هو الجيش العظيم الذي زحف سريعاً نحو البرابا ،ومعه فرقة الاستطلاع كانوا
يزيد أن تحقق من أن الذي تراه هو حقيقة بعد أن وفقت برهة على المرتفع
الرملي، تركت مجموعة للعمل متحركة لمعية محدودة .

لشاهد بالنسبة للفرسان المصرية كان مختلف ،كانت تعمل بمناهب اللاتسر ٢١
عند النهر وصلت سراياها المتقدمة الى أقصى موقع غربي للال كرري حوالي
الساعة السابعة، كانت فبة للهندي ظهيرة للثمان من هذا الموقع لم يمنع تل سرغام
الرؤية فشككت الفرقة البريطانية من اكتشاف حسن طريق للتظاهر للعظيم ، طوابير
طويلة من الدهم الجنية وهي تسير نحو الغرب على طول الصحراء التي تمتد من أم
درمان أثبت للتظاهر للعظيم فالبته في الاستطلاع ،بالضخ أن هذه الدهم ما هي إلا
قوات ومجموعات من الخيول وهي تعرض بعض الجمال ومجموعة من الخيام البيضاء
باحية الجنوب ،و لم يكن واضحاً إن كان هذا تهوّر مقرر العقيد بيروود أن يقترب

أكثر ليحقق أخذ كل القوة تحت إمرته وتحرك ناحية الجنوب الغربي حيث يوجد تل مرتفع هو أخر شئ عال فوق السهل على مسافة أربعة أميال من نهاية تلال كرري. تحركت الفرقة للصربية بسطاء ناحية نقطة للرابية الجديدة ، في مسورتها اعترضها حور شبوات ، هو بحري لتصريف المياه من تلال كرري وأم درمان ويصب في النيل على بعد أربعة أميال من المدينة. الأمطار التي هطلت في الليلة الماضية جعلت الأرض المنخفضة عبارة عن برك مياه وابتطت التربة الرملية ، لم تشكل هذه أي عقبة وفي حوالي الساعة الحادية عشر والنصف بدأت الفرق تسير من على التل فانفجر للنظر أمامهم فجأة ، على بعد أقل من ثلاثة أميال كان جيش الدراويش يتقدم في شكل طابور استعراض.

حمل اللواء القادم من الجنوب أصوات الطبول وموسيقى الفنون التقليدية وأكثر رعبا أصوات مهمة وتكبير الآلاف وهي تصل الضباط للدهشون ، وقفت فرقة اللانسر ٢١ على بعد ثلاثة أميال من نهاية للترقيع الذي يمتد غربا من مرغام وكذلك الجنود بقوا في السهل على حالة استعداد. تحولت الأنظار فجأة من مشهد تقدم الدراويش الكبير إلى انفجار القنابل وأصوات للدافع صوب النهر.

بدأت قطع الأسطول النهرية للأحسة داخل الممرى النيلسي واشتبكت مع بطاريات العدو على الشاطئين. طيلة اليوم تكا نشاط البومبر ونسمع أصوات القنابل ونري البومبر البيضاء والدخان الأسود يطو مداعبتها وأبيض الدخان الأبيض للتصاعد من للدافع . الطائرات التي كانت تملك ٥٠ مدفعها ردت على نيران الأسطول بقوة ولكن قوة الأسطول وحقه الصوب مكثهم من ذلك الطائرات وحولتها إلى أشلاء ، تعاملت مدافع للكسيم مع حملة الجنادى داخل الأسوار على الشاطئ وأسكت نيرانها . أما التفائف البعيدة المدى أصابت للنازل والبراني طسوت العيار الأحمر في القضاء تاركة الحراب في كل مكان .

بالرغم من تثبت وشطحة الدراويش إلا أنهم أحبروا على الاتسحاب من دشم للدافع إلى داخل المدينة، وتم هدم حائط أم درمان العظيم في أكثر من موقع وقتلت أعدادا كبيرة مع الأحف من بين الأهالي.

في هذه الأثناء اشتركت القوات المصرية نحو النظامية (الخلفاء) تحت إمرة الرائد ورتلي في القتال ، كانت تعليمات الضابط لهم أن يعانون الأسطول النهري بمهاجمة الطواحي والغرى شرق النيل في اللوحة على شاطئ النهر وبعد أن أسكت مدافع الأسطول الطايات على هذا الشاطئ أمر القائد ورتلي بالهجوم على الطايات والمنازل . وضع الجنود الوجيهين الذين كانوا محل ثقة في الاحتياطي وورع البقية حسب إمكاناتهم وميولهم . تقدمت القوة للكونة من ٣٠٠٠ رجل نحو المنازل ، بدأ الدرويش ضرب النار في الحال ، وعندما وصلت القوة لحوالي ٥٠٠ ياردة من العدو ، بدأوا إطلاق رصاص بنادقهم في الهواء ثم مارسوا بعض الرقصات التي تدل على غضبهم وفوقهم وانضمون أي تقدم .

أمر الرائد ورتلي الجنود بالهجوم كونوا اصطفاك التقدم وهجموا على القرية لديهم الرخبة الشديدة في الانتقام ، في خطوة بطولية يحاصرون منزلا وراء الآخر ويلجئون كل من يملكه من منافقين حتى الأمر نفسه قد قتل و ٣٥٠ من رجاله . كانت عساكر الجنود أنفسهم ٦٠ قبلا وجرحا في تلك المعركة .

بعد احتلال القرية والعدو في الشاطئ الشرقي إما قتل أنفسهم أو هجموا . . . التفت قطع الأسطول للطواحي في أعلى النهر وأزيلت مداخل الموانئ وفي الساعة الواحدة والنصف بدأت في قذف قبة للهدى . كانت حسملة العمليات مشار اهتماما ونحن على حافة المرفق نتظر ونراقب حتى أننا لمنا من مراقبة جيش الدرويش . كانت قبة القبة تقع في مخوخ وإحلال أعلى من يرمون الطين في اللقبة ، أصابها دانة لهدات شديدة الانفجار فرتع دمان أبيض ثلثه أصوات الانفجار لدالة ثالثة وثالثة وبدلا من الدمان الأبيض ارتفع دمان أحمر خطفي على كل القبة . عندما انجلى الدمان جاعنا أن قبة القبة قد تحطمت ولم تعد لها قصة أصبحت مسطحة تماما . استمر القذف أحدثت القلق فتحركات في جنبات القبة و أعري حطمت السقف المستدير وخلفته بالدخان .

كانت في هذا الوقت قوات الدرويش تقدم وتقترب أكثر مما أحر فرقة الممران المصرية على الشهقر ، وعندما أحس العقيد بر ووجود بحرج موقعه ،

تحركت ٨ سرايا وبميلة المدفعية أولا ، خمس فرق حطاطة و مدافع للكسسيم ، ثم تبعت السرية التاسعة في المؤخرة لحماية الانسحاب بقيادة القائد تودوي .
فتح فرسان الدراويش بإطلاق رصاصات باندقيهم ، وتم الرد عليها برشاشات
للكارباين ، كلما منحت فرصة للفرج . بين الحين والآخر يظهر فارس عربي
جريح يتقدم نحو السرايا المتهقرة ولكن رصاصة من الكابلان دائما تجذبه على
القنوب استمر تراجع القوة بدون تدخل وتم إعادة عبور عبور شبكات مرة أخرى
بسلام .

بمجرد أن شاهدنا الفرقة المصرية والكتل السوداء تحت التلال السوداء ناحية
الغرب قد أمنت انسحابها ، انسحبت اللانس ٢١ بسطة الى جبل سرغام الذي
شاهدنا منه الدراويش لأول مرة ، رجعت الفرقة عن طريق الأجنحة المتناهية ،
تاركين فصليتين في المؤخرة لتأمين الفرقة من أي هجمات وهي منسحبة وحسن تبعه
دوريات العدو لمسافة آمنة . عندما شاهد العدو أن كل فرق الفرسان انسحبت
أصبحوا أكثر جرأة وبدأت مجموعات من خمسة أو ستة فرسان تقترب وهي تصلو ،
وعليه كلما سمحت ظروف الأرض تقف السرايا وتتبادل إطلاق النار معهم ،
وعكلا سقط أكثر من نصف ستة بين قتل وجرح ، لم يترك الأعداء واستمروا
في تهريض السرايا للخطر وأصبح لزاما إرسال مجموعة لطردهم . هجمت مجموعة
من اللانس ٢١ بكل قوة ناحية الدوريات الفضولية ، كانوا مشتتين وعندما لم
يستطيعوا التجميع رفضوا المواجهة . استمر جيش الدراويش العظيم في التقدم
ضاغطا على سلاح الفرسان أمامه يوكان واضحا أن الخليفة لم يستمر في تقديمه
فإن الصدام بين الفئتين وقع لا محالة قبل حلول الظلام .

كان للشهد غير حادى من على قمة تل سرغام . اجتمع السهل الواسع محافل
جيش الدراويش حتى بنوا كالأقزام مجرد دهم وأحجام صغيرة على سطح الأرض
البني . وعندما توجه شرقا تجد جيشا أنصر ظاهرا للعيان الآن : القوات البريطانية
والقوات المصرية ، عدت كل اللواحيات الستة تلال كرري ، وتقف الآن في شكل
ملال ظهورهم على النيل ، عطوط للواصلات والإمدادات ويوت قرية عجيبة تالاً

الفراغ ، لا ترى القوات بعضها البعض رغم أن خمسة أميال فقط تفصل بينها .
طوابير العدو كانت بلا شك طويلة وعميقة ولكن إحساس القوة كانت مع
الكتاب الصلدة التي تقف صفا مستقيما كأنه رسم بالمسطرة .

دب النشاط في المعسكر ، وصت القوات أسلحتها واستعدت لتناول وجبة
الغداء مع توقع بداية للمركة ، وكانت قد شهدت سورا حرقا من الشوك . وفي تمام
الساعة الثانية أمرت كل القوات أن تقف على أعية الاستعداد لصد الهجوم الذي
توقع الجميع أنه آت من جيش الدرويش .

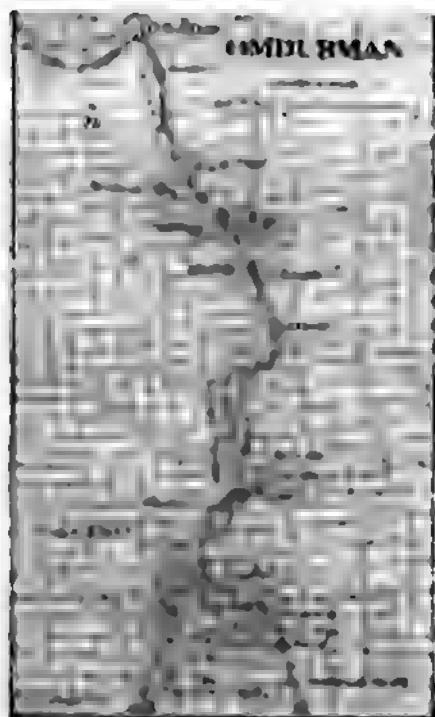
في الساعة الثانية إلا ربعا وقف جيش الدرويش ، كان ثمرتهم جيدا إذ وقف
الجميع بأمر واحد . وضحة لفرغ حلة البنادق (البندقة) رصاص بنادقهم في الهواء
مع صيحات بريرة مدوية تنادي بالنصر . ارتفع الدخان الأبيض على طول الصف
من أوله لآخره ، ثم بعد هذا استلقي الجنود على الأرض ووضع أن الأمر سوف لن
يسرى ذلك اليوم .

بقينا في مواقعا بين زمال المرتفع حتى جاء للساء ، وكانت فترة الظهيرة قد
شهدت عمليات متقطعة بين دوراتنا وفروا العدو تكبدوا فيها خسائر حوالي ١٢
فرد بين قتل وجرح ، وعسائرا جرح هرب واحد وقتل حصان . عندما حل
الظلام عدنا إلى النهر لسقي الجول ، مروا بالزريبة وعندما تحدث معنا الضباط
البريطانيون والجنود سألين إذا كان العدو قدما فاجبتهم بكل ثقة الاحتمال الأكبر
عند الصباح .

عندما أكملت البواخر المسلحة صليانها ، أفرقت باخرة للدرويش ، أسكتت
بطاريات العدو وحملت قبة للهدى ، عادت بمدونه للشاطئ قبالة للمسكر حتى توفر
لنا الحماية اللازمة إذا تعرضنا للسهموم .

وعند حلول الظلام وجهت البواخر لمركز كشفانها أمام الزريبة وإلى التلال
الجيدة . ظلت الكشافات تضئ الساحات للوحشة في الصحراء والتي لم تكس
حالية هذه المرة ، قضى الدرويش الليلة حول المنخفض الشرقي بحور شبكات جلس
كل الفـ ٥ ألف محارب للمخلصين كل حول علم فرقته وبالقرب من قائده وأمره

وبام الخليفة في وسط المعسكر وحوله قلاته وضحة أضاءت للكان أنوار كاشفة قوية
 أتت من شاطئ النهر أضاءت كل المكان، عبق الشيطان البردة، وضع الخليفة يده
 على كتف عثمان أروق وحمس في أذنيه " عثمان من ذا الذي سيقتود الهجوم غدًا؟"
 ما هذا الشيء الغريب ؟ سأل عثمان ،لكنهم ينظرون إلى ناء هنا دغل الخوف قلوب
 الجميع، كان للخليفة خيمة بيضاء صغيرة لكنها ظهرت في الضوء فأمر الخليفة
 بفكها بسرعة ، غطي باقي الأمراء وجوههم بأبوابهم حتى لا يمسسهم النور الساطع،
 وتوقع الجميع أن تتبع هذه الأنوار قلائف طويلة للذي هو ضحاة اعنقى النور.
 الجندي العامل على العنسات الكاشفة لم يكن يرى شيئاً غير الأرض
 للبسطة ومر على أسناد الجيش التام وبعض الحارين كمرور الهواء العاصف على
 حقول الثورة .



الجيش الإنجليزي المصري لم يشهد معسكرا مربعا كما كان يحدث في الليالي السابقة ، بقي الجنود و الضباط على حالة الاستعداد التي كانوا عليها في الظهيرة عندما كان الهجوم متوقعا . كانت هناك حراسة كل ٥٠ ياردة وعلى بعد كل مائة ياردة دورية على رأسها ضابط بالرجال ممن كل الدرجات مدحجون بالسلاح ينطحن على الأرض في حالة تدل على نقصي حالات للطاقة ، والعبدو الذي عمو ضعف قوة الحملة على بعد خمسة أميال ، تقدم العدو بثقة وتصميم ولكن كان من المستحيل التحمل أنهم سيهجمون في وضع النهار وفي هذا السهل المفتوح . كان هناك تقديرات لتقدمهم وروغهم القتالي . إما أنهم اختاروا موقعا وتوقيتا بحيث لو هاجمهم السردار فسوف يضطر للقتال حتى المساء ، لو بدأت للمركبة في الرابعة وظهره للليل ، أما التفسير الثاني هو أن العدو قد قرر أن يهاجم بالليل . كان من غير المتوقع ومن لائق كفو أن يهاجم في الظهيرة في ذلك الوقت للتأخر ، وإذا قرر الدراويش الهجوم فالحسائر سوف تكون من نصيبهم . ولكن سيقتلي الجيش في حالة دفاعية محنة ، على أي حال حتى صباح اليوم التالي . فان الجيش الباني أمام العدو هو الهجوم الليلي .

هنا كان مكن الخطر الذي يهدد الحملة ، ماذا سيكون حالة الجنود أثناء ساعات الليل ؟ بالنهار لم يكن العدو يسبب لهم أي قلق ولكن بالليل وأقصى حدود لثباتهم ٤٠٠ ياردة سيكون من الصعوبة بمكان ومشكوك فيه الخطوة على رد الأعداء والحفاظ على الجبهة متمسكة . كان التذكر مدمرا في احتمال لمهاجم العدو في اختراق الجبهة عند حلول الظلام ، ظهور حشود فعالة وهي تتضمن للهجوم في أسراب تجلب الشوم . صوت انفجارات الرصاص وللخيم على طول خط الزريبة والحشود مازالت تلتق رغم الرصاص بالناسر المشتعلة وعدم إمكانية السيطرة عليها والضرب الشديد والقيار جزء من الجبهة والمخرج والمخيرة والاصطراب الجحون مع مئات المقاتلين شاعرين سيوفهم علمين طعنا وتقطيعا في كل مكان حي ، من خلال أي فراخ في الزريبة وهيجان الحيوات والاندفاعها إلى كل اتجاه تعرف أي تشكيل أو أي محاولات لإعادة النظام . أو عندما تتحطم السلويات وتطلق برامها على

للعدو والمخلف على السواء ويوحشية بالى أن يسلم آلاف بل مئات يهربوا عن طريق المصادل والى واعر يلغوا عن الخزعة والحرب

هذه الصورة لو كانت حقيقية أو غير ذلك لطلقت بأبصار وأفكار كل من كان بالمعسكر من القادة في تلك الليلة ومهما كانت أفكارهم فإن عظمهم مائدة. مهما قيل من مصالح أو أفكار طرحت، سوف تبقى للسوية على أكاف سر هوبرت كنشر وحده يتحمل مسئوليته أي قرار صدر .

ربما كان عليه أن يجهز الجيش من كلمة من الرجال والمحيطات وحولها رجال للشاة كسور صهك أو عندق كبير ويشهد زوية عالية كما سمح الوقت أو كان عليه أن يملأ للنازل بالفراد للشاة وعمل مستحكات منها تكون دائرة آمنة للفرسان والمواصلات والدفاع، تستغل للمساحة الضيقة المتاحة .

ولكنه كون تشكيل الجيش على شكل صف طويل منحمن ظهره الى النهر وشغل مساحة هائلة من الأرض وحولها الإمدادات والحيوانات متشرة في كل السهل بطريقة مترفة . كانت خطوطه عميقة مع فرقته لكل كتيبة ولواء للصين (كولنيسون) كاحتياطي، كذلك جهاز أقوى النيران وقصف ينتظر مستعدا ولكنه يتضرع ألا يضطر في دخول مغامرة ليلية .

مرت ليلة بدون إزعاج وبقي معسكر القصر الساطع وجنرالاه المتحزون، وجنوده المنصتون، واولى الدمار الرمية ، كلها على حافة النهر العظيم ظلمت بانها الصمت ، كأنها تسترجع فرص الفد والفشل الماضي . وبالتكاد على بعد أربعة أميال هناك جيش آخر ضعف عددهم وبنفس إصرارهم وبنفس القدر من الشجاعة ينتظر في شدة الى الصباح لتسوية هذا الصراع الطويل لعائسا .

الفصل الخامس عشر

معركة أم درمان

٢٨٩٨ م

صلحت أصوات بروحي الإيقاظ في تمام الساعة الرابعة و النصف صباحا في كل أرجاء المعسكر وعلى طول خط الأسطول الشهري على التسعير ، بروحي الخيالة ، سلاح الفرسان ، وطوبول ومزمار الفرق البريطانية انضمت للكورس واستبفظ الجميع على نغمات سمعية متعديّة ، ثم تدرج الصوت في الخفوت وامتطي الخيالة سيوفهم ، استعداد للحياة بأسلحتهم وذهب للتفجئة لطائر القم وطلعت الشمس فوق النيل وظهرت السهول الواسعة واللال السوداء وقوات الجيش للتظفر . كأن كل التحضيرات قد انتهت وجهزت الأرض ولم يبق إلا الفصل النهائي وحلف اللعبة .

حتى قبل ظهور الضوء تم إرسال بعض السرايا من فرق الفرسان البريطانية والفرق المصرية لتستطلع مواقع العدو وتكشف نواياه . كانت أول هذه السرايا بقيادة النقيب بارليج وقد وصلت إلى تل سرخام وانظرت طلوع الفجر لتستبين مواقع الدرويش . كانت عملية خطيرة إذ ما كان العدو قريبا منهم من غير توقع . عند طلوع الشمس تحركت اللاتمر ٢٦ من الزريرة وأرسلت بعض الضباط كدورية . طالما لم يكن هناك هجوم لبلي لعل قوة الدرويش قد رجعت لمواقعها الأصلية أو دخلت المتجعة ، فما كان لأحد أن يتصور أنهم يمكن أن يهاجموا الزريرة في وضوح النهار بل كان أحد الاحتمالات أن قلوبهم قد وجفت أثناء الليل وأنهم ذهبوا إلى الصحراء . سرعان ما انقضت كل تلك التوقعات بالمشهد الذي كان ظاهرا من منطج المرتفع .

كانت الساعة السادسة إلا الربع ، كان الضوء خافتا لكنه يقوي مع مرور الوقت ، كان العدو بجلاء السهول ، أعادهم لم تضفر ، ثقتهم لم تفتز ، خطوطهم الأمامية بطول خمسة أميال متصلة ببعض مع صفوف أقل كثافة ، وكانت على

أجحة التشكيل والمنطقة الخلفية قوات احتياطية كبيرة بقيت من على المرتفع كحيط من العظمى الأسود ، متينة وحلقة يشع ضوء غريب من أسنة رماحهم . حوالى السادسة إلا عشر دقائق كان واضحاً أن الكتل البشرية بدأت في التقدم وبحركة سريعة ، وكان كل أمر يدعو على فرسه أمام كتائبه وبعض أفراد الدوريات ينتشرون أمام عطلات الجيوش ثم بدلوا في التكبير . كانوا على بعد ميل واحد من النيل وغلبهم عن جيش المبردين الأرض المنخفضة ، سمعت القوات على النهر أصوات التكبير وإن كان الصوت عافاً ولكن اللحن يواكبهم من عند النيل جاءهم الصوت كموجات غير صاعدة كصخب الريح وللوج قبيل العاصفة .

كانت المواقف البريطانية المصرية على تشكيل اصطفاظ ظهورهم على النيل يؤمن أجنحتهم الجوانب للسلحة الرأسية على النيل أمامهم السهل الرملي للسط يبدو من المرتفع سطحا أماس كالمطولة . كانت جبال كرري على يمين القوة حيث مواقع الفرسان المصرية ككتلة سوداء بين البشر والحيوانات . كانت على اليمين فرقة اللاس ٢١ التي تقطعت منها سرعة واحدة ووقفت ترأب المجموعة وهي تحت قمة تل سرغام والمنطقة المحيطة به أو تمركزت على المرتفع كبا فعلناء .

ترتفع الأرض تدريجياً من عند النهر حتى يظهر أن غاية تل سرغام وتلال كرري تكاد تتلاصق طامسة الأرض بينهما وعلى البعد من هذا السهل الرملي الذي كون الجانب الغربي للجدار هذا السطح ظهرت خلال تلك التلال السوداء في شجرة خامضة . كان للتحفون داخل الحلقة ، ظهر شرهم بسرعة .

بالرغم من تقدم الدرويش إلا أن حقيقة أن مدي نواهم وقوتها ضعيفة قد شجعنا على الاقتراب أكثر مركبنا جنوباً جهة الجنوب الغربي لشجرات سرغام حتى وصلنا إلى التلال الرملية على ناحية العدو ، فمن للمنطقة التي كنا في اليوم الماضي . ظهر كل طابور بكل تفاصيله . كان من الممكن فحص كل فرد من بين آلاف الأفراد بسهولة . كانت عطلات تقدمهم ثابتة وسريعة وشعرنا أنه من الخطورة الانتظار على التلال الرملية ، ولكن كان للشهد مثوا رغم عطلوته ، بقينا ليرمه .

كانت أعلام ورموز الأمراء المشهورين ظاهرة بوضوح ويمكن رصدها بسهولة. في أقصى الشمال تجمع قلعة وجنود الرماية الخضراء الفتحة تحت قيادة الأمير ودخلوا ، بين هذه في الوسط ، العلم الأخضر الفلحق لجمال شيخ الدين ارتفع فوق كتل من حطلي الحراب تقلمها صفوف طويلة من المقاتلين مسلحين رما بالبنادق أيضا. في جهة الوسط وقيادة يحقوب كانت الرماية السوداء للقادة للخليفة تحق غالبا بشكل مميز بينما حشدت قوات كبيرة تحت عدد من الرمايات البيضاء، كان بينها الرمز الأحمر للمطبعة شريف كآته متعقبي. كل حمزة وقوة إمبراطورية الدرويش خرجت واحتشدت في هذا اليوم الأعور في حلقا. الهنداكة الذين ساعدوا في القبض على ميكن، حاملو الحراب الذين هاجموا في ابوكلي، أمراء شاعلوا كنائس قبل، البقرة عائلون لتوهم بعد إضارهم على قبائل الشايب، للقاتلون الذين حاصروا الخرطوم ، جاعوا جميعا تحفهم ذكريات التصارات الماضية، وتركهم أعباء المزايم الأخيرة ، يخدمو هذا العدو الوقح من الفرة للمعززين .

استمر التقدم ، أهدأ الجناح الشمالي لتوة الدرويش ، بدأ في الانتشار فوق السهل ناحية تلال كروي ليهاجم كلنا اليمين كما كنت أظن ، وسطعهم تحت الراية السوداء تحرك مباشرة لئلا سرغام اليمين تكفد تشكيل تقدم جنوب ذلك التل، كانت هذه القوة بالذات أكثرهم هبة ، عددهم ثل يزيد على ٦ آلاف لكن زعيمهم وطابورهم كان جيد، وكثرت أعلاما كثرة تبلغ أكثر من ٥٠٠ علم كانت كبيرة بيضاء من عهد ولكنها كانت تحمل آيات من القرآن مسح ولانهم للشر للإعجاب ظهر هذا الجزء من جيش الخليفة ليذكرنا عظمى الحروب الصليبية وهم منفوشون على القماش للزركش .

تطور الهجوم ، شمال القوة ، ٢٠ ألفا أشداء يحضون عبر السهل اتجهوا نحو السرايا المصرية جنود الحشد في الوسط استطاعوا واتجهوا نحو الزوية للالتحام المباشر. بينما كل جيش الدرويش يتقدم ، القسم الذي يحمل الأعلام البيضاء والذي كان حتى تلك اللحظة يرافق مؤخرة اليمين ، تقدم الصفوف الأمامية وبدأ التسلسل إلى السفوح الجنوبية لئلا سرغام مجموعة كانت تسير عطف جملة الأعلام

اليضاء أمداها ليست كبيرة كانت تنحط ببطء نحو النيل، ليس بعيدا عن يمين
الوخرة وأقرب إلى أحياء أم حرمات . هذه المجموعة في الغالب قد كلفت لتتمتع قطع
عط الرحمة للدرلويش وتأمين خطوط التجهيز يومهم قد قرر لفرقة الانسر ٢١
(الرماسه) أن يتم التحرك بعد ساعتين من الآن .

وصل وسط الدرلويش إلى مدى القرون ولكن لم يكن اليونانيون أو
المصريون هم البادئين بإطلاق النيران . إن أضعف سلاح لسدي العرب بالمقارنة مع
أعدائهم هو سلاح للدخبة ، وقد اندثروا هذا السلاح لهذه هجومهم . ظهر وسط
القوة يقع دمان أيضا ثم سقطت قذفتان على بعد ٥٠ ياردة من سور الشوك
وارتفع دمان أحمر وسط النيران في المكان الذي سقطت فيه القذائف . كانت هذه
القذائف بمثابة تحد تم الرد عليه في الحال . ككل من المسحبات الأسود ظهرت على
طول جبهة اللواتي الروماتية والسودانية وفتحت أربع بطاريات نيرانها الواحدة
تلو الأخرى إلى العدو من مدى ٣٠٠٠ ياردة . وصلنا صوت للدخبة ونحن على
الارتفاع ورددت صداها القليل . بدأت القذائف وانقضت تسقط فوق رؤوس الكتل
الزاحفة وتملأ الهواء بكرات يضاء من الدخان وتجمل الأرض بالبلدث .

كانت هناك كثرة أخرى قرية قد وصل حملة الأهلام اليضاء إلى السهل
وبعد دقيقة أخرى سيكونون على مدى نيران البطاريات ، هل كانوا يعلمون ما
يتظرهم ؟ كانوا عبارة عن كتلة كثيفة من العشر على بعد ٢٨٠٠ ياردة من
البطارية ٣٢ للميدان وأيضا الجواسر . كان لدى معروفنا والأمير متروك لاكنة الحرب
وكانت للخدمة في ناسار الجيد مخفي دون ملاحظة ، حيث سيطرت على العقول
نتيجة الحرب القادم ، بعد ثوان معدودة سيحل الدمار على هؤلاء الرجال
الشجعان الذين ظهروا على السطح وبقوا لكسب الأفراد الجيش ، تميزهم أعلامهم
ليضاء فوق الجميع . عندما شاهدوا معسكر الأعداء بدأوا إطلاق رصاص بنادقهم
وأمرعوا الخطى . في لحظة قطع كل القسم الأرض الفضاء وأصبحوا مكشوفين
تماما في الحال فتحت اليولتر المسلحة نيرانها عليهم بالإضافة للبطارية ٣٢ للدفع
للميدان ومدافع أخرى من داخل الزوية ، سقطت عليهم ٢٠ دقة في الدقيقة

الأولى، بعضها انفجر في الهواء الآخر مباشرة على وجوههم وخلفات أعري انفجرت على الرمال محدثة غبارا أحمرا ورصاصا وشظايا وسط صفوفهم . سقطت الأعلام البيضاء في كل الاتجاهات ولكنها ارتفعت مرة أخرى في الحال عندما تقدم صف آخر ليموت شهيدا نصرة أهداف للهدى للقنصة ودفعها عن خليفة السبي الحقيقي . لقد كان منظرا مرعبا ، لأنهم جوق هذه اللحظة لم يسيروا أي أذى لاء ، وبدا تقوفا غير عادل أن نضربهم بهذه القنصة ، وهم لا يمكن أن يكون بإمكانهم الرد علينا . نتيجة للنفات المدفوعة ، تقلصت قوات الأعلام البيضاء إلى أفراد قليل من جملة الرماح وبعض المناوشين وساموا بدون تشكيل مرتب ولكن همزم لا يلبث . الآن بعد أن انكشف الهجوم باتقان جاء دور سلاح الفرسان ليظهر أرض المعركة بسرعة كبيرة ولترك باقي الحوكر لسلاح المشاة ورشاشات الكسيم . هدأت كل الدويبات إلى سرائها ورجعت إلى الزريبة بينما كانت مدافع البنادق تطير الجو فوق الرؤوس واشتعلت النيران على طول صفوف الوقف ولتلقح للدخان وجاء هدير صوت الرصاص ليغطي على صوت المدافع بعد فترة وجيزة .

كان شاطئ النيل ملأ بمسيرة ترحل أفراد فرقة الفرسان وسبقوا بهم وانظروا ما ينجلي عنه الموقف . وفي كل مرة ترداد الضرباء وطور الضجيج جوق يغطي على أصوات رشاشات الكسيم ، كانت البطارية رقم ٣٢ مدافع للدان تعمل على بعد ٨٠ ياردة ولتفادح حوالي ٢٠ قنصا فوقها . كان أفراد المدفعية يتحركون في حفاة ورشاقة وهم يهيمون بالتواصل مع آلية الدمار ، صعد بعض الضباط فوق صناديق المسكوكيت لكي يستعملوا نظاراتهم الخاصة لمراقبة التمرير .

ألفت نظرة في هذه اللحظة . رأيت على مسافة ٨٠٠ ياردة مجموعة من جملة الأعلام البيضاء وهي تتأصل في وجهة النيران غير الرحيمة ، يسقطون وينهضون ، دعان أبيض بسيط يطلق من بنادقهم ونعا تسقط عليهم كل من الشظايا والدخان الأبيض ينتشر على طول خط المواجهة من جراء انفجار قذائف المدفعية .

كان أفراد لشاة يطلقون رصاص بنادقهم جرات ويسدون استجبال أو إنارة لأن أفراد العدو على بعد كاف والقباط حريصون بالإضافة الى أن الجنود منهمكين باهتمام في عملهم بكل الحرص والعلانية ، الآن أصبحت العملية الجسائية عملة . تبدو الأحكام أكبر من حجمها عند مشاهدتها فوق منحدر المنظر الخائى ولكنها تناقض بعد ضرب موحدة .

ارتفعت حرارة مواهب الينادق للدرجة التي بلغت مع بنادق فرق الاحتياطي استنفذت مبالغ للكسوم كل كمية المياه المخصصة لها ، وتم هربها من زحاجات فرقة الكميون هابتلنر حتى تستمر في عملها للموت . كانت غرايش وظروف الرصاص الفارغة تستط على الأرض حتى تكونت كومة كبيرة بجانب كل مقاتل . في كل الوقت تسمح أصوات الرصاص فوق السهل وهي تخترق الأجسام مغطاة العظام ، ينفسر الدم في جروح وهبة ، رجال يصلحون بكل إقدام يصحهم صرير الحديد والفجارات الخافت ، وهواصف الفوار ، ياكسون ، يوتون ، هكذا كان مشهد للرحلة الأولى لحركة لم دومان .

كانت خطة الخليفة للمجوم ، خطة معقدة وعقيدة لكنها نهت على خطأ قاتل هو عدم تقدير قوة السلاح الحديث الرمية ، بخلاف هذا الخطأ فمن يستطيع أحد أن يتطهها . كان المفروض أن تقام قوة من ١٥ ألف رجل واجهة العدو ، وهي من قوات عثمان الذين لكنها وضعت تحت قيادة عثمان أزرقي ، وانتظر الخليفة نفسه مع قوة مماثلة بالقرب من جبل مرغام يراقب نتيجة المجوم . إذا نجح المجوم يتقدم هو بقوات للارمين وهم أقوى جيش لديه لتحقيق النصر ، وإذا فشل المجوم هناك فرصة أخرى . الفروايش الذين هاجروا الزوية في كول المجوم لم يكونوا أحسن الجنود الذين يعتمد عليهم لذلك فقدهم سيكون عسكرة كبسرة لكنه لن يوقف الصراع . وبينما القتل مستمرا يزحف للشمال الأبطال الصناديد وهم من بقي من كتائب عثمان شيخ الدين حون أن يلاحظها أحد إلى الجناح الشمال في شكل قوس لهاجة لواء القوات للصريق ويستمر على ودخلو بقواته إلى جبال كرري بعد من مدى تيران العدو ومن أنظارهم إن أمكن .

إذا قدر ، لا قدر الله للهجوم الألماني والبلجائي أن يفتلوا صفوف يترك أعداء الله معسكرهم في الزريبة ليتجهوا نحو المدينة للاستيلاء عليها ونجوها . عندما تكون القوات مزهومة وفرحة بالنصر وخارج معسكرها الحصين في الزريبة يتقمص عليها الخليفة بقوة الله ١٥ ألف مقاتل من عطف نلال سرغلام ينمنا يهاجم على ودخلو بقواته من جبال كرري، وهكذا تحاصر قوات العدو من الشمال والجنوب تشنت وتفقد توازنها وتشكيلها ويلاقي كشتير مصير هيكس وغردون . سوف نعرف من السرد لأن هناك تطوران معنا نحتوي هذه الخطوة . ولم يتم الهجومان في نفس الوقت وإن كان كانت الفيلة ستكون لرماس الحملة ، رغم تحملها لبعض الخسائر إلا أنها لن تؤثر في النتيجة ، وهكذا عابت آمال البربرية مع أول غيوط الظلام .

صارت الأوامر للعقيد برودود وقوته ٩٠ سرفا فرسان قوة المحاربة ، ومنفعة الخيول، بأن يمنع جبال الدرويش من محاصرة جناح الزريبة الذي تحمله الفرق للصربية التي ما كان يستطيع لها الاشتراك الكلي في هذه المرحلة من الحركة. لتحقيق هذا الهدف احتل برودود جبال كرري ووضع في صفوف القتال مدفعية الخيول وقوة المحاربة وترك الفرسان في الجلف كاحتياطي في مؤخرة الوسط .

مرتفعات كرري التي جاء ذكرها مرارا تتكون من مطمين بارزين وترتفع بحوالي ٣٠٠ ياردة فوق السهل ، كل مرتفع بطول ميل من الشرق إلى الغرب ويفصلها من بعض بعض ١٠٠٠ ياردة . الجهة الشرقية لهذا المرتفع على بعد ١٠٠٠ ياردة من النهر ، وبين هاتين القطعتين توجد حجارة ومعرجات مما يجعلها غير صالحة لاستعمال سلاح الفرسان وميولاء وكذلك الكتل الحجرية الصلبة سوف لن تسمح للخيال بالحركة كما يجب. لذلك توقفت الخيول والجمال في هذا المنخفض ترجل الفرسان في الصفوف المتويجة تشاركين الصحراء على يمنهم وبعدهم المحاربة ثم تحركت الفرسان في الوسط ومنفعة الخيول على الشمال وبقرة أفراد الفرسان في الفراغ خلف الدافع .

تقدم عثمان للعاصف عقد وضعه لسلام هذه القوة الراكبة ،توايه لم تكن واضحة وعمل جندل عمل سيهاجم الفرقة للصربية بلو يطرد الفرسان أو يخفى وراء

جبال كرري كما كان يحطط على ودخلو ، لم يستطع أحد الإجابة عن هذه الأسئلة . الخيارات لمعه على أي حال كانت متعددة ، لا يمكنه مهاجمة اللواء المصري ويترك موعرة شمالا متحدها فرقة فرسان قوية ، لذلك استمر في السير عكس اتجاه الزريعة ، يوليهد عن مدى الثمن انصرفت شمالا وقبلة ظهرت قوات برودو ، هذا الضابط الذي توقع أن يلاقي قوة صغيرة من الدراويش وجد نفسه في مواجهة ١٥ ألف مقاتل أغلبهم حاملو بنادق .

السردار الذي يراقب الموقف من الزريعة ، أرسل إليه أمرا بالانسحاب الى خطوط المشاة ، رد برودو أنه سينسحب شمالا منوروا بجبال كرري ساحبا قوة عثمان علفه .

كان لابد من إعلاء الموقع الأول في الحال فقد كان الدراويش يتقدمون في الاتجاه الشمالي الشرقي واستطاعوا مهاجمة تلال كرري بشكل يحصر ليحاصر الجناح الأيمن للقوات الراكبة للدفاع عن الموقع . كما يتضح من الخريطة أنه بمجرد أن تضل قوة الدراويش حامله البنادق إلى أي نقطة غريبة يمكنها إحلال الفراغ الكبير بين تلال كرري ومن ثم يمكنهم التوجه جنوبا وتحسين خط الرجعة للقوات للدفاع ، عندما أحس العقيد برودو باستحالة الدفاع عن الموقع سحب البطارية إلى نهاية المرتفع الشرقية ، وما إن انكشف الفراغ (المحوض) حتى فقدت فرقة الفرسان التي تابعت الانسحاب ، ٥ رجلا وعددا كبيرا من الخيول والجمال ما بين قتيل وجريح . كان موقف المعانة في متهى الحرج ومعهم الجرحى بين الأفراد والجمال وقد ظهرت صعوبة الأرض والحجارة وظهر أن الدراويش استطاعوا التقدم سر ١ على الأقدام أسرع من الجمال ، وقد استطاعوا وهم على سرعة ٧ أميال في الساعة ، يبدون إحاطة من منضية الزريعة أو مناطق للفوتوس المحروقة بالخيول حجم ٧ ارطال عتبة النفع في مثل تلك الظروف ، استطاعوا تقليص المسافة بينهم وبين أعدائهم . ما قرر برودو أن يرسل للنجاة واحدة إلى الزريعة ، تحت حماية منضية إحدى البوابج التي كانت تراقب العملية وتركت لتقدم أي مساعدة للقوة المنسحبة . كانت المسافة بين المقاتلين بالكاد ٤٠٠ ياردة وتناقص كل دقيقة . فرقة

الفرسان سحبت عرضاً ، على الناحية الشرقية للحوض والناحية النهر . استمرت
 ديران المأوئ من مواقعها الجبلية شمال للترفع ، ولكن كانت فرقة المشاة مارالت
 تناضل للخروج من الأرض الرعوية . غطت قوة الدراويش الجانب الجنوبي من
 المرتفع بأسراب من اللون الأصفر اللؤلؤ ، وبغير عناية بالقلائف التي تمسك عليها من
 ناحية الزرية ، استمرت في تنفيذ خططها الهجومية . شعروا أن الفرصة تحاول
 الحرب كجيران جريح إلى حيث قوات مشاتهم وبخبرة تجارب الحرب ليدى الجندي
 الوحشي ، وهي أحد مورثاتهم ، اتفقت القوة إلى اليمين وغمرت اتجاهها من
 الشمال للشرق وانتفعت حول الحوض على طول الجانب الجنوبي ناحية النيل . كان
 هدفهم عند ، أن يفصلوا قوات المشاة وبطاردها داخل النهر .

كانت اللحظة حرجية جداً وبدا لقائد الفرسان أن الدراويش سوف ينهضون
 بما يعني تدمير قوة المشاة الأمر الذي لا يمكن السماح به . استعدت فلبسها التسع
 للفرسان وأصبح احتمال الصدام مع أسراب قوة الدراويش للندفة داخل الحوض
 كبيراً . تحويل مستأثر المشاة ربما ساعدها في الحرب ، لكن طبيعة الأرض ميفة للغاية
 وقوة أعدائهم مهولة . كانت مجموعة الفرقة المصرية مستعدة لإطاعة الأوامر ، وهذا
 كل ما في الأمر . ليس هناك أعظم من لحظات المجلس في مثل تلك الظروف يمكن
 أن تورد أو ترفض طريق النصر بالذم ولكن كانت المركبة حتمية ولا مفر منها ،
 ربما رجح القليل منهم سائلاً ، ولكن لا خيار غير للمركة . كانت فرقة المشاة قد
 التزمت من النهر وآلاف الدراويش يركضون نحوها ، بزوية قائمة نحو غط
 الرجعة ، لا أمل في نجحتهم لو حاولوا الاستمرار لاستمررت قوات العدو ، أي محاولة
 من هذا القبيل معناها فناؤهم . الخيار الوحيد أمامهم أن يهبطوا في مواقعهم قرب
 النهر ويدافعوا حتى يهبطوا الدراويش لحين وصول النجدة وكان على الفرسان
 القيام بمحور يساري .

في اللحظة الحرجة وصلت البلرحة إلى قبالة موقع العملية وبدأت إطلاق سيران
 رشاشات للكسيم ، مدافع سرعة الطلقات والبنادق وكان للذئد قريباً والأثر رهيباً
 وهي تظهر على سطح الماء مظلمة ، شيطان أبيض جميل لغت حولها الدخان ،

سفوح تلال كرري عوج بالآلاف الرضحيون الذين يقفزون في الهواء ويتحولون إلى سحابة غبار أو حجارة متناثرة. تكومت قوات الدراويش أكواما على الأرض، وققت الكتل البشرية في للخرقة مختارة أو مترددة، كانت النيران حامية حتى عليهم هم، وصول بلرحة نارية قبالة للوقع كانت كثيفة لزورع الياس في قلوبهم وبشمال مشروعههم. أسرع فرقة لمحققة على طول الشاطئ ثم عبرت نقطة الالتئام المينة وشاعلوا السلامة والزينة لهمهم.

نسبة بحية الأمل الكبيرة هذه، وجه حدود عثمان شيخ الدين نشاطهم نحو فرقة الفرسان هذه للمرة يونسوا في غمرة غضبهم طبيعة الفرسان للرنه والمتحركة، طاردوهم لمسافة ٣ أميال ناحية الشمال. سعاد هروب فرقة المحاربة، قرر العقيد برودود أن يلعب مع عدوه لعبة القور وللصارح يولجح في جذب هذه القوة من جيش الدراويش بعيدا عن أرض للمركة البقي كان تحتاج وجودهم بشدة وأمر حياتهم على عطة للخلقة كان مدمرا.

طبيعة الأرض في الحوض قد عطلت مدافعة الخيول، غرمت منها التئام في أرض موحلة، أصيب بعض الأفراد والخيول وهم يحاولون إلقاءها، هنا أمر العقيد برودود الجنود للتخلي عن اللدنيين، سرعان ما وصلت كتل الدراويش، شجعنها هاء الغنمة، هاجم فرسان عثمان بكل حراسة قوات الفرسان للفتهرة ولكن تصدت لها سرية بفاعلية تحت قيادة الرائد سامون.

الباراجان، بعد أن شجعنا هروب فرقة المحاربة بسلام عادنا مع التبار ووجهنا نوان مدافنها على قوات الدراويش حتى اجبرناها على التقهتر ناحية الصحراء من الغرب، بعيدا عن النهر عندما أسطوت هذه المنطقة، عاد برودود لينضم للقوة الرئيسية والخط لللدنيين الذين كانوا قد تركوا في الوحل وعاد بها للمسكر.

بينما كانت هذه للمارك تجري في القطاع الشمال، استمر الحكور في واجهة الزرية. وانضمت قلوب حملة الرايات البيضاء لبقية القوة فكثروا حوالي ١٤ ألف رجل يتقدمون نحو العدو يطأن جهورا من تشكياتهم، بالمحرم مجموعات مسخرة

بدلاً من زحف الكتل البخرية ، وقف التقدم على بعد ٨٠٠ ياردة من موقع الفرقة البريطانية ولم يستطيعوا كسب أي أرض . في مواجهة الفرقة السودانية التي كان أفرادها مسلحون ببنادق مارتن هنري ، وصل للقائهم إلى مسافة ٣٠٠ ياردة ، وصل رجل عجوز شجاع وهو يحمل العلم إلى ١٥٠ خطوة من الخندق ولكن كانت للتيحة إيجابية على طول الخط للواجهة ، قدم تدمير المحجوم . قائدهم في جهته للزركشة ذات الأكران العديدة دفر بفرسه نحو الثيران التي لا ترحم حتى انحرقت مجموعة من الرصاص ، سقط بلا حراك ، هكبنا كانت نهاية ذلك للقتال العبد الذي عاض معارك كثيرة عثمان أزرق المنهد ، فكان غلبا حتى للموت جلس الناجون من القتلوش على الأرض غور وانهبون في التراجع واستمر حملة البنادق منهم في إطلاق رصاص بنادقهم في قتال غير متساو . عندما حانت الساعة الخامسة كان واضحاً أن هجومهم قد فشل وكانت خسائرهم ٢٠١٠ قتيل ، وعدد مائل جرحي . بالنسبة لفرقة المشاة للحملة اللين كانوا مشغولون مع بنادقهم لم تظهر لهم المعركة حقيقية . بالرغم من هذا فإن الرصاص الذي ظل يدوي فوق الرؤوس ودخل الصنوف قد أسفر عن بعض الخسائر وكانت هناك وفيات في كل كتيبة . قتل النقيب كاتلي كوت في فرقة ورويكشور وجرح اثنان من فرقة الكمرون ، النقيب كلارك والملازم نيكلسون جراح خطيرة ، حرس القرباديرز النقيب بالقوت . القيد أنه رودي جرح بين كتيبة وهو على ظهر حصانه بالقرب من بطارية المكسيم للفرقة البريطانية في اللواء الأول ورحل بعيداً عن أرض المعركة عندما كان المحجوم في قمته .

كان هناك بالإضافة لولاء الضباط ١٥٠ قتيلاً من الجنود ، ضعف المحجوم ولكن نيران بنادق العدو استمرت وبدأت تحدث أسراً بمجرد أن سكنت الثيران الثقيلة . كانت الأرض ذات تراجعات ومنخفضات ، استعملها رماة العدو كساتر والكتل المكثرة خلف التورية كانت هدفاً سهلاً . هنا بدأت النخبة في تطهير هذه المنطقة وكان أثرها كقوة مستكشفة فعالة . كلما سقطت دقات للنخبة على هذه المنخفضات ، غص حملة البنادق والحرب للهزب منها ليصبحوا هدفاً جيداً

ارشادات للكسيم ورمضان يتناقض للشاة التي تصرعهم على الفور ويسقطون على الأرض بعضهم موتى وآخرون مرهقين. وتسقط حبات أخرى تجرحهم على الوقوف، تكررت عملية للكسيم ويتناقض للشاة التي ترقب للوقوع باهتمام في تساقط المهاجمون ، كل مرة ملحدهم قتل من ذي قبل حتى أعطيت للمنطقة الواحدة للزريبة لمسافة نصف ميل من أي قوة معادية . حرب قلعة ، والبعض الآخر والمضيق أمام الرديلة والدمار الذي خلق بهم ، حملوا جرحهم بكل النجوة والعزة ، من زملاء السلاح ورجعوا بهم للخطوط الخلفية . بعد أن تم القضاء على المحرم وتم تطهير منطقة الزريبة من أي فرد من الدراويش، طلب من فرقة الثلاثين ٢١ مرة أخرى أن تقوم بمهمة. اتفق السردل وجنرالاته على نقطة واحدة وهي وجوب الاستيلاء على المدينة قبل رجوع قوات الدراويش إليها إذ يمكنهم مقاتلة أي عدد من الدراويش في هذا السهل لكن داخل البيوت الأمر يختلف. وكما توقع الخليفة كان الكفار متشبهين بانتصارهم ، يريدون دخول المدينة وإن كان لسبب مختلف وهو أمر في مقدورهم تمامه الآن. كانت أكبر قوة للعرب الآن بمدينة في الصحراء وجزء كبير منها في قتال كرزي . يمكن للقوات أن ترحل نحو الخطوط الداخلية ويمكنهم وصول أم درمان قبل قوات العدو . لابد من استطلاع سلاح نل سرغام ثم المنطقة الواقعة بين الزريبة وأم درمان وتطهرها من الدراويش ، باشتراك قوات المشاة إذا دعت الضرورة . ولكن الأفضل من طريق فرقة الثمانين لأن ذلك أسرع .

بينما يهاجم أفراد الجيade وقف أفراد الثلاثين بجانبهم ، جاء الجنرال كاتاكري مع النقيب بروك وبقي القادة يركضون بجوارهم عند مواجهة فرقة الفرسان وللحمية وصاحوا للعتيد ملوقن . بعد عادثة قصوة ، وإشارة نحو المنبح، كان الأمر ، أمرنا إلى جيلانا ، نظمنا جنود العصف وسع ترقب المعركة ، بدأنا التحرك ، كانت هناك دوريات تركضان أمامنا نحو المربع وبقيت الفرقة تواصل التقدم .

كما عبارة عن مربع من الأشكال البنية الصغيرة هو للمهمة مع حيول صغيرة احدهم متلفين بزحافات المياه ، شغل السروج، عصي الوقوف ، علب البولي

ينف، كلها تصارع معاً، المعلن، أيام السلم قد ولت، جود أصبحوا يبدون وهج،
 خيالة بدون زهو، ولكنها على أي حال فرقة فرسان حمزة لمركة مع العدو.
 كانت أرض المرتفع على بعد نصف ميل، وكانت عالية من أي أفراد تلال
 سرغام قد حجب الرؤية عن الاحباطي الكبير الذي احتشد تحت لطمم الأسود.
 جنوباً السهل بيتنا وأمام حومان مكشوف، إلا فلول الدرويش، مجموعات صغيرة
 من ١٠ أو ٢٠ فرد بعضها راكبا والبقية يمشون وعلى بعد ٣ أميال، سبل عن بعض
 من النازحين والجرحي في طريقهم للملجاة، السراب طمس الصورة فكان بعض
 الأعراب يمشون في الصحراء وآخرون على سطح للاء وكأفا ضباب، غير حقيقي،
 كان المنظر كافياً ليعر حية الفرسان للمطاردة، ولكن الجماع للتشرة على السهل
 منعت ذلك. أرسل ضابط الإشارة رسالة إلى المردار بأن المرتفع محال من
 الدرويش، ولكن هناك آلاف منهم يجهون نحو المدينة. ونحن في انتظار الأوامر
 شاهداً ناحية الشمال في المنطقة التي شهدت صد الهجوم أمام القرية أشكال
 مبهمة في كتل طولها حوالي ميل. النظارة كشفت الأمر، كانوا مئات الأفراد
 الضخمة أحجامهم يلبسهم الأبيض، مكمسون أو متشبهين، يمشون، بعض
 الخيول والقة بين الخث في غيط وذخول وبعض الأفراد الأصحاء يمشون زملاهم
 الجرحى. بدأ أفراد المقاتلون الذين يحتلون المنطقة المحمية من تلال سرغام تسلط
 رصاص بنادقهم نحو الفرقة، محبطين حول تل تروبي وباعد تلال من الفرقة المرد
 برصاص غدارهم. بدأت الإشارة من القرية في إرسال رسائل مسرعة وعاجلة
 كان الأمر مهماً، قوة العدو تحاول الرجوع للمدينة، يجب منعها بكل السبل
 والوسائل. أمر ونحن وصريح لا شك فيه، ويجب تنبيهه أرسلت دوربان،
 المجموعات الصغيرة المنتشرة في السهل وتلك التي طس مسروح التل كانت تحتاج
 لسرية كاملة لتروبي الأمر حتى لا تأتي النتائج بكثرة، تحركات الدورية الأولى نحو أم
 درمان، شاهداً الجماع الصغيرة وأطلقت عليها النار في حمل طاهر. الدورية
 الثانية اتجهت للاستطلاع بقيادة الملازم قريشي قبل لاستكشاف الأرض على طول
 المرتفع وحد السفوح لتل سرغام.

حالة البنادق المتحصنون خلف الصخور حولوا نيرانهم من الفرقة إلى الأهداف القريبة منهم ، كانوا خمسة تسيروا خلف الأرض الوعرة ، لكن النيران المستمرة جعلتهم يخفون . ظهر مرة أخرى بعد دقائق ، لكن تحت غطاء نيران الفرقة على التل ، استطاع الثلاثسزز الانسحاب ، ضباطهم في اللوحة - صرح بأن التل آمن من الناحية الأخرى بنفس الفكر عند موقعنا الحالي ، عادت الدورية الثانية هم أيضا حالفهم الحظ وكانت معلوماتهم صحيحة ، بلغوا عن وجود قنوة من الدراويش في حدود ألف رجل على نقطة تشبه الخور جنوب غرب على بعد ثلاثة أرباع الميل بين الفرقة وجموع النازحين قرر العقيد مارتن المحرم بناء على هذه المعلومات ، لأن هذه القوة تطف وحدها بينه وبين خط الرجعة للدراويش ، وبدانسا .

كل هذا الوقت كان العدو مشغولا ، ترك الخليفة قوة من ٧٠٠ مقاتل في أقصى اليمين لتأمين خط التراجع لأم درمان . كانت هذه القوة مكونة من قبائل الهندوة تحت علم عثمان دقنه يقودها أحد الأمراء من مساعديه ، اتخذت لها موقعا استراتيجيا داخل الخور . ما إن تركت فرقة الثلاثسزز ٢١ الزريبة حتى أحبطت الخليفة من قبل رجال دوريته في أعلى تل سرخام أن الفرقة الإنجليزية تحركت لتقطع خط رجعتهم لأم درمان . في الحال أمر الخليفة بقوة أقصى يمينه وأرسل أربع فصائل كل واحدة ٥٠٠ مقاتل وحشدت في اللواء تحت العلم الأسود وبقيادة إبراهيم خليل أمرت لتقوية عثمان دقنه عند الخور . خرج هؤلاء الرجال بينما كنا ننتظر الأوامر فتحجبهم منخفضات التل وانضموا لقوة الخور . كان الثلاثسزز قد استطاعوا هذه النقطة ، بمعاطرة كبيرة وكان بما ٧٠٠ رجل من الهندوة قد رحلوا وبلغوا أن النقطة بما حوالي ١٠٠٠ رجل ، كان العدو قد زاد إلى ٢٧٠٠ رجل قبل أن يصل الثلاثسزز للفرقة وما كان في مقلوبهم معرفة ما استبعد من أسمر . بعد أن أرسل الخليفة المدد ، جاء على ظهر حماره مع قوة صغيرة إلى ناحية الخور على بعد ٥٠٠ ياردة ليشهد الحادث .

بعد أن غادرت فرقة فرسان الثلاثسز (الرماحه) شمال للارتفاع توخف العرب عن ضرب النار . المجموعات المتناثرة للدراويش انضمت واجبة بخريطة من الرجال

دوي لللباس الأزرق كانوا يتظرون بلا حراك على بعد ميل من شمال المقدمة .
كونت الفرقة صفوف تقدم وتقدمت حتى مسافة ٢٠٠ ياردة من تلك المجموعات .
لقد انتهى صرب النار تماما من وراء للرتق وساد الصمت ، لحظة بعد الضوضاء
السابقة . وخط صفوف للتو لو يش الأزرقاء كان للباريون يواصلون مسوهم لأم
درمان . هل تحتاج هذه التل من الرجال للخصاء إلى قرقة كلمة ؟ .

كان من الضروري حراسة للوقوف في جناحهم الآخر قبل إرسال سرية لهم .
انطلق قادة السرايا للشمال يبطء وبدأ الرماحه في اختراق الصفوف الأمامية للعدو
في اصطاف تقدم ، عندها وبحركة موحدة مسدد ذور اللباس الأزرق على ركبهم
وانطلق صوت انفجار الرصاص ، ما كان يمكن لأحد أن يتطويع مثل هذا الهدف
السهل وعلى ذلك للذي القصور ، سقطت للباريون والرجال في الحال . شاهدنا
القائد الذي كان أقرب للموقع من فرقة حث للقاتلين وأمر بتشكيل تقديم
هجومي ، صندحت أصوات البروجي ، صحت كهمن بين أصوات الانفجارات ،
في تلك اللحظة تحركت التفاصيل الست عشرة استعمرت وراحت تركض في ضف
طويل وهكذا جاء أول اشتراك للانسوز (الرماحه) في الحرب .

على بعد ٢٥٠ ياردة كان الرجال الأزرق يطلقون رصاص يطلقون لكن
رصاصهم سقط على الرمل وأثار الغبار الكثيف ، حين انظر أفراد الفرسان إلى
جانب الخوذة للأمام لحماية وجوههم ، تماما كما فعل فرسان الكوراساز في معركة
ويترلو . كانت الخطوة مسرعة وللأسفة قصيرة ولكن قبل أن تقطع نصف المسافة
فجأة تغير للوقف كله . ظهر مجرى ليد الأمطار حور صفور في منطقة كنا نحسبها
سهلا منبسطة وسرحت فجأة من داخل هذا الحور كتل بشرية بطول فرسنا وبعمق
١٢ بحسوة من الثارين والخيول كلهم نبست شيطاني أو محال للباتيوم ، ومعهم
دسته أحلام زاهية ، انطلق مقاتلوهم إلى الأمام لاستقبال الصدمة وبقي الآخرون في
ثبات لا يتظارنا . كان رد فعل الرماحه لهذه المفاجأة بزيادة سرعة الركب حتى
يستطيع كل فارس تخطي هذا الصف للنيع ، الفرسان على الأجنحة انصمت
للداخل في شكل هلال ثم ذلك في ثوان معدودة وتلقا العدو يطلقون رصاص

بنادقهم بشجاعة للنهاية لكن عيول الجبال جرفهم أمامها وسقط معهم داحس
 الخور أكثر من ٣٠ فارسا من الرماة وأكثر من ٢٠٠ عربي سقطوا أيضا ، كانت
 للفاخنة مدلة للحميين ولشعر ثولان لم يتجه أحد لعدوه ، الخيول للفرزعة تقفز
 وسط الحشد رجال يروحون فترهم للفاخنة يتكلمون يناضلون في بلاهة ، بعض
 الرماة كانت لتهم القرصة لامتطاء عيولهم مرة أخرى لولا أن ركبت حملتهم
 حية الفرسان ، كراكب يتخذ في حشد مصفوف شسق الضباط طريقهم كاللنجمار في
 قلب لوح الخشب تبعهم الفرقة فقتلوا جيش الدراويش حتى هربوا للجانب الأخر
 للمصور تاركين بعض القوة وراءهم ، بينما وصل آلاف العرب المحصور .

هنا فقط بدأ القتل وبهذا شاهد كل رجل العالم غلال رعبه تحت معدنه أو
 في كعب مسدسه وكان لكل واحد قصة غريبة يرويها .

من النادر أن يتقابل سلاح مشاة هندي مع فرقة فرسان غومهورزة ، إما أن
 تركز قوات المشاة ويتم دحرجهم في القتال ، أو ترفع رأسها وتطلق الرصاص على
 الفرسان حتى تبيدهم

في تلك اللحظة تصادم حائطان بشريان مع بعضهما البعض ، حارب
 الدراويش برجوة حاولوا إصابة ركاب الخيل ، أطلقوا رصاص بنادقهم حتى
 لامست براسير بنادقهم أحساد أعدائهم ، قطعوا أرومة الجناد ، رموا حرايمهم بالسوة ،
 استعملوا كل الأساليب المعروفة في الحرب لقتلة الفرسان وشهروا سيوفهم الحادة
 التي تفرس حيقا . كان قتال رجل لرجل قد انتهى بعد دقيقة واحدة تقريبا ، لم
 بدأت الخيول في العدو وتخلص الرماة من أعدائهم وبعد دقيقتين من الصدام
 المروع كان كل فرد حي خارج دائرة كتل الدراويش أما من سقط فقد تم طمسه
 بالسيف حتى سكنت جسده ، لكن لم يجر أي عمليات فنية للتجميل بالحدث .

وقعت العرة على بعد ٢٠٠ ياردة من العدو ، نظمت صفوفها وفي أقل من
 خمس دقائق كانت قد أثبتت لمصطافها للهجوم الثاني ، كان الرجال حريصين على
 العودة شاقين طريقهم بين أعدائهم . كنا هنا وحيدون ، فرقة الفرسان ولواء
 الدراويش وقف المرتفع كستلر بيننا وبين الجيش ، فسينا للفرقة الرئيسية كأنما لم

تكن ، هذه مشاجرة عاصية ، للحركة الأخرى وبما كانت مجزرة بولكن هنا القتال متكافئ وعادل لأننا نحن أيضا نحارب بالحرب والمصروف وفي حقيقة الأمر إن لمم ميزة الأرض والقعد ، ظهر أن الجميع حريصون على تسوية الحساب في الحال وإلى الأبد .

بدأت تكاليف محمدا الطائشة والورطة تظهر للمسعولين . بحلول بدون بمالة نجرى فوق السهول ، رجال متعلقون بمروجهم والقضاء توقف من أكثر من حرج ، بحلول ثمان آثار الطعان القليلة ، تخرج ، وغرسا على ظهورها . في ١٢ ثانية لقي ٥ ضباط و ٦٥ رجلا و ١١٩ حصانا جرحوا من بينهم ٤٠٠ .

بدأ صف الدراويش الذي تكسر من المعجم في إعادة تنظيم أنفسهم تقضوا منهم الفهار واستعملوا الحركة ثانية . كان من الناحية العسكرية من الضروري إصرارهم من الحور وهذا للضعف حتى نجرهم من هذا السائر الطبيعي . تخركت كتبة من ثلاث سرايا في اصطاف معركة وسرية اصطاف تقدم وانجها بمنا حول جناح الدراويش ، ترجلنا وأطلقنا رصاص مسدساتنا غنمهم الرصاص بثينة فاستداروا لمواجهة هجومنا وبذلك كونا زوية قائمة .

الحقيقة ، كانت الثوبان دقيقة وبما لا شك فيه فقد كان الأثر الحوري للهجوم عظيما وقد هز هؤلاء الرجال الضعفاء . ولكن بالرغم من كل هذا تراجع الدراويش بشكل منظم وانضموا لقوات الخليفة تحته العلم الأسود عند للال مرغام ، بنيت فرقة الرماحة في حراسة الأرض التي استولت عليها وسبع حث مؤلهم .

كان هذا سردا حقيقيا لأحداث المعجم ، ولكن للتصاري أن يطسي بمس الاعتبار لأحداث أخرى ، لفقد مفرز الذي كان مشغولا بتوجيه الفرقة ، لم يشهر سيعا أو مسدسا وركب وسط كل هذه الجموع بدون أي سلاح ولم يخرج . صرب الدراويش حصان الرائد كروول ولحق هام وح على ظهره ، بعد أن عرس ماسورة بدقيته في جلد الحصان ، مع كل هذا استطاع الرائد كروول وسط هذا

الخشد الوحشي أن يسير على قنفيه إلى بر السلامة . للالازم مولينكس سنفط في
 الخور وسط الأعلاء إلى وسط هذا الاضطراب غصن وشهر مسدده وقصر من
 الحفرة ، استعداد الدرويش وعيهم بعد صدمة المحرم عليهم . أطلق النار على أفرعهم
 إليه ، في هذه الأثناء قطع لمر رسنه الكن . سقط للسفن من يده النابذة ، بجروح ،
 ولعلا وبدون سلاح ، توجه أنظاره إلى اللحاق بتقدم سريره التي كانت قد عوت
 للجانب الأخر ، العدو من خلفه للإجهاد عليه محاصرا من كل جانب ومطاردا
 بكل قوة ، شامد الضابط الجريح وراح واحد على حصانه في طريقه صاح إليه
 للمساعدة ، جاء الجندي يوتي والذي كان مصابا برصاصة اخترقت يده اليمنى ،
 صاح بدون تردد كله تمام يا سيدي ، انتف وحجم على الدرويش الأربعة الذين
 كانوا يطاردون الضابط لفته ، أشهر سيفه لكن يده المروحة لم تجعله يسقط من
 يده وأصيب بحربة في صدره ، لكن محبته قد أهدت الدرويش وحاد للالازم
 مولينكس سلفا إلى سريره . عندما شعر الجندي أنه قد أضر هدفه ، ركض إلى
 وحدته عند وصوله شامد الضابط حالته وطلب منه أن يترجل لكنه رفض وطلب
 أن يسمح له بمحرم أمر عليهم . أمروا اضطر أن يترك للبدان وسقط مغشيا عليه
 لفاته كمية كبيرة من الدماء .

كان هروب اللالازم نيشام أكثر غرابية من هروب مولينكس ، كان يهم
 بالخروج من الخور عندما لوقف حصانه ، مسك حربي بطم حصانه ، ضرب للالازم
 الرجل بسيفه ولكن لم يمنع هذا من أن يتجج الحربي في قطع اللحم . عندما طارت
 يده في الهواء في لحظة كاد يفلح حربي أن يفصلها من جسده بحربة واحدة ، لم
 طعنوه من كل اتجاه طعنة اخترقت محذته وخقت رأسه طعنة أخرى تركت جرحا
 عميقا في قدمه اليمنى ، وأخرى لاقتها دروع كفه ، شطت ذراعاه اليمنى ، طعنتان
 تقادما ، قطعنا المرح وجرحنا ظهر الحصان . الضابط الجريح كان أصغر فسرد في
 القوة ، قصر كل قدم من قدميه رجل محاولا إزالته من ظهر الحصان ولكن المرح
 الطويل تثبت بأعقاب حصانه عندما شب الحصان المنحون برأسه مندفعا إلى الأسفل
 مارقا من بين الأعلاء حاملا فرسه ، ينزفه مغميا عليه ولكن لا يزال حيا ، إلى بر

السلامة بين القسرايا الراكبة . تجرمة للالتزم تيشام ككثت تجرمة الرجال الذين قتلوا ، بما هو ليصفها نسا .

أرسل البحر حتى مع قوة عطلة الى النهر والى مستشفى للبلدان وأرسل صابط بالأخبار . في نفس اللحظة بدأت المدافع تطلقها بمدات البنادق في إطلاق الرصاص في تتابع خلف المرتبة . واشتعلت أصوات الانقضارات حتى طغى صدها على كل سطح الأرض وبدأت المرحلة الثانية للمعركة .

حتى قبل أن تستكشف فرقة اللانسر ٢١ (الرمحية) مرتفع جبل سرغام ، كان السردار قد بدأ عطلة التحرك للواءه لكي تتوجه وتحمل أم درمان وهي عالية وقبل أن يرجع جيش الخليفة من السهل لمدافع عنها ، ميزت هذه الخطوة جيدة ولكن الحركة كانت سابقة لأوانها وفي منتهى الخطورة . كان الخليفة لا يزال غير منهزم في تلال سرغام على ودخلوا لا يزال مترجعا في كردي وعثمان كان يهبط ترتيب قواته . كان هناك ٣٥ ألف رجل في ميدان الحرب وما كان في الإمكان دعول أم درمان قبل القضاء عليهم كما أثبتت الأحداث لاحقا .

بعد أن جددت قوات المشاة ذخيرة ما تحولوا عمالا كمجموعة لواءات متجهين نحو مرتفع سرغام ، كانت حركة القوة العظيمة بطيئة وليس من الحكمة وضع القوة البريطانية التي كانت تقود الطامور ، في منحدر السفوح شمال سرغام . ليس أمامها مجال للبركان وسوف لن تزي أي شيء . وعليه تحرك اللواءان في نفس الوقت لاحتلال أرض المرتفع تحت عطفوان في عطوة واحدة ، وكان لواء ماكسويل الذي تبع لواء ووشوي سيتلون على بعد ٦٠٠ ياردة جنوبا إذا نفذ الأمر الأول بالنسبة للتشكيل في الزريعة كان لواء ماكسويل الذي حوّل ماكسويل لكن الترتيب تغيير الآن ، توقع الجنرال أن مؤخرة التشكيل سوف تكون مبهدة مسن ناحية كردي . هل تشقت الأرض واجلعت معات الآلاف من قوات العدو الذين تحركوا من السهل ناحية التلال ؟ لابد أن يضع قوتي قواته وأكثرها قوة في أكثر من موقع توقعه للخطر . لذلك أمر لواء لوميس بتبع لواء ماكسويل ، وترك لواء

ماكثونالد أخطر التشكيل مع تقويته بثلاث بطاريات مدفعية وثلاث مائة مدافع مكسيك ، كولينسون تحرك مع اللواصلات .

تحرك ماكثونالد غربا ناحية الصحراء ليأخذ مكانه في التشكيل ولكي يترك مجالاً للواء لوبيس كما سجلت الأوراق . أسرع لوبيس عطف ماكسويل وأخذ مكانه وسوف بعد مسافة ٦٠٠ ياردة جنوباً حسب ما يسمح به التشكيل . الخطوة التي اتبعت في إرسال الفرق البريطانية معاً قد تركت فراغاً بين لواء ماكثونالد وبقي القوة وتزايدت هذه الفترة خاصة أن ماكثونالد كان يتجه ناحية الغرب بينما تتجه اللواصلات الخمسة ناحية الجنوب ، وهكذا عزل لواء ماكثونالد .

في الساعة الخامسة والربع تحرك كل الجيش في تشكيل تقدم نحو الجنوب والواء في المؤخرة على ضعف المسافة للمجموع هما ، تحرك كولينسون مع اللواصلات لكن بقيت مستشفيات الميدان وحدها في القرية المهجورة ، مشغولة بجميع الأغراض والنسبة . كان المستشفى ٦٥٠ جريحاً أسر السرمدان بوضعهم في الصنادل المجهزة طيباً . على أن تلحق مستشفيات الميدان بقوة الجيش ووحدة اللواصلات . كان تحرك الجيش أمراً بالغ الفسح وبسرار في متصفي الغباء تركت الصنادل المجهزة طيباً لاستقبال الجرحى على الجانب الأيمن للنهر ، استعملت صنادل للمخيرة لتقلهم . الوقت مضى والأطباء يعملون بكل قلان وجهد عساري . ضجاء اكتشوا ليست هناك حماية لهم والجرحى إلا بعض ضحايا من بقية الفرق البريطانية والقوة للصرة وهي بعد نصف ميل ولا توجد قوات بينهم وبين لال كرري لذاك . البارحان اللذان كانوا يمكن أن تكونا مصير تأمين ، قد سحبا لمعاونة قوات المشاة جنوباً ، ماكثونالد مع لواء المؤخرة بعيداً في السهل ، كولينسون يسرع على شاطئ النهر مع اللواصلات . كثقوا وعطشهم وسدون أي حماية الجيش والنهر حرف في باتجاه الجنوب ، مضى ريدان قطع ثلثاً نحو جبال كرري ، ومن كرري بدأت تظهر علامات تخليق قبل العاصفة المطيرة ، مجموعات صغيرة من فرسان الدراويش . دخلت هذه الدوريات المتقلبة إلى داخل شكل القى وشوهدت مجموعة من الفرسان بقيادة تسقي بحولاً على بعد ٣٠٠ ياردة من المستشفيات

غير المحروسة أو الخفية . على البعد ظهرت أصلام العدو ، كانت اللحظات حرجية ، المرحى الذين كرموا في الصنادل وليس هناك باخرة تقطر عسماً للشاطئ الآخر ليسوا في مأمن الآن أكثر عما كانوا عليه قبل أن يجولوا للصنادل . بينما شغل الأطباء الضباط أنفسهم ، ظهر العقيد سلوويت عجولاً متحملاً قرصان البقارة وأسرع لحماية المستشفيات وشاغليها الذين لا حيلة لهم . في أثناء هذه اللحظة المضطربة بدأ وصول جرحى لشدة تيمحه للحموم الدافس .

بعدما تحركت الفرق البريطانية من الزريبة كانت هناك متلوحسات بين تلال مرغام دلت على وجود أفراد للعدو . تشكل كل لسواء في أرباع تقدم متساوية حتى انضمت الألوية على بعد ٤٠ خطوة من بعضها البعض ، تتلشر للداسل ، اللواء الثاني قرب النهر ، اللواء الأول في نفس الصف وعلى يمينه ، أسرعت جميعها لتتري للشهد وما يقع خلف المرتفع . وما انتظمت الألوية في تشكل التقدم حتى تعرضت لنيران من أعلى سفح الجبل ، لم يلتفت السردلو ولا كثرته لتلك النيران تاركاً الأمر للفرقة السودانية ، وصلت القوة لسطح المرتفع وفي الحال ظهرت كل بالوراما أم درمان أمام أنظارهم ، قبة للهدى البنية للهدمة ، بيوت الطين للرصوصة ، ولسان لئاء اللامع معلناً عن مرقن النيلين . للحظة وقفوا مبهورين ثم انهم اهتمامهم نحو ما يقرب من ١٢ حصاناً بلون راكب ، جلوت واكفاه نصف محارة تحلق فيهم ببلاحة ، جاءت من أسفل السهل الذي لم يظهر لهم بعد ، كانت أول إشارة لمجوم لفرقة الرماحة . التفاصيل بدأت تصل مع وصول أول دفعات المرحى بين الكالك ، تلطي الدماء أجسادهم ، بعضهم جروحاً خطيرة ، وجوههم ممزقة ، أحشائهم خارجة ، حراب مثل منارة السمك لا تزال طاحمات أجسادهم ، سرد حقيقي لجواري مظلمة من الحرب . شغل هذا للنظر الأفكار عن الرصاص للنهم من قمة التل فجأة تحولت الأنظار ناحية تضطر يأتي من الخلف ، كانت بطارية للدفعات بين الزريبة والمرتفع تصب نيران مناضها على قمة التل . كانت هذه الطلقة كأنها إشارة للمعركة كي تبدأ . جاءت من اللوحة أصوات رصاص المشاة ومنها أمر الجنرال كاتاكري قواته بالتوقف .

حين قبل استيلاء القوات البريطانية على الأرض للسطحة للمرتفع وحينما كان العقيد سلوويت يقطع المسافة في المنطقة الخطيرة بين النهر والجيش أحسن السردار أن العدو يستعد له . حينما نظر للحطوف في سفوح مسرخام وجد أن ماكدونالد ذلك القائد المحضرم قد أوقف تحركه ، وبدأ بتشنر قوته استعدادا لشحن المعلوم . كان قد اكتشف قوات كبيرة للعدو على الجناح الغربي لسرخام ، أمر بطائرات الملقحة الثلاث بفتح نيرانها ، بعد خمس دقائق ظهرت القنوة للهولسة تحت الراية للسرداء ١٥ ألف مقاتل تحت قيادة يقرب ، بالإضافة لقوة الحرس (اللازمين) وكل أجناد إمبراطورية البرلويش ، خرجت من خلف التلال مستعدة لاجتوم جديد فرصة بخمسة ثلاثة أضعاف المعلوم السابق .

أمر سر هوبرت كينشنر ماكسويل لتسير وجهته إلى البدن بهاجم كل سرخام ، وأرسل القائد ساندباخ إلى لويس أمرا بإعادة أن يحاذي لواء ماكسويل من يمينه ، ركض بنفسه للقوة البريطانية التي لوقها الجنرال كيتاكاري في الوقت المناسب على السطح الشمال للمرتفع وأمر ليتنون مع اللواء الثاني أن يشبك ناحية الغرب على هائل ماكسويل وجنوب سرخام وأمر ووشوب مع اللواء الأول أن يسرع لسد الثغرة بين لويس وماكدونالد ، وأمر لوسل إلى كولنسون وفرقة المحانة أن يستديروا إلى جهة اليمين لكي يملأوا الفراغ في شكل في الجيش . معنى هذه التحركات أن يتحول الجيش من اتجاه نحو الجنوب مع شماله على النهر ويمينه إلى الصحراء عليه أن توجه غربا شماله للصحراء ويمينه ناحية النهر ، تسير "تلقبة" كاملة .

إطاعة لتلك الأوامر تحرك ليتنون بلواقه بتشكيل جهة غربا ، تسبق لواء ماكسويل مع الفرقة السودانية تسلل مسرخام وطسهرود مسن قنوات ليعملوا بالسلاح الأبيض والتعوا حول الجناح الآخر ، بدأ لويس تشنسلطه على يمين ماكسويل أما ماكدونالد الذي واجه القوات الفرنسية للخليفة فقد استمر في موقعه الجنبوب الغربي تغطيه سحاب الدخان لتنبعث من مضخه ورماسه بتادقه . هاجمت الأكرية الثلاثة وهي تنج ناحية الغرب ويمينا عن قليل ، الجناح الأيمن فرقة البرلويش التي كانت

تحاصم ماكسويل وأجرحهم على تكوهم من جهة تجاه النهر ، وعققت دون شك الضبط للكبير على اللواء شبه المنزول في اللوحة . كانت هناك الثغرة بين اللواء لويس ولواء ماكدونالد فسارع ووشيب وهو على تشكيله الأول كنية لنشمال وملاً الفراغ الحالي من القوات . بخلاف ووشي ووحدة كولينسون المنسية ، كانت كل قوات للشاة وللغنية مشتركة في القتال الجسري.

رايت حدة القتال وأصوات انفجارات القنابل بشكل أكثر من المصور على الزرية ، إذ اشتركت كل الأوية والكتائب وأصبح الضميج عالياً . استمرت الأوية الثلاثة في التقدم غرباً في شكل صف طويل يتكشف . حول تسل سرخام مع وجود الكية الرابعة في تقدم مجرم للوحة . عندما تقتربت القوات وضح أن الدواوين من رجا هجوموا على الفراغ بين لويس وماكدونالد فأمرت كتائب الأجنحة لتتحول لتأمين الجانب الأيمن ، كانت تفاصيل مجرم العلو مهولة ، كتل بشرية من الرجال تنجس نحو ماكدونالد الذي تقطعه سحاب الدخان ، كتل أخرى تنحصر بعد المجرم الذي بدأ يتطور على يمينها . مع الزوية التي تكونت الأوية من الثلاثة متجهة غرباً ولواء ماكدونالد لتجس نحو الجنوب ، كانت هناك قوات بربر عذديبا على ١٥ ألف مقاتل محاصرين في الوسط .

كقطع من النشاة في زوية حوضا الصف اليسى من السوابك البريطانية والمصرية . كانت الكية السابعة على يمين لويس وعلى مقربة من ذلك اللواء ولواء ماكدونالد ، قد كلفت للاستعداد لحماية الجناح لكنها بدأت تتردد وتترجع مع بعض حركات التقهقر ، كانت لحظة عطرة ، أمر جنرال هنر الذي كان في نفس الموقع أفراد الفرقة ١٥ المصرية تحت قيادة فرانك هيكمان ، والتي كانت في الاحتياطي لكي يسيروا خلفهم شامرين سنج ينادقهم . عندما وصلت قسم السروج للعدوية وتم التصاء على الخطر واستمر تقدم الأوية الثلاثة .

وجد يقرب نفسه غير قادر على تحمل الهجوم من ناحية النهر ، فهجومه على ماكدونالد تم دحره والقنابل أحلثت خسائر جسيمة بين قواته للكلمة . فقد سقط الأمير للقدم وديشارة وأمرء آخرون أفل شهرة ، لذلك بدأ تدريجياً يتراجع

عن موقعه كان واجتبا أن القوات للخدمة هي الأقوى ، وقبل أن يشهي القتال عرف الخليفة أن اليوم انتهى، وهو يشاهد الموقف من قرب ذلك أن الفرصة الوحيدة لنجاح مثل هذا الهجوم هي اشتراك قوات على ودخل وقوات عثمان شيخ للناس مع قوة يعقوب، إذ حاجت من كرري في نفس التوقيت . هذه القوات التي جمعت الآن في كرري تأخرت جدا عن أداء مهامها ولقي معصوم لها الآن سيكون بالتتابع ، كان أثر نشاط بروجود على الجناح الأيمن، عمليات الفرمان على أقصى اليمين وموسوا.

لا الأسف ولا الغضب يملكان. دمرت الألوية الثلاثة المتقدمة قوات الدراويش وشتها في الصحراء . على طول ميل من الجهة تعالت وتحلوت نيران مكثفة، مدفعية المبدان ٣٢ التي تحرها البغال اشتركت هي الأعصر في المعركة فامطرت رشاشات للكسيم بنشاط محمود، سعد ضابط في قمة حاسه بخطين مكسيم الى قمة جبل سرطام واشترك من هذا العلو في التدخل نيران ممتدة . وهكذا تقدم الصف الطويل بقوة لا تقاوم . في الوسط ونحت العلم للصري الأحمر. غير صافي بالنيران التي يمكن أن توجه لهذا الرمز والتي أحلشت بعض الحباط ليمين حوله، ركب القائد، السردار حاس وكبي، لا يحركه لا الخوف أو الحساس بنفس القدر. على بعد ميل من اللوحة كانت البوارج الحربية مستعدة لأن القتال أصبح بعيدا عن مدى مدافعها ، نهر حباب الماء جيدة وذهابا في ملل، كأنها دب قطبي يبحث عن فرصة للاكتفام .

قبل هذا الموقف الرهيب ، كان نظام الخليفة قد انهار . كل الأرض تعج بالآلاف من النمل والبحري ، كان الجنود السودانيون حرميين على عدم تخلي عن حدث للوثى أو للنسي فوقها وهي عادة سودانية معروفة ، آلاف الأصمراء الذين لمحو من الموت يتزاحمون مع الترحين والفرار الى مدينة أم درمان زحموا السهل ترقيهم أهمل أفراد الرماحة بروح الانتقام. صمد يعقوب ورجال الرياسة السوداء ولم يكسروا على أعتابهم فارين. وقفوا وقفة رجال حتى النهاية آثروا الموت في نفس الموقع وعليه فإن الغزاة عندما وصلوا المكان العلم ، كان يعرف ، فوق للوثى فقط .

بينما يجري كسل هذا ، كانت الأحداث تتحرك بسرعة فالواء الأول البريطاني ، كان يصاعف الخطى في موعرة لواء ماكسويل ولواء لويس بملا الشفرة بينهما ، وعندما استنلرو ، استطاعت الفرق أن تكسب حسب قرعاً من عبور الجناح ، اتبع اللواء تشكيل هجوم متحرك مع فرقة اللينكون التي كانت المحور في المقدمة ، أول ما وصلت الى عين قوات لويس بدأت الفرقة في الاستعداد . كان واضحاً أن هجوم الخليفة قد كسر وأن قواته في موقف تهقر ، في المسهل القريب ترصد حدث العرب شبكة الحجم ، مجموعات من القلرين تشسي على البعد ، لم يبق إلا العلم الأسود ، وظل وحيداً يرفرف فوق حدث للناقمين عنه ، كانت للمارك قد أنهت أمام اللواء ، لكن الذين نظروا بهذا ناحية الهمون شاعلوا منظراً آخر ، جاء جيش جديد فيما ياتو ، من مرتفعات كسري ، جاءت ألوامر جديدة لتقطع الحيرة . ركض ضابط بجواده ، صارت أصوات أن هناك معارك خيرية يلو ضها لواء ماكونالد في ناحية الشمال وأن قوات الحاربة قد انشجكت مع قواته وانصرفت دفاعاته . كانت هذه هي الشجكت التي ترددت ، كانت الألوامر عديدة ، أقرب فرقة هي اللينكون شير تسرع لتجلبد ماكونالد وتقابل الهجوم . كانت فرقة اللينكون شير تلهث من الفهود ومرقعة ولكنها استجابت للأوامر بروح معنوية عالية . بدأوا في الوصول لموعرة لواء ماكونالد غير مدركين التحولات التي تجري بين صفوفه ، لكن كانوا يسمعون صوت إطلاق النار للسفل وحديث صوت الرصاص السام .

لو كان هجوم قوات الخليفة جاء في توقيت واحد ، لكان أصرح موقبل ماكونالد وجعله معزوما منه غاما ، بل ربما كان هالكا أكيدا . بينما صعب الهجوم على مقدمته ، زاد هدف الهجوم على يمينه ويترجمه غلة للتوكون وكان عليه مواهبة المحرمين مما . كانت النقطة حرجية ولخطر علق فقد توقف كل شيء على ماكونالد المضابط الشجاع الذي رشحه لقواته العسكرية للمجازة من بين الصفوف ، من جندي عادي الى رتبة قائد لواء ، ومما لا شك فيه أنه تنتظره ترقية أخرى قادمة ، فقد ارتفع لمستوي للسولية .

لمواجهة هجوم جيش الخليفة كون كتابه الثلاثة في اصطفاك معركة وكتيبة
 في اصطفاك تقدم على مؤخرة الجناح الأيمن مكونة شكل لام، عندما شعر بصعف
 الهجوم على الجانب الغربي حول قواته ناحية الشمال الغربي لاستعداد الهجوم في تلك
 الجهة، وغير تشكيل قواته جاعلا حرف لام أصغر من جهة واستطاع تحريك قواته
 وأن يوازن حجمها وحشدتها كل مرة حسب قوة أو ضعف الهجوم واستطاع
 توقيت هذه المناورات أن يحد أكثر من هجوم في نفس الوقت . مما إن شعر أن
 جيش الخليفة بدأ يتربع ويقتصر أمر الفرقة السودانية بالندبة عشر وبطارية على
 الجبل أن تحرك نحو الزوية قائمة مع اللواء وتبعد في حركة سريعة قصيرة لمواجهة
 الهجوم القادم من قوات على ود حلو . للاستعداد بهذا الموقف كونت الفرقة
 السودانية التاسعة التي كانت على يمين الجهة في التشكيل الأصلي، استندت ناحية
 اليمين من اصطفاك تقدم إلى اصطفاك معركة بدون الانتظار للتعليمات وبذلك
 واجهت كتيبتان هجوم الخليفة وكتيبتان الهجوم الجديد . كان واضحا أن جيش
 الخليفة قد دمر فأمر مأكو نالدة الفرقة السودانية الخامسة وبطارية مدفعية أخرى
 لتغيير الجهة وتكوين عمق في الطول للفرق الناجمة والخادبة عشر . لم تحرك الفرقة
 المصرية الثالثة بالمراف إلى يمين جهتهم حتى تنضم للفرقة في الزوية القائمة بين
 صفوفهم و صفوف الكتاب الثلاث الأخرى . تمت هذه المناورات تحت ضغط
 نيران مكثفة نتج عنها في عشرين دقيقة ١٢٠ قتيل بين الكتاب الأربعة بخلاف
 خسائر بطاريات القذائف كل هذا أمام عدو يفوقه عددا بنسبة مبهمة لواحد
 كان يمكن لو التحم مع القوة أن يحقق النصر . في وسط كل هذا الاضطراب
 والفتار وجد الجنرال الوقت ليستدعي ضباطه في الفرقة التاسعة ويؤمهم على
 التصرف قبل صدور الأوامر ويعهد توصيها . أمر عليهم أن يتصرفوا كما كانوا
 في طابور التسريب

أصبحت الآن الفرق السودانية الثلاث تواجه كل عتف وفوران هجوم
 الدراويش القادم من كرري . إن شجاعة السود لا تقل اشتعالا عن رصاص
 بندقية انتابهم نوبة جنس وأعطوا يطلقون الرصاص بدون تیشان أو تصويب ،

كل هم أي واحد منهم، أن يضرب ثم يجر ويضرب وهكذا يكون توقف . حاول الضباط البريطانيون قتلثة الفارين دون جدوى ، نادوا عليهم بأسمائهم أحصلوا منهم البنادق دون فائدة . بدأت الذخيرة تنقص واستلزم الجنود إطلاق النار للزبد ، صرفت ثم طلقات قليلة لكي يقتصدوا لكنهم استعملوها وجمعوا يطلقون غيرها . بالرغم من نقل حنجم حصارهم من نيران الكتائب الثلاثة ملحق للكسيم استمر الدراويش في التقدم بالآلاف حتى بات أن التلاحم لا بد والقبح ، حوّل الجنود السود أنفسهم بكل إقدام لمواجهة الاشتباك بدون أي اعتبار لتعدد القوات للهاجمة القاتل.

الذخيرة لم يبق منها أكثر من ثلاث مجموعات مع كل فرد في اللوازم. فتحت بطاريات المدفعية نيرانها بشكل مكثف، دقائق، شظايا، استمر للدراويش حتى وصل الأحياء منهم على بعد ١٠٠ ياردة من الصفوف خلفهم حملة العلم الأخضر ، كتلى بشرة متحركة ، نحو النصر كما كانوا يحتفلون .

في هذه اللحظة وصلت فرقة الينكون وبحسرد أن حدثت مؤامرة لواء ماكديونالد كونت اصطفاك وبداً إطلاق النيران أمام جهة القوات السوداء . كانت مجموعات من الدراويش ، اثنين أو ثلاثة أفراد على بعد ١٠٠ ياردة من القوة ، والكتل البشرية على بعد ٣٠٠ ياردة ، استمر الضرب الفردي لمدة دقيقتين بعدما استعملت الفرقة كلها وأمرت بضرب مجموعات متتالية (الولي) كان الفرض منها صد الصفوف الأولى من العرب . فتبدت الفرقة في مرحلة الاستعداد حوالي ١٢ هارباً بما فيهم العقيد سلوفيت الذي كان يعني بأحد الجرحى عندما أصيب في صدره . أوقف الضرب الانفرادي ونظام جيد بدأ بضرب المجموعات الذي تدرست عليه القوات والذي يناسب بنادقها وبشكل كبير أطلق كل فرد حوالي ٦٠ مجموعة وجم القضاء على المهزوم وحصره.

كانت قوة فرسان الدراويش ضعيفة ، حوالي ٢٠٠٠ فارس ، وحوالي ٤٠٠ من هذه كانت يحول تابعة لبعض الأمراء ممن خلعهم ، كونت منها فرقة وأصبحت لقوات علي ودخلو . عندما شعرت هذه الفرقة أن لا أمل في الانتصار كونت كتلة هاجمت شمال لواء ماكديونالد على مسافة كانت حوالي ٥٠٠ ياردة

وبما عرف عن قوة تيران الفرقة السودانية ، كان هناك شك في أنهم سينجحون في ذلك الهجوم إلى رأس . كان أغلبهم لا يجمل أي سلاح في يده ورغم ذلك أصروا على إجبار جيوشهم للتقدم إلى حيث الموت المحقق . سقطوا جميعهم عندما وصلوا إلى التيران ، ثلاثة ، عشرون ، خمسون ، مائتان ، ستون ، خمسة ثم واحد ، طوبى من الرجال السمر تلون دملوهم ومال السهل للعتد . لم تدخل صفوف للشاة، إلا الجهاد شاردة بدون خرسا .

بعد أن فشل الهجوم من كرري تقدم كل الجيش الإنجليزي / المصري إلى الغرب في تشكيل معركة بالسج والدخية بطول ٢ ميل داخرين طول الدراويش أمامهم لتشتيتهم في الصحراء بحيث لا يتمكنوا من التجمع مرة أخرى أو تكرس أي وحدات قتالية . جاءت الفرقة المصرية التي كانت على طول النهر لتشارك للشاة في مهمة للتطردة . في عام الحادية عشرة والتصف ، قتل سور كشتنر نظارته وعلى بأنه يعتقد أن العدو " قد تلقى تحذيرة جيدة " وأعطى لواءه للألوية لمواصله مسوقا لأن درمان بدون أن يتعرض لها أحد، فالحركة ممكنة الآن بعد هزيمة القوات على السهل .

أوقفت الألوية ضرب النار وشكلت قولها بأوضاع مناسبة وانجسبت جنوبا نحو المدينة ، بقيت فرقة الفينكون شور في الموعصرة للثامن .

إن جيش الدراويش العظيم الذي تقدم عند شروق الشمس بكل الشجاعة والأمل ، حرب تطارده الفرقة المصرية للفرمان وفرقة الثلاثين (الرمحية) تاركاً وراءه ٩ آلاف قتيل وعدداً مائتاً من الجرحى .

هكذا انتهت معركة أم درمان أكبر إشارة لانصراف العلم على الجزيرة ، في زمن قدره خمس ساعات تم القضاء على أكبر قوة وحشية تواجهه قوة أوربية ، وتم تشتيتها بدون صعوبة ، مع عظمة صغيرة نسبياً وحسائر لا تذكر للمتصرين .

الفصل السادس عشر

مقوط المدينة

الآن بعد أن تأكد للطبيعة أن الجيش الذي وقف معه قد هزم وفشلت كل محماته وقتل آلاف للقاتلين الشجعان ، ركب واجعا للمدينة كغالد عتيد شجاع ، لعمل الاستحكامات الضرورية للدفاع عنها وفي نفس الوقت ، كغالد حذر ، يعمل على تأمين مخرجه من المدينة إذا تعسرت إمكانيات الدفاع عنها . أمس بضرب النحاس وعزف الأسميات آخر النغمات التي عزفها ، لم يستجب لها أحد ، العرب قد نالوا ما فيه الكفاية من القتال . وضع لهم أن كل شيء انتهى وأن من الخطورة الرجوع للمدينة .

كانت حزمة فرقة الرماحية مكثفة ، ولكنها كانت ذات فعالية كبيرة ، السحاب اللؤلؤ الذي كان يؤمن المحور الأيمن قد كشف عسك التفهق . كان لابد لفرقة الفرسان الاستفادة من الاستيلاء على هذه الفرقة لأقصى حدود . وعليه بينما كان المصوم الثاني على أشده تحركا لكي تقطع خط الرجعة على مصبات القصارين من أرض المعركة . بعد تحارب الساعات الأربع للأضيحة ، وكثرة أفراد العدو أمامنا فليل الجميع أن تكون هناك معركة حامية دموية . لم تقطع مسافة كبيرة حتى جاء للدرلويش طواحية نحو السرايا للقتلة ، رموا سلاحهم في الأرض رفعوا أيديهم لل أهل طالين الرحة . بمجرد أن ظهر أن تسليم الأفراد يتم قبوله بدأ الدرلويش الحضور ووضع سلاحهم ، في الأول ككفراد مثنى وثلاث ، وسنة وأسمرا بمحومات ، في نفس الوقت كتف هؤلاء الذين لا يرغبون في التسليم ، حول فرقة الفرسان مسافة ميل ونابها فراجعهم بدون انقطاع . أصر تسليم السلاح ومرافقة الأسرى تقدما نحو المدينة لكن نشاط الفرسان قد منع رجوع للقاتلين للمدينة استجابة لهذا الخليفة للجميع والدفاع عنها ، إذ اقتحموا جنوبا متجاهلين أوامر أمرائهم . واستعمل أفراد الفرسان طينجاقهم لإطلاق النار على تلك الفرقة التي لم تبادر بالامتثال وسط جوع القارين ولكن بالرغم من ذلك تمكن أكثر من

٢٠ ألما من الغروب، كان بينهم مقاتلون شرسون ودوا على نزلتنا من رحاص بادقهم لكنها لم تحدث خسائر لبعدهم الذي .

طبعاً كان سيكون عمل جوتي أن تتكرر فرقة من ٣٠٠ فرد في القديس في معركة مطاردة وسط هذه الآلاف و اكتفىنا بتتبع رحاص طينحاتنا .

بينما تجري هذه الأحداث استمر الجيش في تقلعه نحو أم درمان ثم شاهدنا مقبلة للشاة آتية من مرتفعات مرغام على السهل الذي يفصل بيننا والدينة ، يحمل اللواء الوسط علم الخليفة الأسود وتحته العلم الأحمر أشهر مركب الرئاسة . استمرت هذه الكتل السوداء في المسيرة ببطء أثناء تعاملنا مع الأعصاب وعند الساعة الثالثة عشرة شاهدناهم واقتفى ناحية النهر على بعد ثلاثة أميال من للدينة . جاءنا الأمر للاضطلاع لهم ورحبنا جدا حيث كانت الشمس حامية ونحن متعبون وجوعى والخيول يجب سقيها . أكملت بلانيا جيش الدرويش قصفها بنون لإصاح أو لدخل من أحد .

رجعنا إلى إنجر كل القوة وفقت لتشرب ، نأكل أو نستريح عند غروب شمبات، كان للظفر مثوا ، نخل ٦٠٠ ياردة من طول فنسفة السوس ثلثي الضفان بمجاميع معرلة بلون الشكولاته ، أسراب تحتل الجبال الشمال من مشاة الفرق الليطانية، آلاف الحيوانات، عيول الفرسان ، بغال للدفعة ، وجمال للترحيل والمواصلات على الفراخ وفي المقدمة مجموعات كبيرة من لابس الكاكي ، يجلسون في صفوف على المنحدر معات تنف عند حرف الماء بعضهم داخل الماء العكر يشربون بعمق ، بالرغم من وجود ثلاث حث في نيل الضحلة القريبة ، أظهر أن الجنود العطشى لا يهمهم غير إبقاء القلب معات للوجاهات كانت تملا من النيل وهو قد جاء إلى الصحراء لينش الحيوانات والرحصا للبهكن .

أثناء المحرم على لواء ماكنوتال ، كانت الفرقة المصرية تراقب من مواقعها في السفوح الجنوبية بجبال كرري ومستعدة للتدخل إذا لزم الأمر لمساندة اللواء محجوم عاظم . عندما كسر هجوم الدرويش ودلوا في التفهتر ، شكل برودود السرفا في صفين من ٤ إلى ٥ سرفا وتسلم للمطاردة فاجحه أولا للغرب لمسافة

ميلين ثم جنوب غربي لثلاثة أميال ناحية الشمال ذي الرأس العسكر . كما حدث للراحة أنهم لم يستسلموا للفرانس وتوجهوا للفرانس عندما اقتربوا من كتل الجيش المهروم ، اتضح لهم بأن الروح القتالية للعدو لم تحت تمام الرجال عنيدون يطلقون النار وهم جرحى على الأرض ، واضعوا طلب الاستسلام الذي ربما لحسوا أنه لن يعطى لعثمان . كل الذين احتسوا تحت الشجرات قد تجمعوا للقيام بمهمة بالسة ، رجال بالحرايب وقفوا في عهد دون أن يرمض لهم حقن في انتظار هجوم سرية كاملة . رجال بين الحياة والموت يتفقون فجأة ويطلقون الرصاص على الفرقة ، بدأت الفرقة تعاني من الحسائر نتيجة غلها التصرف غير المعتاد ، إذ زادت الإصابات والحسائر مع كل تقدم . وكان للمتطوعة العامة أن توقف .

الرائد لي كاتيس قائد السرايا الثلاثة في المقدمة أراد أن يقطنح خط الفرقة على الجموع العربية المتسجبة ، فلهذا اتجه السرايا ناحية السمر على عاذاة محور شباهت وهجم على مؤخرة الجيش للندور . ولكن العدو صمد ودافع عن موضعه بإطلاق الرصاص بطريقة مكثفة وعلى كل الإجماعات نتج عنها إصابات مباشرة لكثير من الرجال والمجاول . هنا اكتفت السرايا بأن تقول بمبها ناحية اليمن وتخرج من بيت النحل الذي توجدت نفسها فيه ، وتحركت نحو لال سرغام . بعدها صدرت لها الأوامر بالانضمام لباقي القوة على شاطئ النيل .

تسلمت فرقة الفرسان في الرابعة بعد الظهر تعليمات بضرب حصار حول المدينة لمنع أي تسرب لقوات العدو خارج لم حومان ، تحركت فرقة الفرسان والراحة وعملت كدونا على بعد ميل من المنازل على مشارف المدينة . قوات اللضا كانت قد دخلت المدينة بدل على ذلك صوت إطلاق الرصاص ورشاشات للكسيم على قنات متقطعة . لواء الفرقة السودانية المتقدمة حاكسويل - تحرك مس عور شباهت في الثانية والنصف وعمل تشكيل معركة من عدة فصائل تتكون كما يلي :-

-السودانية الرابعة عشرة -السودانية ٢١ -الكسيم -العربية الثامنة -بطارية ميدان ٣٢ -السودانية ١٣ .

ركب السردار معه كل قاذبة وثلاثة ، عطف علم الخليفة وتسبقه موسيقي
السودانية المسلحة وعطف الكيكة ١٤ ، أحاطت بالنازل بالقوة المتقدمة داخل
الشوارع لتتفرج استمرت لفترة في المسيرة مع خيصة عرضة ، تتبعها الكتائب
واحدة وراء الأخرى والألوية وراء لواء حتى انتهت بهم المساحات واكتظت
الشوارع والأزقة بالكتل البشرية من الرجال للمسلحة تشق طريقها الى الحائط
العظيم .

استمر السير لمسافة بين الأحياء كان القائد مسرعا مع قادته حتى وجد نفسه
أمام حائط أم درمان تصحبه المدفعية ومنايع الكسيم . بعض مئات من الدراويش
وقفت تلطم من المدينة أطلقت طلقات طائشة ، لم تكن هناك مساطب يقفون
عليها لتساعدهم على التصويب ، ردت عليهم رشاشات الكسيم بعنف ثم تطهير
الحائط في ربع ساعة . ترك السردار البطارية ٣٧ للمنايع اللذان على الزاوية
الشمالية وواصل مع بقية القوات لناحية النهر . كانت التفرات التي أحدثتها المدفعية
البوارج قد تم إغلاؤها بالحجارة والأبواب والأخشاب ولكن البوابة الرئيسية
مفتوحة .

دخل منها قلب المدينة داخل الجدران كانت الصورة أكثر رهبا من الأحياء
الخارجية . كانت آثار نواحي المنايع والبواخر وانضمة للبيان . نساء وأطفال على
طول الطرقات عالقون مرعوبين . في أحد الأماكن حفلة كاملة تم القضاء عليها بدانة
من قذائف المدفعية ، القتلى من الدراويش بدأت جثثهم مع حرفة الجوارح المتذبذبة ،
في التحمل ثلث الأرض . المنازل مكتمة بالجرحي ، مئات الجوفات النافذة ثلث
الحمام براهمة كريمة .

هنا ظهر المشرجون يطنسون في الأزقة والطرقات ، شروط الفسرة الرحمة
للاستسلام تطالب الجميع وإلقاء أسلحتهم . جند السكان ولادهم وترحيبهم
بمعدت أكوام السلاح الذي تم جمعه تحت حراسة الفرقة السودانية . طلب عرب
كثيرون الرحمة ولكن البعض الآخر رفضها لذلك كان هناك قتال داخل المدينة .
كل الدراويش الذين رفضوا الاستسلام تم قتلهم إما بالرصاص أو بسلاح المسنج ،

ظل صوت الطلقات للفجرة يسمع حول شوارع المدينة . بينما كانت النساء يتجمعن حول حوله وبعض الرجال العائدين يطلقون الرصاص من طعصل المنزل، ويتما بسلم المحاربون المهزومون أسلحتهم من حراب وعلافه وبقية لا تزال تقاوم يتم حصارها على الأركان ركب السردار وسط كل هذا الاضطراب والروائح الكريهة والخطر حتى وصل الى قبة للسعدي .

عند الجامع اثنان من المتصبيين هاجما الحرس السعدي قتيلا جنديا وجرحا الآخر قبل أن يقتلا رميا بالرصاص . كان اليوم قد انتهى وكان الوقت وقت الغيب عندما وصلت القوة الى السجن وكان السردار أول من دخل ذلك الممرين العربي للشعوم الكريه . تم الإفراج عن شارلس نيونلد مع ٣٠ محيناً أحمر كانوا مكبلين بالأغلال والسلاسل وامتطى شارلس نيونلد ظهر جحش (حصار صغير) ظهر كما أصابته لوتة كان يتكلم ويأتي بحركات من يديه في إشارات غريبة " ثلاثة عشر سنة كم انتظرت هذه اللحظة " قال لنيقله . خرج من السجن حمل الظلام الآن توجه الى اللبدان حيث أقيم مركز إقامته والكان الذي عسكرت فيه الآن للفرق البريطانية. بقية القنصات توزعت على الأحشاء والطرقات ، بقى لواء ماكسويل فقط داخل المدينة لحفظ النظام والقانون ، الأمر الذي جعله أسرار الظلام .

كان السردار وقواته الثلاثة يستولون على أم درمان ، تحركت فرق الفرمان البريطانية والمصرية حول ناحية الغرب حول المدينة وقيمت لمدة ساعتين ، تسمع تبادل طلقات النار داخل المدينة غير مبركة لما يجري هناك .

أعداء كبيرة من الدرافويش وبعض الأمراء غمروا الجبهة للشهورة وحاصروا يسلمون أسلحتهم ويعلنون الاستسلام ، حتى صار عددا كمسكت كبيرة من الحشراب والصوف كان من المستحيل أن تحملها كلها واضطرونا الى تدمير الكثير من التحف . كاد الليل يرعي سدوله عندما ظهر العقيد سلاطين على ظهر جواده، حرب الخليفة، وكان على الفرمان للمصرية مطاردته في الخيل وعلى الرماحة انتظار أوامر أخرى وكان سلاطين متولفا وهو يتحدث للعقيد برودود وسأل لشين من

الأمراء الذين كانوا في الأمر ثم انضى عند الأفق . غادرت الفرقة المصرية أيضا
راكضة بيلوها .

لم يدرك الخليفة، بعد أن غادر أرض المعركة ، أن جنوده لم يطيعوا أوامره
واستمروا في تهمتهم ولم يصل للجنة إلا بضع مئات للدفاع عنها . ذكر خادمه
الأكبوبي أنه قد تلقى صدمة للزعة وهو متماصك استراح حتى الثانية ، تناول بعض
الطعام ثم رجع إلى القبة تضرع في هذا الصريح للقلس لسروح محمد أحمد أن تعينه
على تحمل هذه المهمة ، كانت آخر صلاة تمام حول قصر المهدي . هذا التصدد لمليه
مثل هذه الظروف ويتفق مع بحريات الأحداث . سمع الخليفة في الرابعة أن السرदार
يدخل المدينة وأن الفرق البريطانية وصلت ميدان الاحتفالات في المغرب ، امتطي
ظهر حماره واصطحب زوجته الأولى ، راحة إخرية كريمة وبعض خاصته والجمعة
ناحية الجنوب كانت الجمال السريعة تنظره على بعد ثمانية أميال من أم درمان
سرهان ما انطلقت به إلى حيث يقام جيشه في انتظاره . هنا وجد بعض الأصدقاء
مكسوري الحاضر ولكن حقيقة أن يلتقي أي أصدقاء بعد هذه للأمة هو شيء
إيجابي بحسب له ولشعبه . عندما وصل لم تكن معه أي حراسة ولم يكن يحمل أي
سلاح . كان التناحور لديهم كل الحق في أن يكونوا نظرين ، أن قائد هم قد جرهم
إلى الخراب والدمار ، قطع رقبة هذا الرجل الوحيد الذي كان سببا في كل معاناتهم
ما أسهله على أي واحد منهم ، يمكن أن يتم بولادة ولكن لم يهاجمه أحد . هذا
الظالم الجبار ، سبة السودان ، النكرو الكروه ومز الشر ، كما تصفه المصون الأوربية ،
الشخص الذي بنى كل الفكره من شعبه كما كان الاحتفال السائد في إنجلترا ، بعد
مثل هذا الشخص كل السلامة بين جنوده للفارين . سرع الأمراء الناجين إلى
جواره ، سقط أغلبهم على السهل للميت عثمان لوزق البطيل الصنديد ودبشاره ،
يعترب وكتيون لم تحم أفعالهم الفرية هذه الصفحات ولكنهم جميعا كانوا
رجالا عظاما ولعنوا وأنتظروهم غو النجوم . وهؤلاء الذين لم يهترو ولاؤهم للحظرة ،
على ودخلو الذي يرقد معانا من شدة الألم جراء القنيفة التي أصابت قلبه ، ثم
شيخ الدين ، عثمان دقة القوي بولمرهم نطيل الذي تحمل هجوم الرماحة ، وأمراء

آخرون هرعوا جميعا الى جانب علفه محمد أحمد ولم يجعلوا حق في مثل هذه الظروف القاسية ، عن التمسك بأهدهم .

وهكذا أسرع الجميع مع جنح الظلام ، جموع مضطربة وهلة ، عاربون منكسرون يحملون بنادقهم على أكتافهم ، رجال جرحى يعرجون في أسى ، جموع وجمال محملة بالولاء ، نساء باكيات يحسرين عطفهن الأطفال ، الآلاف جنوا ٣٠ ألف مع قليل من الطعام ومياه قليلة لا تستطيع أن تؤلمهم ، الصحرَاء أمامهم ، البواصر الخربة على النبل وعملتهم الفساعات بوشريط عربي من اللوتس والمختصين تعلم طريق الغروب . بدأت الفرقة للصبر للفرسان في مهنتها فسر الهدية . تقلعت قوات السرايا حل الرجال ما يكتسبهم حتى الصباح ، وحملت الجيول ما يكتسبها حتى الظهر ، على أن تلحق بهم بانخرة على النبل تعمل بقية اللؤلؤ في اليوم التالي . كان الطريق على طول النبل الأبيض يهيج بالدرابش المسلحين ولكي يتفادى هؤلاء القاون الخطرون ، خرج بالفرقة جنويا ناحية الصحرَاء وبعض البهال التي ظهرت ظلالها هو السماء كانت للمنطقة هو معروفة ومليئة بالمستعجمات والحيوان لذلك عانت الجيول والجمال وسقطت على الأرض وزاد الظلام من صعوبة الموقف فقرر العقيد أن يتوقف حتى ظهور الضوء واحتار منطقة جافة وعسكر فيها مع قوته . بعض البوك التي ظهرت مكتته من حسن الحظ أن يستفي الحيوانات وأبدا رجاءات المياه . كلف بعض الأفراد بالحراسة ونام الباقون تظلمهم من وقت لآخر أصوات الرصاص الآتية من أم حرمان وأيضا من اتجاه القوة المنسحبة

لمحركت قوة برودود مرة أخرى في الساعة الثالثة صباحا يوم ٣ ، كانت الجيول وأفراد الفرقة متمشيين وساعد ضوء القمر أن تقطع القسوة بمسافة جيدة حتى وصلت الى نقطة اللقاء مع البانخرة في المساحة وصلت البانخرة وظهرت مدحسها الطويلة من مسافة بعيدة باعثة الأمل في الحصول على وجبة شهية خاصة أنهم لم يتناولوا أي وجبة منذ الليلة السابقة للمعركة . بعد أن اقتربت القوة من البانخرة وضح أن هناك مستعجمات ومياه عميقة على مسافة ٣٠٠ ياردة بينهم وبين

الباعرة، جمع الاتصال المباشر ليس هناك أي طريقة لإزالة اللون والأغذية. تحركت القوة على أمل أن يجد الباعرة موقعا صالحا كرمسي واستمرت لمسافة ٧ أميال بدون حلاوى لم يظهر من الباعرة إلا الصلابة والعلم واستمرت للمستنقعات كمانع مالي يحول بين القوة واللون ويكون طعام استحبال الاستمرار في المطاردة وتأمين مسيرة العودة كان في الاعتبار بالنسبة للمون . جاءت أخبار من بعض المحاربين الذين أسروا أن الخليفة أسرع في التصحية وأنه يملك جيش صفوف قوامه . العقيد برورود أراح عيوله حتى تنتهي فترة الحر واستأنف رحلة العودة ولم تصل الفرقة للتصية والفرادما الموصى لل معسكرهم خارج لم حرمان إلا في الحادية عشر من يوم ٤ سبتمبر . كان هذا حال المطاردة التي قامت بها القسوات النظامية.

واصل عبد العظيم ومعه ٢٥٠ من العرب للملاحقة ، كانت معداته ضعيفة وهو يعرف طبيعة الأرض واستطاع أن يصل إلى شقيق علي بعد ١٠٠ ميل جنوب الخرطوم في يوم ٧ . هنا تحصل على معلومات مؤكدة أن الخليفة يسبق بمسيرة يومين ومعه كميات كبيرة من الأطعمة واللباء وجمال كثيرة واستطاع أن يجند ٥٠٠ فرد من الجهادية كحرس خاص ويرافقه أفراد كلون من قبائل مختلفة مع كل هذه الصحة القوية ، كان يسافر ليلا نهار في اتجاه الأبيض الذي .. يحتلها ٣٠٠٠ مقاتل في الحامية التي ما زالت تحت سيطرته . مع جماعه هذه الأنصار وجد أفراد فرقة الأعراب للوالين أنه من غير للنسيء أو ليس من الحكمة الاستمرار في المطاردة وحادث لأهم حرمان .

في معركة لم درمان والاستيلاء عليها كانت عمسفر قوات الحملة كما يلي :

الفرقة البريطانية

عند القتلى - (٣) ضباط

نقيب كالفينكوت :	شركة الملكية الأولى ورويكشور .
مستر فرين فيل :	الرماحة ١٢ ، تبع للرماحة ٢١ الملكية
مستر هوبارد :	مراسل جريدة التايمز

ضباط بحري - (١١) ضابط

العقيد رودس :	مراسل جريدة التايمز
ملازم أول سلوفيت :	أ.أ.م.سي
النقيب باقوت :	ف الأولى كامرون هالاندز
النقيب كلارك :	ف الأولى ورويكشور الملكية
ملازم نيكلسون :	ف الأولى كامرون هالاندز
ملازم مولينكس :	الحرس الملكي تبع اللانسر ٢١
ملازم ايتري :	اللانسر ٢١
ملازم برلن :	الفرقة الثانية للحرس تبع اللانسر ٢١
ملازم نيتشام :	اللانسر ٢١ (الرماحة)
مستر وليامز :	مراسل التايمز كورنيكل .

ملخص خسائر الفرق البريطانية

العدد الكلي للخسائر	خارج		قتل		الفرق
	حرد	خاط	حرد	خاط	
٧١	٤٦	٤	٢٠	١	لانسر ٢١
٥	٤	١	-	-	فرقة الأولى
٢	٢	-	-	-	تورث ميرلاند الأولى
٨	٦	١	-	١	روبال ورويك الأولى
١٨	١٧	-	١	-	لينكون شو الأولى
٦	٦	-	-	-	لانكشر بيادة ٢
٩	٨	-	١	-	سي فروث هامبلندز
٣١	٢٧	٢	٢	-	الكامبرون الأولى
٩	٨	-	١	-	لواء البنادق ٢
١	١	-	-	-	فصائل جيش تابعة
٣	-	٢	-	١	فصائل طبية تابعة
١٧٥	١٣٦	١١	٢٥	٣	المجموع

الجيش المصري

ضباط بريطانيون وضباط احتياطي مرحوا (٦)

النقيب دي روفيمونت

النقيب سميت من الاستعمارات

للملازم غوبكنسون من المساعدة

للملازم مانديس

المول حوبر

الفئات الألفية

الفريق	ضابط		أفراد	
	قتل	خرج	قتل	خرج
الفرسان	١	٢	١	٣١
للخفية	-	١	٣	٢٦
للمحاربة	-	٤	٤	٣٨
للمصرية الأولى	-	-	١	٥
للمصرية الثانية	-	-	-	١٧
للمصرية الثالثة	-	-	١	٥
للمصرية الرابعة	-	-	-	٤
للمصرية الخامسة	-	-	-	٤
للمصرية السادسة	-	١	١	٣
للمصرية السابعة	١	-	١	١٠
السودانية ٤	-	-	-	٤٠
السودانية ٥	-	-	٢	٢٣
السودانية ٦	-	-	-	٣١
السودانية ٧	-	-	٢	٥
السودانية ٨	-	-	٢	١٠
السودانية ٩	-	-	١	٧
المصرية ١٥	-	-	-	٧
للمصرية ١٧	-	-	-	٤
للمصرية ١٨	-	-	-	٢
للقرحيات	-	-	-	١
المجموع	٢	٨	١٨	٢٧٢

المجموع العمومي ٢٠ ضابطا بريطانيا و ٤٦٢ رجلا

خسائر قوات الدراويش قتلوا في الإحصائيات اليناقية وصححت فيما بعد
الفتح ألفا ٩٧٠٠ قتل وجرحى قتلوا بـ ١٠٠٠٠ إلى ١٦٠٠٠ بالتقريب، إضافة
إلى خمسة آلاف أسير .

الفصل السابع عشر

حادثة فاصدة

إن الحوادث المتتالية التي حاولت أن أسردها في هذا الكتاب ، لم يكن لها تأثير على أي بلاد غير تلك التي تكلمت بالتالي . الجزء التالي يحتاج من القارئ نظرة واسعة ، إذ أنه يتعرض لوصف حادثة كانت تصف بأوروبا ، وكان لها أبعاد عظيمة . إن العالم سوف لن يعلم علم اليقين للشروع الأصلي لحملة مارشند أو للخطط التي كانت جزءا منه ليس في مقدورنا أن نجزم إن كانت الحكومة الفرنسية قد عطلت لقوة صغيرة ، أن تحتل مستنقع غلمض على أعالي النيل بالرغم من عظيمة العملية بالنسبة للقوة ، ولكن كل التسييرات تشير إلى بعد الاحتمالات الأخرى ، لو عدم تحديدها . ما هو الدور الذي كان عليه الأشخاص أن يلهو به ؟ ، وأي خدمات قدمت لهم أو ما هي الحوافز التي وحسبوا بها ، وأي أسلوب كان متبع مع الخليفة ؟ وكيف كان سيوظف أفراد قبائل المنطقة ؟ كل هذه الأمور كان عليها مر هذا القارئ . كان المعروف أن محاولات فرنسا للتقرب مع الحبشة قد كانت بها بعض الشيء ، ولكن ، كلف هذا التقارب إيطاليا الكثير ، الأسلحة التي هزمت الطليان في معركة علوه ، جاءت من مصادر فرنسية . وجود بندقية سريعة الطلقات حديثة الصنع ومن أصل أوروبي في حوزة الخليفة مؤثر قوي على وجود مثل ذلك الثقلون مع الدرويش ولكن لأي حد كان الغرض من هذه العمليات ، هو مساعدة حملة بلوشاند ، يبقى هذا معروفا فقط لولاة الذين عطلوا غله للبادرة والقتال الذي لم ينقصوا عن شيء .

إن الحقائق غير القابلة للميل قليلة . من ذلك أنه مع نهاية عام ١٨٩٦ أرسلت حملة فرنسية بقيادة مارشاند من الاطلسي إلى قلب أفريقيا . كان احادة الاستيلاء على دنفلا قد تمت ، وكانت الحكومة البريطانية تفكر بحدية في استمرار التقدم . مع بداية ١ٸ٩٧ أرسلت بريطانيا حملة برئاسة العقيد ماك دونالد برئاسة ١٢ ضابطا أكفاء ، تم استعراهم بعناية ، سافروا من إنجلترا ، وصلوا إلى مومباي ثم واصلوا مسيرتهم إلى بورغنند داعبل القسارة . الاضطراب للوسعة التي تعرضت لها هذه الحملة هي خارج نطاق هذا السرد ، سوف لا تعرض للمشاكل والغموض بين الحان التي احاطت بها . يكفي أن نذكر أن العقيد ماك دونالد

كلا قد رود بعوض سودانية كانت تقريبا في حالة عجز ،وقد تمردت بالفعل بعد يومين من تسلمه القيادة . اضطر الضباط للدفاع عن أنفسهم ، قتل بعضهم ، مضى العلم في مقاومة التمرد والثورة التي كانت إحدى نتائجها . إذا كان هدف هذه الحملة هو الوصول إلى أهالي النيل فالواقع أن هذا الهدف صعب التحقيق . ساعدت الحكومة بتكليف الضباط بعمل مسوحات جغرافية للمنطقة ، حتى تحقق بعض المكاسب .

مع بداية ١٨٩٨ ، كان واضحا لكل أولئك العاملين بيوطن الأمور ويدبرون السياسة الخارجية البريطانية العظمى ، أن أي نتائج لحملة ماكلونالد سوف لن يكون لها أي تأثير على سير الأحداث في السودان . التقدم للخرطوم ، إعادة احتلال المدينت اللقودة ، كان قرارا لاربعة فيه وكانت قوات الجيش الإنجليزي / المصري تحتشد في بربر .

كان معلوما أن حملة مارشالد كانت في طريقها إلى أعالي النيل وكان متوقعا وصولها لوجهتها في خلال شهر قليلة . كان اقوي الاحتمالات ، أن الجيش الجيبار الذي تمركز من البحر الأبيض المتوسط متجه جنوبا ، والحملة الصغيرة التي تمركزت من المحيط الاطلنطي متجهة شرقا ، لابد أن يلتقيا قبل نهاية العام وأن أي لقاء سيتسبب في صدام بين بريطانيا العظمى وفرنسا.

لا أنظأهر بأني امتلك معلومات خاصة عن هذا الأمر خير تلك التي أعلنت في وقتها على المواطنين ولكن على فقاري أن يأخذ في الاعتبار ، إذا كانت سياسة الوفاق التي ظل اللورد سالزبوري يتبعها في ذلك الوقت تجاه روسيا والصين ، والتي أثارت انتقادات حملة في إنجلترا ، كان الغرض منها في حالة حدوث صدام فرنسي / بريطاني حول احتلال أعالي النيل أن يجد فرنسا نفسها في عزلة تامة . بعد هذه الخواطر وللقناعات يمكننا أن نرجع الآن لمسرح الحرب .

في السابع من سبتمبر ، حملة أيام بعد معركة أم درمان والاستيلاء عليها ، ظهرت الباعرة "الترويقية" باعرة صغيرة يخطكها اللغزوش من بقايا البواخر في عهد غردون ، ظهرت تسبح على النيل الأبيض . بخارها العرب عندما اقتربوا من الخرطوم وشاهدوا العلم المصري الأحمر فوق الأبنية عرفتوا أن الأمور ليست على ما يرام خاصة بعد أن شاهدوا غبة المهدي للتهمة ، اسسروا في اللاحقة ، فوجدوا أنفسهم محاطين بيواسر الأتراك ، غامسلسوا بدون

شروط . كانوا قد غادروا لم درمان قبل شهر بصحبة الباهرة الصافية، التي تحمل ٥٠٠ رجل وكانت تعليمات الخليفة هي طيب الغلال والحبوب من النيل الأبيض . سارت الأسور حسب ما مضى لها إلى أن وصلوا حامية الحكومة القذفية في فاشودة . هنا أطلقت عليهم النيران فرقة من الجنود السود تحت قيادة ضباط بيض ومعهم علم غريب الشكل كانت النيران قوية حتى قتلوا أربعين شخصا بين قتيل وجريح . ساورهم الشكوك في هوية هذه القوة المنيعة، فاستدبروا واجتمعوا . الأمر للمسؤول تخلف مع الباهرة الصافية في منطقة الرنك وأرسل "التوفيقية" للخليفة لتعود بالتعليمات والإمدادات وللدد العسكري .

بلغت القصة للسردار وسرت في المعسكر كالنار في الحشيم . ذهب بعض الضباط للنهر للتأكد من القصة وصحتها . أثار الرصاص ظلمة في هيكل الباهرة الخشبي ، استعمل الضباط للطاوى واستعملوا الرصاص ، ليست كتلة عسنة من الرصاص ، المصنوعة من سلك الطراف أو حديد لينة كتلك التي تستعملها القبائل البدائية ولكنها رصاصه مدببة مغلفة بالنيكل كالتي تستعملها القوات الحديثة فقط . ولينادق ذات الميل الصفور ، هذا دليل مادي قاطع ، أن هنالك قوة أوربية على أعالي النيل . ذكر البعض أنما قوات بلجيكية من الكونغو ، وقال البعض أنما حملة إيطالية ، وآخرون قالوا أنما قوات فرنسية . بعض الذين يؤمنون بقدرات المقاومة البريطانية ظنوا أنما قوات بريطانية ، لا بد أنما الحملة للذكورة . ثم استحوذت البحارة العرب من العلم الذي شاهدوه ، إجاباتهم لم تكن قاطعة ، ألوانه زاهية كانت إجاباتهم ولكنهم لم يستطيعوا تحديد ألوانه أو التشكيل الذي كان عليه . كانوا رجلا فقرأ وأن الله عظيم .

لا الصبر ولا التنبؤات يمكن أن تربطها الفضول ، استمع من كان في المعسكر لهله القصة بدون اهتمام ، بعد انصهارهم السهل كانوا يمشطون في دمه ، كانوا واقفين أنهم ينتمون إلى أقوى جيش استقر قلب أفريقيا . إذا وجدت حرب جديدة ، ما للحكومة إلا أن تعطي الأمر وسيطعون الفرقة بالقدمين الجدد بنس القدر الذي همزوا به للدولوش .

في الثامن من سبتمبر تحرك السردار إلى فاشودة مع خمس بواخر ، الكتائب السودانية السادسة والثامنة ، فرقتان من الكاميرون هالينغز بطارية بيك للمدفعية وأربعة مدافع مكسيم . وبعد رحلة ثلاثة أيام وصلوا معا إلى الرنك ووجدوا الباهرة الصافية راسية على

الشاطئ ومعهما ٥٠٠٠ ذوقيش يعسكرون على شاطئ النهر فلما كما ذكر بحارة التوميتية. كان هؤلاء اليهلاء من الحملة بحيث ضحوا النيران على البولندر الحربية، عندها بادرت الباحة سلطان بإطلاق مدفعيتها عليهم حتى هربوا. كانت ماكينات الصافية تلور، محاولة الحرب، الأمر الذي لا يمكن الجزم به، صوب قائد الأسطول كييل قديمة الى غلاية الصافية ولجرحها، احتياط المرحل من هذا التصرف إذ كان يأمل أن يضم للصافية الى اسطول النهرى.

بعد هذه الحادثة، استمرت الحملة في تقدمها على النيل الأبيض - السندود التي قابلتهم بعد رحلتهم من الخرطوم لم تعزل سور البولندر لأن التيار القوي كان يطهر النهرى الرئيسى للنهر، ولكن كانت الأعشاب التي تغطي على سطح الماء يحرض من ١٢ الى ٢٠٠ ياردة كانت تمنع البولندر من الاقتراب من الشاطئ فتمسوا عليه.

الشواطئ نفسها قد أصبحت أفراد الحملة بالاكثاب لأنها كانت تبدو غير مضيافة أو مريحة كان النهر في بعض الأوقات تجري مسافات طويلة مليا بالأعشاب والمستنقعات وتوجد فيها فقط بمسوحات من فوس النهر. ساعات كانت تظهر مساحات شاسعة من الأرض الطينية على مدى البصر وساعات غابة كثيفة من الأشجار تحتها شجيرات الشوك الصغيرة تمتد حتى حدود الماء. تطلق بعض القردة بنشاط وأحيانا حتى الفهود تظهر على الأشجار بنون اكترث. ولكن البلد، سواء كانت غابة سهول طينية مسطحة أو وديان كانت دائما رطبة محبوبة، أرض مبتلة تبخر تحت أشعة الشمس الحارقة وتخرج بالساموس وكل أنواع الحشرات الأخرى.

واصل الأسطول النهرى رحلته محولا الماء بين اللون لى زهد ومحورا للكائنات التي توجد على جانبي النهر حتى وصل الى مشارف فاشودة يوم ١٨ سبتمبر. توقفت قطع الأسطول، راسية على الشط ليضع ساعات في العصر لتتبع الفرصة لرسالة من السردار الى القوة الأوربية الغامضة كى تسبق وصوله. في الصباح التاسع عشر، شوهدت مركب حديدية صغيرة توجه ناحية الحملة كان بها صول سينغالى ورجلان حاملان رسالة من الرائد مارشند، تعلن وصول القوة الفرنسية واحتلالها للسودان ثم هنا السردار على انتصاره ورحب بقدومه الى فاشودة باسم فرنسا.

بعد أميال قليلة وصلت اليوانغ الى غاية رحلتها ورسست على الشط بالقرب من مبان
الحكومة القديمة ومدينة فاشودة . تكوّن قوة للفرشاند من ١٢ ضابطا ، أو ضابطا لهم
نظامي فرسي و ١٢٠ جنديا أسود من إقليم النيجر . كانت لديهم ٣ مراكب حديدية
صالحة للشرع أو الصنع ولشبح بخارى صغير " فيومودي " الذي لرسل جنوبا لجلب مدد
إصا . كان لديهم مائة أشهر للضباط وتكنّى ثلاثة شهور بالنسبة للجنود ، لم تكن
لديهم مدفعية وكانوا في حاجة ماسة للدخول للبتادق ذات عيار صغير . كان موقفهم حرجيا
ومعزوزا . كانت القوة الصغيرة غير قادرة على الحركة بدون أى وسيلة للاتصالات وبدون
أى امكانيات لشحن محرم أو حتى النجاح في التفحص ، استنفدوا ذخيرتهم في طرد البرلويش
وصد محاربتهم وكانوا كل يوم يتوقعون الهجوم . فلجأهم الذعر عندما سمعوا من بعض
الأهالي أن جيش الدرافوش يتقدم نحوهم بخمس بوابج مسلحة ، ظلوا ثلاث ايام لم يغمض
لهم حفن منتظرين هجوم العدو القوي .

تفنى الفرنسيون الصلبة ولم يستطيعوا إعطاء فرحتهم وراحهم لوصول القوة
الأوربية .

السردار وضباطه هم أيضا كانوا متآثرين ومحميين بالانجازات، للخدمة هذه اللغة
الصغيرة من الرجال الأبطال . مضت سنتان منذ أن تركوا المحيط الأطلنطي ، انقطع اتصالهم
بها لم البشر . حاربوا قبائل متوحشة ، هفروا من الحمى ، تسلفوا الجبال استرقوا الغابات
الخطيرة .

مكنوا خمسة أيام وليلاتها داخل للمستعمرات ولقاء حتى وقتهم . قتلوا خمس قوائم
ومع كل ذلك وصلوا حتى وصلوا الى فاشودة يوم ١٠ يوليو ووزعوا العلم الثلاثي في أهالي
النيل .

نزل الضباط البريطانيون متآثرين بهذه الاطباءات وجاء الرائد مارشند مسمح حرس
الشرف لاستقبالهم . شد على يد الجنرال بحرفة ، قال السردار للراشد " اعتك على كل
إنجازاتك " رد الرائد " بل إنها إنجازات هؤلاء الجنود ، مشوا الى قوتس " . عندما حكى
السردار حكاية هذا اللقاء قال " عندما تأكلت من أنه رجل مهلب " حشمان " .

لا حاجة لنا في الدخول في تفاصيل المحادثات الدبلوماسية التي تلاحقت . نجاهل السردار بكل أدب وجود العلم الفرنسي ، ونفون التدخل مع حملة مارشند أو المطالبة التي احتلتها رفع الاعلام المصرية والبريطانية مع كل ما يلزم من مراسيم ومع أصوات للموسيقى والتحية من منافع الأسطول النهري أقيمت حامية في فاشودة مكونة من الفرقة السودانية السادسة ، ٤ منافع من بطارية بك ومنافع مكسيم ، كلها تحت قيادة العقيد جاكسون الذي عين حاكما مدنيا وعسكريا على إقليم فاشودة .

عند الساعة الثالثة بعد الظهر واصل السردار رحلته بالبوستر الى الجنوب ووصل في اليوم التالي الى مصب نهر السوبات الذي بعد مسافة ٦٢ ميلا من فاشودة . هنا أيضا رفعت الاعلام وكونت حامية أخرى تتكون من نصف كتية الفرقة السودانية السادسة وللنصفين الباقين من بطارية بك . ترك السردار الباعرين سلطان وأبو كلى تحت تصرف العقيد جاكسون ورجعت الحملة الى الشمال .

سوف لن أحاول وصف المفاوضات المملة لو المناقشات التي قلت وصول الأعصر الى أوروبا ولكنه من الأهمية بمكان أن نذكر بفرح غامر أن هذه الأزمة ظهرت وإلحقتا متحلة . كان تصميم الحكومة تاركه المعارضة للحلصة ، ويده رضاه الجماهير المهادي ومسليح بفاحلية الأسطول البريطاني .

في البداية وعندما كان السردار يحمر جنوبا ملأ حقول الناس كنسور من التعجب والإثارة ، ولكن عندما انتهت الأثارة بالكشف أن ثمانية مفاخرين فرنسيين قد احتلوا منطقة بحجم فرنسا ، هي فاشودة واحتلوها بقمة فرنسية ، احتاحت الناس موجات من الغضب العميق ليست هناك قوة أوربية ينظر إليها الرجل الإنجليزي المعادي بكرامية أكثر من فرنسا ومع كل كان الاتفاق كاملا ، يجب أن يذهبوا . يجب أن يغفروا فاشودة وإلا كل الجسور الملكية، كيان وقوة ، وأي شيء يمكن للخيال أن يصيه بريطاني يجب توظيفه لإجبارهم على الرحيل .

أولئك الذين لا يستطيعون استيعاب الجو الساتن والطبع للحاد الذي اكتسح الأمة، عليهم بالرجوع الى القرى السودانية الطويلة . الواجب كان يتم إعادة الاستيلاء وغزو للمستعمرة التي تم الرحيل والجلاء عنها ، ولما كان هذا الأمر يمكن أن يتم بيسر وسلام ،

أصبح الوجه متعب. تابع الناس أخبار العمليات بشغف واهتمام زائد، وكلما تقلصت لرداء حملات الأكمة. عندما تم قهر للدوري، بدأت علامات البحر القاتلة تظهر واحدة بعد الأخرى أسماء المدن التي غلبت عن الذاكرة، أو ذكرت مع نظرة والحزن بدأت تظهر في الالتفات، في الجزيرة الرمية وفي صدر نشرات الصحف. أننا واجهون، دفلا، بربر، للثمة، من لم يسمع عن هذه الأسماء؟ الآن ترتبط بالانتصار. جيوش غفوة حاربت في الحدود الهندية، كانت هناك حرب في الجنوب والشرق وفي غرب إفريقيا لكن هيون المجلتوا تركت نحو النيل والحملة الراحة للأمام يهبط وثبات بدون مقاومة ولا يمكن أن تقاوم.

عندما جاء النصر النهائي بعد طول انتظار، جاء كاملا دون نقصان، استقبلته الجماهير بحماسة عارمة من الانتشاء، والشعب البريطاني الذي نال أكثر مما توقع، جلس يشكر ربه، حكومته وجنرائه. ضاعة مع كورس احتفالات للبهجة، ظهرت للثمة لشيلا. واجهتهم حقيقة أن "قوى صليبة" وبدون أي عذري أو استغفار، تعمل لسلب ثمار انتصارهم. ظهر لهم الآن أنهم بينما كانوا يفتنون أنفسهم بعمليات حربية عظيمة في وضع النهار وأمام أنظار العالم، في تنفيذ مشروع قريب للظوم، تجري عمليات أميري في الحفاء وبالحداد، تتقدم نحو قلب القارة السوداء خلف شرير ومثوا للفرق ليحرمهم من ثمة بجهودهم. الآن يفتنون بصلاية ضد مثل هذا السلوك، كل الشعب يدا واحدة.

تراجعت فرنسا عندما وضع لها عليا أن بريطانيا العظمى مستعدة للحرب من أجل الاحتفاظ بفاشودة. فاشودة منطقة مستقرات بالغة وليست ذات أهمية لهم. ذكر لورد سالزبوري في كتابه "صعاب تواجه مكشف في أعمال النيل" أن الوزير الفرنسي قد ذكر له أن حملة مارشاند ما هي إلا "بعض حضارية" ولهم في غني من المستنق أو البهجة إذا كان هذا الأمر سيورطهم في مخاطر وحرب مدمرة، لقد فشلت للقاهرة. كداد "بسي غراكس" أن يفتقد الحواجز، بارأ بقسمه وتغلبا للأوهر، ولكن باقي للقافرين لم يكن لديهم نفس الحس. ابعد الأبحاث عن للشكالة القليل الرجعية كانت تنظر باستغراب نحو الأعراب ولم تكن لديهم أي رغبة في القتال إلى حياتهم. كرامة وحرة الخليفة رفضت أي تقارب أو حوار مع أي نوع من أنواع الاستعمار ولا يمكن أن تميز بين غلزي وآخر، كلهم أنسراك ملعونون. وأخيرا فإن النصر في أم درمان، وقبله عطا سك حفيد الصبراء، قد أحدث

ثورة في الأوضاع في وادي النيل كله . بعد عدة أسابيع من التوتر عرضت الحكومة الفرنسية ووافقت على سحب الحملة من أقاليم النيل .

توالت الأحداث في هذه الأثناء في فاشودة . تقع المدينة التي اعتبر موقعها بعد دراسة من قبل الحكومة المصرية ، على الشاطئ الشمالي للنيل الأبيض على سفح متدرج يرتفع بحوالي أربعة أقدام من أعلى نقطة لفيضان النيل في ذروته . يبدأ موسم الأمطار في يونيو ويستمر حتى أكتوبر وتشاء هذا الموسم تكون المنطقة كلها مستقما كبيرا وتصبح فاشودة نفسها جزيرة لكنها ليست عنيدة التفع . إنما النيل للمنطقة الوحيدة في الشاطئ الغربي الصالحة لإرساء البواخر ، لا توجد منطقة صالحة لغمرات الأميال على طول النهر . كل الطرق ، مجرد طرق ضيقة للجمال ، تتجمع من المنطقة السفلى لكردفان ، في حامية الحكومة ولكنها صالحة فقط في الموسم الجاف . التربة عسبة ومع الكم الحلال للمياه وحرارة الشمس كل ذلك يجعلها صالحة لزراعة أي محصول . استطاع الضباط الفرنسيون بما عرف من تصرف دولتهم ، أن يجهزوا مزرعة مضراوات بالرغم من مهاجمة غيران للباء ، كالت محمدهم بمضراوات تكسر تكرار الأكل للمل وتورقة . إن الأهالي الأصليون من الديكا والشلك ، لا يرغبون في العمل إلا بما يسد رمقهم ، ولما كانت الاحتياجات الضرورية يتم الحصول عليها بسهولة فلم تكن هناك أي زراعات إلا القليل . وربما يقال أن عسوبة التربة هي المسبب في فقر البلاد . في كل موسم السنة يساعد الجمر في فاشودة على انتشار الغمرات ، وهي للبلاد لهاجم الأوروبيين والعصرين ، وتكسر مقاومة القرى الرجال وربما تسبب الوفاة في بعض الحالات^(١).

في هذه البقعة النائية البعيدة عن المدينة والصحة والاستقرار عانت حملة ما رشالده وإحامية المصرية في عدوات لكنها مودبة ، لأكثر من ثلاثة أشهر . شغلت الحملة الفرنسية الحامية في الجزء الشمالي ، عسكر للصيرون أمام أطلال المدينة القديمة . استمر تبادل الحملات الاحتجاجية ، رد الضباط الإيطاليون على عدوايا المضراوات الطازجة ، بارمال الصحف وضرويات أخرى ، الجنود السنغاليون كانوا على خلق ومنضبطين ، سرعان ما قلد أفراد الفرقة السودانية ضباطهم وودوا العملية بأحسن منها . طفي شعور متبادل للاحترام بين العقيد جاكسون والرائد مارشاند . إن التنازع للتفخ للفرقة السودانية السادسة والذي حياز

(١) إن المكان غير محدد بالوقت في مارس ١٨٩٩ وأولف موسم في السليم من بحيرة ٢٢٢ وعلى في القرية لم يكن صالحا للمدينة سوى ٢٧ رجلا جاء على في تقرير سير ولهم كترسان رقم ٥ عام ١٨٩٩ مصر .

على أكثر من ١٤ ميلادية مصرية ، كان كزما في إيطاليه على المستكشف الفرنسي . وقد قدر مدى المصاعب والمشاكل التي تعرض لها ، وبالتالي كان حريصا على التواء لكل إنجازاته . وبما أن العقيد جاكسون كان يتحدث الفرنسية بطلاقة ، فقد كان الاتساع والظاهم بينهما كاملا ، ولم يحدث أي سوء تفاهم يستحق الذكر . لكن بالرغم من المحادثات والمعاملات للبلدية ، إلا أنها كانت في تطلق رسمي وغير ذلك كان الالتزام عظيم بالربط والضغط .

استكانت قبائل الديكا والذلك في البلدية لرجال الحملة الفرنسية وكانت تمنحهم بمسا يحتاجون من مون وأغذية ، كانوا قد سمعوا أن هناك رجلا يرض قادمون ، ولم يكن لهم علم بأن هنالك أجناس مختلفة بين ذوات البشرة البيضاء . كانوا يعتقدون أن حملة مارشاند هي مقدمة لقوم جيش البردور ، ولكن عندما علم الأمازيغ الدولة التي بينهما وأسلم في البيع الأمر فيلثان متنافستان ، ورغم أن عرفهم من العلم للصري كان واضحا في البداية ، إلا أنهم سارعوا بولاكهم للقوي الأقوي وقاطعوا الفرنسيين نهائيا .

في منتصف أكتوبر وصلت رسائل مارشاند من فرنسا عن طريق الباغرة ، عندما قرأها قرر السفر للقاهرة . العقيد جاكسون الذي كان حريصا على الإبقاء على الحالة الراحنة كما هي ، توسل لمارشاند أن يعطي أوامره لتأكيه لضمان ذلك . ووافق مارشاند بسرور وبعد أن أعطى أوامره سافر إلى أم درمان . هناك شاهد أكرام الجيش والفراب الذي أتقلا منه وواصل إلى القاهرة ، حيث تكرر بالخطب والدموع . أثناء خياب مارشاند ، بدأ القريب جسر مين الذي تولي القيادة من بعده في التملص من تنفيذ الأوامر ، ولما كان يتوق للفت الأنظار إليه ، بدأ في تنفيذ سياسة مستغلة ومعقدة احتل منطقة الديكا غرب النهر .

أرسل طرق مستكشفات للتحصل ومنع شيوخ الديكا من الحضور لفشودة لتفهم فروض الولاء والطاعة وأي طابعتهم . ثم أرسل بالمرته والفتش في حمدي بعد أن رجح من الجنوب ، إلى ما بعد المناطق الشمالية التي كان قد اتفق عليها الطرفان ، وحلدها السردار ووافق عليها مارشاند .

احتج العقيد جاكسون وأرسل الاحتجاج وراء الآخر ، لكس جرمين رد عليها بعجرفة ، واستمر في سياسته الاستغرافية . أعبروا أعلن الضابط البريطاني بأنه سوف يمنحها من الرجوع للنقطة الفرنسية لو أن جرمين أرسل أي يواجر لحصل منطقة الديكا ، أعلن جرمين

أنه سوف يقابل القوة بالقوة ولترتعت الانفجالات ، تشعلها حرارة الجوى الحى ، قلة الراحة
والليل كانت الأحوال صعبة ، حكمة وصبر العقيد جاكسون وحلها هى التى منعت صداما
كان سيكون له صدئ فى كل أنحاء العالم . احتفظ بقواته بعيدا عن الحامية الفرنسية وبقيت
على خطوطها بكل حزم .

كان هناك يوم أسود ، شوهد فيه الضباط الفرنسيون يعملون بمصالحهم فى عمل
استحكامات بمساندهم جنودهم المستعاضون بالقلعاء ، استعدادا لنضال بالأسلحة .

كانت الأحوال فى الجانب الآخر هادئة بدون نشاط يذكر . كانت الحامية المصرية
بالرغم من أنها كانت تحت السلاح إلا أنها اعترضت أن تكون بعيدة عن الأنظار . لكن
الدخان للتصباح من مدافع البوفرج يعلن أن كل شيء جار . بعد فترة غياب وفى لحظة
سعيدة عاد مارشاند وويج ناهي وقدم اعتذاره للعقيد جاكسون وأصبح معلوما أن الحكومة
الفرنسية قد أسرت بالهلاء عن الفاشدة ، ثم مضت بضعة أسابيع فى التحضير لرحلة للفاخرة .

جاء يوم الرحيل فى الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم ١١ ديسمبر والنزل
للفرنسيون عليهم على أنغام البورجى بينما ظل البريطانيون يشاهدون هذه المراسم
كمشاهدين دون أن يتدخلوا . عندما نزل العلم جرى ضابط فرنسى وعلق العمود ورماه
على الأرض وهو يلوح بقبضة يديه ويهتف شعره فى مرارة وغضب شديدين ولا يمكن لأحد إلا
أن يتعاطف معه نسبة لمعاقبهم غير المجدية وما قاموا به من عمل . ركب أفراد الحملة فى
الساعة التاسعة والنصف وشركت بهموتهم ، اللشى فى ديمودى القطر ورائه صندل حديدى
قد تم ومركب حديدى ، وسارت للركب الثلاث الأميرة غادة أشرعتها وحاملة للجنود .
عندما مرت أمام قطع الأسطول النهري الصغير على حافة المعسكر للبحرى ، حياهم بحرس
شرف من الفرقة السودانية السادسة وعزفت الموسيقى سلامهم الوطنى ، رد على المبادلة
أفراد الحملة بأن نكسوا أعلامهم ، فعل الجانب الآخر نفس الشئ ، نكسست الأعلام
للمصرية والبريطانية ، استمرت للراكب حق وصلات منعنى النهر ، تزلوا على الأرض . الآن
قد حفظ الشرف ، توجه مارشاند وضباطه لتناول طعام الإفطار مع العقيد جاكسون . كان
الاجتماع وديا جدا وتبادل جاكسون مع جومين عبارات المودة ، ثم أعطاهم القائد باسم

العرفة السودانية السادسة ، علم الأمير الذي كان قد هاجهم واستولت عليه الفرقة في الكرك . شد على أيدي الضباط وهم تتوا لهم رحلة صعيدة .

مرة أخرى بدأ هؤلاء الضباط للتمشية فالتين حاور كل هذه للساعة وحققوا كل هذه الإنجازات رحلة العودة للتهكة عن طريق الخبشة الى الساحل ومن هناك للوطن الذي خدموه بإخلاص وتفان ولذي سوف لن ينكر لو يتسنى خدمتهم .

دعونا الآن نلطف للتداعيات الحالية لإعادة احتلال السودان ، طالما منحت الفرصة . تم تسوية للمشكلة بين إنجلترا وفرنسا بخصوص وادي أمالي النيل ، فيما يخص الجانب للمادى ، سويت غالبا بالتفاهة وقعت في لندن يوم ٢٦ مارس عام ١٨٩٩ بين لورد سالزبوري ومستر كامبون . اعتبرت الاتفاقية التي تمجد محاور مناطق نفوذ القوتين ، كاضافة للفقرة الرابعة من اتفاقية مؤتمر النهر التي تم التوصل اليها العام السابق . النص الكامل كان موجودا بحيث يمكن فهمه بعد دقائق معدودة ، مع دراسة الخريطة ، يمكن الرجوع فيه في الملحق للفرق . كان العنصر للفعال للاتفاقية ينص على أن تفسر كل منافع وحوض النيل الى إنجلترا ومصر وتنص أن تكون لفرنسا يد مطلقة على كل أجزاء شمال أفريقيا غرب وادي النيل الحالية من أي احتلال أوروبي ، فيما يخص مناطق النفوذ . هذا التقسيم المعجيب لنصف القارة بين القوتين الأوروبيتين ما كان متوقعا أن يجر حملي القوى الباقية . ألمانيا وعدت بالتبذع سياسة " الباب المفتوح " معها بالنسبة لمناطق أمالي النيل ، لإيطاليا أصبحت بوداعة ، لحلت ألمانيا . روسيا لم تكن لها رغبة في هذا الربع . انفتحت إنجلترا وفرنسا ، لم يتم للتشاور مع بقية الدول ، والاتفاقية بناء عليه تخرج بحجة من العالم بشكل عام .

لم يكن الوقت بعد محاولة إعلان من من بين القوتين قد نال أكرر الليزات ؟ . فرنسا قد حصلت بخبرة واحدة وبدون أي صراع حربي أو معارك عسكرية ما قد يمكنها من احتلال وحزم إقليم أفريقيا كبر وما استولت عليه الآن يمكن اعتباره " منطقة تطلعات " تتحول مع مرور الزمن الى " مناطق نفوذ " وللمستقبل البعيد ربما يشهد ضم كل الإقليم لها . هناك مصاعب كثيرة يجب التغلب عليها أولا . نفوذ " السنوسي " القوى لا يزال قاعما ويجب إزالته . للمملكة المستقلة " كوداي " يجب أن تحزم ، دويلات كثيرة سوف تقاوم بضرورة . كان لفرنسا ما يشغلها في أفريقيا الوسطى لأعوام قادمة ، وحق بعد أن يتسنى الصراع ، فلن تكون هذه

الأقاليم ذات نفع كبير . كانت تشمل صحراء ، منطقة الصحراء الكبرى ومساحات شاسعة من المستنقعات والكثبان غير القابلة للحرق وواحد فقط نهر "الشارى" يمر خلال تلك المنطقة ولا يصل إلى المحيط . حتى بحيرة تشاد التي يصب فيها نهر الشاري تبدو كأنها تتسرب في بحرى خفية إلى باطن الأرض وتحويل إلى مستنقع .

بريطانيا العظمى ومصر في القلب الآخر قد حظرت على إقليم رغم صغر حجمه بالمقارنة ، إلا أنه والذي كبير أكثر خصوبة ، سهل فواصلات نسيبا وقد تم الاستيلاء عليه بالفعل وبه الممرى للماء لنهر النيل . فرنسا قد تستطيع تطوير أجزاء كبيرة من قارة إفريقيا باللون الأزرق ولنظرة بالنسبة للقارة قد يمر حين الشخص الوطني ، ولكن من الواضح أن عليها قبل أن تشرع في تطوير ممتلكاتها ، تحويل المصالحات إلى قوة والنفوذ إلى احتلال ، وعليها أن تعمل بقوة ، وتنفذ أكثر وتسيطر أطول للعائد ، من الملاك المتواضعين لى لى النيل . وحتى العائد المنتظر عندما يتحقق ، سوف لن يكون عائدا ذا قيمة كبيرة .

على نا الآن أن نقاش النسبة التي بين غزاة السودان . تحركت بريطانيا ومصر هذا بيد على النهر العظيم ، اشتركتا ، ولو بنسبة غير متعادلة في التكاليف بالنسبة للحرب من مال ورجال . تكون المواجهة فما معا ، لو أعلنت بريطانيا ضم السودان للناسر ، لن يكون هذا عدلا بالنسبة لمصر ، مع العلم أن كل الدعاوى والطلبات بمنطقة فاشودة قد استبعدت على حقوق مصر السابقة في الإقليم . ومن ناحية أخرى إذا غلب السودان أن يصبح مبريا مرة أخرى ، عليه تحمل أخطار ذلك البلد السجين . كل المشاكل في ذلك النيل مستحيل لأعمال النيل ، السيادة الفرنسية والمشاكل للكررة القوية سوف تضاف لمشاكل السودان الإدارية لتخلص البلد الجديد من لغة العملة ، كان هذا في غاية الأهمية والجدية السودا " بين بريطانيا ومصر التي نشرت في ٧ مارس ١٨٩٩ تحقق هذا الفرض . ككل الأعمال الجسيمة التي قامت بما لو وكالة البريطانية لمصر ، مرت الاتفاقية بدون أن تلت أي أنظار . تحت سلطة مصر قد تم إنشاء إقليم في وادي النيل ، لا هو بريطاني أو عثماني ولا أى شيء آخر متعارف عليه في أوروبا . المحكمون الدوليون قد واجهوا كيانا سياسيا جديدا تماما ، اكتشف بعد " دبلوماسى وليم " بريطانيا العظمى ومصر سوق تحكمان السودان معا . الغزاة الحلفاء أصبحا للالكان للشتركان .

سأل القنصل العام النمساوي اللورد كرومر " ماذا تعني اتفاقية المرحان هذه ؟" رد
للندوب البريطاني الذي عرّف الحياة السياسية المصرية وغير غفيلها لأكثر من ٢٢ عاماً "
لما تعني هذه وبأدر باعتباره نسخة من الوثيقة غير القهومه ، هذه الوثيقة التي موجهها رعا
يوما ما يخطط هذا القمل نحو السلام والرحمة .

الفصل الثامن عشر

على النيل الأزرق

إن سلطة الخليفة وقوة جيشه قد عم القضاء عليها في الثامن من سبتمبر ، وكانت معركة أم درمان ذروة النهاية الطبيعية لقصة الحرب هذه ، يبقى للذين حاربوا ، وأكثر للذين سقطوا في معارك لاحقة ، ذروة جليت بأعوار شيئا ما . بعد النصر ، لم يعد السودان هو المصدر النهم للأخبار التي تهم الناس . رحلت آخر كتيبة بريطانية إلى أموان شمالا ، رحل آخر مراسل حربي إما للقاهرة أو إلى لندن ، ولكن لم تنته المعارك الحربية بعد .

لقد تمت هزيمة العدو ، بقي إعادة غزو الإقليم . اللورد كرومر في حاميات للتدريبات كلفوا لايالون يخططون بولائهم للعيلة ، بعض القوات ما زالت في الميدان . لم تتأثر مداهل كردفان أو دارفور البعيدة بالمركة العظيمة على ضفاف مقرن النيلين . كانت الإشاعات تنتشر بوجود قوات أوربية في القاصي الجنوب . مكنت سيادة السردار على البحري المائي مع إنجام إعادة احتلال معظم أمراء السودان المصري ، كل لندن أو المحطات على طول النيل والأمار الرئيسية وفروعها ، تعيش تحت رحمة البواخر الحربية ، لم ينجح الأمر إلا إرسال البواخر لرفع العلم المصري والعلم البريطاني . أرسلت حملتان لنيل الأبيض والنيل الأزرق لإقامة الخانات وإلحاح أي فرد . كانت الحملة الأولى بقيادة السردار التي تركت أم درمان يوم ٨ سبتمبر وأبحرت على النيل الأبيض نحو فالشودة ، لقد سرعنا الأحداث السبق تلت الحملة . الحملة الثانية تكونت من البواخر " شيخ " و " حفيظ " مع فرقتين وفرقة موسيقى الكتيبة السودانية للخدمة برأسها الجنرال هنتر ، غادروا أم درمان يوم ١٦ سبتمبر على النيل الأزرق إلى أبو حراز . لحقت بقية الكتيبة الخامسة بمجرد أن تم الحصول على البواخر ، كانت هذه مشغولة في نقل القوات البريطانية إلى عطبرة والعودة باليون لأن درمان .

كان تقدم الحملة على النيل الأزرق احتفالية نصر مستمرة ، فمطعم العشرات من سكان المناطق المتاخمة لشاطئ النهر على الجانبين يهللون بأصوات عالية ، فتحة ربما لتخلصهم من سطوة الخليفة الجبارة ، أو مآسى الحرب ، ونتيجة للعرف أو الاستغراب . صاحبت مجموع الشعب البواخر من على الشواطئ وهي ترحف ، الرجال يرتصون بميولهم والسوة

يزغردن . كان الاحتفال طافيا برجال الحملة وعند المرور بالراكر الكبيرة تجمع الآلاف في تائر بالغ ، بلغ الحشود بعض الأعالى أن انظروا الأعشاب من منازلهم وأحضرها كوقود للبواخر . لا أحوم إن كانت هذه القصة حقيقية أم لا ، ولكن الحقيقة أن البواخر قد تم تحويلها بينما تقدم الحملة كان الاستقبال حلوا من قبل القبائل السوداء التي قامت من ظلم العرب (٢)

في ٢٢ سبتمبر اكتشف أن قوات عثمان دقة التي لم تشرك في معركة أم درمان كانت تعسكر في الجزيرة على بعد أميال قليلة شمال رفاعة . حضر الأمراء والشيوخ واستسلموا للجنرال هنتر يومهم ٢٠٠٠ رجل . جمعت أسلحتهم ، وضعت القيود على أيدي مرسى دقة ابن أخت عثمان وتمكك كاسبر . أما البقية الذين كانوا من منطقة سواكن ، فقد طلب منهم الرجوع لأقاربهم وكانوا سعداء بإطاعة هذا الأمر .

في اليوم التالي وصل الجنرال لي ولدمين حيث استسلمت حامية الدنلوبش وقواتها البالغة ألف رجل للبصرة " الشيخ " . هؤلاء الرجال الذين كانوا ضمن قوة الدنلوبش النكسة تم ترحيلهم في مراكب شراعية لأم درمان حيث انضموا لبقية الأسرى هناك . وصل جنرال هنتر إلى الرصوص يوم ١٩ سبتمبر ، وهي تبعد بنحو ٤٠ ميل من الخرطوم وتشير أقصى نقطة صالحة للملاحة على النيل الأزرق . وضع حامية في يوم ٣٠ أكتوبر من الفرقة السودانية الخامسة في الرصوص ، في كركوج ومنزل (رئاسة الحكومة للأقاليم) وفي ولدمين . بعد أن ترك بالمرحة لميل دوريات في المنطقة ، رجع لأم درمان .

القوة الوحيدة للدنلوبش التي لم يكن في حيلاتها الاستسلام للفرقة ، والتي تم القضاء عليها بعد ثلاث معارك شرسة ، هي قوة أحمد فضيل . أخذ من أطلس الرجال لدعوة الخليفة ، كان قد أرسل بعد المزجة على بحر عطوة بجمع كل ما يستطيع من أفراد من منطقة المضارب والقبائل وإحضارهم إلى أم درمان للانضمام إلى القوة الرئيسية ، عاد الأسرى البري وقد أبحر مهتة على أكمل وجه وبصحة قوة من ٨ آلاف رجل لتجدة سبله ، ولكن على بعد ٦٠ ميلا من أم درمان سمع بأخبار الانكسار الكبير في الميدان فأوقف تقدمه . لم يشأ أن يعلى أخبار المزجة بجنوده ، فأخبرهم أن الخليفة انتصر وما عاد في حوجة لهم ، برر ظهور البواخر على النيل الأزرق ، بلغا بضع بواعر استطاعت العبور من بطاريات أم .

درمان ، وأن بقيتها قد حمرت ، لم يستمر إعطاء الحقيقة أكثر من هذا ، وصل مبعوثان من سلاطين والسرحان إلى معسكر الفرنجيش وأعلمنا ، أن جيش أم درمان قد هزم ودمر وأن الخليفة قد هرب وسقطت المدينة . كانت هناك شروط تسليم عرضت على أحمد فصيل ، لكنه ناز وقتل أحد الرسل وترك الأمر لينهب ويلغ سلاطين بأنه لن يستسلم حتى الهابة للآتراك ، مررنا ميلا من الشطآن مع البعوث الجفر .

أقمي المعسكر وسار على شمال النيل الأزرق على أمل أن يقطع النهر عند التقائه مع نهر الرهد ثم يواصل للحمل بالخليفة في كردفان . أفراد قوته ذكروا له أنهم تركسوا هو والسهم في القضايف وكمية كبيرة من الحبوب والخضرة ، في بادئ الأمر لم يوافق على الرأي الذي يطالب بالرجوع للقضايف ، لكنه عند وصوله نقطة التقاء النهرين شعر بضرورة المرور مع وجود الهاربة بالسلاح ودوريها ، فقبل الرجوع للقضايف . كانت حامية القضايف تحت حراسة ثلاثة آلاف رجل .

في الخامس من سبتمبر سمع العقيد بارسونز قلدا منطقة كسلا من طريق القنصل الإيطالي في أريتريا بالانصراف في أم درمان ، تأكدت الأخبار من انصراف في اليوم التالي وبناء على التعليمات المسبقة ، توجه إلى القضايف يوم ٧ . كان معلوما أن الأمير أحمد فضيل قد توجه بقواته إلى أم درمان وأن الحراسة في القضايف تتكون من فصائل قليلة ، لم يشأ بارسونز أن يضع فرصة الاستيلاء على قاعدة مهمة للفرنجيش . كانت للهمة بالنسة ، كل القوة كانت ١٣٥٠ رجلا بدون بحارب وقليل من النظام أحيانهم الانتظار والرض ، بدون فرسان ، بدون مدفعية أو رشاشات ومع عدد ٧ ضباط بريطانيين بما فيهم الطبيب احتلوا القضايف ومكثوا بها يوما .

بعد مسيرة طويلة في أرض صحراوية جرداء ليس بها نقطة ماء وصل العقيد بارسونز وقواته إلى الفاشر على حين شاطئه غير مطورة ، وهكذا بعد عبثة الصبراء وحملوا أنفسهم الآن أمام معبر مائي هائل . نهر عطوة كان أهدم القنصلان مليا بالياه ، قناة طويلة عميقة أعرض من نهر النيل تحت مروج لندن ويجري بسرعة مبهمة كمياه في الساحة ، شكل مانعا رهيبا للقوة . صنع الجنود طوقا من الترميل الفارغة التي أحضرت خصيصا لهذا الغرض . سعد عشرة أفراد على الطوق كحماية ، لم تكن النتيجة مشجعة . حرف التبار الطويل لمدة

خمس ساعات لمسافة ١٠ أميال مع التناوب ثم عاد للرحلة الثانية في عصر اليوم التالي . كان واضحاً أنه لا مكان لهذه الوسيلة ولضمان النجاح يجب الوصول والاستيلاء على القصر قبل رجوع أحد فضيل، فهنا يتطلب السرعة وما هي الفرفة تعان من تأخير يائس . بعد مشاورات كثيرة اقترح ضابط مصري بناء مراكب . ثبت أن هذا العمل أسهل مما كان متوقفاً . أشجار السنط أعطت الخشب لعمل المراكب ثم استعمل مشعما لغطاء الخشب ، لمكنت القوة في صناعة للمراكب الواحدة مدة ٢ طن وتمكنت الفرفة من تعدي هذا المانع النهري الكبير .

استطاع عرب الشكرية تعدية الجبال والفيال والخيول بأن وضعوا قرب منفوعة تحت تلك الخيول فاستطاع أن يعوم للو الثاني ، أسهمت براحة الشكرية في تعدية كل حيوان منع فقد بفل واحد وجمال واحد فقط . انتهت هذه العملية يوم ١٦ واستمر التقدم غرب لمسيرة حتى وصلت القوة محطة للقطع يوم ١٨ . بعد أن ملأوا قرب المياه ، انفضوا للعبارة ودعا كل فرد للإله الذي يمهده تحركت القوة يوم ٢٠ واستمرت في السير طيلة اليوم وسط الغابات التي تملأ الطريق من هر عطيرة حتى القضايف، عسكرت المجموعة للراحة مساء ٢١ وهي على بعد ١٢ ميلا من القضايف . عند منتصف الليل وصل فردانها من قنات الدراويش وأعطوا العقيد بارسونز أن الأمير سعد الله ينتظر مع قوة تبلغ ٣٥٠٠ رجل على بعد ميلين من المدينة . كان الموقف خطيرا والتراجع في مثل تلك الظروف وطبيعة الأرض يجعله مستحيلا أمام قوة كبيرة من أفراد العدو كان لابد من الهجوم .

في صبيحة يوم ٢٢، نفس اليوم الذي سلم فيه موسى دفته ورجاله لجنرال هنتر على الليل الأزرق ، تحرك العقيد بارسونز وقواته من حامية كسلا إلى القضايف مصمما على عرض للمركبة بأي قوة لديه وضد أي عدو يلاقه . سارت القوة بجوار مزارع السيرة والأعشاب الطويلة "المنار" التي كانت تغطي حتى المسافة على ظهور الجمال ، تراجعتم مزارع القدرة بالقرب من المدينة وخرجت القوة من الأدغال لمنطقة منخفضة يعلوها أشجار الشوك وبعض الأعشاب . في الساعة والنصف ظهرت أطلال لقوات العدو وهم تبادل إطلاق النيران غير المؤثرة ، في الثالثة وصلوا إلى مرتفع يكشف كل المنطقة حتى القضايف على بعد ثلاثة أميال . ووقت الفرفة وتزل العقيد وضبطه للاستطلاع .

هائكم للنظر للرحب ، على بعد أقل من ميل ظهرت قوة كبيرة من الدراويش تتقدم نحوهم بطول أربعة أميال بالباسهم الأبيض خرجوا من بين الأعشاب والقش الطويل، تنظمهم وطول طابورهم مكن الضباط من إحصاء أعدادهم التي قدرت بأربعة آلاف رجل. دلت التحريات التي تمت لاحقا ان الأمير سعد الله قد خرج من القضايف على رأس ١٧٠٠ من حملة البادل ، ٩٦٠٠ حملة حراب و ٣٠٠ حصان.

بالسرعة التي ظهر بها الدراويش وقصر للسالة بينهما رجحت أن يتم الصدام في أقل من نصف ساعة ، كان الوادي مليء بالأحجار والجريد والأعشاب ولكن على مئة هناك تلال مرتفع ، أعلى سطحه على شكل مرج حصان ، يطل على مدينة القضايف ويكشفها تماما . الدراويش يعرفون طبيعة الأرض جيدا بينما يحفظها بارسونز جهلا كاملا، مثلت قمة التل موقع ممتاز، حتى لو كشف الأرض من حوله بذلك قرر بارسونز احتلالها. الوقت ضيق، العدو يتقدم.

صبرت الأوامر، وأسرع أفراد الفرقة بخطوات مرحوجة عبر الوادي متجهين نحو القمة، شعر الأعداء بما ينويه القائد فأسرعوا لخطي على أمل أن تلحق بهم وهم منفعسون الى أعلى التل أو حتى احتلال القمة قبل أن يصلوا إليها . تأخر الدراويش فاستطاع بارسونز قنوصون إليها في دقائق معدودات شكل قوته تشكيل اصطفاك تقدم في اتجاه القضايف، في للقمة للكتيبة العربية، بعدما الكتيبة المصرية ١٦ تم القوات هو النظامية .

شاهد الدراويش أن قوة بارسونز احتلت التل وشعلوا جنودا يتحركون على السفح في اتجاه القضايف ، استندوا الى شملهم وتقدموا للهجوم . في تمام الساعة الثامنة والنصف استعدت الفرقة لمواجهة الهجوم . بالرغم من وقوف الجنود، ورغم أن كان القصب حيق على سفح التل، كان بطول صدر الجندي إلا أنهم قصحوا نيران مدرة لكن أفراد العدو رغم الحصار الثقيلة استمروا في التقدم بشجاعة يردون على نيران الفرقة . عند التاسعة ، ولم يتحدد بعد مصير الهجوم الألماني ، شاهد بارسونز قوة كبيرة للدراويش تتحرك شمال مؤخرة الفرقة لتهاجم مستشفى الليان والواصلات. أوصل مسرعا بحل القصب طيب فليمنج، الذي كان يعمل كضابط طبي وقائد لقوة الترحيل ، من الهجوم للقادم ناحيته، طلب منه تجميع الجنود ومواجهة الهجوم . شيوخ العرب الذين أنيط بهم حفظ النظام وإعطاء الأوامر

نسبة لعدم وجود ضباط ، ما إن جاوروا بالأعرج للضباط العلى فلم ينج حتى بدأ الهجوم على العدو الذى بلغت قوته ٣٠٠ جنوداً بتصميم قوى نحو فصيل الترحيل، ففزع الـ ١٢٠ عربياً غير النظاميين وهربوا وأصبح اللوقف يائساً فتحرك روثين مع ٣٠ من المجاندة لملاحقة العدو للدفاع عن الاتصال وحققوا دفاعاً مستميتاً بالرغم من ذلك ، تم كسر مؤخرة الفصيل هرب الناجون إلى قمة التل، بينما تراجع الضباط البريطانيين ومن معهم وانضموا لقواتهم الرئيسية .

في هذه اللحظة شاهد النقيب روثين أحد الضباط النظاميين مصاباً ملقى على الأرض وعلى وشك الفزع في أحدى أهدله ، وبالتالي هاجته فحمله على ذراعيه وكان رجلاً قوياً البنية ، ثلاث مرات كاد يفك به لكنه كان يضع الضابط الجريح على الأرض ويدفع عن نفسه بعينيه ثم جعله مرة أخرى وهكذا وأصل تراجع حتى وصل للقوة الرئيسية .

كانت قوات بارسونز بين نارين ، الهجوم الأمامى والعدو في اللوحة، الأمامى كان على بعد ٢٠٠ ياردة ، العدو في اللوحة بعد أن حقق الانكسار أمد يستمر بقوة للأمام حتى بنا أن هزيمة الفرقة القادمة من كسلا أصبح مؤكداً . لكن في قمة الهجوم الأمامى أصابت الدراويش عساكر كبيرة وبنوا يترجون ، عندما تقدمت الكتيبة العربية بمحاولة للكتيبة ١٦ المصرية للضغط عليهم لكنهم تراجعوا وهربوا ، في الحال أعطى بارسونز القوة أمراً بطلبوران للمخلف لمواجهة الهجوم القادم من اللوحة. أما الكتيبة العربية التي عرفت بشجاعتها أكثر من نظائرها تابعت ملاحقة العدو للهزوم على أسفل التل ، أما الفرقة المصرية ١٦ فقد انصهت للأمر واستدارت بقيادة النقيب ماكربل للتصدى للهجوم الجديد.

أجبرت نيران الفرقة المركزة العدو على التوقف واستطاع النقيب فلم ينج وبقي رجاله المصابين وهم يسرون على أرجلهم والنقيب روثين، وهو ما يزال يحمل الضابط الجريح الوصول إلى أعضاء الفرقة بسلام . استمر القتال العنيف بالطلاق النيران من مسافة أقل من ١٠٠ ياردة وتم طرد العدو الذى كان يهاجم مجموعة الترحيل. انتهت المعركة الآن وبالنجاح الكامل . استمرت الكتيبة العربية وبقي غير النظاميين في مطاردة العدو إلى أن انسحب نحو القضايف. وفي الساعة العاشرة هزم الهجوم الأمامى وأيضاً في اللوحة تشتت

قوات العدو وانتهت أي مقاومة له . علم وجود سلاح قوسان أو مدفعية سقطت مطاردتهم
أمرا مستجيلا .

استسلمت مدينة التضاريف عند الظهر ، الأمير النور حقرة الذي كان على رأس الحامية
ومع ٢٠٠ فرد من حملة البنادق السود ومدفعين نحاس ، أسرع وسلم نفسه ، بقية القسوات
التي كانت مع الأمير سعد الله قطعت في تراجعها لتوصيل أخبار المزيمة لأحد فضيل .

عساكر فرقة كسلا من القتال كانت كبيرة بالنسبة لحجمها ولادة القتال ، لم يصعب أي
من الضباط البريطانيين السبعة ومن عدد القوة البالغ ١٤٠٠ رجل كسل ٥١ وحسرح ٨٠
بمجموع ١٣١ وترك الدراويش ٥٠٠ قبل خيم أربعة أمراء من الصفوف .

لقد تحقق الاتصال وهزم العدو وسلمت المدينة ، وجاء الآن دور الدفاع عنها ، استولى
العقيد بارسونز على الأبنية الرئيسية وبدأ في تحويلها إلى مساكن دفاعية ، ساعد وضع اللبان
في هذه المهمة أن الموقع كان جيدا وإمكاناته طيبة . فقد كان يتكون من ثلاث زرائب كبيرة
يمكنها أن تسع كل القوة مع وجود امتحانات تحميها من الدفاع عن كل جزء عن طريق
فتح النيران ، أمامها . جددو من الطوب بارتفاع ست أقدام . بدأت عمليات تجهيز الموقع
للدفاع ، أزيلت منازل الطين والقش من على جانبي السور وأقيمت مقاريس داخل وعطف
الحائط حتى أصبحت القلعة كالقلاع ثلاث طوابق ، ثبت للدخان الغميصة واحد في الجهة
الشمالية والآخر في الغرب على الأركان . بينما تشغل أفراد المشاة في هذه الأعمال ، كان
التنقيب روثليان وأفراد من السجادة يواصلون الاستطلاع خارج المدينة يبحثون عن أي أنسر
لأحمد فضيل .

لحسن حظ خير عادي وصلت من لقطع القنطرة التي تحمل الذبذبة إلى التضاريف حصو
يوم ٢٧ وفي فجر يوم ٢٨ بلغ روثليان ظهور طلائع قوة أحمد فضيل متجهين نحو المدينة .
بدأ الهجوم في الثالثة والنصف . الدراويش بشجاعتهم وقدرتهم المعروفة هاجموا المواجهات
الشمالية ، الجنوبية الغربية في نفس التوقيت وكان يرحضون داخل قصب الذرة الطويل . حتى
وصلوا إلى مسافة ٣٠٠ ياردة من سور القلعة . للمساحة التي تفصل بينهم وبين القوة قد تمت
نظافتها من أي غطاء وقصر رصاص المدافعين يمنع أي للتراب من السور وحاول بعضهم
تسلق السور بدون فائدة ، لكن وجد بعضهم بعضا للتأذي التي لم يسن لرجال المشاة لإزالتها

وبعد إطلاق النيران من داخلها . بعد ساعة من الضرب الشديد ضعفت مقاومة الدراويش الى أن توقفت بالكامل . استؤنف القتال مرة أخرى بعد وصول بكتلة كبيرة للعدو ولكنهم صدوا أيضا . في الحادية إلا ربعا وبعد أن خسروا ٥٠٠ رجل بين قتيل وجريح اعترف أحمد فضيل بالمعركة وتقهقر مع باقي قوته الى منطقة أشجار نخيل على بعد ميلين غرب للدينة . كانت خسائر القوة للخدمة أن قتل خمسة أفراد جرح ضابط بريطاني (التيب روبر) و ١٣ رجلا . بقي الدراويش لمدة يومين في منطقة لأشجار النخيل حيث كان قتلهم يمنهم على الدوام على المحرم وبالرض من أنهم أساطوا بالسور وتبادلوا إطلاق النار ، إلا أنهم شعروا أنهم لا يمكنهم أن ينطخوا الجنرال برووسهم لثالث مرة فاضطر أحمد فضيل للرجوع لمسكر آخر بعد مسافة ٨ أميال جنوب للدينة .

استمر لمدة ثلاثة أسابيع في مناوشاته ، بينما اكتفت فرقة كسلا بالاستمرار في دماغها . حتى استطاعت قوافل قليلة من القطار أن كسلا ليل الى القضايف وتنضم الى الطبايات . يمكننا القول أن الحامية قد اكتمل حصارها . كما قلت مسالهم في القتال من قوائم ولم تكن لديهم كميات كبيرة من الذخيرة . كذلك كانت الروافع الكريهة للنبهة مع الجمل للتعطلة داخل حقل الذرة وحول الحائط مع الجوهر المصحي وتراكم الأوساخ كانت مناعا مساهلا للأمراض . لهذا فقد أصابت القوات حتى مولة لم يتج منها أحد كل الرتب تقريبا حالت منها ، فقد جلد ٢٧٠ فردا من جملة ٤٠٠ . الغارات الليلية للكررة حرمست القوة من النوم حتى أصابهم الإرهاق ، تدهورت الحالة الى موقف غير مرض عندها اضطر العنيد بارسونز لأن يطلب المساعدة .

أما الجنرال رندل الذي آلت اليه القيادة في غياب السردو ، فقد جهز حملة إنقاذ سرية مكونة من الفرق السودانية الخامسة والثانية عشرة والثالثة عشرة مع ثلاث فرق مدانة تحت قيادة كولنسون ، أرسلت الى مصب نهر الرعد وأرسلت للشاة بالجواهر من أم درمان ، كسل سافرت المدانة على شاطئ النيل الأزرق قاطعة مسافة ١٣٠ ميلا في ٥٦ ساعة . وهكذا تم حشد كل الحاميات على النيل الأزرق ماعدا حامية الرصوص . وصلت القوة يوم ٨ أكتوبر الى منطقة أبو حريز ٥٠٠ ميل التي حاجت من أم درمان أنضيف إليها أي حيوان يستطيع أن يكون ذا نفع في الترحيل . تحركت الفرقة السودانية ١٢ يوم ٩ أكتوبر على نهر الرعد الى

عين اللويقة. حيث يترك الطريق النهر من هذه النقطة ويتجه لمسافة ١٠٠ ميل إلى القضايف
عبر الصحراء، في كل هذا الطريق لا توجد مياه إلا في جبال القارو وعليه كان لابد ان تزود
الفرق بعاء كافية. ونسبة مخدودية حيوانات القتل تقرر إرسال الحملة على دفعتين.
فتمركت المعانة مع السودانية ١٢ الكونة من حوالي ١٢٠٠ رجل تحت إمرة كولنسون
يوم ١٧ من عين اللويقة وصلت القضايف بسلام يوم ٢٢.

أما أحمد فضيل الذي كان قد أغار على القوة بالليل وتبع عن محومه حرج اثنين من
الجنود السودانيين فقد علم بوصول النملة وتأكد لا أمل عنده لاستعادة للنبذة فقرر
الانسحاب جنوباً. كانت القوة تخطط لمهاجمته ولكن بلغت أطراف استكشاف في يوم ٢٣
أكتوبر بأنه شوهد يتحرك مع قواه إلى ناحية الجنوب مع قوة تحمي للوعرة وفي نفس الوقت
تجمع أي فرد من الغرب .

وهكذا كلت كل العمليات التي قام بها العقيد بارموزن بالتحاج ، كانت المصاعب التي
واجهها جسيمة والاموال عظيمة وكذلك النتائج عظيمة ولكن ونحن نحى مهلة القائد
ورلاء رجاله نجد أنه من المستحيل ألا نتقد السياسة الرعناء للتسرع التي ترسل بقوة ضعيفة
عديدة الإمكانيات، مثل هذه القوة في مهمة خطوة بكل القاييس .

كان القتال في القضايف ودون أي ختب على القائد ورجاله كاد يتحول إلى مأساة،
وكانت هناك مواقف ، حسن الخط غير الطبيعي هو الذي أنقذ القوة من الهلاك . أولاً تم
تكتشف الحملة حتى وصلت إلى المقطع ، ثانياً لم تتم مهاجمتها داخل الغابات ، ثالثاً دخول
الدراويش للمركبة في الغراء بدلاً من حوضها داخل للنبذة، وكان من الصعب للقوة
زحزحتهم بدون سلاح مضيق ، وربما ان الذخيرة الاحياطية وصلت قبل هجوم أحمد
فضيل .

قرر أحمد فضيل بعد هزيمة القضايف ، ان يركز في فكرة الانضمام للمطيفة في كردفان،
فانسحب جنوباً مع قوة يبلغ تعدادها ٥٠٠٠ رجل إلى نهر الدندر ، لم يكن في استطاعت
عبور النيل الأزرق مع وجود اليواختر للسلاح. ما كان يعتقد أنها تستطيع للتلاصق إلى أعلى
النيل ففكر في عبوره جنوب كركوج وسار على مهله ، مروعا الأهالي في طريقه ووصل إلى
منطقة الدندر يوم ٧ نوفمبر. وهناك توقف القوات وأرسل أطراف للاستطلاع، كان يعتقد

أن يجري لنهر من كركوج حتى الرصوص ليس بالمعق الكافي للملاحاة لكنه فوجيء بوجود
باحتريتين تتأوران في المنطقة . كنم غيظه وضيقه وقرر ان يسير ليعبر بعد الرصوص حيث
المياه ضحلة وغير صالحة لعبور البواخر بدون اذن شك .

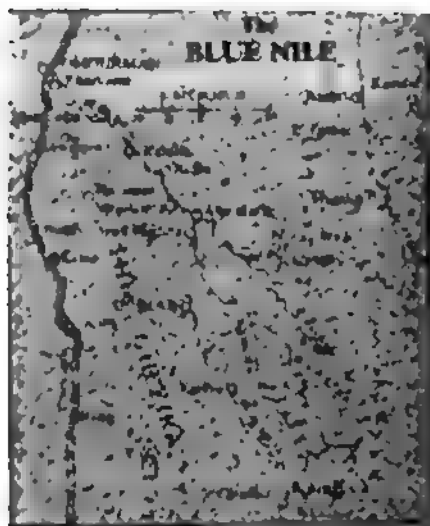
يوم ٢٢ اكتوبر تحرك العقيد لويس مع فرقتين حجاجات وثلاث سرايا فرسان من لم درمان
الى الجزيرة بفرض فرض السلطة المصرية في المنطقة . كان تقدمه ناجحا بكل المقاييس ،
فالاغالي استكانوا وغضوا أمرهم بلون اذن أسف الى الحكومة ولم يكن هناك أى عسرى
للقانون ، الجهة الوحيدة التي كانت ترتكب الجرائم هي طوول القوات غير النظامية التي كانت
تجارب في شرق النيل تحت قيادة الرائد ورتلي . في كل قرية تم تعين شيخ باسم الخديوى
واستمر ضباط سلاح الفرسان في حل مشاكل الارض ، الحاصل والنساء ، السبق اتهمت
لإرضاء الجميع . سارت القوة من طريق العمارة ، الخالوين والسلمية ووصل لوبس الى
كركوج يوم ٧ نوفمبر ، وهو نفس التاريخ الذي وصل فيه أحمد فضيل الى الدندر .

استمرت تحركات القوتين لمدة ٦ أسابيع تماما كلمة عسكري وحرايمه . كان أحمد فضيل
يتمنى داسل المخابرات الكثيفة ، يفر على القرى المحيطة التي تقع شرق النيل الازرق ويواصل
مسبوته الى الشلال خلف الرصوص . لقد حوت المعلومات للضلة لويس السلسلي بقى في
منطقة كركوج وأرسل أطولها كبيرة لتحصل على معلومات موثوق بها ، حاول مرارا أن
يقطع خط الرجعة للقوات وعمل دوريات بالبوليس المسلحة على طول النهر . في عمله
الآناء سقط أغلب أفراد قوته بالمرض ، وباء للالريا الذي اشتهرت به منطقة جنوب النيل
الازرق كان في قمته بعد موسم الأمطار . فقد أثرت للالريا على ثلاثين بالمائة من قوة كسل
حامية أو نقطة وكل أفراد حامية الرصوص سقطوا لآخر وجعل ، لم يبق سوى ضابطان
بريطانيين في الخدمة . سقط الضباط البريطانيون واحدا تلو الآخر بجمد الواحد منهم تمت
اشجار النخيل وجسمه يحترق من حرارة الحمى وليس في مقفوره عمل شيء ، أو يحصل الى
البواخر الصديقة التي كان لها النصيب الأكبر من اللعنة . من بين قولها البالغة ٤٦٠ فردا
توفي ١٠ وأصبح ٤٢٠ غير صالحين للعمل في ظرف شهر واحد بعد وصولهم الى كركوج .

مع نهاية نوفمبر حضر الشيخ بكر من القضايف الذي كان انفصل عن الدرويش بعد
مزينة للجنة ، ومع ٢٥٠ مقاتلا غير نظامي ، واصل أنه انتصر على قائده السابق عدة

مرات ولكي يندلج على ولائه وصلق دعواه أخرج حوالا مليا برؤوس الأعداء. كان هذا
برهاناً لا يقبل الشك. طلب منه ملاحقة الدراويش وشرح بأنه من حقه الاستيلاء على أي
ضالمة له ولقوته .

استمر أحمد فضيل في مسوئته البطولية على شط غور فورتزا للنيل الأزرق ويعد عنه
حوالي عشرين ميلاً متجها جنوباً . بعد أن علم لويس بهذه الأخبار تحرك من كوكوج إلى
الرصوص مع فصائل من الفرقة السودانية الخامسة التي انضمت لقوته لتعزيزها. وبقي بضعة
أيام بدون أمل كبير في أن يمنع عبور العدو للنيل الأزرق. وفي يوم ٢٠ ديسمبر وصلت
إنصارية كاملة ولكن انضج فيما بعد علم دفعها مفادها أن أحمد فضيل قد وصل إلى قرية
الدعيلة على بعد ٢٠ ميلاً جنوب نقطة الرصوص وأنه شخصياً وحرصه للتقدم قد عبر النهر



للشاطيء الغربي وأنه الآن بسبيل تعذيب النساء والأطفال على معلية صنعت من عروق الأشجار (رافت) .

يوم ٢٢ أرسل لويس الشيخ بكر لغرب النيل حتى يهاجم أي قوات للدراويش تكون قد عوت بالفعل إلى الشاطئ الغربي . فسارت القوة غير النظامية لتتخذ الأمر . في اليوم التالي جاءت الأخبار أن قوة الدراويش التجمعت أقسمت جزء على كل شاطئ . وفي ظهر يوم ٢٤ وصلت البواخر ملوك وذلك من أم درمان تحمل قوة من ٢٠٠ رجل بقيادة فرانك فيرجسون من قوات الفرقة السودانية الخامسة و ٣١ من السودانية الرابعة بقيادة النقيب سحر هنري هيل . بعد هذه الإضافة أصبحت القوة التي تحت إمرة لويس تتكون من نصف السودانية الخامسة وفصيله صغيرة من السودانية الرابعة و ٢ مدفع مكسيم وطيب ، وكان بجانب القوات النظامية ، القوة التي مع الشيخ بكر عددها ٢٨٠ رجلا وكانت هناك مجموعة مع شيخ الرصيرص حوالي ١٠٠ فرد وفرد آخرين تابعين .

كان العقيد لويس مصمما على مهاجمة أي قوة لأحد فضيل تكون موجودة شرق النيل . في يوم عيد الميلاد (الكنيسماني) في الساعة الخامسة مساء جمع آمر رجل تحت إمرته واجه نحو الدخيلة وكان يتحرك بصيف واحد طويل داخل غابة كثيفة من أشجار الشوك ، وصلت القوة إلى قرية أبو زغلي التي كان يعتقد أنها نصف المسافة للدخيلة أو أقل من الثالث ، في حوالي الساعة الحادية عشرة من ليلة عيد الميلاد . هنا عسكرت القوة حتى الثالثة صباحا يوم ٢٦ وواصلت السير لمهاجمة بنفس الطريقة داخل الأعراس ، أشرقت الشمس وهم على بعد أميال من مواقع العدو ، ولم تظهر نقاط مراقبة العدو إلا في الثامنة صباحا . وبعد تبادل عدة طلقات تراجع طوف العدو ، تبعهم القوة حتى خرجت من الأعراس إلى فسحة واسعة على ضفاف النيل يتخللها بعض أشجار الدوم والأعشاب الطويلة . انتشرت القوة على هذه المساحة ، ووجدوا أنهم النيل الأزرق يلوح بلونه الفضي مع أشواء الصباح ويجري مسوها على بعد مسافة دافعة ظهرت جزيرة من الرمال والثلال ، التي كان قد انحطرها الدراويش كساتر ولكن فاجأهم القوة فراحوا يركضون . بعد الجزيرة ظهر الشاطئ الغربي وأشجار طويلة وحولها بعض الأفراد تروح وتقلو على المنحدر والمرتفع على ضفاف النيل . أصوات

متناثرة للطول وموسيقى القرون بلدت تسبح فوق الماء ، والأعلام للصدرة كانت إعلانية بوجود قوات العدو وغواياه للمعدية .

كان موقع الدرويش قد تم اختياره بعناية وله ميزات دفاعية جيدة . على بعد قليل شمال الدخيلة ينقسم النيل إلى قسمين قسم ضحل يتجه مباشرة للشاطئ الشرقي والآخر عميق يجري على شكل قوس ناحية الشاطئ الغربي يصب فيه بالندفاع .

توسط مدخل النهرين جزيرة بطول ميل وربع لليل ويحرض ٤٠٠ ياردة وعلى أحدها الجزيرة المحاطة بخندق طبيعي من مياه جارفة ، كان "دم" وحسن الدرويش . في الجانب الغربي للجزيرة ترتفع التلال المغطاة بالأعشاب والشجيرات الصغيرة مع المنحدر عكس ناحية مقدمة شاطئ النهر وهنا كان توجد ثلاثة أبراج قوة أحد فضيل ، من خلفهم فراع النيل العميق ولم يكن أمامهم خيار وفي الحقيقة لم تكن لديهم أي رغبة غير القتال . كان أمامهم صف طويل من عروق الأعشاب مسافة ١٠٠٠ ياردة ، على أحدهم المرور منه للوصول إليهم . خلفهم مياه النيل المندورة والشاطئ الغربي الذي يرتفع لأكثر من خمسين قدما حسن سطح الماء ، قمره قوة من ٣٠٠ رجل من سفلى الدخادق ومن هذه النقطة الحصينة وقف أحد فضيل وأربعة من أمرائه لمشاهدة وتوجيه ومساعدة القوات للدفاع عن الجزيرة . كانت القوة في الجزيرة تتكون من رجال فرقة الأمر سعد الله صاحب بحرية القضايف ، وكانت معهم قوات الأمر الأربعة أيضا مجهزة هناك .

كان الموقف غير مطمئن ، فقد أساء لوبيس تقدير حجم وتنظيم قوة الدرويش ، كل التقارير كانت تشير إلى أن عزائم القضايف قد حطمت روحهم المعنوية وقطعت قوتهم إلى ٢٠٠٠ رجل على الأكثر . لوبيس سار للمهموم معقفا أن نصف قوتهم على الشاطئ الشرقي والنصف الآخر على الشرقي . التراجع الآن مستحيل . وموقف العدو قوی ، وقوته هائلة لكن كان للمهموم هنا حيز وسيله للدفاع لو اقتضى من التراجع مسافة ١٩ ميلا داخل الغابات للشجيرة التي تفصل بينهم وبين الرصوص . هنا قرر الضابط الإيطالي على الفور أن يتعامل مع العدو . وفي تمام التاسعة فتحت منافع للكسيم وهي تمثل للدخية بالنسبة للقوة الصغيرة من مواقع جيدة بينما اصطف جنود الفرقة السودانية الخاصة على الشاطئ الشرقي . فتحت السيرال الآن من مدني بعد ورد الدرويش ومن الدخادق لتتبع من يتأخرون ظهرت أعدادهم

وموقعهم وأيضا استحالة طردهم بنيران من مدني بعيد. وبالرغم من التفاتت للعدي كان في غير مصلحة، قرر أن يهاجم بالسلاح الأبيض للسنج. ثم مرتبة حتى اكتشف كيف يمكن العبور منه لتعطيل الجزيرة، فبعد العائنة تمكن الشيخ بكر وقوته من الوصول الى بعض التلال وأخذ مكانه على بعد ٨٠٠ ياردة من مواقع العدو ومنه للفرقة السودانية الخامسة وأصبحوا الآن على عين العدو لظهن هبوط القوة الباقية .

كان العقيد لويس مصمما على الهجوم على همال القوة من ناحية اليمين والمحموم عليهم من الجناح حتى يجرحهم على الاتجاه نحو الجزء العميق للنهر، واستمر بالفرقة السودانية الخامسة مع قيادة العقيد ناسون والرائد فيرجسون متجهين شمالا على شاطئ النهر مستترا بحالة الشاطئ من النيران التي الآن بدأت تحدث خسائر إلى أن وصل للفرقة التي حدها للاهتمام، فأعلنت الفرقة تشكيل تقدم الهجوم، واستمرت تصف همال معقدة بالخراب بقوة متتالية نحو العدو الخشبي الذي يودي الى التلال الرملية، وبينما هم يتقدمون تصدت لهم قوة من ٢٠٠ درويش تمركزوا بمهارة على مرتفع ووجهوا نيرانهم على همال جناح الفرقة. فالتفصل الرائد فيرجسون لاجراءهم من ذلك للوقع، واستمرت الفرق الأربع في الهجوم.

لقد أصبحت نيران العدو الآن كثيفة، اكتست كل مقدمة الجزيرة بالدخان وعلمته مع المرتفع على الشاطئ الغربي، أصطف أفراد في شكل نصف دائرة ووجهوا نيران بنادقهم نحو العدو. جندي للتقدمين فاقمهم خط نيران ثاني، الكتل الخشبية في العدو ظلت تلفذ كل ما أصابها النيران، كان صوت الرصاص للنهر يصم الأذان، بدأ أفراد الفرقة السودانية يمتدحون " فاما كما كان الدرويش في ثم دومان " وفتلات الأرض يمشي الجرحى والقثلي. قال أحد الضباط " لم تكن نمرؤ على النظر للعطف " الجنود كانوا الذي لا يمكن لهم، استمروا في التقدم جهات دون لحظة وجل أو تردد، ضغطوا مسرعين حتى وصلوا الى مواقع العدو ووصلوا إلى تل رملي وانقلوا سقروا نته. كان ربح الكمية قد سقط على العدو واحتز العدو من صدمة الهجوم العنيف. أمر لويس ناسون أن ينتظر برهة حتى يأخذ الأفراد أنفسهم قبل الهجوم الأخير. فظن الدرويش أنهم صلوا الهجوم وجاءهم الأول من أحمد فضيل عن طريق الطبول واليورجي تأمر بالهجوم. مع صيحات الاتصال والتكبير فصمت كل القوة في الجزيرة ملوحة بأعلامها، وعلى صياحها وتقدمت للهجوم من التلال العالية . كان

الجنود السودانيون يلهثون لكنهم غير قائلين للهزيمة ورحلوا على أوامر ضباطهم البيض بصريحة عالية وصبوا من عند الللال التي احتضوا عطفها، نورتا عذبة على أعينهم .

كان للذي قريبا والأثر كبيرا وفاعلا، فالتحش للمرب وترغوا وتراجوا على طول الجبهة، وبسما الجنود وقادتهم التلاء يلدروهم من تل لأخر، حتى أصبح الذين لم يبقوا قتلى أو جرحي، محصورين في أقصى جنوب الجزيرة عطفهم المياه العميقة وأمامهم جسود تافرون غاضبون لضحاياهم.

انضم شيخ بكر وقواته غير النظامية وبقي القوة إلى السودانيين للتصيرين ومن سائر الللال الذي ن قبضة القوة الآن ، انضمت نيوان قوية وموثة على أفراد قوة البراويش للكشون الآن في حزام ضيق قبالة مقدمة الشاطئ . تجاوز البعض السباحة للعناب الغربي للحاق بأصدقائهم . خرق منهم عدد كبير بما فهم سعد الله الذي خرق ومعه حصانه، وأعطى آخرون تحت الماء حتى رؤوسهم عوفا من الرصاص وهرب الأغلبية إلى جزيرة صغيرة على بعد قليل من أعمال النهر . لكن الغطاء كان سيئا وللهاء العميقة منعت المصروب وبعد أن تعرضوا للنيران لأكثر من ساعة ونصف الساعة استسلم حوالي ٣١٠ رجل، وأصبحت الجزيرة تحت احتلال القوة، لكن ما زالت النيوان تأتي من الشاطئ الغربي المفصل الذي أرسل لإسكات نيوان البراويش الذين كانوا محاصرين خلف الساتر، وقد جرح المرائد في جرسون جرحا عميقا وسقط ثلث قوته. ولكي تمسح هذه الفصيلة كان لابد من احتضار منافع للكسيم عبر النهر حتى تكون على مدي ٤٠٠ ياردة وكان أمرا شاقا . انتهى القتال في الساعة الثالثة عصرا وبدأ للتصيرين في تصفد حصارهم و ما حققوا من نتائج .

لم يكن لا للرمت ولا القرف يسمح بتصفد حصار العدو ولكن كان من المؤكد أن محاصرة لا تقل عن ٥٠٠ خيل داخل الجزيرة وأنه قد استسلم ٢١٢٧ مقاتلا ومعدات من النساء والأطفال وتم المصروف على ٥٧٦ بندقية وكميات كبيرة من الذخيرة وتلال مس الحراب والسيوف . وهرب أحمد فضيل مع مجموعة من أتباعه، عبر منطقة الجزيرة . لكن كانت هذه الهزيمة ذات أثر كبير في قوس البراويش، حيث استسلم كل أفراد قوته للبلخرة "للشمة" في الزنك على النيل الأبيض في يوم ٢٢ يناير ، واكتفى قائلهم بالحنيد بالعناب إلى كردفان للانضمام للطبيعة وليس معه أكثر من ١٢ تابعاً .

كانت عمائر القوة من القتال ٤١ قتيلًا و ١٤٥ جريحًا من فيهم الرائد فيرجسون وفقدت
 الفرقة السودانية غير نظامية التي تحملت العبء الأكبر للمعركة ٢٥ قتيلًا من ضابط وجندي،
 وجرح ضابط بريطاني و ٦ ضباط محليين و ١١٢ ضابطًا وجنديًا غير نظامي من مجموع القوة
 البالغ ٥١١ فردًا. باقى العمائر كانت بين ٤٩٥ فردًا غير نظامي من الذين اشتركوا في القتال.
 كانت هذه خاتمة للمعارك التي أعادت كل المناطق النيلية إلى نفوذ الحكومة.

الفصل التاسع عشر

خاتمة الخليفة

بعد انتهاء العمليات التي جاء ذكرها في الجزء الأخير أصبح كل الإقليم للتاسع للنهر
عاليها تماما من أي قوات معادية ، تم إنشاء حاميات كثيرة وعادت للسيادة المصرية ، ظل
الخليفة في كردفان . بعد أن نجح عبد الله في الهروب من أرض المعركة في أم خرمان ، أسرع
إلى اتجاه الأبيض متحركا من طريق آبار شط الزريقة التي كانت مليئة بالمياه خاصة بعد
سقوط الأمطار . بعد أن تأكد من انتهاء الفترة غير النظامية من مطاردته أوليف سيرة ،
عسكر وبدأ في تنظيم قوته للشئته ذلك في قرية ليو شواي . في نوفمبر عندما تحولت بسرك
للياه إلى برك طين رحل الخليفة إلى قرية المسيحة في الغرب هنا انضم إليه الأمير الحكيم مع
حاميه الأبيض . كان هنا الأمر لم يشترك في أي صدام ضد " الأكراد " فكان صندوقا
ومستحلا . كان لوصوهم أثر كبير على القوة التي حاول الخليفة حشد ، فتشأوا هم كبوا
في المسيحة فهنا تنوألر للياه في ديسمبر ونضى الخليفة فترة حادثة . كان يرسل قواته للإغارة
على القرى لطلب الثروة وبعض المواد الأخرى . ---

عندما عاد السردف من إنجلترا وسمع بالانتصارات طعسى النيل الأزرق في منطقة
الرصيرص ، قرر أن يعمل محاولة لأسر الخليفة . طلب العقيد ككتشر ، كأعلى رتبة موجودة
وغر منه شرف قيادة هذه العملية . طلب منه تجهيز قوة مختلطة والذهاب بها إلى كردفان
للاستيلاخ أو أن تمكن المسموم على قوات الخليفة وأسرهم . كان يعتقد أن أتباعه حوالى
١٠٠٠ رجل بدون سلاح كاف . كونت القوة التي حرفت باسم "قوات كردفان الميدانية"
كما يلي :-

القائد: العقيد ككتشر

المساعد: للقادم ميغورد

نائب المساعد: الرائد ويليامز .

القصوات:-

٢ سرايا فرسان فرقة مصرية .

الفرقة الثانية للمصرية - ٢ متفح ماكسيم .

الفرقة الرابعة عشر السودانية - ٢ متفح يقال .

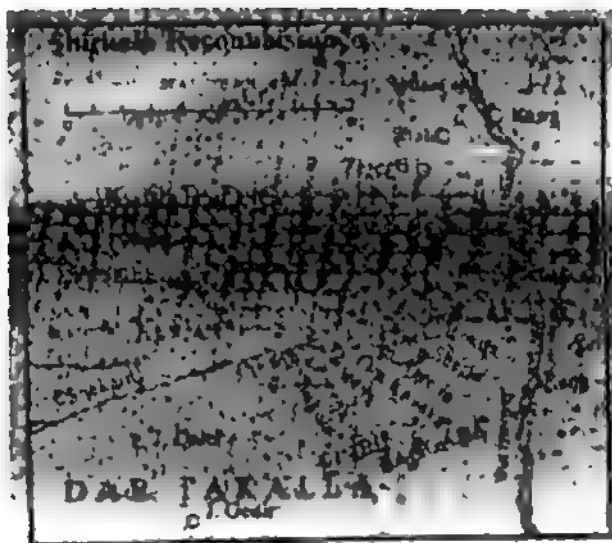
فرقة سلاح حذافة .

بعادت جمال للفرسول من عطوة والنيل الأزرق. أرسلت القوات بالبرانس الى السودان واستحدثت هناك في أول عام ١٨٩٩ . تجمعت الجمال في الكوة وبالرغم من أن أغلب القوالم كان عليها أن تقطع ما يعادل ٤٠٠ ميلا، فقد وصل كل العمد في العاشر من يناير . كانت مشكلة المياه هي المشكلة التي تواجه العملية ، موقع الخليفة على بعد ١٢٥ ميلا من النيل الأبيض . الإقليم بين القوة والخليفة كثير الترك من مياه الأمطار التي تترك بحيرات صغيرة لكن أغلبها يجف في يناير ويحول الى برك من الطين، لذلك كان لواما التزود بمياه كافية للرجال والحيوانات من عمول وبغال وجمال . الجمال يمكن لها أن تسير بدون ماء لمدة خمسة أيام الى أن تكشف بركة ماء على الطريق ، كان الأحمالي على معرفة بذلك المواقف . بالرغم من أن قوة تحمل الجمال للمطش معروفة إلا أن لها حدودها، لذلك يعانون كثيرا من مثل تلك الرحلات وربما يصاب بالإرهاق أو الموت. أثناء الحرب يهتم القادة فقط بقوة تحميل الحيوانات وكان الأمل في حمل مياه بالقرب وللاستفادة من الحركة واعتمادا على قوة تحميل الجمال، أن تتمكن الحملة للكونة من ١٢٠٠ رجل قطع ١٢٥ ميلا عبر الصحراء إلى انهاء مهمتها في ثلاثة أيام ثم ترجع للنيل . هذه العملية التي أطلق عليها استطلاع شبر كيهلا قصد شملت قوات كردفان الليثانية .

كان التقرير عن الطريق من كوهي مشحنا. والآبار في الجليل سوف تساعد في تزويد القرب الجبلية بالمياه والخفاير على بعد ٧ أميال من الآبار يمكن أن تسقى الجمال، هذا استعدت للفرقة للرحلة. لقد تم رصد كل شيء يمكن أن يساعد في حمل المياه وترشيد استهلاك الشاربين. وتقرر أن يذهب ١٢ خيالة فقط، وعققت عمول وبغال مدافع للمكسيم إلى أقل عدد وتم الاستغناء عن أي شيء ليس ضروريا جدا ، حتى

الزخيرة ثم عنفضها لملكة دفعة لكل بنفقة حتى ترك بحالا لحمل المياه وحددت كمية ميساه الشرب ، مقدار لتر للفرد و٦ جالونات للبحصان ، وخمسة جالونات للبقل ، وحتى يقلل للمالرب على المياه قرر العقيد كشتنر السور ليلا لتفادي حرارة النهار . لقد أنشئ معسكر في الجبليند كشطة متقدمة حزن فيها طعاما يكفى ليومين بالإضافة لهذا أعطى كل فرد من القوة عشرة نيمات و٧ تيمات لفرة الترحيل لمدة ٧ أيام ، زيدت القوة بطعام حتى ٩ فبراير ، وهكذا كان محور عملياتهم ، لولا أن تجلدها المياه هو ١٩ يوما . ثم زودت هذه الفترة خمسة أيام إضافية بالإحراجات التي اتفق عليها على أن تقابلهم قافلة تقوم يوم ٣٠ يناير تنحسرك عند العودة في الطريق .

كانت الفترة تضم ١٦٠٤ ضباط وجنود و١٦٢٤ جملا وحيوانات أخرى للترحيل . ونحركت من الفرقة كوهي الثلاثة ظهرا بعد أن أرسلت قافلة صغيرة مقلدا إلى الجبليند قبل ١٢ ساعة يوم ٢٣ يناير . الإقليم في المسار الذي سوف يسلكونه أرض عارية جرداء كابية . وتقدموا إلى محيط من الرمال الموحجة بشجيرات الشوك والقش الناشف لكن بعض المرتفعات الحجرية قد انحلت الرؤية لمسافات بعيدة حيث تظهر هذه الصحراء القاحلة تمتد إلى ما لا نهاية من تكل الأركان . بعد مسافة عشرة أميال بعد النيل انحفت أي خبوتات أو كائنات حية ، الأرض صحراء ليست مفتوحة كالصحراء الكبرى ، ولكنها أدهال غير مفيدة تتناثر حولها شجيرات الشوك غير المنتجة والتي لا تتيح أي حية لأي مخلوق كان بل يمكن أن يتعترض الطريق . بين هذه الأدهال كان على الفرقة أن تثنى طريقها أمامها العليم للصبري الأحمر بالتهار ، ورتنه مقلدة على عمود بالليل . تحسب طريقها للنهك ، الحرس الإسلامي يفتح الطريق بالفتوس وتعلم للمسار بالبحر الأبيض ، وحرس اللوحرة للصاحب للعش يلتقط أي افراض تستغل من القافلة في التقدمة . بعد ثلاثة مشاوير طويلة وصلوا إلى الجبليند . يوم ٢٥ وصلت للفصيلة الأولى وحفرت الآبار لكنها لم تكن فصحها ، ثم تعط مياهها كافية لقد كانت مياهها آسنه وواحدة وجد بها ثعبان طويل سام بطول ٨ أقدام كان هو الماكي للوحيد . وأرسلت للجمال تشرب من الحفائر على بعد ٧ أميال وعلى أمل أن تملأ القرب أيضا ، ولكن النطقح الأخضر للوجود بللاء حطها غير صالحة للاستعمال الآدمي فعادت قرب الجبلود غداوة .



استوف السور يوم ٢٦ ، وكانت الأشجار قد بدأت تظهر بشكل أكبر ، الدغل أصبح هابة
والأرض الرمالية تحولت إلى تربة حمراء اللون ، ولكن بخلاف ذلك ظلت هيئة الإقليم كما
هي بدون تغير . عسكرت الفرقة للراحة في أبو راكمه حيث أشار بعض الأهالي من مكان
القرية أشاروا إلى قبر والد الخليفة والعشة لأبنة من القش التي بقي فيها الخليفة عند زيارته
لقبر والده . أعبروا أعلنوا أن الخليفة قد ترك أبو عقيلة إلى شركيلا ، وكان يأتي للزيارة حتى
من تلك المنطقة .

بعد المشوار التالى الذي تم بالنهار ، استطاع المولد والكراساج أن يحمدا للمرشد دين
ذاكرهم ، فقادوا الفرقة إلى حفر كبير يحتوي بماء الطيب للذئق . شرب الكل حتى روي
شاكرين لله نعمته ثم بيت زوية صغيرة لكنها قرية ، ترك بها بعض للرعي وكميات الغذاء
الاحتياطية مع جماعة حراسة تحت إمرة ضابط مصري . وواصلت الفرقة رحلتها ، حتى وصلوا
إلى أبي عقيلة يوم ٢٩ هنا اقتبأهم عشة تماما كذلك التي عبر عنها روبنسون كروزو عندما
شاهد آثار الأنعام في الرمال ، فقد وصلوا إلى معسكر الخليفة للهجور . لقد تم تجهيز هذا
للمعسكر بأحكام ونظمت للمنطقة من الأشجار والأدغال وتم بناء قطيعي من نصب للخمسين
باشكال هندسية واقعة تحت في صفوف طويلة بدون الفناء لأعمال عدة فحمت داخلها
الشوارع والمربعات ، وكل شيء نظيف جدا ومنظم ، والأشجار التي نزلت منها الفروع
السفلى أعطت منظرا واقعا للمعسكر .

كان منظر هذه القرية للهجورة التي تبدو كمقبرة صفته خرجت من بين تلك الأدغال
مليرا وتركت انطبعا عند كل من شاهدها أما جميعها فقد زاد هم القائد ، إذ على الأقل
تقدير سبع هذه القرية لحوالي ٢٠ ألف شخص . كم من هؤلاء الرجال مقاتلون بالطبع ليس
أقل من ٨ أو ٩ آلاف رجل ، ومع ذلك أرسلت الحيلة لتعقب مجموعة مقاتلين كان
تقديرهم لا يزيد جميعها على ألف مقاتل هم الناجون مع الخليفة .

مع اتخاذ كافة التدابير الحربية اللازمة زحفت الفرقة إلى الأمام ، كانت للحجاة والفرسك
تقدم للحماية لأفراد الفرقة فبدأت إطلاق نار مع طوف من العدو . عسكرت على بعد ٣
أعالم من هذا للوقع بعد تشييد زوية قوية ، قضت الليلة مع توقع هجوم لكن مرت الليلة
بسلام . في الصباح الباكر أرسل متفرد مع بعض الأفراد فلولين للاستطلاع ورجع السابعة

العاشرة وأيد تقريره الاستنتاجات التي خرج بها القائد بعد مشاهدة معسكر عقوبة الكبش، فزحف لموقع مكته من وعاء للمسكر الذي أمامه، بعد أن ظهرت أحلام الدراويش في صفوف على شكل هلال على أعلى التلال وإعداد تتحرك قلورها بأكثر من ٢٠٠٠ بندقة في الصف الأمامي . كم عدد البقية في الاحتياط لا أحد يدرى . تمهين للوقوف جيداً في ولدي صيل حوله حفار للياه .

كانت هذه الأبيير عطلوة القرة الصغيرة التي تفصلها عن قاعدتها ١٢٥ ميلاً من الأرض الجرداء عديمة للياه ، وأمامها هذا الجيش القوي ، اتفقد مجلس حرب للدراسة للموقف . كان السردار قد أمر بتشدد قوي ألا يكون هناك أي انتظار لما أن يهجم أو يتراجع ، قرر العقيد كتشتر التراجع. وبعد أن اتخذ القرار يجب الاستحاب بأسرع ما يمكن بهذا من سلوة العدو، ولهذا بدأ التحرك في نفس الليلة، لم تكن رحلة العودة بأقصر من رحلة الحضور، لو أقل أماكا وحرم الجنود من أي شرف أو إثارة القتال. أثناء رحلة العودة للنيل أصابت لعنة الأرض واليهول كل فرد ، أضافت إلى المعاناة الإنسانية ، صعوبة الأرض الطراب ، الخرب وركب العطن العنة . الأهالي الجوهي خرجوا من جحورهم ومخاضهم، وكان يحلوهم الأمل في الحصول على بعض مايسد الرمق بعد الحركة من أي عطلات الآن وقد حاب أملهم، تسللوا ليلاً فرداً أو اثنين على للمسكر وحلوا أي نوع من الطعام وجلوه، لم يقطن أحد لهذا النشاط ولم يتركوا أوعية واحدة من الفلله الاحتياطي.

هند نهاية لفرحلة ، بدأت الجمال تملأ من حرمها من اللياه فأعلنت تتعمر وتمسوت، وعندما كانت الفرقة على هجول ولم يكن هناك أي وقت للانتظار، وقف جبل صغير ورغض السير حتى بعد أن أشعلت حوله النيران واضطرت القوة لقتله بالرصاص ، جمال أهدرى سقطت وماتت وجاء هذا بمثابة غوث للأهالي الجوهي. بمجرد أن يترك جبل. ينظر الضباط للحلف في شاعدون فرحا يخرج من الغابة ، بعد قليل فرد أمر، متلصصون ينهالون على فمسن لحم الضحية حتى قبل أن تشارك الحياة كلهم متقور جراحة .

يوم ٥ فبراير وصلت الفرقة إلى كوهي، وتم حل قوات كردغان لليلانية دون تقصير من قائدها أو جنوده بعد أن علقوا من مشاكل كثيرة ومصائب أكثر في رحلة عبر موفقة .

لم تتم أى عمليات ضد الحليفة لمدة عام كامل حيث بقي طيلة الربيع والصيف في عمام ١٨٩٩ هو الأمر والسيد علي. كرهفان، يعظم صفوف أتباعه وغرب الأفليسم، كخطر مستند للحكومة ولجنة على الأهالي وعصر كبير لعدم الاستقرار. طيبة الأرض الجسرداء وشح المياه ساهمتا في صعوبة أى عمليات عسكرية ضد بالرغم من حشد قوة كبيرة في الخرطوم إلا أن فترة المناف وتيضاً عدم معرفة أماكن وجوده قد أضحت أى بحرك ضده . مع نهاية شهر أغسطس وصلت إخبارية لقسم الاستخبارات العسكرية من أحد أفراد القبائل المتعاونة، تنمى أن الحليفة وقوته يحسرون في جبل قلدو، نفس الجبل الذي كان للمهدي قد بدأ إليه بعد معركة الجزيرة أبا قول عشرين عاماً. هنا وسط الذكريات القديمة التي أثارها وعمقتها وجوده أصبح أكثر تصوقاً . ليلة بعد أخرى يرسل إل الحضر الذي كان يتعمد عليه للمهدي ثم يخرج بمكي الرزي التي ساءته في الأحلام، كان تناول الناس هذه الرزي يتم في سرية ولكنها تنتشر حتى وصلت أفاسي الغرب وحتى الجزيرة والخرطوم. الآن بعد أن تأكد مكان وجوده وأنه مازال يمثل خطورة بتشاطفه قد قرر التحرك ضده .

تحركت الكتيبة السودانية الأولى يوم ١٣ أكتوبر من الخرطوم بسلووس وفي يوم ١٩ تجمعت قوة من ٧ آلاف رجل مجهزة تجهيزاً كاملاً بحمال فرجل ثم حشدوا في كاكاء، قرية على النيل الأبيض، على مسافة قصيرة شمال فاشودة وكانت للمسافة من هنا لمواقع العدو تعبد بحوالى ٨٠ ميلاً، ٥٠ منها ليست بها مضفر مياه لذلك يجب أن تحمل القوة المياه في فطاطير. رغم ذلك سر ريفنالد ونجت الذي كان قاعداً لهذه القوات، وصل بصحبة الكتائب السودانية الرابعة والخامسة في يوم ٢٣ أكتوبر إل فقوير التي تعبد ٣٠ ميلاً عن جبل قلدو، لتعبد الأمان، أن الحليفة ترك معسكره في جبل قلدو يوم ١٨ أكتوبر وتراجع إل الصحراء بلون تعبد .

هكذا طاشت الفلقة وأي تقدم جديد سيكون محفوقاً بالمخاطر والمصائب للركبة، أمر لورد كشر الذي كان قد وصل إليها كاكاء، يوقف العمليات فرجعت كل القوة بمقتضى النعظ ونحية الأمل إل الخرطوم التي وصلوها أول نوفمبر .

كان الاعتقاد السائد لدى الجميع، أن الحليفة قد قرر الانسحاب إل مناطق نائية بعيدة عن منال أعدائه، إل الأبيض مثلاً لو حتى إل جنوب دارفور وعليه قضى الصياد

والجيش ١٤ يوما يقرؤون البرقيات ويتفهمون خطتهم السيئ الذي حرمهم من أي مهام قتالية .
ظهرت بعض الشائعات الخفية في أسواق أم درمان تتحدث عن الاسلحة المدفونة وقرب
تمرد ، جعل العاصمة تعيش في قلق وترقب . وضعت جاء يوم ١٢ نوفمبر أنصار أكيدة
ومدعشة . أن الخليفة لم تراجع للغرب أو الجنوب بل إنه قادم لام درمان . وهي خلفه
وليست الأبيض . تشجع من فشل وتراجع بحملتين ضده ، وبا أنباء لا يدري احد مصدرها
ومبالغ فيها عن الحراب الذي حل بالأتراك خارج حدود السودان ، قرر عبد الله أن يستمر
بكل ما يملك ويضرب ضربة واحدة يستعيد بها عاصمته السابقة . وبناء عليه جاءت يوم ١٢
نوفمبر طلائع قواته وحرسه الى بحالة الجزيرة آبا على النيل الأبيض وضخوا نيرانهم هائلة
على البارحة سلطان التي كانت تناور على النيل .

أن اسم الجزيرة آبا سوف يرجع بالتقري دون شك الى بداية هذه القصة . هنا وقبل
١٨ عاماً عاش للهندي وصلي بعد خلافه مع الخليفة شريف ، هنا انضم اليه عبد الله ، هنا
انطلقت أحداث الدعوة وما هنا تمت هزيمة الأعداء أفراد الجيش المصري لأول مرة ، وهنا
عاش ، بل مازال يحيى أحد أولئك الأشقاء الذي استمر رغم كل الأحوال والصراعات التي
هزت كل السودان ، استمر في مناصرة المتواضعة في بناء للراكن . هذه بلاشك لحظة غريبة
في تناسق التاريخ ، إن دماراً آخر آثار حركة للهندي ، سوف نشهده نفس القصة التي
شاهدت مولدها ١ .

وصلنا الأخبار الى الخرطوم وبدأت المعركة تنور . تم تجهيز الكتائب السودانية الرابعة
والثالثة عشر يوم ١٣ نوفمبر وأرسلت فوراً الى جزيرة آبا تحت قيادة العقيد لويس كتشنر
الذي عاد مسرعاً من القاهرة يوم ١٨ . قوة ميلان ٣٣٠٠ هندي ، وحدة فرسان ، بطارية
للميدان الثانية كلها بطارية للكسيم الأولى ، سلاح المشاة السودانية الرابعة والثالثة عشر
وفرقة من المصرية الثانية تم حشدها تحت قيادة سر- ريتارد ونجت . كان هناك ٩٠٠ هدافة
حرب بالإضاءة لقوة راكبة من غير النظامين . وصلت القوة الى فاششوية وأجبرت هذه
الخطوة الأمر أحمد فضيل على الانسحاب .

في تمام الساعة الثالثة والنصف من عصر يوم ٢١ تحركت القوات متجهة ناحية الجنوب
وراء أثر العدو .

توقفت القوات للراحة على بعد ١٠ أميال جنوب غرب القاششوية ثم واصلت سيرها على ضوء القمر حيث وصلت إلى قبة. واجهتها دورية للدراويش من عشرة أفراد تطوف ووجدوا في بقية معسكر أحمد فضيل الخالي ، إلا من كميات من الخيول كان قد جلبها من منطقة النيل ، ولكن أكثر قيمة هي وجود درويش مريض لكنه ذكي ، ذكر أن الأمير قد تحرك إلى نقطة تبعد ٥ أميال أسفلها أبو عضال. أكد هذه المعلومات الضابط المصري محمود حسين الذي كان قد قام باستطلاع جريء مع دورية غير نظامية. كانت قواته للشاة بحاجة إلى بعض الراحة ولتقليل من الطعام لذلك أمر سر وقتاً للتوحيات للقبض ماعون أن يسرع بكل القوة الراكبة ليتعامل مع العدو ويمنعه من التراجع قبل بداية العمليات.

تحررت الفرسان والمسانيد والمدافع للكسبيم والجنود غير النظاميين غطى سرية ورقيم لهم راحلون لكنهم استطاعوا أن يوقفوا السور مع القوة الراكبة عند الساعة التاسعة والرابع تحركت قوات المشاة متصصة بعد الشرب والأكل وكلما تقدموا زادت كثافات أشجار الشوك الصغيرة وأيضاً الأرض رطبة . في تمام العاشرة ، سمعوا أصوات الكسبيم وطلقات الرصاص فعلموا أن ماعون قد انتبهت. زاد ضرب النيران مع اقتراب القوة دلالة على أن المعركة على أشدها . كانوا قد احتلوا مرتفعاً صغيراً أمامه مساحة بدون أشجار يظهر من على بعد ٨٠٠ ياردة معسكر الدراويش مزدحماً حول حفار المياه. لقد كان توقيت وصول المشاة جيداً. قرروا الظهور والسيوف للباشر على القوة الراكبة بعد أن كانوا يطلقون النيران من استحكاماتهم على مدافع القوة، اندفعوا وصبروا نيراناً قوية ثمرة على منافع الفرقة. كانت المسافة بينهم ٢٠٠ ياردة وكاد هجومهم ينجح وصلت الفرقة السودانية الرابعة والثالثة عشرة وأخذت مواقعها في الفرقة بين منافع ماعون وفرقة القوة الراكبة والراجلين والفترات غير النظامية. أثرت هذه النيران على العدو للتقدم، فلهزم وكسرت روعة المعركة شقيقان من الدراويش ربطا كل يد وقدماً معاً واستشهدا على بعد ٩٥ خطوة من موقع المدافع. وقتل كثيرون وهرب البعض . سارعت كل القوة الآن في مطاردتهم ، شوهد بعضهم يتف علف القصب والأعشاب الطويلة من على بعد ميل وحصة أميال وانقضت عليهم فرق الفرسان والمسانيد . بلغ عدد الجثث ٢٣٠ ومظهم جرحى وهرب أحمد فضيل

وبعض أفراده جنوباً للاتضمام للخليفة . كانت خصال الفرقة للصريمة خمسة جرحى ، عسكريت-لقوات حول الساعة الرابعة صباحاً في منطقة قريبة من موقع الحركة .

سؤال صعب ويدعو للتفكير قد فرض نفسه . علم من بعض الأسرى أن الخليفة ومعه

٥٠٠٠ آلاف رجل يتحركون شمالاً إلى آبار الجليد ، وقد سمعنا عنها عندما تعرضنا لقوة

استطلاع شركلا ، وهي جمعة يتكو خمسة وعشرين ميلاً من منطقة القتال . كان أفراد القوة

متعبين بسبب اليهوديات التي يلجأون مياه الحفائر آسنة لمرجة أن الجمال هافت أن تشرب

منها وأكثر من هذا فإن المياه في (المنطقة) على وشك النفاذ لذلك كان من الضروري

الوصول إلى آبار الجليد . ولكن ربما أن اللواتي التي تعاني من العطش وصلت آبار الجليد

لصعدها محط من قوة كبيرة للفرقة . كان على سر يقننل ونجت الغذاء للفرار ، وقيل أن

يأخذ المعاطرة ، وقبل منتصف الليل يتقبل تحرك القوة مرة أخرى . كانت الأرض رصوة

والليل حائل وكثي مررت الساعات ، زادت معاناة أفراد المشاة وصار أمر يعلم صرير أي

كمية مياه قبل معرفة الموقف في آبار الجليد ، وقضت أي طليات للماء بجوم وقوة ، تحت هذه

الظروف ، أصبح المشاة للمروءون بقوة تحملهم في حالة قلق ، وسقط بعضهم على الأرض .

لذلك شعر الجميع براسة كبيرة عندما أعلن صباح ٢٤ في الساعة الخامسة أن أفراد الفرسان

قد احتلوا الآبار وبدون أي مقاومة ، وعلى الفور تم توزيع كميات المياه المحمولة . بعد أن

اتعش أفراد المشاة وصلوا السير إلى أن وصلوا لمنطقة حفر مياه قبة نسيبا فمسكروا هناك .

ثم أسر فرقة في الجليد ، كما حدث في قبة ، هذه المرة كان شخصاً كتيبا ، لكن

استخلص منه أن الخليفة وجيشه يسكرون على بعد ٧ ميل جنوب شرق الجليد . وضع

على الفور أنه في موقف مهي من الناحية الاستراتيجية . الانجاسة شمالاً الأرض جرداء ،

وجنوباً المياه غير متوفرة وهي منطقة غابات كثيفة . بالإضافة إلى حقيقة الاستيلاء على

الحبوب التي كان سيحبها أفضل قد عقدت الأمور بالنسبة لفرقة وأنه لا يمد أن

يتوقف ويقاوم . قرر ونجت مهاجمة قبل طلوع القمر .

تركت قاذفة الترحيلات مع حراسة كثيفة بالقرب من حفر المياه وأمرت بالتحرك بعد

الرابعة صباحاً ، تحركت القوة عند منتصف الليل تسبقها مسافة نصف ميل فرقة الفرسان

وعلى أجنحتها المسجلة . كانت بعض المناطق في الطريق تسدّها الشجيرات ، أعطرت لقوات

المشاة وللخفة لصح جمرات لبحور القوة . على بعد ٣ أميال من معسكر العدو تم نشر القوة في تشكيلات قتالية . احتل حلة البناق غير النظامين للقدماء ، عطفهم السودانية الثلاث عشرة والرابعة يليهم مدافع الكسبيم وللخفة ، تحركت القوة في صمت وبحذر ، وعلى الجهد تسمع أصوات تطويل والقرون ، دلالة على أن العدو غير مستعد . دقائق بعد الرابعة احتلت القوة مرتقعا أمامه أرض فضاء عالية من الشجر واختفته كموقع سحبت فرقة الفرمان الآن مس للقدماء وترك بعض أفراد المشاة للمراقبة ، وتعددت القوة على العشب فوق المرتفع لتتطساراً لظهور النهار .

بعد ساعة زمن بدأت السماء نائمة الشرق تظهر ضوءاً خافتاً مائلاً قرب طلوع الشمس ، ومع ذلك الضوء الضئيل ، شوه طوف اللشاة وهم يزحفون ، وعطفهم السوار الأشجار أشكالاً بيضاء غير واضحة بدأت تتجمع . هنا وعرفنا من هجوم كاسح مفاجئ أمر وبحث الفرقة أن تقف وتفتح نيرانها ، وضعت بعد الصمت الرهيب هدوت أصوات الرصاص وردت قوات العدو ، جاءت نيرانه من شبه نصف دائرة مركزة أكثر ناحية شمال الفرقة المصرية لذا تم تمييزها . بعد أن وضعت الرؤية أكثر جاءت جماعات كثيرة من الذنواويل وهي تصبح متقدمة ، لكن صمدنا النيران القوية ولم يستطع أمرؤهم فيقدم لأبعد من اطراف الغابة . عندما شاهدت وبحثت هنا الموقف أمر بالتقدم للهجوم العام ، بدأت كل القوات للتقدم بخطوات سريعة وهي تدحر أفراد قوات العدو أمامها بين الأشجار لمسافة ميل ونصف . حتى وصلت المعسكر . ٦٠٠٠ آلاف امرأة وطفل وبقي أفراد القوة الذين لم يصابوا أنهباء للمركبة في أكوابهم للصنوعة من القش ، وقفن أيديهم علامة للتسليم وطلبت الرحمة . أعلن وقف إطلاق النار في تمام الساعة السادسة والنصف . عندما قطع ظهر حجم عساكر الذنواويل ، بالرغم من قرب الذي لم يتوقع الضباط أن تكون النتيجة بهذه القوة نسبة لتصور الرؤية قبل الفجر ، لكن كتل البلدت للحكومة كانت دليلاً قاطعاً . في منطقة لا تملو بضسع بارداب مربعة ، سقط أشهر أمراء السلطة للهدية . الخليفة عبد الله فخرته مجموعة من الرصاص وهو يرقد على فروة الصلاة للصنوعة من جلد اللشاة ، يرقد على يمينه على ودحلو وعلى شماله أحمد فضيل ، أمامهم حدث حرس الخليفة وعطفهم حدث بعض الثابمين الأقبل شهرة وبعد هؤلاء عيول ميتة أو مجروحة . كان هنا هو للنظر البشع الذي صافح أنظار

الضباط البريطانيين مع إطلاقة الصباح والذي كان بالنسبة لبعض حماية العمل الخطر الذي استمر لسنوات طويلة . وبينما هم ينظرون بدون رغبة وقبح طلع من بين الجبلت شخص سليم ، كان هو الأمر الصغير : يونس ، أمر دقلا الذي أنشأ الصلات القليلة الضرورية لاكمال الحلقة .

كان الخليفة في أم حرمات وأكبها خلف تلال سرغام ولكن هنا في حله للمركة الأخيرة ، قد وضع نفسه في مقدمة للمركة . بعد أول إطلاق النار جاء به عثمان شيخ الدين الذي حرج وأعلى من أرض للمركة ، جاء يطلب منه الحرب والصلح ، لكن الأخير بكرامة لا توجد لدى أكثر القاتلون تحضرا وقطر . ترجل من حصانه وأمر أفراد له يخلو حلوه وجلس على فروة الصلاة وانتظر أسوأ المواقف . وهكذا يمكن القول بأن الصراع مع الهندية قد أعطي للمسرح من كل شخصياته الرئيسية ، عثمان دقة الذي سقار على حرية وحسرة مبروب عيسى سوف يواجه بعد قليل ، بهودية أطول وأكثر عصب .

سلم ٢٩ أمرا و ٣ آلاف رجل و ٦ آلاف امرأة أقسمهم كامري . كانت خصائل القوة المصرية ٣ قتلى و ٢٣ جرحي .

وهكذا تقرب الآن القصة الطويلة من نهايتها . انتهت حرب النهر ، خلال مشوارها الذي امتد لأكثر من أربعة عشر عاما ونسب في تدمير أكثر من ٣٠٠ ألف نفس ، شهدت عمالها كثيرا من التطرف وكثروا من التناقضات . كانت هناك معارك هي عبارة عن مجزرة وأمرات كأنها ظهروا استعراضي . كانت هناك لحظات من الجبن للشين والحظرات من البطولة النادرة للثورة للاستغراب ، هناك عطف ولدت في لحظات سريعة وفي حالة طوارئ ، ومشاريع وضعت بعد دراسة متأنية قصص يلذ فاعله وتغير بدون معنى قد تم تحقيق الأهداف والعلمان المصري والبريطاني يعرفان في كل بقعة وادي النيل .

ماهي التكاليف والظمن الذي دفع للحصول على حقه للاحتيازات ؟ جالس القاري أن يحكم بنفسه بالنسبة للمصارفة من الرجال ، وعليه وهو يتكرر موت الضباط والجندود الشجعان وليس أقل من هؤلاء تدمير العرب الصناديد أن يذكر أن هذه اللذائح لا يمكن فصلها عن الحرب ، وإذا كنا نرور الحرب فليس على نا نفهم للتقد اليسري . لكنني أكتب عن التكلفة للمادة والتمتد الحملات ، وبينها الجدول الآتي :-

عندما يتم ربط الأنظمة المصرية وتصل جنوب أفريقيا سوف يكون التفريط مصلوا مهما للدخل .

وأخيرا هناك البورج ، ليس للقرى أدنى شك بخالفة هذه البورج المسلحة أثناء الحرب لن يكون هناك استثمار أبعدى من امتلاك هذه البورج وبعد انتهاء العمليات الحربية على النهر ، يمكن الاستفادة منها في أعمال ملاحية حربية ، ربما تكون مكلفة كناقيل للمغتربين أو البضائع ولكنها حربية الأجل ويمكن الاعتماد عليها . تمركات القوات ورواتبها الإضائية والإمدادات ورواتبها صف طويل من اللواصلا والاتصالات والذخيرة واستهلاك الملابس والهدل العسكرية وتوابعها، المراسلات، الحوافز، كل هذه تكلف أقل من مليون جنيه استرلين وبهذا للمليون ، استردت مصر السودان .

كان لابد من دفع مبلغ ٣٥٤ ، ٢٥٤ ، ٢ أثناء العمليات، دفعت بريطانيا مبلغ ٨٠٠ ألف كقرض ، اعتدوا بها بعد حبة . كانت التكاليف بالنسبة للدافع الضرائب البريطانيين لاسترداد السودان والاستيلاء الجزئي عليه، للمجد العسكري والرغبة الجامعة في قلب الجنيح "لانتظام نفردون" هي مجرد ٨٠٠ ألف ، ويمكن التصريح بكل الجنية، لم يشهد كل التاريخ الإنجليزى أن يحقق هذا الرضاء القومى الشامل يمثل هذا الثمن البعس . بالنسبة التكاليف قد تكلفت بما مصر هذا البلد الصعب الذى يمكن تشبيهه بالجمل الذى تتحمل عليه كل ثروات البلد اضطرت الظروف عند عدم الإبقاء بالاتصالات إلى اللجوء لمعدة حاسبة لتقديره وأمره حتى تولت الملوطين بأشياء السياسة المالية المصرية للذهلة ، لد صمد للشمال .

كتب مقرر حروست للمنتشار للال للمطوى في تقريره بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٨٩٨ يقول " إن التكاليف غير العادية الخاصة بمهمات السودان قد تم خصمها على حساب الاحتياطي الخاص ، في الوقت الحاضر يبلغ عجزا قلمه ٣٣٦ ألف جنيه استرلينى ، وهناك متاعرات عبارة عن رسوم على الحملة تبلغ ٢٢٠ ألف جنيه ويكون المجر الكلي مبلغ ٦٦٦ ألف جنيه استرلينى .

" من ناحية أخرى فإن الحساب الخاص سوف يضاف إليه ، عند نقل حسابات السنة، مبلغ ٢٨٢ جنيه هي ما تبقى من نصيب الحكومة من فائض ميزانية عام ١٨٩٨ بعد خصم

التجاورات في المصرف الإداري تلك السنة وإضافة مبلغ ٩٠٠٠ جنية هي جزء من حصيلة بيع البوستة الحديدية . لذلك سوف يبلغ العجز المالي ١٩٤,٠٠٠ جنية وإذا كانت سنة ١٨٩٩ هي سنة مزاهرة كالعلم الحلال فانه من اللوم أن يحتج العجز كلية عند قسمل حسابات عام ١٨٩٩* .

تبقى قضية عظمى ، وبما تشوبها الأكاديمية ، وهي الإجابة عن السؤال " هل كان الحق أو المحكمة يبرران الحرب ؟ " .

إذا نظر القارئ الى خارطة النيل ، سوف يلاحظ على الفور وجه الشبه الكبير بين النيل وشجرة النخيل . في أعلى الشكل تمثل الأرض الخضراء الخصبة للدلتا ، المروج والأوراق الخضراء تطفئ في كرواء ، المخرج في المنحاة ، النيل أيضا يتحنن بغمارة جبارة وهو يسير عبر الصحراء . جنوب الخرطوم تكتمل لوحة الشبه بظهور المنطة عند داخل السودان بعمل . لا يمكن أن أنقل أي تصوير لمدى العلاقة الخاصة والعاطفة التي تربط مصر بالسودان لو للمدبريات الجبلية للنظر . للام وهو حمة الدلتا يأتي من السودان ، يمر على بحرى النيل ، كالصارة بحرى داخل ساق للشجرة ، تطرح عصبولا طيبا رطبا على أحالي المنطة . المنسلع لمصر لاجدال عليها ، ولكن مصر لا تستفيد وحدها ، مزايا الارتباط وامتيازاته هي منافع مشتركة ، إذا كان السودان قد وضعته جغرافيته وطبيعته أن يكون مكملا لمصر ، فان مصر لا تقل أهمية لتسمية السودان . ما هي فائدة الجنود والفرة الغنية إذا ما قطعت المساق ، وهي مصيرية لا تشار المطر في الأجواء .

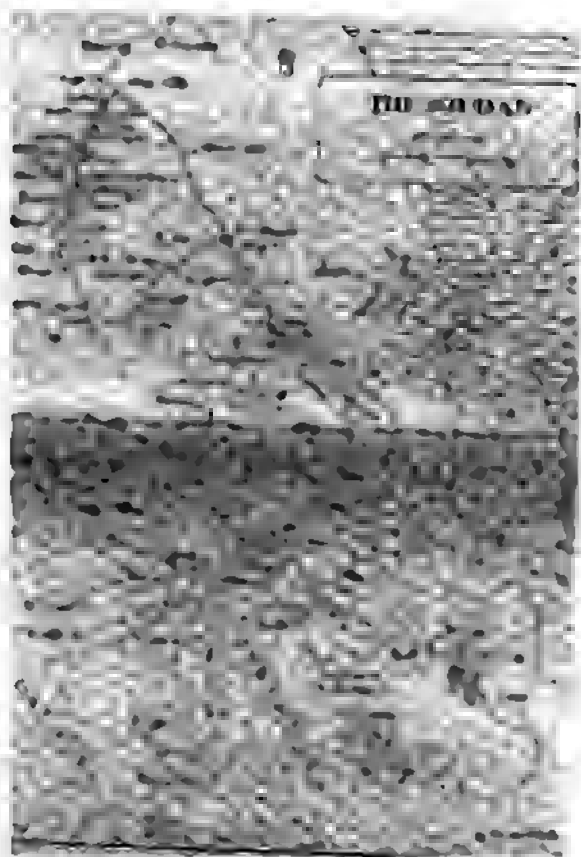
هذه هي إبان الإجابة الصادقة الأمانة لأسباب حرب الفهر ، لكي يتحد إقليمان لا يمكن أن يستمر انفصالها الى المالاخية ، ليصير الشعبان لأن مستقبلهما ورفاههما برتبطان ببعضهما البعض بلا فكاك . بجميع القدرات وحشما لتنمية الأهداف المشتركة ، لتطبيق التقدم معا والذي لا يمكن تحقيقه منفردا ، هذه هي الأهداف التي سوف يسجلها التاريخ ويفرأها بانما تهر المشروع الكبير الذي تم إنجازه .

المنافع لبريطانيا العظمى لم تكن واضحة ، حتى لفظة التي تعتقد أن صلاتنا بمصر تمنأ كصلاتنا بالهند هي مصدر قوة . استحكمت قبضة إنجلترا على مصر في جبهتين نتيجة لأحداث الحرب . العمليات المشتركة وملكية الدولتين لحوض أحالي النيل متشكل رابطة

قوية بين البلدين. السيطرة على النهر سلاح لا يتلوم . أنقى الصراع على غش سوداء للنسود
الفرنسي الطامع على الشخصية المصرية. بالرغم من أن فرنسا لا تزال تحطك بلمسنة القاتوبة
للتدخل ولتعرقل العمليات المالية في مصر، إلا أن هذه القوة بدون نفوذ ، تبقى كالجسد
الذي فقد الروح، يمكن أن يكون مستغرا وثقلا، ولكن في النهاية لابد أن يتحول ويتحول
إلى تراب .

بصرف النظر عن العلاقات مع مصر ، فإن بريطانيا قد استولت على إقليم مترامي
الأطراف ومن السهل للغاية في تخدير قيمته ، لكنه كان مطعما لكل القوى الكبرى في
أوروبا. إن سياسة السيطرة على مصادر المياه الكبيرة التي صار عليها الساسة البريطانيون ،
سواء بدون وعي أو من إدراك أكيد والتي تم تنفيذها خلال القرون الثلاثة الماضية ، قد
تقدمت خطوة إلى الأمام . بريطانيا سوف تستفيد تجاريا من وادي النيل ، البضائع الإنجليزية
يمكن أن تمر عن طريق النيل والوسيلة للكاملة له ، السبيل الحديد ، لتبادل منتجات البلاد
الباردة مع منتجات أقاليم مثل السرطان ، يمكنها أن تستغل الرياح الشمالية لتحمل
الحضارة إلى الجنوب ، ويمكن مياه النيل من حمل الثروة والتجارة إلى البحر .

النهاية





APPENDIX

TEXT OF THE SUDAN AGREEMENT OF THE 19th OF JANUARY 1898, AND OF THE DECLARATION OF THE 21st OF MARCH, 1898

AGREEMENT BETWEEN HER BRITANNIC MAJESTY'S GOVERNMENT AND THE GOVERNMENT OF HIS HIGHNESS THE KHEDIVE OF EGYPT, RELATIVE TO THE FUTURE ADMINISTRATION OF THE SUDAN

Whereas certain provinces in the Sudan which were in rebellion against the authority of His Highness the Khedive have now been reconquered by the joint military and financial efforts of Her Britannic Majesty's Government and the Government of His Highness the Khedive;

And whereas it has become necessary to decide upon a system for the administration of and for the raising of taxes for the said reconquered provinces, under which due allowance may be made for the backward and unsettled condition of large portions thereof, and for the varying requirements of different localities;

And whereas it is desired to give effect to the claims which have accrued to Her Britannic Majesty's Government, by right of conquest, in share in the present exploitation and future working and development of the said system of administration and legislation;

And whereas it is conceived that for every purpose Wady Halfa and Shakin may be most effectively administered in conjunction with the reconquered provinces to which they are respectively adjacent.

Now, it is hereby agreed and declared by and between the (Subscribed), duly authorized for that purpose, as follows:-

ART. I.

The word 'Sudan' in this Agreement means all the territories South of the 22nd parallel of latitude, which:

1. Have never been conquered by Egyptian troops since the year 1898; or

2. Which having before the late rebellion in the Sudan been administered by the Government of His Highness the Khedive, were temporarily lost to Egypt, and have been reconquered by Her Majesty's Government and the Egyptian Government, acting in concert; or

3. Which may hereafter be reconquered by the two Governments acting in concert.

ART. II.

The British and Egyptian flags shall be used together, both on land and water, throughout the Sudan, except on the town of Sudan, in which locality the Egyptian flag alone shall be used.

ART. III.

The supreme military and civil command in the Sudan shall be vested in one officer, named the "Governor-General of the Sudan." He shall be appointed by Khedivial Decree on the recommendation of Her Britannic Majesty's Government, and shall be retained only by Khedivial Decree, with the assent of Her Britannic Majesty's Government.

ART. IV.

Laws, as also Orders and Regulations, with the full force of law, for the good government of the Sudan, and for regulating the holding, disposal, and devolution of property of every kind therein situate, may from time to time be made, altered, or amended by Proclamation of the Governor-General. Such Laws, Orders, and Regulations may apply to the whole or any named part of the Sudan, and may either expressly or by necessary implication, add or abrogate any existing Law or Regulation.

All such Proclamations shall be forthwith notified to Her Britannic Majesty's Agent and Consul-General in Cairo, and to the President of the Council of Ministers of His Highness the Khedive.

ART. V.

No Egyptian Law, Decree, Ministerial Arrêté, or other enactment hereafter to be made or promulgated shall apply to the Sudan or any part thereof, save in so far as the same shall be applied by Proclamation of the Governor-General in manner hereinafter provided.

ART. VI.

In the absence of Proclamation of the conditions under which Europeans, of whatever nationality, shall be at liberty to trade with or reside in the Sudan, or to hold property within its limits, no special privileges shall be accorded to the subjects of any one of these Powers.

ART. VII.

Import duties on entering the Sudan shall not be payable on goods coming from Egyptian territory. Such duties may, however, be levied on goods coming from elsewhere than Egyptian territory; but in the case of goods entering the Sudan at Suakin or any other port on the Red Sea Littoral, they shall not exceed the corresponding duties for the time being leviable on goods entering Egypt from abroad. Duties may be levied on goods leaving the Sudan, in such cases as may from time to time be prescribed by Proclamation.

ART. VIII.

The jurisdiction of the Mixed Tribunal shall not extend, nor be recognised for any purpose whatsoever, in any part of the Sudan, except in the town of Suakin.

ART. IX.

Well, and arms so far as it shall be otherwise determined by Proclamation, the Sudan, with the exception of the town of Suakin, shall be and remain under martial law.

ART. X.

No Consul, Vice-Consul, or Consular Agents shall be accredited in respect of any allowed to reside in the Sudan, without the previous consent of Her Britannic Majesty's Government.

ART. XI.

The importation of slaves into the Sudan, as also their exportation, is absolutely prohibited. Provision shall be made by Proclamation for the enforcement of this Regulation.

ART. XII.

It is agreed between the two Governments that special attention shall be paid to the enforcement of the Brussels Act of the 2nd of July, 1890, in respect to the import, sale, and manufacture of fire-arms and their accessories, and distilled or spirituous liquors.

Dated at Cairo, the 19th of January, 1899.

Signed: HONORABLE CONSUL—CAIRO.

**DECLARATION RELATIVE TO THE BRITISH AND FRENCH
SPHERES OF INFLUENCE IN CENTRAL AFRICA**

(Signed at London, March 21st, 1899)

The Under-signed, duly authorized by their Governments, have signed the following declaration:-

The IVth Article of the Convention of the 14th of June, 1893, shall be completed by the following provisions, which shall be considered as forming an integral part of it:

1. His Britannic Majesty's Government engages not to acquire either territory or political influence in the west of the Sea of Biscay defined in the following paragraph, and the Government of the French Republic engages not to acquire either territory or political influence to the east of the same Sea.

2. The line of boundary shall start from the point where the boundary between the Congo Free State and French territory meets the water-parting between the watershed of the Nile and that of the Congo and its affluents. It shall follow in principle the water-parting up to the latitude even with the 11th parallel of north latitude. From this point it shall be drawn as far as the 11th parallel in such manner as to separate in principle the Kingdom of Wanda from what constituted in 1892 the Province of Dakar, but it shall in no case be so drawn as to pass to the west beyond the 21st degree of longitude east of Greenwich (17° 47' east of Paris), or to the east beyond the 23rd degree of longitude east of Greenwich (20° 07' east of Paris).

3. It is understood, in principle, that to the north of the 11th parallel the French zone shall be limited to the north-east and east by a line which shall start from the point of intersection of the Tropic of Cancer with the 10th degree of longitude east of Greenwich (7° 48' east of Paris), shall run thence to the south-east until it reaches the 34th degree of longitude east of Greenwich (21° 00' east of Paris), and shall then follow the 34th degree until it meets, to the north of the 10th parallel of latitude, the boundary of Dakar as it shall eventually be fixed.

4. The two Governments engage to appoint Commissioners who shall be charged to delimit on the spot a frontier-line in accordance with the indications given in paragraph 2 of this Declaration. The results of their work shall be submitted for the approbation of their respective Governments.

It is agreed that the provisions of Article IX. of the Convention of the 14th of June, 1893, shall apply equally to the zone now claimed to the south of the 14° 37' parallel of north latitude, and to the north of the 10th parallel of north latitude between the 14° 37' north of longitude east of Greenwich (12th degree east of Paris) and the coast of the Upper Nile.

Done at London, the 21st of March, 1894.

(L.S.) SALISBURY.
(L.S.) PAUL CAMBON.

نص الاتفاقية السودان الموقعة في ١٩ يناير ١٨٩٩ وإعلان ٢١ مارس ١٨٩٩ .

الاتفاقية بين حكومة صاحبة الجلالة البريطانية وحكومة صاحب السمو الخديوي مصر فيما يخص مستقبل إفارة السودان .

* حيث أنه قد تم إعادة احتلال بعض مديريات السودان التي كانت قد تمردت على سلطة صاحب السمو الخديوي وذلك بالجهود العسكرية والمادي المشترك للحكومة صاحبة الجلالة وصاحب السمو الخديوي .

* وحيث أنه أصبح من الضروري اعتبار نظم الإدارة ومن القوانين للمديريات التي أمسك احتلالها ، مع الاعتبارات التي يجب أن ترفع المناطق للتخفيف أو تلك التي لا تزال أجزاء منها بعيدة عن الاستقرار ، ومراعاة الاحتياجات الخاصة لبعض المناطق .

* ونسبة للرغبة في الإبقاء بمطالب حكومة صاحبة الجلالة التي نالتها من الاحتلال للمشاركة في التسوية الحالية أو مستقبل علاقات العمل والتطورات لنظم الإدارة والتشريع .

* وحيث إنه من المتوقع أن تكون لأسباب إدارة كل من وادي حلفا وسواكن بفعالية بنفس طريقة إدارة للمديريات المتجهة لها .

الآن نعلن أنه قد تم الاتفاق بين الموقعين أدناه والمفوضين رسميًا لهذا الغرض على: البنود الآتية :-

المادة الأولى .

أن كلمة السودان تعني في هذه الاتفاقية كل المناطق التي تقع جنوب خط عرض ٢٢ والتي :

- (١) لم يتم إخلاء القوات المصرية عنها منذ عام ١٨٨٢ . أو
- (٢) التي كانت تحت إدارة حكومة صاحب السمو الخديوي قبل التمرد الأخير وقتلها مصر مؤقلاً وتم إعادة احتلالها بالتضامن مع حكومة صاحبة الجلالة . أو
- (٣) للمناطق التي يمكن أن تعيد احتلالها للحكومتان بالتضامن .

يستعمل العلمان البريطاني والمصري معا في كل من الأرض أو المياه في كل أنحاء السودان، ماعدا مدينة سواكن حيث يستعمل العلم المصري منفردا .

إن السلطة العسكرية والفنية العليا سوف توضع تحت سلطة ضابط واحد يعرف بـ "حاكم عام للسودان" . سوف يتم تعيينه بمرسوم ملكي بناء على توصية من حكومة صاحبة الجلالة البريطانية ، وسوف يتم تغييره بمرسوم ملكي فقط بعد موافقة حكومة صاحبة الجلالة البريطانية .

المادة السابعة

القوانين والأوامر والوائح التي تجمع بقوة القانون الكاملة ، لضمان حكومة جيدة للسودان ، ولتأمين حقوق الملكية والممتلكات ، والاستثناء عنها أو انتزاع أي ممتلكات موجودة داخل القطر ، تصدر من وقت لآخر أو يتم تعديلها أو إلغاؤها بإعلان صادر من الحاكم العام للسودان .

هذه القوانين والأوامر أو اللوائح يمكنها أن تكون سارية للمفعول لكل أنحاء السودان أو جزء منه ، ويمكنها صراحة أو حسب ما عليه الضرورة تعديل أو إلغاء أي قانون أو لوائح سارية للمفعول .

مثل هذه الإعلانات يجب أن يتم إسطارها فوراً لتفويده حكومة صاحبة الجلالة البريطانية والمقتصد العام بمصر وأيضا لرئيس مجلس الوزراء لسمو الخديوي .

المادة الثامنة

سوف لن يصدر أي قانون مصري، أو مرسوم أو أمر وزاري يجد أو ينشر أي تشريع فيما يختص بالسودان غير تلك التي يصدرها حاكم عام السودان، موكما مبين فيما سبق ذكره .

المادة السادسة

في تعريف الإعلان الذي يعطى الحق لأي كوري من أي جنسية ، حرية التجارة أو الإقامة في السودان وأن يمتلك أي ممتلكات داخل حدوده ، لن تكون هناك انفصالية أو مميزات خاصة لمواطني دولة عن الأخرى.

المادة السابعة

سوف لن تفرض رسوم استيراد على أي بضائع تدخل السودان من القطر المصري. ويمكن أن تفرض مثل تلك الرسوم على أي بضائع تدخل السودان من أقطار غير القطر المصري. في حالة فرض رسوم على بضائع منتقلة عن طريق سواكن أو أي ميناء على شواطئ البحر الأحمر يجب الاتفاق مع الرسوم المصرية للفروطة على دخول البضائع الأجنبية إلى مصر ، يمكن فرض رسوم على صادرات السودان من وقت لآخر حسب ما تنص عليه الإعلانات والأحكام .

المادة الثامنة

إن أحكام المحاكم المتعلقة سوف لن تسري أو يحذف بها أي سبب من الأسباب في أي جزء من السودان سوى مدينة سواكن . ؟

المادة التاسعة

حتى إشعار آخر أو حتى يتم الإعلان عنه سوف يظل السودان تحت الأحكام المصرية ما عدا مدينة سواكن .

المادة العاشرة

سوف لن يسمح لأي قنصل ، أو نائب قنصل ، أو مندوب قنصلي بالوجود في السودان بدون تصريح مسبق من حكومة صاحبة الجلالة البريطانية .

المادة الحادية عشرة

يمنع منعاً باتاً استيراد أو تصدير الرقيق من السودان ، سوف يصدر أمر ويتم الإعلان عنه لتنفيذ هذه التعليمات .

المادة الثانية عشرة

لقد تم الاتفاق بين الحكومتين على أن يراعى بصفة خاصة تطبيق قانون بروكسل للمورخ في الثاني من يوليو ١٨٩٠ فيما يخص استيراد وبيع أو صنع الأسلحة النارية أو ذخيرتها والحمور الكحولية بأنواعها للمطابقة .
تم في القاهرة يوم ١٩ يناير ١٨٩٩ .
الأعضاء : بطرس غالي - كزومر .

إعلان خاص بمناطق النفوذ
لبريطانيا وفرنسا في أواسط إفريقيا

(تم التوقيع عليه في لندن ٢٦ مارس ١٨٩٩)

الموقعون أدناه ويتفويض رسمي من حكوماتهم ، قد وقعوا على الإعلان التالي:-

المادة الرابعة للمعمر ١٤ يونيو ١٨٩٨ سوف تضاف إليها الولد الأتية وتكون جزءا مكمل له:-

(١) تتعهد حكومة صاحبة الجلالة البريطانية بالألا تملك مناطق لو يكون لها نفوذ سياسي
غرب الحدود التي يتم تحديدها في الفقرة التالية ، وتتعهد حكومة جمهورية فرنسا بالألا
تتلك مناطق لو نفوذ سياسي شرق نفس الخط .

(٢) يبدأ الخط الفاصل للحدود من عند النقطة التي تحدد حدود دولة الكونغو الحرة - وعند
التقاء للمنطقة الفرنسية مع غابة مغارة مياه نهر النيل ونهر الكونغو وفروحة ، وتبع من
حيث تبدأ مغارة المياه عند التناطح في خط عرض مولزي ١١ شمالا . من عند هذه
النقطة سوف يمتد حتى خط عرض ١٥ بحيث يفصل من حيث تبدأ مملكة وادي من
للنطقة التي كانت منذ عام ١٨٨٢ مملكة دارفور ، مع الأخط في الاعتبار أن ألا يرسم
هذا الخط تحت أي ظرف حتى يتعدى غرب خط طول ٢١ درجة شرق جريتشن
(٤٠-١٨ شرق باريس) أو شرقا لا يتعدى ٢٣ درجة خط طول شرق جريتشن
(٤٠-٢٠ شرق باريس) .

(٣) يكون مفهوما من حيث تبدأ أنه إلى شمال خط مولزي ١٥ للمنطقة الفرنسية سوف
تحدد إلى الشمال الشرقي والشرق بخط يبدأ من نقطة التقاء مدار السرطان مع
١٦ درجة خط طول شمال جريتشن (٤٠-١٣ شرق باريس) يستمر في جنوب شرق
حتى يلتقي مع ٢٤ درجة خط طول شرق جريتشن (٤٠-٢١ شرق باريس) ثم ينحني بحسب

طولي ٢٤ درجة حتى يلتقي مع ٢٤ درجة عند خط عرض مولزي ١٥ إلى حدود دار
لمور التي سوف تحدد لاحقا .

(٤) سوف نعين كل حكومة أعضاء لجان نزول إليهم مسئولة بتحديد وتخطيط الحدود على
الطبيعة حسب ما جاء في الفقرة الثانية من هذا الإعلان . سوف ترفع هذه اللجان نتائج
أعمالها كل حكومة لإقرارها والمراقبة عليها .

لقد تم الاتفاق على أن يتود للجنة الخامسة ليوتمر ١٤ يونيو ١٨٩٨ سوف تنطبق على
كل المناطق التي تقع جنوب النقطة ٢٠-١٤ درجة خط عرض مولزي شمال وإلى شمال خط
عرض ٥ شمال بين درجة ٢٠-١٤ للوديان الطولي شرق جريتش (١٢ درجة شرق باريس)
وبحري أهالي النيل .

تم في لندن في ٢٦ مارس ١٨٩٩ .

سلورده سالزبوري .

بول كامبون .



مطور عن المترجم

عز الدين محمود محمد

- ولد عام ١٩٣١ بمدينة القضايف ، مديرية كسلا ، شرق السودان
- تلقى دروس مبدئي القرآن في خلوة جده الشريف أحمد محمد نور زروق ، كاتب القضايف ، للكتبة القبطية بورتسودان ، ولم دربان الصناعة .
- اجتاز امتحان الخدمة المدنية لكنه رفض الوظيفة الحكومية .
- اجتاز امتحان شهادة كسفورد في التاريخ ، الاقتصاد ، و اللغة العربية .
- تلقى دراسات إضافية : -
- اقتصاد ، قانون تجاري ، إدارة أعمال بالمعهد الفني .
- مبادئ الاقتصاد ، و الاقتصاد الزراعي ، جامعة الخرطوم .
- التحق بشركة أي سي أي البريطانية ، قسم الزراعي .
- أرسل إلى إنجلترا بالملكة المتحدة لدراسة كورس في " الإدارة بالأهداف " .
- ترقى لمنصب مدير قسم الزراعي ، المبيدات و الأدوية البيطرية .
- بعد تأميم الشركة ، التحق بشركة السيكول للكمبيوتر الأمريكية .
- بدأ مديرا للسودان و شرق إفريقيا ، ثم ترقى لمدير دائرة إفريقيا ، ونقل إلى اليونان .
- آخر وظيفة له ، مدير إقليمي لأفريقيا ، الشرق الأوسط ، و شبه القارة الهندية
- وصل لندن للمعامل عام ١٩٩٤ م .
- بدأ اهتمامه بالأدب من سن مبكرة .
- عضو الندوة الأدبية بألم دربان .
- له مقالات بطون " محاولات في النقد الفني " نشرت بمجلة الإنعاص و الشيفرون بالسودان .
- كتب أدب رحلات " خمسون يوما في ربيع أوروبا " نشرت في جريدة الثورة .
- كتب " برنامج ترشيد المنتج " .
- دراسة للثقافة البيئي من صحة و سلامة الإنسان و البيئة تحت النشر .
- متزوج من مصرية ، وأب لثلاثة ، ولد وبنان .

حرب النهر الفهرس

• ٥	• مقدمة
٧	• الإهداء
٩	• تقديم - كلمة لا بد منها
١٣	• المؤلف: ونستون تشرشل
١٥	• المقدمة بقلم سير جون كولفيل
٢١	(١) ثورة المهدي
٤٥	(٢) مصير المبعوث
٦٩	(٣) إمبراطورية الدراويش
٨٣	(٤) سنوات التحضير
٩٥	(٥) بداية الحرب
١١٣	(٦) حركة ٧ يونيو ١٨٩٦

١٢١	٧) استعادة مديرية دنقلا
١٤١	٨) مكة حديد الصحراء
١٦١	٩) أبو حمدا
١٧٧	١٠) بربر
١٩١	١١) الاستطلاع
٢٠٣	١٢) معارك نهر عطبرة - ٨ أبريل ١٨٩٨
٢١٧	١٣) الزحف الكبير
٢٢٩	١٤) معارك أول سبتمبر
٢٤١	١٥) معركة أم درمان ٢ سبتمبر ١٨٩٨
٢٦٩	١٦) سقوط مدينة
٢٨١	١٧) حادثة فاشودة
٢٩٥	١٨) على النيل الأزرق
٣١٣	١٩) نهاية الخليفة
	• الملاحق: نص اتفاقية السودان ١٩ يناير ١٨٩٩ وإعلان ٢١
٣٣٥	مارس ١٨٩٩
٣٤١	• سطور عن المترجم

صدر في هذه السلسلة

- ١- مصطفى كامل في محكمة التاريخ،
د. عبد العظيم رمضان، ط١، ١٩٨٧، ط٢، ١٩٩٤.
- ٢- علي ماهر،
رشوان محمد جاب الله، ١٩٨٧.
- ٣- ثورة يوليو والطبقة الحاكمة،
عبد السلام عبد الحليم حارس، ١٩٨٧.
- ٤- التيارات الفكرية في مصر المعاصرة،
د. محمد نسيان جائل، ١٩٨٧.
- ٥- شارلات أوروبا على الشواطيء المصرية
في العصور الوسطى،
د. حايه عبد السميع الجوزوي، ١٩٨٧.
- ٦- هؤلاء الرجال من مصر جدا،
إسماعيل السبسي، ١٩٨٧.
- ٧- صلاح الدين الأيوبي،
د. عبد النعم ملوح، ١٩٨٧.
- ٨- رؤية للوهرية لأزمة الحياة الفكرية،
د. علي بركات، ١٩٨٧.
- ٩- مسلمات نظرية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل،
د. محمد أنيس، ١٩٨٧.
- ١٠- لتوفيق نجايا منصة الصحافة الحزبية،
محمد فوزي، ١٩٨٧.
- ١١- مائة شخصية مصرية وشخصية،
شكري القاضى، ١٩٨٧.
- ١٢- دهر شمراوى ودهر الكتوبر،
د. نبيل راضى، ١٩٨٨.
- ١٣- لنظوية الاستعمار المصري السودان: رؤية
تاريخية،
د. جيجي طعيم رمضان، ط١، ١٩٨٨، ط٢، ١٩٩٤.
- ١٤- مصر في عصر الولاة، من الفتح العربي
إلى قيام الدولة الطولونية،
د. سيدة إسماعيل كلف، ١٩٨٨.
- ١٥- المستشرقون والتاريخ الإسلامى،
د. على حسي كلف، ط١، ١٩٨٨.
- ١٦- فصول من تاريخ حركة الإصلاح
الاجتماعى في مصر: دراسة عن دور
الجمعية الفكرية (١٨٩٢-١٩٥٢)،
د. على أحمد على، ١٩٨٨.
- ١٧- القضاء الشرعى في مصر في العصر
العثمانى،
د. محمد نور فحات، ١٩٨٨.
- ١٨- الجورى في مجمع القاهرة المملوكية،
د. على السيد محمد، ١٩٨٨.
- ١٩- مصر الفتية وقصة توحيد القطرين،
د. أحمد محمد جابون، ١٩٨٨.
- ٢٠- دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩:
الدراسات المصرية بين سعد زغلول
ومحمد توفيق فهمى،
د. محمد أنيس، ط١، ١٩٨٨، ط٢، ١٩٨٨.
- ٢١- التصوف في مصر إبان العصر العثماني،
ج١،
د. توفيق الطويل، ١٩٨٨.

٢٢ - نظرات في تاريخ مصر،

جمال بدوي، ١٩٨٨

٢٣ - التصوف في مصر إبان العصر العثماني

ج ٢، إمام التصوف في مصر: الشقراني،

د. توفيق المولى، ١٩٨٨.

٢٤ - الصحافة الوطنية والقضايا الوطنية

(١٩٢٦-١٩٤٩)؛

د. نجوى كامل، ١٩٨٩.

٢٥ - المجتمع الإسلامي والغرب،

تأليف: هاديون جب وفريد برون،

ترجمة: د. أحمد عبد الحليم مصطفى،

١٩٨٩.

٢٦ - تاريخ الفكر القومي في مصر الحديثة،

د. محمد إسماعيل علي، ١٩٨٩.

٢٧ - فتح العرب لمصر ج ١،

تأليف: ألفريد ج. باش، ترجمة: محمد فريد

أبر حديد، ١٩٨٩.

٢٨ - فتح العرب لمصر ج ٢،

تأليف: ألفريد ج. باش، ترجمة: محمد فريد

أبر حديد، ١٩٨٩.

٢٩ - مصر في عهد الإخشيديين،

د. سيدة إسماعيل كافيت، ١٩٨٩.

٣٠ - الموقوفون في مصر في عهد محمد علي،

د. علي أحمد شلي، ١٩٨٠.

٣١ - حصون شغبية مصرية وشعبية،

شكري القناني، ١٩٨٩.

٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٢،

لمى السليبي، ١٩٨٩.

٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقي: نظرة على

الأوضاع الراهنة وروية مستقبلية،

د. خالد مصد الكرمي، ١٩٨٩.

٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المصرية، منذ

مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢،

د. يرفان زكي، مصدرين، ١٩٩٠.

٣٥ - أعلام الموسيقى المصرية هير ١٩٠٠ سنة،

حيدلحم توفيق زكي، ١٩٩٠.

٣٦ - المجتمع الإسلامي والغرب ج ٢،

تأليف: هاديون برون، ترجمة: د. أحمد

حيدلحم مصطفى، ١٩٩٠.

٣٧ - الشيوخ على رؤوف وجريدة المؤيد: تاريخ

الحركة الوطنية في ربيع ثرين،

تأليف: د. سليمان صالح، ١٩٩٠.

٣٨ - قصود من تاريخ مصر الاقتصادية

والاجتماعي في العصر العثماني؛

د. حيدلحم مصطفى، حيدلحم، ١٩٩٠.

٣٩ - قصة لعتلال محمد علي لليونان

(١٨٢٤-١٨٢٧)،

د. جميل حيد، ١٩٩٠.

٤٠ - الأسلحة للقادة وديها في حرب فلسطين

١٩٤٨،

د. حيدلحم الدسوقي لخميس، ١٩٩٠.

٤١ - محمد فريد: الموقد والامانة، رؤية

مصرية،

د. رفعت السيد، ١٩٩١.

٤٢ - تكوين مصر عبر العصور،

محمد طيفق خريال، ج ٢، ١٩٩٠.

٤٣ - رحلة في عقل مصرية،

إبراهيم عبد المزي، ١٩٩٠.

٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر، في

العصر العثماني،

د. محمد حيد، ١٩٩١.

٤٥ - للحروب الصليبية ج ١،

تأليف: وليم مصوري، ترجمة وتحرير: د. حسن

حيد، ١٩٩١.

٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية

(١٩٣٩: ١٩٥٧)،

ترجمة: د. عبد الرؤوف أحمد عمرو،

١٩٩١.

- ٤٧- تاريخ القضاء المصري الحديث،
د. لطيفة محمد سالم، ١٩٩١.
 - ٤٨- الفلاح المصري بين العصر القبطي
والعصر الإسلامي،
د. زينة عطا، ١٩٩١.
 - ٤٩- المملكات المصرية الإسرائيلية
(١٩٤٨-١٩٧٤)،
د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.
 - ٥٠- الصحافة المصرية والكشافة القبطية
(١٩٤٦-١٩٥٤)،
د. سيد إسكندر، ١٩٩٢.
 - ٥١- تاريخ المدارس في مصر الإسلامية،
(أبحاث الندوة التي أقيمتها لجنة التاريخ والأثر
بالمجلس الأعلى للثقافة، في أبريل ١٩٩١)،
أحمد النور، د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.
 - ٥٢- مصر في كتابات الرحالة والتكامل
الفراسيين في القرن الثامن عشر،
د. إلهام محمد علي، ١٩٩٢.
 - ٥٣- أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة
العثمانيين الهكاسة،
د. محمد كمال الدين عز الدين علي، ١٩٩٢.
 - ٥٤- الأقباط في مصر في العصر العثماني،
د. محمد علي، ١٩٩٢.
 - ٥٥- الحروب الصليبية جزء،
تأليف: إيوام المصري ترجمة وتلويح: د. د.
حسن حبيبي، ١٩٩٢.
 - ٥٦- المجتمع القبطي في عصر محمد علي،
دراسة عن إقليم المنوفية،
د. حلمي أحمد شفي، ١٩٩٢.
 - ٥٧- مصر الإسلامية وأهل القلعة،
د. سيد إسحاق كاشف، ١٩٩٢.
 - ٥٨- أحمد حلمي سجين للحرية والصحافة،
د. إبراهيم حيدقة السلي، ١٩٩٢.
 - ٥٩- الرأسمالية المنصهرية في مصر، من
- ١- التعمير إلى التأميم (١٩٥٧-١٩٦١)،
د. عبد السلام حيدقلم علي، ١٩٩٢.
 - ٦٠- المنصورون من رؤساء الموسيقى العربية،
د. السيد توفيق زكي، ١٩٩٢.
 - ٦١- تاريخ الاستكشافية في العصر الحديث،
د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.
 - ٦٢- هؤلاء الرجال من مصر جزء،
أبي السلي، ١٩٩٢.
 - ٦٣- موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ
مصر الإسلامية،
تأليف: د. سيد إسحاق كاشف، جمال الدين
سور، وسيد حيدقلم علي، أحمد النور
د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.
 - ٦٤- مصر وحقوق الإنسان، بين الحقيقة
والافتراء: دراسة وثائقية،
د. محمد نسان جيل، ١٩٩٢.
 - ٦٥- مؤلف الصحافة المصرية من الصهيونية
(١٩١٧-١٩٩٧)،
د. سهام فاضل، ١٩٩٢.
 - ٦٦- المرأة في مصر في العصر القاطمي،
د. فريمان حيدقلم أحمد، ١٩٩٢.
 - ٦٧- صحابي السلام العربية الإسرائيلية:
الأصول التاريخية،
(أبحاث الندوة التي أقيمتها لجنة التاريخ والأثر
بالمجلس الأعلى للثقافة، بالإشتراك مع قسم
التاريخ بكلية التربية جامعة عين شمس، في
أبريل ١٩٩٢)، أحمد كاشور، د. عبد العظيم
رمضان، ١٩٩٢.
 - ٦٨- الحروب الصليبية جزء،
تأليف: إيوام مصري
ترجمة وتحقيق: د. حسن حبيبي، ١٩٩٢.
 - ٦٩- ثورة موسى وبورها في الحياة المصرية
(١٨٨٦-١٩٥١)،
د. محمد أبو الإسحاق، ١٩٩٤.

٧٠. أهل الأمة في الإسلام .
تأليف: د. س. قزوين

٧١. مذكرات الثورة الكبرى (١٩٣٤-١٩٤٦) ،
إعداد: فرير ليلان، ترجمة: د. حيد الزويك،
أحمد حمود، ١٩٩٤ .

٧٢. رؤية الرحلة لثلاثين لأحوال المثلية والاقتصادية
في العصر الفاطمي (١٠٦٧-١٠٩٨) .
د. أمينة أحمد إمام، ١٩٩٤ .

٧٣. تاريخ جامعة القاهرة،
د. زويك عباس حامد، ١٩٩٤ .

٧٤. تاريخ الطب والصيدلة المصرية، د. ا. في
العصر الفرعوني،
د. سمير يحيى الجمال، ١٩٩٤ .

٧٥. أهل الأمة في مصر، في العصر الفاطمي
الأول،
د. سلام فائق مسمون، ١٩٩٥ .

٧٦. دور التعليم المصري في الفضائل القومية
(من الاحتلال البريطاني)،
د. سعد إسماعيل حلي، ١٩٩٥ .

٧٧. العرب المسيحية، د.
تأليف: وايم المصري، الترجمة وتعليق: د.
حسن حلي، ١٩٩٤ .

٧٨. تاريخ الصحافة المكتوبة (١٨٧٣-١٨٩٩)،
نصائح أحمد صفان، ١٩٩٥ .

٧٩. تاريخ الطرق الصوفية في مصر، في
القرن التاسع عشر،
تأليف: أ. لريد دي بونج، ترجمة: أحمد العميد،
إمسي جمال، ١٩٩٥ .

٨٠. قناة السويس والكتابات الاستعمارية
الفرنسية (١٨٨٢-١٩١٤)،
د. السيد حسن جلال، ١٩٩٥ .

٨١. تاريخ السياسة والصحافة المصرية من
هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر،
د. رمزي ميخائيل، ١٩٩٥ .

٨٢. مصر في فجر الإسلام، من الفتح العربي
إلى قيام الدولة الطولونية،
د. مينة إسماعيل ككتنب، ٢٠١٤، ١٩٩٤ .

٨٣. مذكراتي في نصف قرن، د.
أحمد تقي، ٢٠١٤، ١٩٩٤ .

٨٤. مذكراتي في نصف قرن، د. الخمس
الأول،
أحمد تقي، ٢٠١٤، ١٩٩٥ .

٨٥. تاريخ الإذاعة المصرية: دراسة تاريخية
(١٩٢٤-١٩٥٢)،
د. حلي أحمد حلي، ١٩٩٥ .

٨٦. تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية
الاقتصادية (١٩٤٥ - ١٩١٤)،
د. أحمد القريب، ١٩٩٥ .

٨٧. مذكرات الثورة الكبرى، د. ٢، (١٩٣٤ -
١٩٤٦)،
إعداد: فرير ليلان، ترجمة وتعليق: د.
جيدان زيد أحمد حمود، ١٩٩٥ .

٨٨. الحقوق الموسيقية وتاريخ الموسيقى
المصرية،
عبدالمجيد ترواني زكي، ١٩٩٥ .

٨٩. تاريخ السواند المصرية في العصر
العثماني،
د. عبدالمجيد حامد سليمان، ١٩٩٥ .

٩٠. محاسبة غير المسلمين في الدولة
الإسلامية،
د. نوريان عبدالكريم أحمد، ١٩٩٦ .

٩١. تاريخ مصر الحديثة والتاريخ الأوسط،
تأليف: بيرومانيك، ترجمة: عبدالمجيد لمي،
الجمال، ١٩٩٦ .

٩٢. الصحافة الوطنية والقضايا الوطنية
(١٩١٩ - ١٩٣٦)،
د. ٢، د. نوري كامل، ١٩٩٦ .

- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٤ - ١٩٥٨)،
د. نبيه بيومي صقلته، ١٩٩٦.
- ٩٤ - الصحافة المصرية والإقضية الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤)،
د. سهيل يسكن، ١٩٩٦.
- ٩٥ - مصر وأفريقيا الجذور التاريخية للتشكلات الأفريقية المعاصرة (أعمال لندرة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالافتتاح مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة)،
إعداد أ. د. عبد العظيم رمضان
- ٩٦ - عهد الناصر والحرب المصرية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠)،
تأليف: مالكوم كير، ترجمة د. عبد القوي أحمد صبر.
- ٩٧ - العربان وديهم في المجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر،
د. إيمان محمد عبد القم صابر.
- ٩٨ - فوكال والعبادة الأسبوعية،
د. محمد سيد محمد.
- ٩٩ - تاريخ الطب والصحة المصرية (العصر اليوناني - الروماني) ج ٢،
د. سحر يحيى جمال
- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عهد الفراعنة،
تأليف: مصطفى القسطنطين،
أ. د. عبد العزيز صالح، أ. د. جمال مختار،
أ. د. محمد إبراهيم بكر، أ. د. إبراهيم نصحي،
أ. د. ساروق القاضي، أعضاء اللجنة، أ. د. عبد العظيم رمضان
- ١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الثانية،
لتراد/ مصطفى عبد الجيد لصدر، لتراد/
عبد الجيد كفاي،
لتراد/ سعد عبد الحميد، لخير/ جمال منصور

- ١٠٢ - المنظم جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٧
د. نجيب خير حجة
- ١٠٣ - رؤية الجبرين في عصر قضايا عصره
د. علي بركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢)
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد
- ١٠٥ - السلطة العمالية في مصر وأخصية الديمقراطية ١٨٥٥ - ١٩٨٧ .
د. أحمد فارس عبد السلام
- ١٠٦ - التوسيع على يوسف وهريدي (تاريخ الحركة القبطية في ربح قرن)،
د. مهران صالح
- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية.
تأليف: نقيب خيرو، ترجمة: عبد الحميد فهمي الجمال.
- ١٠٨ - مصر للمصريين ج ٤،
طبع لفتاح
- ١٠٩ - مصر للمصريين ج ٥،
طبع لفتاح
- ١١٠ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) ج ١،
د. الهادي إسحاق القريني.
- ١١١ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) ج ٢،
د. الهادي إسحاق القريني.
- ١١٢ - إسحاق باشا عدي
د. محمد محمد الجبري.
- ١١٣ - للزبير باشا وعصر في السودان (في عصر الحكم المصري)
د. عز الدين إسحاق.
- ١١٤ - دراسات في تاريخ عصر الاجتماع
تأليف: أحمد رشدي صالح

- ١١٥ - مذكراتي في نصف قرن -
أحمد شفيق باشا.
- ١١٦ - أديب اسحق (عشيق الحرية)
علام الدين وحيد
- ١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية
(١٥١٧ - ١٧٩٨)
- عبد القزافي إبراهيم عيسى
- ١١٨ - النظم المالية في مصر ولقائم
د. الليثي سليمان الشريفي
- ١١٩ - القابات في مصر الرومانية
حسين محمد أحمد يوسف
- ١٢٠ - بزميات من تاريخ المصري الحديث
لويس جرجس
- ١٢١ - اجلاء ورحمة وادي النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوي
- ١٢٢ - مصر للمصريين جزء ١
سليم خليل النشائي
- ١٢٣ - (السيد أحمد التودوي
د. سعيد عبد الفتاح هاشم
- ١٢٤ - العلاقات المصرية الهكستانية في
نصف قرن
د. محمد زيمان جلال
- ١٢٥ - مصر للمصريين جزء ٢
سليم خليل النشائي
- ١٢٦ - مصر للمصريين جزء ٨
سليم خليل النشائي
- ١٢٧ - ملهات الوحدة المصرية السورية (١٩٥٣ - ١٩٥٨)
إبراهيم محمد محمد إبراهيم .
- ١٢٨ - محارك صحفية
بثلم / جمال بدوي.
- ١٢٩ - الدين العام (واقعه في تطور الدين المصري)
(١٨٧٦ - ١٩٤٣).
- د. يحيى محمد محمود

- ١٣٠ - تاريخ القبايات العثمانية في مصر
(١٩٨٧ - ١٩٩٧)
سيد فريد.
- ١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ م.
ترجمة / د. عتار يوسف أحمد حسن.
- ١٣٢ - دار القويب الثاني في مصر ج ١
د. ماجدة محمد حمود.
- ١٣٣ - دار القويب الثاني في مصر ج ٢
د. ماجدة محمد حمود.
- ١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط
عثمانى للدارنى.
- بثلم / عزت حسن أندي الدارنى
- ترجمة / جمال سعيد عبد القنى.
- ١٣٥ - اليهود في مصر الحفركية
(في ضوء وثائق الجيزة)
- (١٤٨ - ١٩٢٢ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) د. مسلمين
محمد فريد
- ١٣٦ - لوريل يوسف صديق
القديم / أ. د. عبد المظفر رمضان
- ١٣٧ - ليل العرايل في مصر في العصر المملوكي
د. محمد عبد القنى الأفر
- ١٣٨ - الإحصاء الماسون وجلسو العطر الديني
والإزهاب في مصر
السيد يوسف
- ١٣٩ - موسوعة الفناء المصري في القرن العشرين
بثلم محمد خليل
- ١٤٠ - مهة مصر في البحر الأحمر في النصف الأول
من القرن التاسع عشر ١٢٣٦ - ١٢٦٥ هـ
١٨١١ - ١٨٤٨ م.
- حظي عبد الحفيظ عليم يورسي
- ١٤١ - ومائل القويب في عصر سلاطين المماليك
الحفي أحمد فخر
- ١٤٢ - مذكراتي في نصف قرن ج ٣
أحمد شفيق باشا ١٩٩٠، ١٩٩٦ .

١٤٢ - ديرومالية الجبلية في القرن الثاني عشر في - م
 د. منيرة محمد المهندي
 ١٤٤ - كشوف مصر التاريخية في عهد الخديوي
 اسماعيل
 د. عبدالعليم خلافة
 ١٤٥ - النظام الإداري والاقتصادي في مصر في عهد
 الملكة نوبل (٢٨٤ - ٢٩٥)
 د. منيرة محمد المهندي
 ١٤٦ - المرأة في مصر المملوكية
 د. أحمد حيدر الرزقي
 ١٤٧ - حسن البنا في... كيف... وال...
 د. ريتا السعيد
 ١٤٨ - القديس صرغيس وأسس كنيسة
 الاسكندرية
 تأليف / د. سمير فوزي
 ترجمة / نديم مجلي
 ١٤٩ - العلاقات المصرية الحجازية
 في القرن الثامن عشر
 د. محمد عبد الصمد
 ١٥٠ - تاريخ الموسيقى المصرية (أسواقها وتطورها)
 د. سمير يحيى الجمال
 ١٥١ - جمال الدين الأفطاني والثورة الشاملة
 السيد يوسف
 ١٥٢ - الطبقات الخمسة في الثقافة المملوكية
 (١٤٨ - ١٢٢ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
 د. محسن محمد الزيات
 ١٥٣ - الحروب العربية (المقدمات السياسية)
 د. عناية عبد المسيح الجندوي
 ١٥٤ - مجسمات الزعم المصرية على سقوف مصر
 الإسلامية في العصر المملوكي
 د. عناية عبد المسيح الجندوي
 ١٥٥ - عصر محمد علي، وجهة مصر في القرن التاسع
 عشر
 (١٨٠٥ - ١٨٨٢ م)
 د. عبد الحميد البهري

١٥٦ - تاريخ الطب والصناعة المصرية
 الجزء الثالث
 في العصر الإسلامي
 د. سمير يحيى الجمال
 ١٥٧ - تاريخ الطب والصناعة المصرية
 الجزء الرابع
 في العصر الإسلامي والحديث
 د. سمير يحيى الجمال
 ١٥٨ - الطب السلطاني المملوكي في مصر
 (١٢٤٨ - ١٢٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
 د. محمد عبد الفتاح الأندلسي
 ١٥٩ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢)
 الجزء الأول
 د. محمد فريد حشيش
 ١٦٠ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢)
 الجزء الثاني
 د. محمد فريد حشيش
 ١٦١ - السيد وفار في السودان
 تأليف / حناطين دافا
 ١٦٢ - السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ - ١٩٥٢)
 د. همام همام
 ١٦٣ - مصر والحركة الفرنسية
 المنطوق / محمد سيد الشماوي
 ١٦٤ - الحفود المصرية السودانية عبر التاريخ
 (أعمال ندوة لجنة لتاريخ والآثار بالجلسة الأولى
 للثقافة) بالافتتاح مع محمد البعير والندوات
 الأكاديمية بجامعة القاهرة ٢٠٠٠ - ٢٠٠١
 ١٦٥ - ريتا / د. منيرة محمد المهندي
 ١٦٥ - التعليم والتأثير الاجتماعي في مصر
 (في القرن التاسع عشر)
 د. سليمان محمد النجم
 ١٦٦ - مذكرة محمد علي سياسي (مصلحة من تاريخ

مصر)

السيد يوسف

١٦٧- الحركة العلمية والأدبية في المستطاع منذ الفتح
العربي إلى نهاية الدولة الأيوبية

د. صفى على محمد عبدالله

١٦٨- مؤرخون مصريون من عصر الفسطاط

يسرى عبد الفتاح .

١٦٩- مدن مصر الصناعية في العصر الإسلامي إلى
نهاية عصر الناطقين (٢١١- ٦٧٧ هـ / ١٢٨٢ - ١٢٨٢ م)

(١١٧١ م)

د. صفى على محمد عبد الله

١٧٠- القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك
(١٦٨- ١٩٣٣ هـ / ١٢٥١- ١٥١٧ م)

محمد عبد الرزاق بحر

١٧١- تاريخ الجالية الأرمنية في مصر

القرن التاسع عشر

تأليف / محمد رامت

١٧٢- تاريخ أهل الامة في مصر الإسلامية
(من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي)

لنجزه لأول

تأليف / فاطمة مصطفى حنر

١٧٣- تاريخ أهل الامة في مصر الإسلامية
(من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي)

لنجزه الثاني

تأليف / فاطمة مصطفى حنر

١٧٤- مصر زليخا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع
ق.م

د. أحمد عبد الحليم حجاز

١٧٥- محمد توفيق نسيم ياما وعورة في الحياة
السياسية

عادل إبراهيم الطويل

١٧٦- الملاحة النيلية في مصر العثمانية

١٥١٧- ١٧٦٨ م

د. عبدالمعتمد حامد مازمان

١٧٧- سياسة مصر العسكرية

ازداد حروب الشرق الأوسط

لواء الدكتور / صلاح سالم

١٧٨- العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام ١١

في القرنين الثامن عشر

د. محمد على حنر

١٧٩- دور الخلية التجارية في تاريخ مصر

(١٥٦٤- ١٦٠٩ م)

د. حنر محمد السيد السيد

١٨٠- الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة
السويس

بقلم / د. عبدالمنعم رمضان

١٨١- الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وصلاح
جدا)

ترجمة وتحقيق / أ. د. حسن حنر

١٨٢- الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وصلاح
جدا)

ترجمة وتحقيق / أ. د. حسن حنر

١٨٣- شاهد على العصر

مكتوبات محمد توفيق حنر

١٨٤- المؤرخة في القرن الثامن عشر

وليسر عبد المنعم حنر

١٨٥- تاريخ الدولة الفاطمية تحت الحكم المصري

١٨٦٠- ١٨٨٥ م

د. أحمد أحمد محمد

١٨٦- العلاقات التجارية في مصر المملوكية بين الإسلام
والمسيحية

والمسيحية

د. أحمد محمد حنر

١٨٧ - نهاية حلب في عصر

سلاطين المماليك (١٢٥٠)

١٥١٧م / ٦٤٨ - ٩٢٣

٥- ج١

د. عادل عبدالحافظ حمزة

١٨٨ - نهاية حلب في عصر سلاطين

المماليك (١٢٥٠ -

١٥١٧م / ٦٤٨ - ٩٢٣هـ)

٢- ج٢

د. عادل عبدالحافظ حمزة

١٨٩ - يهود مصر منذ عصر

الفراتنة حتى عام ٢٠٠٠م

هرة عبده على

١٩٠ - العلاقات السياسية بين

مصر والعراق (١٩٥١ -

١٩٦٣م)

د. عبدالمعتمد عبدالحلeel أحمد

شفيق

١٩١ - اليهود في مصر العثمانية

حتى أوائل القرن التاسع

عشر ج١

د. محسن على شومان

١٩٢ - اليهود في مصر العثمانية

حتى أوائل القرن التاسع

عشر ج٢

د. محسن على شومان

١٩٣ - الامام محمد عبده بين

الملهج الديني والاجتماعي

د. عبدالله شحاته

١٩٤ - تاريخ الآلات الموسيقية

للشعبية المصرية

د. هاني الصندلوي

١٩٥ - مجتمع أفريقيا في عصر

الولاة

د. ترميز عبدالكريم أحمد

١٩٦ - تاريخ تطور الفري في

مصر (١٨٨٢ - ١٩١٤م)

عبدالمعتمد محمد سعدي

١٩٧ - القدس الخالدة

د. عبدالمعتمد زايد

١٩٨ - العلاقات السياسية بين

الدولة الأيوبيه وسلاطنة

والامبراطورية الرومانية

المقدونية زمن الصروب

الصلوبية

د. عادل عبدالحافظ حمزة

١٩٩ - المعبد في الدولة الحديثة

في مصر الفرعونية

(تفصيله الإداري ودوره

السياسي)

د. بهاء الدين إبراهيم محمد

٢٠٠ - تاريخ موانئ مصر الشمالية عبر

العصر (أعمال المنارة الترميز)

أقسامها لجنة التاريخ

والآثار بالمجلس الأعلى

للثقافة والاشتراك مع كلية

الآداب جامعة الإسكندرية

في يومي ٢٢، ٢٣ أبريل

١٩٩٨م -

اعداد/ د. عبدالمعتمد رمضان

- ٢١٠ - قبرص والحروب الصليبية
د. سيد عبدالفتاح عاشور
- ٢١١ - اماره الارها الصليبية
د. علوة عبدالصميع الجوزى
- ٢١٢ - العامة فى مصر فى
العصر الأيوبي ٥٦٢ -
١٦٤٨ هـ / ١١٧١ - ١٢٥٠ م
تقى إبراهيم الجعيدى
- ٢١٣ - الأزمات الاقتصادية فى
مصر فى العصر المملوكى
وأثرها السياسى
والاقتصادى والاجتماعى
١٦٤٨ هـ / ١٩٢٣ م / ١٢٥١ -
١٥١٧ م
عثمان على محمد عطا
- ٢١٤ - الثغور البحرية الإسلامية على
حدود الدولة البيزنطية فى
العصور الوسطى
د. علوة عبدالصميع الجوزى
- ٢١٥ - الفتح الإسلامى لمدينة كابول
(١٨٣١ هـ / ١٩١١ م)
د. إسماعيل عبدالحميد ربحان
- ٢١٦ - التأسيسية الأجنبية فى مصر
الجزء الأول
(١٩٣٧ - ١٩٥٧)
د. فرخى بن حريدى
- ٢١٧ - العيب فى الذات الملكية
(١٨٨٢ - ١٩٥٢)
د. سيد عثمانوى
- ٢٠١ - إمارة الحج فى مصر
المثمانية (٩٢٣ - ١٢١٣ هـ
/ ١٥١٧ - ١٧٩٨ م)
سميرة فهمى على حصر
- ٢٠٢ - المتدبرون % ساميون فى
مصر
د. منجدة محمد حمرد
- ٢٠٣ - الصراع الدولى على عدن
والدور المصرى
فخوى إبراهيم طالع
- ٢٠٤ - العلاقات الاقتصادية بين
مصر وبريطانيا (١٩٣٥ -
١٩٤٥ م)
مرثى صبرى على
- ٢٠٥ - تاريخ القرية وأعمالها
فى العصر الإسلامى (٢١ -
١٥٩٧ هـ / ١٦٢ - ١١٧٩ م)
السيد محمد أحمد عطا
- ٢٠٦ - مصر للمصريين ج١
سليم خليل الفتاح
- ٢٠٧ - القاهرة بين
د. سيد عبدالفتاح عاشور
- ٢٠٨ - الدور المصرى والعربى
فى حرب تحرير الكويت
ج١
لواء د. كمال أحمد طبر
- ٢٠٩ - الدور المصرى والعربى
فى حرب تحرير الكويت
ج٢
لواء د. كمال أحمد طبر

٢٠٨ . إقليم الشريعة من عصر

الأيوبي والمماليك

د. السيد محمد أحمد عطا

٢١٩ . ثورة ١٩١٩ قسى ضرر

مذكرات سعد زغلول

د عبدالمطعم رمضان

٢٢٠ . التفتلهات السياسية لثورة

بولس

(١٩٥٢ - ١٩٦١)

حمادة صبي أحمد محمد

٢٢١ . حرب النهر

تأليف: رستون نثرشل

ترجمة: مراد بن محمود

مطابع الهيئة المسوية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٩٤٤ / ٢٠٠٢

I . S . B . N 977 - 01 - 7767 - 9

يتناول هذا الكتاب «حرب النهر» ويؤرخ لأحداث الثورة المهدية، وانتصاراتها وهزائنها، في تسعة عشر فصلاً فيتناول ثورة المهدي، ومعارك نهر عطبرة، ومعركة أم درمان، وحادثة فاشوده، واتفاقية الحكم الثنائي للسودان.

والكتاب على هذا النحو يقدم رؤية السياسى الشهير ونستون تشرشل لتلك الفترة الصاخبة فى حياة وادى النيل، وهى رؤية مطلوبة لفهم سياسة بريطانيا.

